المسلمون والأقباط فى التاريخ

فكرى اندراوس



الطبعة الثالثة

مع تقديم من المستشار محمود الخضيري

دار الثقافة الجديدة

المسلمون والأقباط
فى التاريخ

فكرى اندراوس

الطبعة الثالثة
٢٠١١

دار الثقافة الجديدة

اسم الكتاب: **المسلمون والأقباط في التاريخ**
تأليف : **فكري اندراوس**

الطبعة الأولى، مارس ٢٠١٠

الطبعة الثانية، أكتوبر ٢٠١٠

الطبعة الثالثة، يونيـه ٢٠١١

الناشر : **دار الثقافة الجديدة**
(شركة ذات مسئولية محدودة)
٣٢ ش صبري أبو علم – باب اللوق - القاهرة
مصر - ت وفاكس: ٢٣٩٢٢٨٨٠
Email: elguindimohamed@hotmail.com

تصميم الغلاف: **اليسون اور - اندراوس**
كاثرين اور
الولايات المتحدة

شكر وتقدير

إلى مَن سجّلوا الأحداث أو كَتَبوا التاريخ، سيّان الضارب في القدم أو التاريخ المعاصر شكراً لكُم فبدونكم لم يكن هذا الكتاب ممكناً.

صنع الله إبراهيم ومحمود الشاذلي أوليا مشروع هذا الكتاب التشجيع واهتما بنشره. نصر حامد أبو زيد، رشدي سعيد، جودت جبره، ساندرا صبري، جَمال عُمر، وبولص أمــين قرؤوا هَذا المَخطُوط أو جزءاً منهُ أثناء كتابته وكَانَت لهُم تَعليقاتٌ مفيدة. شكراً لكم.

الأديب والشاعر حمزة قناوي راجَع هَذا الكتاب لغوياً بصَبر ودقة وأصلح أخطائي الكثيرة في اللغة العربية.

أخصائيو مكتبة Hartford Seminary وكذلك مكتبة جامعة Yale كان لهم الفضل في استخدامي لبعض المراجع القديمة التي ذُكرت في هذا الكتاب.

أشكر أسرة " دار الثقافة الجديدة " لتبني هذا الكتاب والاهتمام بإصداره على هذة الصورة. لقد وجدت منهم التعاون التام والسرعة في التنفيذ والاصدار.

هيلين كيلير الكاتبة الأمريكية المولودة سنة ١٨٨٠ كانت عمياء وخرساء ولكنها أصبحت كاتبة ومعلمة وسافرت إلى بلاد كثيرة من العالم وكرّسَت حياتها للاهتمام بتعليم العَجَزَة. سألها البعضُ ذات يوم هل هناك أسوأ من فقدانك للبصر؟ قالت " نعم.. أن افقد الرؤية".

أمةٌ بلا ذاكرة هي بالضرورة أمةٌ بلا رؤية.. الذاكرة هي ملف الماضي والرؤية هي ملف المستقبل ويربط بينهما مسارُ الحاضر بكل ما له وما عليه.

مصطفى الفقي.

إذا كان التاريخ هو الماضي، إذن فالتاريخ ليس مهماً. ولكن التاريخ هو الحاضر. التاريخ هو أنا وأنت، نحن أداة للتاريخ، نحن فصلٌ من مسرحية التاريخ.

الكاتب المسرحي الأمريكي الافريقي جيمز بالدوين.

المحتويات

مقدمة طبعة ما بعد ثورة ٢٥ يناير

كتب د. محمد نور فرحات في يوم ١٩ مايو سنة ٢٠١١ في جريدة «المصري اليوم» مقالة عن الاحداث الطائفية الحديثة مقدمتها كما يلي:

ليس صحيحا ما يروج له البعض من أقاويل كاذبة تفتري علي التاريخ بان المسلمين والاقباط كانوا دائما يعيشون في وطن واحد في حالة وئام وانسجام يرفعون شعار وحدة الهلال مع الصليب، وليس صحيحا ان خلافاتهم الطائفية الدينية التي نشهدها اليوم هي من الامور العارضة علي التاريخ المصري ، التي يجب ان نتجاوزها لنعود الي حالة السلام والحب والوفاق التي ورثناها عن اجدادنا وورثها اجدادنا عن اجدادهم وان علوا. الصحيح ان احداث العنف الطائفي يزخر بها تاريخنا الاجتماعي المصري والعربي تطفو علي السطح وتفرض نفسها علي واقع المصريين في سياقات ثقافية واجتماعية معينة في ظل ضعف او تواطؤ السلطة العامة ، وتختفي في سياقات تاريخية واجتماعية اخري يتسم فيها البناء الاجتماعي بالنضج والرشد. تتميز السلطة العامة بإدراك واحترام مسؤليتها عن تنفيذ القانون. فالتعامل مع الظاهرة الطائفية لا يكون بانكارها وباعتبارها شذوذا علي حركة التاريخ وانما بالتعامل مع اسبابها بما يمكننا من استئصالها من واقعنا بكل ما تخلفه من اثار وما تحمله من ظلال كئيبة.

هدف هذا الكتاب هو عرض شامل لما ذكره د. محمد نور فرحات وعلي مدار الفي عام وللكتاب اهمية خاصة بعد ثورة ٢٥ يناير في ظل مناخ جديد يتيح قدرا من الحرية لم يكن متاحا من قبل ، وبظهور آراء دينية بعضها متطرف ان لم يكن مدمرا وبعضها يسعي لتفسيرات تناسب العصر حتي نخرج من عنق الزجاجة التي ادخلنا فيها المفهوم الضيق للدين.

وان كنت شخصيا متفائلا من ثورة ٢٥ يناير إلا انني ما زلت اعتبرها ثورة في مفترق الطرق حيث ان ما سيحدد مدي نجاح الثورة هو ما سينتج عنها واهمها دستور ينظر للمستقبل ويناسب آمال وتطلعات المصريين. كشفت الثورة بعض الحقائق المعاصرة عن العلاقة بين الاقباط والمسلمين والتي كان من الصعب علي الكثيرين تصديقها. منها مثلا ان الحكومة السابقة استغلت ورقة الاقباط لكي تجعل

الاقباط اتباعا للنظام وهو نفس ما حاولت بريطانيا في اوائل القرن الماضي عمله إلا أن الاخيرة فشلت لوجود نظام يسمح بالتعبير عن الرأي وهو ما لم تسمح به الحكومة السابقة حيث انها تحكمت في وسائل الاعلام الهامة بالاضافة لوجود قانون الطوارئ الكئيب. كان العدو في الماضي واضحا وهو الاستعمار البريطاني وكان من السهل تجمع المصريين ضد الاحتلال. اما الآن فمن هو العدو؟؟؟

بالاسف استغلت الحكومة السابقة ورقة الاقباط وجعلت بعض الاقباط يعتقد ان نظام مبارك بجبروته هو القادر علي حماية الأقباط من بطش بعض المتطرفين دينيا وان حكومة مبارك ما زالت هي الخيار الافضل لحكومة مدنية عن تلك التي قد تكون اسلامية متطرفة . لم يكن تصور بعض الاقباط عن قوة حكومة مبارك حقيقيا حيث ان شباب ٢٥ يناير وبمساندة كل المصريين ازاحو حكومة النظام السابق بسرعة وحسم اذهلت العالم مما جعل هذه الثورة وستظل محل دراسة الكثيرين. كان بالاسف من ضمن من وقعوا في وهم قوة حكومة مبارك بعض رجال الكنيسة القبطية اللذين ايدوا مبارك الاب ثم الابن كبديل محتمل وكان لذلك ظروفه بل واعتقد حتميته في وجود فراغ سياسي وظروف معقدة ولمدة طويلة وقد تعرض الكتاب لذلك. اعتقدت الكنيسة وبعض الاقباط مخطئين ان الكنيسة تمثل الاقباط سياسيا ، اتضح ذلك جليا عندما ايدت قيادات الكنسية مبارك الاب والابن وكذلك عندما صرح بعض قادة الكنيسة انها لا توافق علي اشتراك الاقباط في مظاهرات ٢٥ يناير وادعوا ان شباب الاقباط التزموا بذلك ، وهو ما لم يحدث فقد اندمج الشعب بشقيه في تلك المظاهرات.

الحكومة السابقة من ناحيتها قد تفضلت علي الاقباط بالسماح ببناء وترميم بعض الكنائس ومنحت المصريين اجازة يوم عيد ميلاد المسيح يوم ٧ يناير. ولكنها في الواقع لم تستطع حماية الاقباط او المسلمين من الفقر ومن سوء التعليم، أو من التطرف الديني أو تسمح للاقباط بنصيبب في بعض المناصب القيادية. هناك احتمال كبير ان تكون تلك الحكومة قد دبرت بعض احداث التطرف من قبيل تفجير سيارة مفخخة امام كنيسة القديسين بالاسكندرية يوم ٣١ يناير العام الماضي والتي راح ضحيتها حوالي إثني عشر شخصا خلاف اصابة كثيرين اخرين. كان ذلك حتي تشغل تلك الحكومة الشعب عن تزوير انتخابات الخريف الماضي . وهكذا كما استغلت الحكومة ورقة الاقباط استغلت ورقة المتطرفين اسلاميا وكانها حكومة

اجنبية استعمارية . رفض المصريون ذلك الحادث وتألم الكثير من المسلمين قبل الاقباط لوقوعه وتطوع بعض المسلمين بحماية الكنائس او بالاشتراك في صلاة عيد الميلاد يوم ٧ يناير تضامنا مع الوحدة الوطنية ومن جراء انفسهم.

كان بعضا من نتائج ثورة ٢٥ يناير أن الاسلام السياسي بكل اطيافه ظهر علي السطح واصبح احد عناويين الاعلام الهامة، بعد ان كانت الاعمال الطائفية تدور في الخفاء فظهرت بعض الحوادث الطائفية من تدمير وحرق بعض الكنائس بالاضافة الي الاعتداء علي بعض الاقباط والمسلمين وقد ساعد علي ذلك بعض رجال النظام الماضي لقلقلة الثورة . وتظاهر الاقباط واعتصموا وربما لاول مرة منذ قرون بعيدة اعتراضا علي حرق او هدم بعض الكنائس. في حالة ضعف الدولة التي نمر بها الان وبعد هذا الانفلات الامني فليس غريبا ان تزداد حدة بعض الاعمال الطائفية الطائشة ، إلا ان الشعب المصري او الكثيرين منه اثبتوا أنهم واعين علي سلامة الوحدة الوطنية ويقدرون خطورتها. إن الوحدة الوطنية هي بالضرورة احد ركائز الامن القومي الحقيقي.

من وسط مخاض ثورة ٢٥ يناير انبثق اهتمام بعض المسلمين والاقباط بوحدة وطنية حقيقية وليس من قبيل تلك التي كنا نراها في الاعلام الكاذب من قبل. ظهر ذلك في المطالبة بقوانين موحدة لتشييد وحماية أماكن العبادة وكذلك خطوط حمراء تعيق تولي الاقباط مناصبا بعينها. يخطئ من يعتقد أن الطريق سيكون ممهدا، فمشاكلنا عويصة وحقيقية وانا لا اعني المشاكل الطائفية فقط فالمشاكل الطائفية اخف وطأة بكثير من مشكلة اصلاح وتحسين التعليم مثلا. قد يكون أهم مشاكلنا بعد تحسين الامن تحسين الاقتصاد والتعليم بالاضافة لمشاكل الديمقراطية وكلها مشاكل ستكون طويلة المدي ، ولكن هناك امل كبير في أننا في بداية الطريق السليم.

يخطئ من يظن ان مشاكل التطرف الديني تمثل مشاكلا للمسيحيين فقط، لا اعتقد ذلك علي الاطلاق، انها مشاكل لمصر كلها. بعض هذا التطرف يكفر الاقباط وبعض المسلمين المخالفين في الرأي وهم كثيرون. إن التطرف الديني اينما يكون مصدره وزمانه سيمثل مشاكل للتعليم ، للعلاقات الخارجية ، للتجارة والصناعة، وللفقراء، للعمال والفلاحين ولكل فئات المجتمع وللتقدم عموما ، إلا للقلة التي تعيش

في وهم الماضي السعيد دون دراية بالتاريخ . اننا نعيش في عالم في غاية التعقيد ولن يفيد معه وجهات نظر ضيقة وبعض الشعارات الجوفاء الخالية من الجدية. إن الماضي الديني كما يتمني البعض ان يراه لن يعود إلا بشروط الحاضر والحاضر لن يعود للوراء تحت اي شرط من الشروط. ان المتطرفين دينيا لهم مرجعية دينية سيان كان بن لادن او من علي شاكلته او حتي من هم أقل تطرفا من ذلك. إلا ان هناك من هم علي النقيض من ذلك ، فهؤلاء حاولوا ايجاد تفسيرات دينية تناسب العصر الحديث بداية من رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده ونهاية بنصر حامد ابو زيد مرورا بطه حسين وعلي عبد الرازق، وامين الخولي ومحمد احمد خلف الله، وفرج فودة وكثيرين غيرهم. إن جذور التفسير المستنير تعود لعهد الرسول إذا قرأنا حقبة الرسول وبعض خلفائه الراشدين قراءة متأنية. قد يكون اسوأ مثال للسلفية الدينة عموما في عصورنا الحديثة هو ما حدث لليهود علي أيدي المسيحيين الاوروبيين وما حدث وما زال يحدث للفلسطينين علي أيدي الصهاينة. لقد قال غاندي في اواخر اربعينات القرن الماضي إبان فترة زرع اسرائيل في المنطقة أن القدس ليست مكانا أرضيا مهما لليهود فهي رمز للسلام وليس لليهود فقط بل للمسلمين والمسيحيين، انها رمز يجب ان يعيش داخل الانسان . كان رأي غاندي معاديا للاصولية اليهودية، فاتهم بمعاداة السامية. ان القراءة المستنيرة للكتب السماوية عموما هي القراءة التي تعي مفهوم النص وليس المعني الحرفي المتشدد الذي ورد الينا حديثا في مصر من التيار الوهابي المتخلف .

ان الدين يشكل مكونا رئيسيا في حياتنا، نحن نريد مثاليات واخلاق الدين، انها القواعد الانسانية المهمة والتي تشترك فيها أغلب الاديان. إن الاسلام في أصوله يسمح بل ويشجع التفسير المناسب للزمان والمكان، ولكن الخطاب الديني المعاصر خذلنا لسوء التعليم العام عموما والتعليم الديني خاصة. لم يخذلنا سوء التعليم العام فقط بل خذلنا أيضا الكثير من مثقفينا البارزين والذي افتخر بعضهم بانه وضع المثقفين في حظيرة النظام. بالاسف لقد فشل المثقفون في مواجهة التيار الأصولي الذي استولي علي عقل الكثيرين من العامة وفي شبه غياب وعدم تقدير من الدولة. اعتقد انه يجب علينا ان نكون صبورين مع المتطرفين دينيا لان لهم عذرهم فقد فشلت الدولة في تعليمهم وسمحنا للوهابين بتعليمهم وبتغيير وتغييب عقولهم، وقد ساعد علي ذلك وجود ظروف اقتصادية صعبة وفي مناخ سياسي فاسد.

إن التطرف يعتمد علي المعتقد الديني المطلق في زمن نسبي ودائم التغير وليس هناك سوي أمرين ، إما ان المعتقد الديني سيتطور أو أن هذا المعتقد المتجمد سيمنع الواقع النسبي من التطور. لقد قال علي بن ابي طالب في أوائل أيام الإسلام أن القرآن حمال أوجه وقال أيضا ان القرآن لا ينطق بل ينطق به الرجال ، وقال الرسول في حديث عن تأبير النخيل " انتم ادري بشؤون دنياكم "، هذا بالاضافة إلي أن بعض الآيات مرتبط بظروف زمانية ومكانية معينه كما هو دليل علي نسخ بعض الايات . ان المسيحية في بدايتها ابتعدت عن السياسة وقالت اعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر ، ولكن عندما التحمت الكنيسة مع الدولة دخلت اوروبا في عصور الظلام. انفك ذلك الالتحام مع بداية عصر التنوير في أوروبا عنما اصدر فريدريك الثاني قرارا سياسيا بترجمة مؤلفات ابن رشد إلي اللغة اللاتينية وغيرها مما أدى الي الاصلاح الديني والذي أدى إلي الاصلاح التنويري. إن الخلط بين الدين والسياسة أمر ضار للدين اولا وللسياسة ثانيا.

قد يكون أهم فصول هذا الكتاب هو الفصل الثالث عشر والمتعلق بالآخر وتغيير العقل. كيفية اصلاح ما تدمر من عقول؟ إن الطريق أمامنا صعب وطويل. لقد اهتم الإعلام حديثا بكل ذلك وهذا واجب الإعلام، علينا ان نتعلم ونختار ولكن للإعلام القومي ايضا وظيفة تعليمية مهمة اهملت لفترة طويلة. إن التطرف الديني الذي نراه الآن لا يناسب طبيعة الشعب المصري المتسامح وليس أدل علي ذلك من بقاء الكثير من المسيحيين في مصر حتي اليوم ، ويبرهن تاريخنا الطويل ذلك عدا فترات ضعف الدولة كما هو موثق في الكتاب.

إن أغلب المصريين المسلمين يدينون بمذهب أبي حنيفة والذي يعد اكثر المذاهب السنية بساطة وتيسيرا علي الناس. أما المذهب الوهابي السلفي الحنبلي الذي ورد إلينا علي أنغام البترودولار فانه يتعارض مع الطبيعة السلسة للمصريين.

فكري اندراوس

٤ يونيو سنة ٢٠١١

تقديم

عندما أهداني صديقي الأستاذ فكري أندراوس مؤلفة (المسلمون والأقباط في التاريخ) أثناء زيارتي لأمريكا رحبت بهذا الإهداء حيث أنه من موضوعات الساعة في مصر والشغل الشاغل لكثير من أهلها سواء المسلمين أو المسيحيين المحبين لوطنهم الراغبين في رفعة شأنه المؤمنين بأنه لا تقدم ولا رقي لمصر ما لم يتحد عنصرا الأمة، وهما في الحقيقة متحدان لا يفرقهما إلا الوشاية ومحاولة الوقيعة بينهما – وهو عادة ما يفرق بين الأخوة – بدليل أنه عند وجود خطر يمس سلامة الوطن لا تجد إنسانا يفكر في هذا الأمر وكيف يفكر فيه وهو يرى يد العدو لا تفرق في العدوان بين مسجد وكنيسة أو بين مسلم ومسيحي الكل أمام قنابل العدو أهداف يريد القضاء عليها.

هذا هو الشعور العام بين أفراد الشعب المصري في أوقات الشدة وهي الأوقات التي يظهر فيها العدو الحقيقي والصديق الوفي.

عندما شرعت في قراءة الكتاب بعد عودتي من أمريكا كنت أتوقع أن أبذل جهدا في متابعة موضوعه حيث أن مادته يمكن أن تكون سببا في أن يجد القارئ نفسه يبذل الجهد في متابعة الموضوع إلا أنني في الحقيقة لم أجد أني في حاجة إلى بذل جهد كبير في متابعة موضوعاته بل على العكس وجدت سهولة ويسر في المتابعة جعلني أصطحب الكتاب معي أينما ذهبت حتى أشغل كل وقت فراغ في القراءة لدرجة أن بعض المقربين مني كان يلفت أنظارهم حرصي الدائم على وجود الكتاب معي أينما ذهبت مما كان يدفعهم إلى تصفحه وإبداء الرغبة في قراءته بعد أن أفرغ منه، والحقيقة أن طريقة وأسلوب الكتاب يكاد يتطابق مع شخصية مؤلفه فهي شخصية ودودة بسيطة ينفذ إلى قلبك من أول لقاء وقد أحسست في المرات القليلة التي التقيته فيها أننا صرنا أصدقاء نتمازح كأننا تعارفنا منذ أمد بعيد.

بعد هذه المقدمة القصيرة عن الكتاب وصاحبه يسعدني بعد فراغي من قراءته أن أدلي بدلوي في موضوعه الذي هو موضوع الساعة في كل بلاد العالم وخاصة مصر حيث تمثل نقطة فاصلة في مستقبلها يلعب بها العدو الصهيوني لعلمه بمدى تأثيرها على مستقبل البلد وشعبه.

يبدأ المؤلف حديثه في مقدمة الكتاب التي هي في نفس الوقت الفصل الأول منه عما حدث لمصر بعد هزيمة ١٩٦٧وهو عندما يتحدث عن هذه الهزيمة يذكرني بشبابي في هذا الوقت حيث كان سني وقتها سبعا وعشرين عاما حيث أني من مواليد يناير سنة ١٩٤٠وكان كل مصري في هذا الوقت يشعر بمرارة في فمه لا يعرف لها سببا، وإن كان السبب في الحقيقة معروفا وهو إحساس المصري ذي السبعة آلاف سنة حضارة كما يحلو لحكامه التفاخر دوما. إحساس المصري أنه مستعمر من إسرائيل أصغر وأحقر دولة في العالم وهو إحساس مرير – لم يكن ذلك إحساسنا يوم أن كنا مستعمرين من إنجلترا سيدة العالم في هذا الوقت التي كانت تستعمر نصف بلاد الدنيا أما اليوم فإن إحساس المهانة شديد بل قل هو أشد من أن يحتمل وإذا كان الشعب المصري قد انتصر في حرب ١٩٧٣ فليس ذلك بسبب السلاح والعتاد بل بسبب عزيمة الشباب والرجال الذين كان الدافع الأول لهم على النصر هو هذا الإحساس بالذل والعار.

يقول المؤلف في مقدمة كتابه أنه (إذا نظرنا لتاريخنا سنجد أن هذا الاحتقان والتشنج الذي نراه الآن وخصوصا في حركات التطرف الديني، ظاهرة تنتاب الدولة كوباء الطاعون في حالة ضعف الدولة أو وجود تهديد خارجي، ونحن نعاني من كليهما الآن) والمؤلف ينقل هذا الكلام من كتاب شخصية مصر لجمال حمدان وهو قول أعتقد أنه صادق ثم يقول المؤلف (لقد انعكست ظروف محلية وإقليمية وعالمية على علاقة الأقباط والمسلمين وقد ساعد تصرف إسرائيل على ذلك لتفتيت المنطقة حتى تستطيع أن تعيش كأقلية أخرى في المنطقة بدلا من أن تكون وحيدة في محيط عربي إسلامي، ولكن يجب ألا نلوم إسرائيل على كل ما يحدث لنا دون نظر لأنفسنا أولا، أعتقد أن الأقباط – مسيحي الشرق عموما – يجب ويستطيعوا أن يكونوا سندا مهما للوطن في هذا الصراع الدائر كما كانوا خلال الثورة المصرية في أوائل القرن الماضي – ويمتد ذلك لمسيحي شرقنا العربي – لتحقيق الاستقلال ولكن يجب أن تتاح لهم الفرصة ....

إن علاقة الأقباط والمسلمين المتعثرة ما هي إلا إحدى مشاكل مصر الثانوية، إن مصر تغلي بمشكلات أكثر أهمية، إن مشاكلنا الحقيقية هي غياب الديموقراطية الحقيقية، وغياب المؤسسات المستقلة، وسوء التعليم بجميع فروعه وألوانه، بل قد

يكون أهمها التعليم الديني والإعلام السيئ وخصوصا ما يوصف بأنه قومي، والفساد، والقهر السياسي، وعدم قدرة الدولة على خلق فرص اقتصادية لتوفير العمالة للكثيرين، تآكل الطبقة الوسطى، والانحدار الخلقي رغم مظاهر التدين الكثيرة والكاذبة ... وبعد ذلك تأتي مشاكل الأقباط والمسلمين. إننا لو وجدنا حلولا لمشاكل المسلمين الحقيقية لاختفت مشاكل الأقباط، هكذا يقول في مقدمة كتابه وهى قوله حق ونظرة صادقة لحقيقة مشاكل مصر ومشاكل المسيحيين والأقباط فيها بعد هذه المقدمة يدخل المؤلف إلى صلب الموضوع يبدأ المؤلف حديثه من الفصل الثاني عن دخول المسيحية لمصر فيقول دخلت المسيحية مصر منذ القرن الأول حيث كانت العلاقة بين أورشليم والإسكندرية قوية وسريعة بفضل التجارة ووجود الجالية اليهودية الكبيرة بالإسكندرية، وكانت المسيحية في أوائل أيامها موجهة لليهود وتقول التقاليد الكنسية المصرية أن القديس مرقص هو الذي أدخل المسيحية لمصر وانتشرت المسيحية بمصر وفي حوض البحر الأبيض منذ القرن الأول إلا أن عدد المسيحيين لم يزد كثيرا إلا في أوائل القرن الثالث وقد بدأ اضطهاد المسيحيين بنيرون سنة ٥٤ إلى ٥٩، حين أحرق مدينة روما ومن أجل إرضاء الجماهير اتهم المسيحيين بحرقها وقد كان هذا الإمبراطور مختل عقليا ويستمر المؤلف في استعراض أحوال المسيحيين في مصر من علو وانخفاض تبعا لشخصية الحاكم حتى يأتي إلى الفصل الثالث عن دخول الإسلام إلى مصر على يد عمرو بن العاص في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ويقول عن هذه الفترة وإن كان العرب لم يتدخلوا في شئون العقيدة إلا أن الخطر الأكبر جاء فيما بعد من تحول البعض ثم الكثير من المصريين للإسلام لظروف كثيرة ليصبح الأقباط أقلية عانت في بعض الأوقات بلاء عظيما، كان بقاء الأقباط في مصر لليوم رغم اختفائهم من بلاد أخرى كثيرة، يعكس طبيعة الشعب المصري بما يملك من رواسب حضارية وتسامح واعتراف الإسلام بأهل الكتاب خصوصا مسيحي مصر ويطلق المؤلف على فتح مصر، تعبير احتلال مصر وهو تعبير يختلف معه فيه الكثيرون من المؤرخين ويستعرض تاريخ هذا الفتح ويقول عن عمرو بن العاص قائد هذا الفتح (كان مركز عمرو يزداد قوة، وكان يحصل الخراج والجزية التي تقررت ولكنه لم يأخذ شيء من أموال الكنيسة، كما أنه لم ينهبها، بل حماها طوال فترة حكومته كما قال حنا النقيوسي، والحقيقة أن

عمرو كان لديه حس سياسي ويعد أفضل من حكم مصر من العرب خلال حكم الخلفاء الراشدين، ثم خلال حكم الأمويين والعباسيين، كما يقول وبعد أن استقرت الأمور لعمرو أصدر بيانا يعلن فيه عهد الحماية والأمان على البطريرك بنيامين، فعاد من مخبائه ودخل الإسكندرية بمظاهر ترحيب من الأقباط بعد غياب ثلاثة عشر سنة).

من استعراض جميع فصول الكتاب نجد المؤلف في حيدة تامة يستعرض ما حدث للأقباط من بعض الحكام سواء من إنصاف أو اضطهاد ويشعر منه القارئ أن علاقة الأقباط بالمسلمين في مصر على مر العصور كانت تمر بأزمات ومنعطفات صعبة أحيانا وجيدة أحيانا أخرى وكان ذلك يرجع إلى عوامل عدة منها أن الحاكم الظالم كان ظلمه يمتد ليشمل الاثنين معا المسلمين والمسيحيين مثل الحاكم بأمر الله الفاطمي وأن الحاكم العادل كان الاثنان يستظلان بعدله وأن اضطهاد الأقباط ليس أمرا نابعا من تعاليم الإسلام وقيمه بل هو على العكس فهم خاطئ لتعاليم الإسلام وأن التعصب من كلا الجانبين هو أمر مخالف للشريعة الإسلامية والمسيحية وأن الأزمات والعدوان الخارجي كانا هما العاملان اللذان يوحدان جميع عناصر الأمة المصرية كما حدث في عهد قريب في ثورة ١٩١٩ كما يحكي لنا التاريخ الذي سجله المؤلف بكل دقة وأمانة، وأن الحاكم الظالم المستبد والمستعمر الغاشم أول ما يفكر فيه هو التفرقة بين عنصري الأمة لأن في اتحادهما سويا قوة يضعف أمامها قوة الاستبداد والظلم، ونشاهد في أيامنا هذه محاولات من الحكومة المصرية لتفريق عنصري الأمة وضربهما ببعض وصولا إلى زعزعة الاستقرار حتى تتخذه الحكومة ذريعة لاستبداد وتزوير الانتخابات حتى تظل تسيطر على البلاد ونظل نحن يضرب بعضنا رقاب بعض.

عندما يتعرض المؤلف للاختلاف في معاملة الأقباط في ظل الحكام المسلمين المختلفين في الدولة الأموية والعباسيين ووقوع بعض الاضطهاد للأقباط يسأل المؤلف عن صلة كل ذلك بمبادئ الإسلام ويجيب في موضوعية أعتقد أنه لا توجد أي علاقة، مبادئ الإسلام كانت بعيدة عن ذلك تماما، كانت كل تلك المصائب نتيجة سوء الإدارة وفساد وجهل بعض الحكام، والحاجة لجمع المال وكانت النتيجة هي تدهور مصر والمصريين، مع إهمال الإصلاحات العامة، ثم يستطرد في موضع آخر إلى القول بعد أن ذكر ما فعله يزيد ابن معاوية بأهل المدينة ومكة (لم يكن

هناك فرق كبير بين ما فعله بعض الحكام من تعسف وبطش ضد الأهالي، سواء كانوا مسلمي مكة والمدينة أو أقباط مصر في سبيل الحفاظ على قوتهم ومكانتهم وتحصيل المال).

يحدثنا المؤلف عن أمر كنا نسمع عنه في الصغر في صعيد مصر وكنا نستنكره كمسلمين أشد الاستنكار لعلمنا أنه خارج تماما من تعاليم الإسلام وهو ما سماه المؤلف لبس الغيار ويقول (أن لبس الغيار كان يفرض أحيانا وكان بعض الفقهاء والحكام يتفننون في طرق الإذلال على الرغم أن لبس الغيار لم تكن له أصول في أيام الإسلام الأولى كما سبق أن أشرت، والمقصود بلبس الغيار أن يخالف لبس أهل الذمة لبس المسلمين، كان اللون الأزرق في الغالب للمسيحيين، والأصفر لليهود وإن كانت الألوان تتغير حسب أهواء المتحكمين في الأمر، كان المهم ألا تتشابه مع ملابس علماء المسلمين، وكان التميز أحيانا تمتد إلى ركوب الدواب ومنع أهل الذمة من ركوب الخيل، ويمتد ذلك أيضا إلى دخول الحمامات العامة كل ذلك لإشعار القبطي أنه دون المسلم لإعلاء شأن المسلم والإسلام، وكأن الإسلام في حاجة إلى ذلك، وكان لبس الغيار يفرض على أهل الذمة أحيانا حتى يحصل الحكام على رشاوى لإلغاء العمل بلبس الغيار) هكذا كان الجهال من حكام المسلمين يتصرفون بالطريقة التي تخالف تعاليم الإسلام وتسيء إليه.

ويقول المؤلف عن أحداث الفتنة الطائفية في عهد العثمانيين والمماليك نقلا عن محمد عفيفي (أن حوادث الفتنة الطائفية لا تقوم إلا في ظل إدارة ضعيفة أو معاناة اقتصادية مصحوبة بظلم من الإدارة تنعكس آثاره على الرعية، لم يكن ذلك صحيحا في تلك الفترة فقط، بل كان صحيحا على طول التاريخ بدون تحديد من تكون الأقلية ومن تكون الأكثرية، ولأن الحكام مماليك كانوا أم أتراكا أجانب عن المصريين فأحيانا استغلوا سياسة فرق تسد بين الأقباط والمسلمين).

ويحدثنا المؤلف عن الأخوة التي سادت بين المصريين في عهد الخديوي إسماعيل حيث انتخب أقباط في مجلس الشورى ويرصد المؤلف عن المستشار طارق البشري قول محمد الشواربي في أحد اجتماعات المجلس (إن الأقباط لن يخرجوا عن كونهم من أبناء الوطن، ولذلك يجب أن يكونوا ضمن المدارس التي تعمل بالمديريات ولا يكونوا خارجها متى ارادوا دخولها، ولم يكتف بترشيح الأقباط

وانتخاب بعضهم في مجلس الشورى، بل تم تعيين بعضهم قضاة في المحاكم، لقد شهد بعض الزوار الأجانب تلك الفترة بروح المساواة التي سادت ذلك العصر، فتقول لوسي دون جوردون (إن أهالي ببا ومعظمهم مسلمون انتخبوا جرجس القبطي عمدة لهذه البلدة، وكان بعض الأقباط يحضرون الاحتفالات بسفر المحمل مندوبين عن الخديوي وقد قررت الحكومة خلال وزارة بطرس غالي الاحتفال بأول السنة الهجرية).

يحدثنا المؤلف عن رأي الأقباط في تمثيل الأقليات في المجالس الشعبية وخاصة البرلمان فيقول (وقف الوفد كتلة واحدة ضد تمثيل الأقليات، كان الأقباط يمثلون قسما هاما ممن رفضوا مبدأ التمثيل الطائفي سواء كان على أسس وطنية أو علمانية، وكان يصدر عن ثقة في مستقبل مصر بعد ١٩١٩ وهو مستقبل يستحيل على العامة أن تتخيله وقتها بغير الوفد وكان لسعد زغلول رأي قديم في عدم تمثيل الأقليات عند مناقشة قانون الجمعية التشريعية،أما أعضاء الوفد البارزين من الأقباط من أمثال ويصا واصف، راغب اسكندر، وسلامة ميخائيل وغيرهم، فقد عارضوا مبدأ تمثيل الأقليات وبعضهم هاجم دوس لرأيه في وجوب تمثيل الأقليات، وقد رد سلامة موسى على رأي توفيق دوس ينبهه إلى أن تمثيل الأقليات لا يفيد الأقباط، لأن النظام البرلماني هو نظام حكم الأكثرية، ولا تجدي الأقلية في البرلمان إلا أن يكون لديها الأمل في أن تصبح أكثرية، ولا يتوافر ذلك إلا للأقليات السياسية ولن يفيد القبط ما يحفظ لهم من مقاعد مادامت الأكثرية لا تسلم بمطالبهم في مشروع ما) ويقول المؤلف (انتهت مشكلة تمثيل الأقباط برفضها الجماهيري الواسع على نطاق المصريين عامة والأقباط خاصة، وجاءت اللجنة العامة للدستور فرفضتها بالأغلبية) هكذا كانت الروح بين الأقباط والمسلمين فما بالنا نرى عكس ذلك في أيامنا هذه، وهكذا نجد المؤلف يتنقل تاريخيا عبر العصور واصفا حالة الأقباط مع حالة المسلمين في موضوعية تكاد لا تفارقه ثم يختم المؤلف كتابه بالقول (لقد تخطى الأقباط والمسلمون ظروف أصعب بكثير مما نراه الآن، يجب أن نستعيد ثقتنا في أنفسنا وأن نعرف تاريخنا بموضوعية، إن مشاكل الأقليات عويصة وتحتاج إلى زمن طويل لحلها، ولن يجدي استيراد حل من الخارج لأنه لا يوجد ما يماثل حالتنا، هذه كلها حلول طويلة المدى ولكن لا أعتقد أنه يوجد بديل لها) وهو بذلك يشير على بعض الاحتقان القائم الآن والذي لا يجدي فيه مجرد جلسات صلح يتم فيها تبادل

الكلمات والأحضان ثم الانصراف كل إلى حال سبيله وفي النفوس ما فيها بل أن الحل يكون بتحسين التعليم لبث الإحساس بأن الأقباط جزء من نسيج هذه الأمة وأنهم ليسوا أقلية نزحت من الخارج، وبتحقيق التساوي باندماج الأقلية في الأكثرية وليس بالانعزالية بل بتشجيع الأقباط على أعمال الخدمة العامة، الخدمة العامة تبدأ في مجال العمل ومجال السكن قبل الترشيح للمجالس النيابية، بعض أقباط المهجر يجب أن يكونوا أكثر مسئولية وأن يفكروا في مصر ككل، وأنا أقول بعض أقباط المهجر وأعني ذلك، فإن أغلب الأقباط شأنهم شأن أغلب المسلمين يمثلون الأغلبية الصامتة حتى الآن، إن من يقول الشعب القبطي يجب أن يعلم أنه مصطلح طائفي للتفريق، هناك شعب واحد هو الشعب المصري.

بارك الله للمؤلف وأعانه على جمع كلمة المصريين على كلمة حق في سبيل رفعة هذا الوطن وعلو شأنه وتبوء المكانة التي تليق به في العالم.

محمود الخضيري

نائب رئيس محكمة النقض السابق

المحامي بالنقض حاليا

الفصل الأول

المقدمة

كنتُ ومجموعة من الشباب لا ندري ماذا نفعل خلال حرب ١٩٦٧، فكنا نسهر الليالي قلقين على مصير الحرب والوطن، كنا نمشي في الشوارع نلصق الإعلانات المشجعة على الحوائط من أمثال "حنحارب" بالإضافة إلى " طفّي النور" وكأننا بذلك ساهمنا في المجهود الحربي. وعندما لاحظ صديقٌ قبطي تحَمسي الذي اعتبره زائداً قال لي " هل تدري أنهم لو طردوا اليهود من فلسطين فسيطردوا الأقباط من مصر بعد ذلك". لم أصدق ما قاله صديقي واعتبرتهُ حين ذلك وللآن مجرد هراء؛ فالأقباط كانوا في مصر منذ القِدم والاستعمار الصليبي الصهيوني لفلسطين ليس له علاقة بذلك. ولكن ما بقي معي من ذلك الحديث هو: كيف ولماذا فكر صديقي على هذا النحو؟ والغريب أن هذا الصديق له علاقات عذبة مع أصدقائنا المسلمين، بل ولم ألاحظ أي تعصُب في تصرفاته، بل ولم أره مرةً واحدةً يذهب إلى الكنيسة!

لماذا يعيش بعض الأقباط بهذا الخوف؟ لقد تزايد هذا الخوف بعد الازدياد في المد الإسلامي السياسي بعد ١٩٦٧. والآن لماذا يخشى الأقباط من تنفيذ مبادئ الشريعة الإسلامية، مع أن التفسير المستنير للشريعة لا يضُر الأقباط لأنه لا يُفرض على غير المسلمين ما يفرضه عليهم دينهم؟ حيث إن الأديان الإلهية تلتقي في محتوى العقيدة فإنها تتمايز من حيث شرائعها وأحكامها.

كانت حرب ١٩٦٧ نقطة محورية في تاريخنا الحديث. قبل تلك الحرب لم تكن هناك مشاكل تذكر بين الأقباط والمسلمين، وكانت هناك حكومة قوية يساندها برنامج وطني لاقى التأييد العام. أما بعد هزيمة ١٩٦٧ ووضوح فشل بعض نواحي النظام الحاكم بالإضافة إلى تغيرات إقليمية وعالمية، كان من بعض نتائج ذلك أن هزيمة ١٩٦٧ قد هزّت الكيان المصري وما زالت. الهزيمة في حد ذاتها قد لا تمثل

الخطر الأكبر، حيث إن الدول تستطيع - إن أرادتّ - أن تحُقق النصر بمعالجة الأسباب الحقيقية للهزيمة، ومصر في إمكانها ذلك (لقد قال عزيز صدقي رئيس الوزراء السابق ورائد الصناعة المصرية الحديثة "إنّ مصر إنْ أرادت فعلت") ولكن ما هي إرادة مصر الحقيقية الآن؟

لقد خشي من لهم رؤية مستقبلية من أمثال طارق البشري أن تلك الهزيمة إن لم تُعالج أسبابها قد تترك ظلالها على قوة التماسك في المجتمع المصري، وقد تفتتت صلابته[1]. للأسف إن بعضاً من ذلك قد حدث فعلاً. بدأ الوطن يتحول من كيان واحد إلى جزر منعزلة وضللنا الطريق. لقد أصبح من السهل اهتزاز الوطن بأكمله لمجرد حادث بسيط قد لا يستحق الكثير من الاهتمام من أمثال اعتناق شخص ما ديناً غير دينة فيثور الكثيرون ثم تهدأ العاصفة دون أن نحل أي إشكالٍ جذرياً أو أن نَتَعمق في أسباب المشكلة الحقيقية والتي قد يكون أهم أسبابها الخوف والقلق اللذان أصبحنا نعيش فيهما.

بعد سنين من قصة صديقي الذي خشي أن يطرد المسلمون ألاقباط من مصر، وبعد أن ابتدأت أدرس تاريخ مصر وأنا في المهجر، وجدت بعضاً من أسباب قلق أو خوف صديقي من أن يُطرد الأقباط من مصر. وجدت أن هناك ثغرات واسعة في وعينا بالتاريخ؛ هذه الفجوات المظلمة في العقل الجمعي أشبه ما تكون بالتمزقات في ذاكرة الأمة، هكذا وصفها غالي شكري[2]. يعتقد غالي شكري أن النقص الثقافي والتشوه الذي يصيب البنية الذهنية يأتي في مقدمة الأسباب التي تؤدي إلى الاحتقان الطائفي الذي نراه ليس في مصر فقط بل في محيطنا العربي. هذة الثغرات أو الجُزء المتغاضى عنه أو المنسي من تاريخنا يكمن وراءه الخوف الزائد لدى

---

(١) طارق البشري. المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، دار الوحدة. سنة ١٩٨٢. ص٥.
(٢) غالي شكري. الأقباط في وطن متغير. كتاب الأهالي رقم ٢٩. سنة ١٩٩٠. ص٧.

البعض. قد يكون ذلك بصورة أكبر لدى الأقباط حيث إن الأقليات عموماً تُغالي في الشعور بالخطر، يدفعها لذلك غريزة حب البقاء. خصوصاً في وجود رؤى مختلفة ومتباعدة عما يعنيه الإسلام السياسي وتنفيذ الشريعة.

ما زال هذا الجزء المفقود من تاريخنا والذى أشار إليه غالي شكري موجوداً في العقل الباطن بصورة ما، يُسترجع عند الشعور بالخطر. ويقول رشدي سعيد- وهو على حق- إنه على طول التاريخ لم تحدث الفِتنة الطائفية إلا في أوقات متباعدة نتيجة حاكم ضعيف يحاول أن يشغل الناس عنه وعن فساده وفشله(١).

ورغم قلة هذة الحوادث إلا أنها بقيت في العقل الباطن بصورةٍ ما، بل أحياناً بصورةٍ غير موضوعية، كما حدث لصديقي خلال حرب ١٩٦٧. لا أعتقد أنه يوجد حاكمٌ واحدٍ في تاريخنا الطويل أضر بالأقباط دون أن يضر بالمسلمين او يضر بمصر. ولكنّ هناك اختلافاً في مدى تأثير الضرر على كل من الأقلية والأكثرية. الأكثرية أكثر قدرةً على تخطي مساوئ الحاكم الذي يسيء إليها عن الأقلية لاختلاف مستوي التأثير. في العقود الأخيرة ولأسباب غير خفية ساعدت بعض أعمال العنف ضد الأقباط في حدوث شرخ في علاقة الأقباط بالمسلمين. ومن ناحية أخرى كان هناك تصاعد وتضخيم لما يحدث من قِبل بعض المصريين بالمهجر. ساعد على ذلك وجود واسترجاع بعض من هذه الذاكرة المدفونة وأصبح كل ذلك عقبةً في سبيل الوحدة الوطنية وابتدأ الخلاف يتصاعد والشرخ يتسع. إن العنف والإرهاب الذي نراه أحياناً من قبل المتطرفين الإسلاميين هي حوادث ما زالت فردية لا تمثل عامة الشعب المصري، بل هي موجهة أساساً ضد النظام الحاكم لقلقلته ولإحراجه، ولها ضحايا من الاقباط والمسلمون.

بعد حرب ١٩٦٧ ابتدأت بعض قيادات الدولة تنهج اتجاهاً دينياً لأسباب سياسية. مع بداية رئاسة السادات للدولة أصبحت هناك مزايدات بين بعض المتطرفين

---

(١) حوار مع رشدي سعيد أجراه حمدي رزق. جريدة الدستور. فبراير سنة ١٩٩٨.

إسلاميــاً وبعض رجال الدولة أيهما أكثر "تأسلُماً". وأصبح هناك خوف بين بعض المسلمين من الأقباط نتيجة تشويه إعلامي أو جهل بالوقائع أو بالتاريخ. منها على سبيل المثال أن (الأقباط أغنياء ويحاولون إفقار المسلمين)، (الأقباط يحاولون إعادة مصر دولةً قبطيةً بمساعدات خارجية)، (العمل على تحديد نسل المسلمين وزيادة عدد الأقباطِ من أجل أن تعود مصر قبطيةً كما كانت). بالإضافة لبعض الإشاعات والمعلومات المغرضة تماماً من قبيل (ميليشيا قبطية) و(الأسلحة التي تملأ الأديرة)، (هؤلاء الأقباط غُرباء عنا.. ماذا يفعلون في مصر؟) ومن ناحية أخرى هناك من يربط بين المسيحية المصرية والشرقية عموماً وبين مسيحية أوروبا الاستعمارية التي ابتدأت بالحروب الصليبية وطردت المسلمين من الأندلس. إن خلق إسرائيل ما هو إلا حروب صليبية جديدة وإن كانت أخطر بكثير من الحروب السابقة. كل ذلك يثير خوف المسلمين من الأقباط أو من المسيحيين عموماً دون تمييز بين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية. إن ذلك الخوف غير الحقيقي ينم عن جَهل ويجب أن يزول. لقد قال فهمي هويدي[١] " إننا بإزاء موقف يتهدد المسلمين وغير المسلمين، الاستسلام له سيقود الجميع إلى قاع اليم، والسكوت عليه اشتراك في الجريمة يقترب من التواطؤ والتستر، وليس أمامنا إذا أردنا لأنفسنا بقاءً واستمراراً، إلا أن نستجمع القوى، ونتشبث بما تبقى من خير وعقل لدى هذه الأمة، لنثبت ونقاوم ونمسك بالزمام قبل أن ينفلت".

ما هي هوية الشعب المصري الآن؟ وهل هي للوطن أم للدين ؟ قد يبدو هذا التساؤل سخيفاً حيث المفترض أن يتلاقى الوطن مع الدين حتى إن اختلفت الأديان.

لقد قارن جلال أمين[٢] بين ما حدث للطبقة الوسطى في مصر في النصف الأول من القرن الماضي وبين ما حدث في النصف الثاني من القرن وحتى الآن. لقد كان الشعور الديني في النصف الأول من القرن على وفاق تام مع الشعور بالانتماء الوطني، بينما نجد الآن شيئاً يشبه التنافر أو حتى القطيعة بين الانتماء الديني

---

(١) فهمي هويدي. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. الطبعة الأولى. سنة ١٩٨٥ ص ٩.

(٢) جلال أمين. مصر والمصريون في عهد مبارك. (١٩٨١ –٢٠٠٨) دار ميريت. سنة ٢٠٠٩. ص ٤٠.

والانتماء للوطن، وكأن الولاء للوطن قد أصبح من نصيب العلمانيين او المدنيين (أو بعضهم). لقد كانت الطبقة الوسطي في الماضي أكثر عقلانية وأقل تمسكاً بالمظاهر منه بجوهر الدين، كان من الممكن أن يجتمع شعورٌ ديني قوي مع فهم عقلاني للحياة. ويستنتج جلال أمين أن التغير الذي حدث في طبيعة الخطاب الديني المعاصر ساعد على وجود شِقاق بين الولاء للدين والوطن وطبعاً ليزيد الشقاق بين المسيحيين والمسلمين. لقد ساعد الخطاب الديني المعاصر على نمو مناخ يساعد على انتشار الفساد بدلاً من أن يضيّق من نطاقه، وأصبح من السهل أن يجتمع القيام بعمل فاسدٍ مع التمسك بشكليات الدين. لقد دخل في الخطاب الديني تيارٌ لاعقلاني يهتم بالمعجزات والخرافات ويعلي من شأن الطقوس على حساب الأخلاق والمثل، ويجعل بعض المسلمين على استعداد للتنكيل بالأقباط بلا سبب ويشيع في الأقباط شعوراً بالتوجس والخوف بسبب وبلا سبب[1].

أعتقد أن معرفتنا بالتاريخ بموضوعية والبحث عند الجذور عن أسباب بعض الصعاب بين أقباط مصر ومسلميها هي الخطوة الأولى لتغيير مسارنا المنحدر. نحتاج لكثيرٍ من البحث في تاريخنا وتحليل حوادثه وأن نكُف عن انتقاء ما يناسب وجهة نظر معينة، ولعلنا نستطيع أن نفهم بعض الحساسية الزائدة التي نراها الآن والتي تثير المصاعب وعدم الثقة في علاقاتنا والتي تستنزف الكثير من طاقتنا وتعيق تقدمنا. إن لنا أعداء يهمهم استقطاب أية مشاكل يعاني منها الوطن وهي كثيرة. إن توتر العلاقات بين الأقباط والمسلمين يجب ألا يكون مشكلة تعاني منها الأمة، فهناك مشاكل أهم من ذلك بكثير وتحتاج لتكاتف كل طاقات المصريين.

في هذا الكتاب سأهتم بعلاقة الأقباط والمسلمين من سياق التاريخ العام ومدي تأثيره، أي أنني سأعطي صورةً أكبر من مجرد العلاقة الخاصة التي تربطنا إلى الإطار العام لما كان يحدث في مصر. إن التاريخ القديم الذي يغفل عنه البعض عن قصد أو عن غير قصد أو بحكم البعد الزمني له تأثير فيما يحدث الآن. عامة الشعب المصري ليست له دراية بتاريخ العلاقات بين الأقباط والمسلمين وخصوصاً

---

(١) جلال أمين. مصر والمصريين في عهد مبارك. مرجع سابق. ص ٥٢.

القديم منها إلا عن طريق الأقاصيص التي اعتمدت على وجهات نظر معينة يؤيدها انتقاء أجزاء بعينها من تاريخنا. أعتقد أن التاريخ القديم قد يفسر لنا بعض أسباب الاحتقان الطائفي والحساسية الزائدة لدى البعض. ولأن بعض التاريخ القديم قد يكون غير سار- كما هو الحال في كل دول العالم- فقد يحاول بعض الأقباط أو المسلمين إخفاءه أو التغاضي عنه، إلا أن هذا جهل وخطأ مُضر. أولاً لأن تاريخنا في أغلبه به فترات كثيرة تمثل منارةً للحُب والأخوة، فعامة المصريين كانوا دائماً وما زالوا متجاورين وتشاركوا في الأفراح والأحزان. ومن ناحية أخرى يجب ألا نحمّل الأجيال الحديثة مسئولية ما حدث من أخطاء الماضي مهما كانت. يجب أن نعرف التاريخ القديم ونعيه حتى يمكننا أن نتخطاه، وحتى إن بقي في ذاكرتنا فسيكون بموضوعية. نحن لن نغيّر التاريخ ولكن معرفتنا به، حتى وإن كان به بعض المغالاة أو السلبيات سيساعدنا على تفهُم الأنا والآخر وسيساعدنا على تخطي عقبات الماضي. ومن ناحية أخرى فإن التاريخ القديم يجب ألا يؤخذ ككتب التاريخ الحديثة، حيث إن كُتّاب التاريخ وحتى في العصور الوسطي عندنا وفي أوروبا مزجوا التاريخ بالدين مزجاً شديداً. نرى ذلك بوضوح في سرد الأساطير والقصص العجيبة والخوارق والكرامات. مثال ذلك صور القديسين والشهداء التي تقطر زيتاً أو دماً. وليس هذا قاصراً على الأقباط وإن كان الأقباط قد غالوا في ذلك. نحن نرى نفس النوع من المغالاة في بعض التاريخ الإسلامي المصري، إننا نرى محمد بن طغخ الإخشيدي مثلاً يكرم رجلاً من دمياط قيل إن يده كانت مقطوعةً وإنه غاب عن البلد زماناً وعاد ويده صحيحة. ويذكر علي بركات بعض من تلك الأمثلة[1]. الأمثلة من هذا النوع يصعب حصرها وهي تمثل نوعاً من الأدب الشعبي اختلقها البعض لظروف كثيرة ومعقدة. مغالاة الأقباط في تلك الكرامات كان الغرض منه الاستمساك بدينهم وتقوية روحهم المعنوية خلال زمن الاضطهاد والمعاناة[2]. سيرى القارئ بعضاً من تلك الأمثلة في سياق ما سيذكر، وأرجو أن يراعي أن تلك الأمثلة قد يكون بها بعض أو كثير من المغالاة.

---

(١) علي بركات. رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٧. ص ٥٨.

(٢) تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع. إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين. مكتبة مدبولي سنة ٢٠٠٦. الجزء الأول ص ١٧.

سأهتم في هذا الكتاب بما كتبه المؤرخون القُدامى من أمثال حنا النقيوسي في القرن السابع، البلاذري وابن عبد الحكم في القرن التاسع، الطبري والمسعودي وساويرس بن المقفع في القرن العاشر، الكندي المصري في القرن الثاني عشر، المقريزي في منتصف القرن الخامس عشر، ابن إياس في اوائل القرن السادس عشر، والجبرتي في أوائل القرن التاسع عشر وآخرين كثيرين غيرهم. ولكني اهتممتُ أيضاً بكثير من الكُتّاب المحدثين من أمثال ألفريد ج. بتلر في كتابه عن الفتح العربي لمصر، وعبد العزيز جمال الدين في "موسوعة تاريخ مصر من القرن الأول إلى القرن العشرين"، سوريال عطية في الموسوعة القبطية باللغة الانجليزية، طارق البشري في كتابه المرجعي "المسلمون والاقباط في إطار الجماعة الوطنية"، جاك ناجر في في كتابه "أقباط ومسلمون"، وأبو سيف يوسف في كتابه "الأقباط والقومية العربية"، وغالي شكري في كتابيه "الأقباط في وطن متغير" و"أقنعة الإرهاب"، وفهمي هويدي في كتابة "مواطنون لا ذميون" بالإضافة لآخرين. بالإضافة إلى بعض المصادر الأجنبية. سوف أقتبس بعض الفقرات من تلك المراجع القديمة بالإضافة إلى ذكر المرجع ليتأكد القارئ مما كتبه بعض القدماء. ولكن يجب ألاّ ننسى أن ليس كل ما كتبه القدامى بالضرورة تاريخ حقيقي، وسيرى القارئ أمثلةً من ذلك. حتى كتب الأديان ليست بالضرورة كتب تاريخ. لقد قال الإمام محمد عبده في "تفسير المنار" إن القرآن كتاب هداية وليس كتاب تاريخ، ولا أعتقد أن الأناجيل تختلف عن ذلك.

يخطئ من يعتقد أن نقد أي حاكمٍ مُسلم أو بعض من مشايخ وزعماء الإسلام أو بعض رؤساء الكنيسة وزعماء الأقباط المهمين في تاريخنا هو نقد للإسلام أو للمسيحية. هناك أيضاً فرقٌ كبيرٌ بين الدين والفقه الديني. إن الفقه الديني مجهود بشري يحتمل الخطأ والصواب والتغير، تعاليم الدين يختلف تفسيرها باختلاف العصر وثقافتة. لقد أصبحنا نعيش في عالم معقدٍ قد لا تناسبه تفسيرات بسيطة ومخلة وردت حين كان العالم جزراً متباعدة. لقد قال علي بن أبي طالب "إن القرآن لا ينطق، بل ينطق بهِ الرجال". وأعتقد أن مفهوم الإنجيل لا يختلف عن ذلك، وهو ما قاله أوريجانوس المصري في أوائل القرن الثالث. الفرد مهما كان حسن نيته

وعلمه واجتهاده فهو خلاف الدين. لقد قال الإمام الشافعي "إن رأيي صوابٌ ولكنه يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب" بل قال ايضا "إني أدين بتغير رأيي إلى ما رأيته الحق".

إن ظاهرة الأقلية والأكثرية أصبحت ظاهرة عالمية تكاد تكون موجودة في كل دول العالم وتسبب مشاكل يروح ضحيتها الآلاف والملايين. خصوصاً أنه أصبح الآن ما يحدث في قرية صغيرة يراه العالم أجمع وفي نفس الوقت تقريباً. لقد اهتم العلماء بدراسة الخلافات الإثنية والدينية في المجموعات أو في الأوطان، وهناك الكثير من الدراسات الجدية في هذا المجال، من الطبيعي أن يكون الاقتصاد عاملاً مهماً في العلاقات الإنسانية، ولكن قد يكون أهم تلك النواحي الحديثة هي العوامل السيكولوجية ودور المخ في امتصاص عناصر "الأنا والآخر" والتي قد تؤدي إلى التمييز ثم التعصب فالاضطهاد. كيف تستخدم تلك المعلومات الحديثة لتساهم في تخفيف حدة التوتر بين الأقلية والأكثرية؟ وإن كان الأقباط أقلية عددية إلا إنهم والمسلمين من نسيج واحد أصلاً، فالمسلم شأنه شأن المسيحي جذوره في مصر الفرعونية، بل وتعود لبداية التاريخ ومن دخل مصر من الغرباء وهم قلة قليلة انصهروا فيها. إلا أنه حديثاً تستطيع أن تفرّق بين من هو مسلم ومن قد يكون غير مسلم. فلو سرت في أي شارع في أي بلد في مصر فستستطيع أن ترى ذلك. لقد نقل ذلك مرحلة اختلاف الدين إلى أولى مراحل الصراع وهي التمييز. وأقصد بأولى مراحل الصراع، أنها مرحلة قلقة إما تتصاعد لتصل لحالة عنف عام أو قد تتراجع لمجرد اختلاف ديني لا يتعدى ذلك، أو كما قال اللورد كرومر حاكم مصر إبان فترة الاحتلال البريطاني إن أقباط مصر ومسلميها متماثلون في كل شيء إلا إن أحدهم يذهب للجامع والآخر يذهب للكنيسة.

أولى مراحل الصراع مرحلة قلقة غير مستقرة، ولا بد أن تتغير صعوداً أو هبوطاً، هذا من ناحية، ولكن من ناحية أخرى وقد تكون الأهم أن الدين أصبح هو القناة الوحيدة المفتوحة للتعبير عن الرفض لما يحدث في مصر، حتى الحجاب والذقون والجلاليب ما هي إلا صور لذلك الرفض.

لقد حدث في الماضي البعيد أن دمرت كل أو أغلب كنائس مصر في فترة وجيزة. قتل البعض، اضطر البعض لاستبدال المسيحية بالإسلام بينما اضطر آخرون لترك وطنهم. لقد تخطى المصريون بشقيهم تلك المحن في الماضي. هل ما نراه الآن على أرض الوطن بداية لنهاية الأقباط بمصر، أم انها محنة سنتخطاها ؟ إن في مصر الآن من يري أن المسيحية يجب أن تنتهي من مصر كما انتهت من دول إسلامية أخرى. يعتقد البعض ان الاقباط هم الاعداء وأن على الأقباط أن يدفعوا الجزية وألاّ يخدموا في جيش بلدهم. بل هناك بعض المشايخ والمتعلمين تعليماً عالياً يحض المسلمين على عدم التعامل مع المسيحيين جاهلين أو متجاهلين أن مقياس تحضر الأمة يقاس بمدى معاملة الأكثرية للأقلية. لقد قال ذلك مهاتما غاندي خلال حركة استقلال الهند والتي ادت الي اقلية مسلمة في الهند واقلية غير مسلمة في باكستان وكثير من الضحايا وحتي الان.

كان نتيجة كل ذلك أن تقوقع الأقباط حول الكنيسة والتي أصبحت تمثلهم ولكن بدون فاعلية حقيقية، وإن كان لا يوجد أيضاً من يمثل مصالح المسلمين الحقيقية في نظامنا السياسي المعاصر. ظهرت جماعات مسيحية متشددة في الداخل. أما في الخارج فقد تفاعل بعض مصريي المهجر مع ما يحدث، وبعضهم تخطى تطاوله ما يرتكب البعض من عنف أو الدولة من قصور إلى مهاجمة الإسلام، وأنا أقول "بعض مصريي المهجر" وأعني ذلك. حيث إن أغلب المصريين وإن استاء من بعض ما يحدث في مصر – وهذا أمر طبيعي – إلا أنهم يمثلون الأغلبية الصامتة، شأنهم شأن باقي مصريي المهجر أو في الوطن الأم، سيان، مسيحيين أو مسلمين.

مما لا شك فيه أن هناك الكثير من المستنيرين المسلمين والمسيحيين الذين يرون خطورة ما يحدث ويعارضونهُ قولاً وفعلاً. ولكن أين الدولة من كل ذلك؟ لقد قال محمد حسنين هيكل "رئيس الدولة في مصر أياً كان اسمه وفي أي زمان علية مسئوليتان بالدرجة الأولى: ١- وحدة الديانتين وتعايشهما في الوطن الواحد. ٢- جريان ماء النيل إلى الوادي بأمان ويسر".

هناك مشاكل كثيرة ومتراكمة من حوالي نصف قرن وعلينا مواجهتها وإلا أصبحنا كالنعامة التي تدفن رأسها حتى لا ترى الخطر. أو كما وصفه فهمي هويدي "هو بمثابة ألغام مزروعة في الجسم العربي والإسلامي". يجب علينا مواجهة الواقع، وليس هناك بديلاً من معرفة تاريخنا والبحث عند الجذور[١]. إن ما يفعله بعض المسئولين الآن مِثل صور لعناق رؤساء الأديان أو لكاهن يعانق شيخاً أو موائد الإفطار الرمضانية التي يقيمها الكهنة والمطارنة والبابا لكبار المسلمين، كل ذلك لفتات طيبة ولكنها من قبيل "الديكور".

إن سياسة الدولة الرسمية توحي إلينا خلال الإعلام المحكوم أن كل شيء علي ما يرام، ولم يكن في الإمكان أحسن مما كان!! إن الوحدة الوطنية الآن مستهدفة. جاء بعض الاستهداف من الخارج لمحاولة تفتيت المنطقة لصالح اسرائيل والغرب. لقد ساعد علي ذلك بعض اعمال العنف "الاسلامي والصهيوني". حماية الاقليات الاتية من الغرب بعضها ذات دوافع سياسية للتدخل في الشؤن الداخلية للدول. وجاء الاستهداف أيضاً من التيار الوهابي المتخلف وإن كانت أفكاره للأسف قد وجدت تربةً خصبة، ليس في مصر فقط بل في دول اخري عربية واسلامية نتيجة لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية.

إذا نظرنا لتاريخنا سنجد أن هذا الاحتقان الطائفي والتشنج الذي نراه الآن وخصوصاً في حركات التطرف الديني، ظاهرة تنتاب الدولة كوباء الطاعون في حالة ضعف الدولة أو وجود تهديد خارجي، ونحن نعاني من كليهما الآن. هذا كان وصف جمال حمدان لما تعانيه مصر من جراء التطرف الديني في آخر مقابلة صحفية له[٢].يعتقد جمال حمدان أن الإسلام السياسي يخص الماضي. إنه يشبه تشنج واهتزاز الدجاجة المقطوعة الرأس قبل سكونها للأبد. هذة النظرة المستقبلية هي نظرة من تمرَّس في تاريخ مصر. أعتقد أن ما قاله جمال حمدان سيكون صحيحاً

---

(١) فهمي هويدي. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. الطبعة الأولى. ١٩٨٥. ص ٧.

(٢) مقابلة صحفية أجراها حلمي النمم مع جمال حمدان. مجلة المصور. ١٥ أبريل سنة ١٩٩٤.

تاريخياً. لقد رصد لنا هذا العالِم في مشروعه الكبير لحظات الضعف في تاريخ مصر وأحصى آلياتها بما يدعنا إلى أن نعيد النظر إلى داخلنا وخارجنا. يعتقد جمال حمدان أن ما نراه على الساحة هو بمثابة رجعيّة سياسية وجهل مدني وجاهلية دينية أما في القرن الحادي والعشرين فهو خرافة من مخلفات التخلف وكابوس مخيف، ومن ثم فالإسلام السياسي المعاصر ليس أكثر من صحوة الموت. ولكن هناك كثيرين يختلفون مع رأي جمال حمدان، وخصوصاً أننا نرى الآن ازدياداً في المد الإسلامي السياسي لأسباب محلية، إقليمية، وعالمية.

إن ازدهار السلفية الدينية ذات الأهداف السياسية ما هو إلا نتيجة تراكم سقوط دولة محمد علي ودولة إسماعيل ومحاولة عرابي ثم ثورة ١٩١٩ وأخيراً ثورة ١٩٥٢. وستكون المرحلة الإسلامية، إن قُدّر لها أن تكون، مرحلة أخرى من مراحل السقوط إلى أن نتمكن من الوصول إلى الطريق السليم وهو الدولة الحديثة، الدولة المدنية الديمقراطية موضوعاً وليس مجرد شكل. نحن لا نعرف مايخبئه لنا المستقبل، هل ستكون هناك مرحلة إسلامية ؟ وإن كانت كذلك فكيف ستكون؟ إن الاسلام لم يعرف الدولة الدينية في تاريخه الطويل إلا في فترة الرسول وبعض الخلفاء الراشدين، فيما عدا ذلك كان الحكم أقرب ما يكون للحكم المدني. هناك خلافٌ كبيرٌ بين المفكرين الإسلاميين المعاصرين، ولا توجد إيديولوجية واحدة مطروحة على الساحة- ولن توجد- وهذا أمر طبيعي، لأنها مجهود بشر. إن الإسلام السني خالٍ من الكهنوت أو الملالي، ولا توجد عندنا ولاية الفقية كما لدى الشيعة. هذا الخلاف بين الشيعة والسنة يُثير بين المسلمين اختلافاً أكثر مما يثير اتفاقاً. رغم إعجاب الكثيرين منا بما يحدث في إيران وبحزب الله في لبنان، ليس لنجاح النظام الإيراني في إدارة إيران وتطويرها، أو لنجاح حزب الله النسبي في صراعه مع إسرائيل، بل لمعاداة هذا النظام للغرب وإسرائيل في وقت تبدو فيه بقية الدول العربية ضعيفةً ومتخاذلة. وإن كان الحكم في الماضي أقرب إلى الحكم المدني، إلا إن هذا لا يعني أن نظام الحكم لم يراعِ مبادئ الدين بل التزم بها طبقاً لاحتياجات العصر. وكان لبعض رجال الدين الاسلامي القدامي من أمثال الأشعري والشافعي و الغزالي تأثير واضح في زمانهم، ولكن الكثير من ذلك بقي معنا للآن. ولكن زماننا مختلف.

إن الإسلام المعاصر يبحث عن نفسه في عالم شديد وسريع التغير، يبحث عندالجذور ولا يريد أن يفقد ذاته لأن هذا يعني الضياع، ولكن لا بد من التحديث، إن استخدام الدين في السياسة كارثة للدين وكارثة للسياسة وهناك أمثلة كثيرة لذلك في تاريخ المسيحية والإسلام واليهودية المعاصرة وسأتعرض لبعض من ذلك. هذا لا يعني أننا سننحي الدين جانباً. إن أساسيات ومبادئ الدين- أي دين -كانت وستكون أحد مكونات الدولة، أي دولة.

أنني أُقدّر تماماً أن بعضاً من صعوبة العلاقات بين الأقباط والمسلمين أو بين مسيحيي الشرق ومسلميه تعود إلى عدم قدرة البعض على التمييز بين مسيحية الشرق ومسيحية الغرب. يعتقد البعض بسبب قصور التعليم عندنا أن مسيحية الشرق ما هي إلا امتداد لمسيحية الغرب. بل يعتقد البعض بسبب ذلك، أنهم لا يجب أن يثقوا في الأقباط أو في مسيحيي الشرق، وينعكس ذلك على بعض القيادات وخصوصا في مناصب الدولة العليا. لقد اختفى المسيحيون أو كادوا من بيت لحم.. مكان مولد المسيح، وهو ما لم يحدث منذ ظهور المسيحية. هل أصبح بقاء المسيحيين في منطقتنا بهذة الصعوبة؟

لقد انعكست ظروف محلية وإقليمية وعالمية على علاقة الأقباط بالمسلمين، وقد ساعد تطرف إسرائيل على ذلك لتفتيت المنطقة حتى تستطيع أن تعيش كأقلية أخرى في المنطقة بدلاً من أن تكون وحيدةً في محيط عربي إسلامي، ولكن يجب ألا نلوم إسرائيل علي كل ما يحدث لنا دون أن ننظر لأنفسنا أولاً. أعتقد أن الأقباط – ومسيحيي الشرق عموماً- يجب ويستطيعوا أن يكونوا سنداً مُهماً للوطن في هذا الصراع الدائر، كما كانوا خلال الثورة المصرية في أوائل القرن الماضي -ويمتد ذلك لميسحي شرقنا العربي- لتحقيق الاستقلال ولكن يجب أن تتاح لهم الفرصة. خلال ثورة سعد زغلول كان العدو واضحاً وهو الاستعمار، أما الآن فمن هو العدو الحقيقي؟ إنه ليسَ المسيحية أو الإسلام، إنه نحن ومن يريد منا أن يستغل الدين في

السياسة. إن القومية العربية في ظل الظروف الراهنة، هي الدرع التي يمكن أن تقينا من الهجوم الغربي الاستعماري والإسلام أحد مكونات القومية العربية المهمة ولكن يجب أن تكون مسيحية الشرق أيضاً أحد هذه المكونات، وقد كانت كذلك في الماضي القريب والبعيد.

إن علاقة الأقباط والمسلمين المتعثِّرة ما هي إلا إحدى مشاكل مصر الثانوية. إن مصر تغلي بمشكلات أكثر أهمية. إن مشاكلنا الحقيقية هي غياب الديمقراطية الحقيقيه وغياب المؤسسات المستقلة، سوء التعليم- بجميع فروعة وألوانه- بل قد يكون أهمها التعليم الديني، الإعلام السيئ وخصوصاً ما يوصف بأنه قومي، الفساد، القهر البوليسي، وعدم قدرة الدولة على خلق فرص اقتصادية لتوفير العمالة للكثيرين، تآكل الطبقة الوسطى، الانحدار الخلقي رغم مظاهر الدين الكثيرة والكاذبة و.....و... وبعد ذلك تأتي مشاكل الأقباط والمسلمين. إننا لو وجدنا حلولاً لمشاكل المسلمين الحقيقية لاختفت مشاكل الأقباط.

لقد ترددتُ كثيراً قبل كتابة هذا الكتاب لما لموضوعه من حساسية واحتمال الانتقاء او التأويل الخاطئ وأتمنى ألاّ يحدُث ذلك. أعتقد أنه لا مفر من إعادة النظر إلى تاريخ علاقة الأقباط بالمسلمين حتى نستطيع أن نتخطى بعض المشاكل التي أصبحت جزءاً من حياتنا والتي أصبحت سهلة الاستفزاز. إنني أكتب هذا الكتاب بموضوعية قدر استطاعتي. قد يختلف معي البعض، وأتوقع ذلك، فالحقيقةُ ليست حكراً على أحد، ولكن لعلنا نكون موضوعيين في اختلافنا. في غياب الموضوعية تتدفع الأكاذيب والأساطير والمفتريات لتملأ عقولنا. إن موضوع هذا الكتاب استحوذ على قدرٍ كبيرٍ من تفكيري ولسنين عديدة، وها أنا أقدمه للقارئ كمصري أولاً وأخيراً ولعلني أكون وُفقت في أن أكون موضوعياً، ولكن الحكَم الأخير هــو القارئ.

دخول المسيحية لمصر

دخول المسيحية لمصر وحتى القرن السابع، اضطهاد المسيحيين في بداية المسيحسة، الخلافات اللاهوتية والسياسية التي ادت لانقسام المسيحية، مدرسة اللاهوت بالإسكندرية وروادهاوتاثيرها علي المسيحية، حركة الرهبنة القبطية وتأثيرها، الكنيسة والسياسة، دقلديانوس ونهاية عصر الاضطهاد الاول، حركة إثناسيوس لمقاومة الامبراطورية البيزنطية، سيطرة الكنيسة المصرية واضطهاد غير المسيحيين، تدمير مكتبة الإسكندرية وبعض المعابد القديمة، انفصال واستقلال الكنيسة القبطية، الاضطهاد الأعظم للأقباط وحتى دخول العرب.

بداية المسيحية في مصر

دخلت المسيحيةُ مصر منذ القرن الأول، حيث كانت العِلاقات بين أورشليم والإسكندرية قويةً وسريعةً بفعل التجارة ووجود الجالية اليهودية الكبيرة بالإسكندرية. كانت المسيحية في أوائل أيامها موجهةً لليهود، وتقول لنا تقاليد الكنيسة المصرية إن القديس مرقص هو الذي أدخل المسيحية لمصر، وتعتبرهُ الكنيسة أول البطاركة المصريين. كان أول من خلفه بعد استشهاده في الإسكندرية يهوديٌ اسمه حنانيا. تاريخ المسيحية في مصر وحتى أواخر القرن الثاني نكاد لا نعرف عنه إلا أقل القليل. ساويرس بن المقفع والذي كَتَب تاريخ البطاركة لم يترُك شيئاً يُذكر عن البطاركة الإحدى عشر الأوائل سوى سطور معدودة عن كل منهم، رغم أن بعضهم قد مكث في رئاسة الكنيسة أكثر من عشرين عاماً. وعلى سبيل المثال يذكر ساويرس بن المقفع عن أنيانوس (حنانيا) وهو الذي خلف القديس مُرقص وكان تبعاً لتقاليد الكنيسة رئيسها لمدة ٢٢ عاما ما يلي :

لما توفي الإنجيلي مرقص رسول السيد يسوع المسيح جاء بعده اريانوس بطركاً وكثر الإخوة المؤمنون بالمسيح ووسمهم كهنةً وخُداماً وأقام اثنتين وعشرين سنةً وتنيّح في العشرين من هتور السنة الثانية من ملك دوماتيوس ملك رومية[1].

وهكذا فنحن لا نعرف شيئاً يُذكر عن تاريخ البطاركة، وهم رؤساء الكنيسة، حتى اختير ديميتريوس بطريركاً سنة ١٨٩وكان نرتيبه الثاني عشر بعد القديس مرقس. وحتى ذلك البطريرك لا نعرف عنه الكثير سوي قصة اختيارة بطريركاً، ثم قصة إدانته للعلاّمة أوريجانوس الذي رأس مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وكان ألمع علمائِها، بل احد ألمع علماء المسيحية ولقرون عديدة. قصة اختيار هذا البطريرك لها مدلولات وتستحق الذكر لأنها قصةٌ شيقةٌ من الممكن اعتبارها نوعاً من الأدب القبطي، وإن كنت أعتقد أنه يجب أن تؤخذ في مدلولها الرمزي وليس الحرفي، وسأذكرها باختصار من مذكرات ساويرس بن المقفع[2]. تقول القصة إن ذلك البطريرك اختير للسدة المرقسية، وكان متزوجاً وكان هناك اعتراض على اختيار بطريرك متزوج. تقول القصة :

ان البطريرك السابق لديميتريوس، يوليانوس جاء اليه ملاك الرب في منامه ليلة وفاته وقال له : الذي يدخل لك غد بعنقود عنب هو البطرك بعدك، فلما اصبح جاء اليه رجل فلاح لا يقرا ولا يكتب اسمه ديمتريوس، وكان قد خرج يقلم كرمه فوجد فيه عنقود عنب في غير زمان العنب فجاء به الي البطرك فقال البطرك للشعب الذين حاضرين عنده: هذا بطرككم كما قال لي ملاك الرب البارحه. فاخذوه قهرا وقيدوه بقيد حديد فكرزوه بطركا وحلت عليه النعمه الاهيه .... وتستمر القصه هكذا:بناء على إرشاد أحد الملائكة لذلك البطريرك، في أحد الأيام وبعد خدمة القداس طلب ديميتريوس إحضار بعض الفحم المتوهج ووضعه علي كل من جبته

---

(١) تاريخ البطاركة. صمونيل السورياني سنة ١٩٨٤ صفحة ٢٥ وكذلك تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع. إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين سنة ٢٠٠٦. الجزء الأول ص ١٦٦.

(٢) عبد العزيز جمال الدين. المرجع السابق ص ١٩٠ وكذلك تاريخ البطاركة. صمونيل السورياني.المرجع السابق. ص ٢٩.

(الرداء الخارجي) وكذلك علي جبة زوجتة وسار بهما في الكنيسة ولم تحترق الملابس او اي منهم، واعتبرت تلك المعجزه دليل علي صدق ديمتريوس وعلي انه لم يمارس الجنس مع زوجتة طوال فترة زواجه. وباقي القصة تقول انه منذ ان تزوج ديميتريوس كان ملاك الرب يأتي كل ليلة ويرقد بينهما ويغطي كل منهما باحد جناحية فلا يحدث اتصالٌ بينهما حتى الصباح حين يتركهم الملاك. أمثال هذه القصص في التاريخ القبطي، وهيَ كثيرة تحتاج لبعض التفسير وإن لا تؤخذ وكأنها قصة حدثت فعلاً، بل إنها نوعٌ من الأساطير لها معنى رمزي.

مثل هذا التاريخ كتبه أشخاصٌ قد يصيبهم الصواب أو الخطأ. وغالباً ما تكون تلك القصة وأمثالها كُتبت من تقليد مرويّ بعد مدة قد تكون طويلة- بل قد تكون مئات السنين- وقد تحورت لتناسب عقلية الكثيرين في ذلك الزمان إيماناً منهم بالمعجزات أو لتقوي من إيمانهم في زمن الاضطهاد. إن التاريخ لم يكتبه متخصصون مرتبطون بمنهج علمي إلا في العصور الحديثة، ما عدا قلةً قليلةً من القدماء. وحتى ذلك لا يخلو من انحياز الكاتب لوجهة نظر معينة. وديمتريوس المشار إليه، يصفه رأفت عبد الحميد وكذلك (Roger S. Bagnall and Ewa Wipszycka)[١] بأنه امتلك مقدرةً فائقةً على إدارة شئون الكنيسة وأنه تحت رعايته شهدت الكنيسة عهداً زاهراً؛ وان لم يكن هو نفسه علي نفس القدر من البراعة الادبية لمن درسوا بمدرسة اللاهوت ولكن ذلك لم يقف عقبه في تعيين أوريجانوس رئيساً لمدرسة اللاهوت وهو دون العشرين. وقد أبدى ديمتريوس اهتماماً بتلك المدرسة الوليدة التي تألقت وأرست أسس الدراسات اللاهوتية والتي كان من ضمنها التفسير المجازي المستنير والمتأثر بالفلسفة اليونانية. بدأت معلوماتنا تزداد عن المسيحية الأولى منذ أواخر القرن الثاني حين بدأ بعض النشاط المسيحي يظهر في الساحة وخصوصاً نشاط مدرسة الإسكندرية اللاهوتية.

---

(١) رأفت عبد الحميد. الدولة والكنيسة. الجزء الثالث. دار المعارف. الطبعة الثانية. سنة ١٩٨٣. ص ٢٥.
وكذلك Roger S. Bagnall . Early Christian Books in Egypt. Princeton University Press . 2009. Page 5-7.

كانت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية أول مدرسة لاهوت في العالم المسيحي. أُنشِئت تلك المدرسة في منتصف القرن الثاني وكانت شعاع نورٍ ساهم في توجيه المسيحية في قرونها الأولى وما زال تأثيرها باقياً إلى يومنا هذا. لقد أصبح بعضُ خريجي تلك المدرسة كهنةً وأساقفة وبطاركة ليس في داخل مصر فقط، بل وخارجها أيضاً. كانت الكنيسة المصرية هي المرجع اللاهوتي للمسيحية وحتى منتصف القرن الخامس حين انفصلت الكنيسة المصرية وبعض الكنائس الشرقية عن الكنائس الغربية. لم يضاهِ علم وعظمة الكنيسة المصرية أيٌّ من كنائس روما أو القسطنطينية. لولا موقف وعلم كنيسة الإسكندرية لكان من الممكن لبعض الاتجاهات المسيحية التي ظهرت أن تُغيّر شكل ومصير المسيحية.

نحنُ لا نعرف كيف بدأت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، إلا إن وجودها تأثر بوجود مكتبة الإسكندرية القديمة وعلمائها، والتي كانت أكبر مؤسسة ثقافية وعلمية في العالم في ذلك الوقت وكانت تكتظُ بالمثُقفين والفلاسفة. كان للمسيحية أن تتعلم من فلاسفة تلك المكتبة ومدارسها حتى تستطيع حوارهم والدفاع عن الدين الجديد. لقد تعلمت مدرسة اللاهوت الكثير من مكتبة الإسكندرية وعلمائها وأصبحت تدرِّس بالإضافة للدين المسيحي علوم الفلسفة والرياضيات واللغات. كان أول رئيسٍ معروفٍ لتلك المدرسة المسيحية هو أثيناغوراس في منتصف القرن الثاني ويقال إنه كان فليسوفاً يرأس أحد كراسي الأكاديمية بالميوزيم بالإسكندرية[1].

رأس المدرسة بعد أثيناغوراس، بنتينوس الذي تعتقد الكنيسة أنه أدخل

---

(١) مدرسة الإسكندرية مع سيرة وكتابات أثيناغوراس وبنتينوس. سلسلة آباء الكنيسة. دار فيلوباترون للترجمة والنشر. سنة ١٩٩٦. صفحة ٥١.

الأبجدية القبطية مستخدماً الحروف اليونانية، مضيفاً إليها سبعة حروفٍ من اللهجة الديموطيقية القديمة. ويعتقدُ البعض أن ترجمة الإنجيل ابتدأت في تلك الحقبة[١]، إلا إن الموسوعة القبطية ترى أن الإنجيل لم تتم ترجمته إلا في منتصف القرن الخامس[٢]. ترك بنتينوس المدرسة وذهب للهند في مهمة كلفة بها البطريرك.

بعد هذا الجيل جاء اثنان من الرواد الفطاحل واللذان تركا بصماتهما على المسيحية. كان الأول تيطس فلافيوس إكليمنضس والذي عرف باسم كليمنضس السكندري وهو يوناني الأصل. رأس كليمنضس المدرسة منذ حوالي عام ١٩٠. كان هذا العالم من أوائل من استخدموا التفسير المجازي في بعض تفسيراته للإنجيل. وتعد تفسيراته متحررةً من الجمود. ومن أقواله إن "كل المعرفة مقدسة ومهما تكن". إنه شأن سُقراط الذي قال إن الجهل أسوأ من الخطيئة. لقد حارب كليمنضس الخرافات العقائدية وطوَّع الفلسفة اليونانية لدراسة المسيحية وخصوصاً الأفلاطونية الحديثة، بل قال إن من يخشى دراسة الفلسفة كالطفل الذي يخشى من الأشباح. لقد كَتبَ ذلك الفليسوف ثلاثة كتب وصلت إلينا وهي (نصح لليونانيين)، (المربي)، وكتاب جمع فيه بعض المذكرات وسماه (المتفرقات). وأكثر كتبه شهرةً هو كِتاب المُربي وهو عن التربية والسلوكيات العامة، منها تقاليدُ الطعام والشراب وسلوك المآدب، استخدام العطور والملابس. هكذا بدأت المدرسة تهتم بالتعليم العام والسلوكيات[٣].

سنة٢٠٢ اضطر كليمنضس للجوء لفلسطين هروباً من التعصب الروماني.أما

---

(١) مدرسة الإسكندرية مع سيرة وكتابات أثيناغوراس وبنتينوس. سلسلة آباء الكنيسة. دار فيلوباترون للترجمة والنشر. سنة ١٩٩٦. صفحة ١٤٢.

(2) The Coptic Encyclopedia. Aziz S. Atia, editor in Chief. Macmillan Publishing Company. New York, 1991 volume 2, page 604 .

(٣) المربي. للقديس اكليمنضس السكندري. سلسلة آباء الكنيسة. دار فيلوباترون للترجمة والنشر. سنة ١٩٩٥. وكذلك من نفس الدار الكتاب الثاني. الجزء الأول. سنة ١٩٩٢.

الرائد الآخر لتلك المدرسة فهو أوريجانوس والذي يعد أعظم فلاسفة المسيحية في قرونها الأولى، لقد تتلمذ على يديه الكثير ممن أصبحوا كهنةً وأساقفةً ومطارنةً ومن خارج مصر أيضاً. كان أوريجانوس يحاضر في بلاد كثيرةٍ خارج مصر من شبه الجزيرة العربية وحتى بلاد اليونان وروما، لقد كان عبقرياً من طراز فريد. لقد استشهد والده وهو دون العشرين، وأصبح مسئولاً عن والدته وستة إخوة. تتلمذ أوريجانوس على يدي كليمنضس واشترك معه في التدريس وخلفه في رئاسة المدرسة وهو دون العشرين.

انطلق أوريجانوس بالمدرسة التي أصبحت مؤسسةً أكاديميةً مُهِمّة في عصره، فدرّس بها بجانب علوم اللاهوت والفلسفة علوم الطبيعة والفلك والموسيقى. ومع أنه كان رئيساً للمدرسة إلا أنه كان دائباً على تحصيل العِلم فكان يحضر محاضرات أمونيوس صاحب المدرسة الأفلاطونية الحديثة وقد كان مسيحياً إلا أنه تركها، ولكن لم يمنع ذلك أوريجانوس من حضور محاضراته بالميوزيم. كان أوريجانوس عالماً وفيلسوفاً من طراز نادر وكان سابقاً لعصره فقد كتب ما يقرُب من ٦٠٠ كتاب او كتيب ورسالة، بل يعتقد البعض أن العدد قد يكون أكثر من ذلك. كان أوريجانوس يعتقد أن فهم الكتاب المقدس يتوقف على الإنسان (وهو نفس ما قاله علي بن أبي طالب من أن القرآن لا ينطق بل ينطق به الرجال). اعتقد أوريجانوس أن وراء عِبارات الإنجيل معنيين أحدهما المعنى الظاهري الحرفي، ثم التفسير الرمزي أو المجازي، وهو ليس للعامة بل للخاصة، ويستلزم موهبة وتعمق روحي ولا يصل إلية إلا الفئة القليلة. وقد قال رسول الإسلام إن وراء ظواهر نصوص الآيات علماً لا يتبدى لمن يقف عند ظواهرها[1] وهو نفس ما قاله أوريجانوس.

قد يكون أهم أعمال أوريجانوس هو السداسية (Hixapla) وهو يمثل أول محُاولة قامت على مستوي علمي في دراسة نصوص العهد القديم من الكتاب المقدس (كتابٌ منذ بدِاية الخلق وحتى قبل المسيح وقد نُقِّح وأُعيدت كتابته خمس

(١) محمد عمارة. تيارات الفكر الإسلامي. كتاب الهلال. سنة ١٩٨٢. ص ١٠٤.

مرات). وشملت السداسية ستة أعمدة موازية للنص العبري القديم والنص العبري بحروف يونانية والترجمة السبعينية (ترجمها سبعون حاخاماً في مدينة الإسكندرية ولذلك سمُيت الترجمة السبعينية) وثلاثة نصوص يونانية مختلفة. وقد استغرق ذلك ٢٨عاماً، وقد كتبت في موسوعة من ٥٠ كتاباً. وتشمل بعض أعماله الأخرى خمسة عشر كتاباً او كتيب عن إنجيل مُرقص وخمسة عشر كتاباً عن إنجيل متى واثنين وثلاثين كتاباً عن إنجيل يوحنا وأربعة كتب عن إنجيل لوقا. هذا بالإضافة إلى كتابٍ عن تعاليم أفلاطون وكتابٍ عن المبادئ وردود مطوّلة عن الفلاسفة المعادين للمسيحية، وكُتب أخرى كثيرة. لم يكن ممكناً أن يكتب أوريجانوس هذا الكم الهائل دون ان يساندة الكثيرون. لقد تولاه أحد المقتدرين ومولة بسكرتارية وكثيرٍ من الكتبة. وربما مثّل ذلك أول دارٍ للنّشر في العهود القديمة. قد لا يصدق البعض أن هذا الكم الهائل من الممكن أن يصدره إنسان واحد، ولكن قد يصدق القارئ ذلك إذا عرف أنه في مكتبة جامعة ييل الامريكية (Yale) يوجد أكثر من ٨٥٠ مرجعاً عن هذا العلاّمة المصري القديم والذي يكاد لا يعرف عنه المصريون أي شيء[1].

اضطُر أوريجانوس لترك مصر إلى فلسطين سنة ٢٣٣ وبقي بها يزاول الكتابة حتى تُوفي ودُفِن هُناك سنة ٢٥٤. لماذا ترك أوريجانوس مصر؟ ولماذا صَدرت ضده إدانات كنسية عديدة؟ بل وكفروه حتّى بعد مماته؟ لقد اعتمد أوريجانوس على مبادئ الفلسفة اليونانية في تفسيره المجازي. وقد لا يوافق البعض على بعض تفسيراته، وهو أمر طبيعي، حيث إن التفسير مجهودٌ بشري، ولكن هذا لا يبرر كل ما حدث ضده. صدرت ضده قرارات كَنَسية بالهرطقة وأدين سنة ٢٣١ من بطريرك الإسكندرية ديميتريوس. وقد قال يوسابيوس القيصري مؤرخ المسيحية الأول[2]:

---

(١) The Coptic Encyclopedia Volume 6 page 184. وأيضاً القُمّص تادرس يعقوب ملطي. آباء مدرسة الإسكندرية الأولون. كنيسة مارجرجس بسبورتنج بالإسكندرية، سنة ١٩٨٠ ص ١٢٧. وكذلك فكري أندراوس. مجلة الهلال. سبتمبر سنة ٢٠٠٣. صفحة ١٠٦.

(٢) يوسابيوس القيصري. تاريخ الكنيسة. ترجمة القُمّص مرقس داود. مكتبة المحبة. الطبعة الثانية. سنة١٩٧٩. ص٢٩٤.

إن عوامل حرمان أوريجانوس تعود إلى الضعف البشري وغيرة ديمتريوس البطريرك من شهرة أوريجانوس الواسعة. لم تبدأ إدانة أعماله الحقيقية إلا بعد أكثر من قرن من وفاته. فأدين من كنائس مصر والقسطنطينية وروما. أدانه البطريرك المصري ثاوفيلس، وكانت الإدانة لأسباب سياسية تتعلق بسيطرة هذا البطريرك على رهبان منطقة نتريا جنوب الإسكندرية عندما أُثيرَت مُشكِلة صورة الله وهل هي على صورة الإنسان أم أنها على صورته الروحية او الرمزية كما قال أوريجانوس. استخدم ثاوفيليس العنف ضد رهبان نتريا، فحرم وشرَّد العديد من الرهبان وحرق قلاليهم ثم رأس ثاوفيلس مجمعاً محلياً قرر فيه إدانة أوريجانوس سنة ٤٠٣[١]. ثم جاءت الإدانة الثالثة سنة ٥٤٢ في مجمعٍ عُقد في القسطنطينية، ثم سنة ٥٤٣ حين أيد الامبراطور Justinian تلك القرارات. بذلك يكون قد أدين من الكنيسة والدولة.

حتى لو كانت بعض أسباب إدانة أوريجانوس صحيحةً من وجهة نظر اللاهوت المحافظ، فهل كانت تلك المجامع عادلة لإدانة هذا الكَم الهائل من الأعمال الجليلة؟ ولكن كان ذلك عصر ظلامٍ ووصاية من الكنيسة والدولة على ما يُكتب وما يُقرأ. في تلك الفترة التحمت الكنيسة بالدولة، واعتقد البعض أن وجود خلاف كنسي يهدد وحدة الامبراطورية. منذ ذلك الوقت أصبحت قراءة أعمال اوريجانوس مُحرّمةً، بل أيضاً كان مجرد الاحتفاظ بها يجر صاحبها إلى المتاعب فدمرت أغلب أعماله الأصلية. ولكن من حسن الحظ حُفِظت بعض أعماله التي تُرجِمت إلى اللاتينية أو التي وجدت طريقها في كتابات الآخرين.

لم يكن أوريجانوس فيلسوفاً ولم يكُن المدافع عن الأرثوذكسية ولم يكن ناسكاً ولم يكُن مفسراً شاملاً للكتِاب المقدس ولم يكن رجلاً روحانياً ولم يكُن رجل الكنيسة.. بل كان كل ذلك. منذ بداية عصر التنوير الأوروبي بدأ العالم الغربي يهتم

---

(١) الأب متي المسكين. الرّهبَنة القبطية في عصر القديس الأنبا مقار. الشركة المصرية للطباعة والنشر. سنة ١٩٧٢. ص ٢٤٠. وأيضاً The Coptic Encyclopedia , Aziz S. Atiya , Editor in chief , 1991 Volume 6 , pages 1846 – 1856.

بهذا الفليسوف المصري القديم. منذ عام ١٩٧٣ تُعقد مؤتمرات دولية عن اعمال أوريجانوس (Origeniana) ونادراً جداً ما يشترك في تلك المؤتمرات مصريون. إن أوريجانوس أصبح يخص الحاضر والمستقبل.

لقد حاولت إيريس حبيب المصري، والتي كتبت العديد من الكتب عن تاريخ الكنيسة القبطية، أن تُقنع الأنبا كيرلس السادس (١٩٥٩ - ١٩٧١) أن يُنهي أو يلغي قرار حرمان أوريجانوس ولكن البطريرك الطيب قال لها " يا بنتي أنا زي ما استلمتها سأُسلّمها". كان الأنبا كيرلس يعني أنه لن يحدث أي تغيير فيما كتبه من سبقوه. لا أعتقد أن الكنيسة المصرية الحالية قادرة على إلغاء قرار الحرمان، وما قيمة إلغاء قرار الحرمان على أي حال؟ ما نتمناه أن تنشُر مصر أو بعض كُتّاب التاريخ القبطي بعضاً من تلك الأعمال على الأقل من باب معرفة تاريخنا.

بعد أوريجانوس رَأَس المدرسةَ نخبةٌ من المستنيرين، وأصبح بعضُهم رئيساً للكنيسة، ولكن لم يكن أيٌّ منهم على مستوى كليمنضس أو أوريجانوس، حيث إن الأخير كان فلتةً لا يجودُ الزمان بكثيرٍ مثلها. لقد تخرَّجَ مِن تلك المدرسة بعضٌ ممن أصبحوا أساقفةً داخل وخارج مصر. كان أحد رؤساء المدرسة بعد أوريجانوس هو هيراقلاس، والذي أصبح فيما بعد بطريرك الإسكندرية سنة ٢٢٤ بعد ديمتريوس. وقد حاول هيراقلاس أن يعيد أوريجانوس للإسكندرية، إلا إن الأخير رفض وفضل البقاء في فلسطين واستمر في أبحاثه وكتاباته. هذا البطريرك كان أول من أطلق عليه لَقَب "بابا" والتي تعني أب وقد أُطلِق عليه هذا اللقب عندما رفع عدد الأسقفيات المحلية التابعة له إلى عشرين أسقفية[١]. في القرن الحادي عشر عقد غروغوريوس السابع أسقف روما مجمعاً حرَّم فيه استعمال لقب "بابا" لغير أسقف روما[٢]، وان لم يعترف بذلك إلا الكنيسة الكاثوليكية وان كانت اكبر الكنائس المسيحية.

---

(١) رأفت عبد الحميد. الدولة والكنيسة. ج٣. دار المعارف. ١٩٨٣ ص ٣٣.

(٢) القمص تادرس يعقوب ملطي. آباء مدرسة الإسكندرية الأولون.أقوال الآباء وكتاباتهم.كنيسة ماري جرجس. سبورتنج. الإسكندرية. ١٩٨٠. ص ٢٧١.

من أواخر من رأسوا تلك المدرسة ديديموس (٣٤٦ – ٣٩٨) وكان ضريراً ولكنهُ رأس المدرسة بكفاءةٍ، بل إنه أيضاً اخترع الحروف البارزة بالنحت ليقرأها بأللمس. بهذا سبق برايل بخمسة عشر قرناً في اختراع طريقة تمُكّن مَن فقد بصره من القراءة. بل إنه كَتبَ أيضاً كتاباً عن المبادئ أظهر فيه خطأً من اتهم أوريجانوس بالضلال، وقال " الذين يتهمون أوريجانوس بالهرطقة هم عديمو الفهم وليس لديهم قدرة على إدراك الأفكار العالية والحكمة الغامضة التي امتاز بها ذلك الرجل العظيم الذي يعد من النوابغ المشهورين"[١].هناك تشابه بين حركة تلك المدرسة في التفسير المجازي المستتير في المسيحية والمبني على الفلسفة اليونانية وحركة التفسير المجازي التي أوجدها رواد المعتزلة في الإسلام خلال الدولة العباسية، وكذلك تفسيرات ابن رشد والتي أيضا حوربت والتزم فقهاء الإسلام بخط محافظ وبالتفسير الحرفي للنص، كما فعلت قيادات الكنائس حتى بداية عصر التنوير في أوروبا.

بعد القرن الرابع اختفت تلك المدرسة حين أصبح البطاركة والاساقفة أصحاب الحل والربط وفي غير احتياجٍ لتلك المدرسة، ويقال إنها انتقلت ببعض كتبها إلى دير الأنبا مقار بوادي النطرون. هذا الدير أصبح المقر البابوي للأقباط بعد انفصال الكنيسة المصرية سنة ٤٥١ حين حرَّمت الامبراطورية الرومانية بقاء البطريرك المصري في الإسكندرية واستبدلوه بآخر مُعيّن من قِبَل الامبراطور. وقد يُفسِّر لنا هذا أن هذا الدير أَخرَج ٥٢ بطريركاً من تِعداد البطاركة البالغ عددهم ١١٧[٢].

---

(١) القُمّص تادرس يعقوب ملطي. مدرسة الآباء وكتاباتهم. علم الباترولوجي. آباء مدرسة الإسكندرية الأولون. كنيسة مارجرحس. سبورتنج. الإسكندرية. سنة ١٩٨٠. ص ٢٩٣.

(٢) مدرسة الإسكندرية مع سيرة أثيناغوراس وبنتينوس. سلسلة آباء الكنيسة. دار فيلوباترون للترجمة والنشر. ١٩٩٦. صفحة ٢٥.

خلال القرنين الثالث والرابع عانى المصريون من الاضطهاد الاقتصادي والديني والسياسي والمعنوي. لقد كان المصريون تحت الاستعمار الروماني يُعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية والثالثة[1]. بل وكان يهود الإسكندرية في مرتبةٍ أعلى من المصريين. كانت المسيحية الوليدة في ذلك الوقت تعتقد أن المسيح سيعود لخلاص البشرية قريباً، بل وربما خلال حياتهم لتحقيق الحياة الأبدية ويخلصهم من مصاعب الحياة وينقلهم إلى الحياة الأبدية السعيدة. في هذا المناخ ابتدأت الحياة الرهبانية في مصر وترعرعت. خرجت أعداد غفيرة من المصريين للنسك والعبادة على أطراف البلاد، ثم توغلوا داخل الصحراء. تطورت الرهبنة خلال أقل من قرن من الزمان وأصبح لها مناهج وطقوس وتعلم منها باقي العالم المسيحي. أصبحت زيارة هؤلاء النُسَّاك في الصحارى المصرية مكملةً لزيارة الأراضي المقدسة. كان أول هؤلاء الرهبان المصريين القديس أنطونيوس (٢٥٠ – ٣٥٤) الذي قرر أن يترُك العمران ويتوحد في المقابِر القديمة ثم في الصحراء الجوانية، يكاد يكون منفرداً تماماً قُرب جبل القلزم علي بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً غرب خليج السويس. عاش في مغارة في أعلى الجبل. هناك عثر على غايته وكان بالمكان عيون ماء في الوادي ونخيل وبعض الأعشاب. يبدو أن بُعد مغارته السكنية عن مكان الماء حقق له لياقةً بدنيةً جيدةً وكان ناسكاً في طعامه، وقد مكَّنه ذلك من أن يعيش لأكثر من مائة عام. بعد سنين طويلة، وكثير من عذاب الوحدة توصل أنطونيوس إلى حياةٍ روحية عالية، فذاع صيته وكثُرَت كراماته وبدأ يتجمع حوله بعض المريدين ومن يريدون أن يتبعوا خطاه. كان هذا أول تجمع رهباني مسيحي في العالم، وإن كانت الرهبنة البوذية قد سبقت المسيحية بحوالي سبعمائة سنة وكلتاهما من الممكن أن

---

(1) Naphtali Lewis. Life in Egypt Under Roman Rule. Oxford1983. Clarendon Press.

ترتقي بالإنسان لحالة روحانية عالية كما هو حال الصوفية في الإسلام قبل أن يتحول التصوف إلى دروشة. هذا التجمع الرَّهبَاني استمر وحتى الآن ما عدا فترة ما بين ١٤١٩ و ١٤٤١، ولا ندري الكثير عن سبب ذلك[١].

أصبح أنطونيوس أسطورةً خلال حياته وبعد مماته وأثّر في مسار النسك وفي مسيرة الرهبنة المسيحية. كتب أنطويوس سبع رسائل عن حياة النسك وكان الاعتقاد السائد أن أنطونيوس إنسان بسيط، إلا أن التحليل الحديث لتلك الرسائل أثبت أنهُ كان على عِلم بفلسفة الإغريق وعلى الأقل ببعض كتابات أوريجانوس وقد استخدمها في بعض رسائله[٢]. وقد كَتَب بعض معاصريه سيرة حياته العطِرة وإن كان أهمها ما كتبه بطريرك الإسكندرية في ذلك الوقت وهو الأنبا اثناسيوس[٣].

كان تنظيم الرهبنة الأنطونية تنظيماً بسيطاً خالياً من الإدارة والنظام الذي نشأ فيما بعد في مختلف الأنظمة الرهبانية. كان من يرغب في مجاورة أنطونيوس عليه أن يبني له عشة صغيرةً أو كهفاً في الجبل بجوار مكان إقامة أنطونيوس. يُعد دير القديس أنطونيوس أقدم أثر مسيحي في مصر. كان القرن الرابع والخامس يمثلان انفجاراً في الحركة الرهبانية في العديد من المناطق في صحراء مصر. في المناطق الصحراوية غرب الدلتا كان تجمع "تتريا" قرب جبل البرنوج جنوب غرب دمنهور، وتجمع آخر في منطقة الفلالي وكذلك تجمع وادي النطرون، وكانت كل هذه التجمعات تكتظ بالآف الرهبان. لم يبقً من كل هذه التجمعات إلا أربعة أديرة في وادي النطرون وهي أديرة الأنبا بيشوي، البرموس، ودير الأنبا مقار ودير السوريان. وكانت هذه الأديرة بالإضافة إلى الرهبان المصريين يقطنها رهبانٌ من مناطق العالم المسيحي القديم. أما الآن فلا يزيد عدد الرهبان على ١٠٠٠ أو ١٥٠٠ راهب، وذلك بعد النهضة الديرية التي بدأت في النصف الثاني من القرن الماضي. قبل تلك النهضة كان عدد الرهبان لا يتجاوز المائتين، وسنعود لذلك.

---

(١) فكري أندراوس. زيارة أول دير في العالم. مجلة الهلال.ابريل سنة ٢٠٠٥. ص ١٠٨.

(2) Samuel Rubenson. The letters of St. Antony. Fortress press. 1995. page 60

(٣) الأنبا أنطونيوس. مكتبة دير الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر سنة ١٩٩٤.

في صعيد مصر أنشأ الانبا باخوميوس (الاسم يعني النسر في اللغة الهيروغليفية) مدرسة رهبانية جديدة. كان أهم وأكبر التجمعات الرهبانية في مصر هي تلك التي أنشأها باخوميوس بالقرب من الأقصر. كانت تلك التجمعات نظاماً جديداً ودقيقاً للرهبنة، فرتب عملاً لكل راهب ونَظَّم مواعيد ومناهج للصلاة ومواعيد ثابتة للطعام، رتَّب مكان إقامة الرهبان كل ثلاثة في غرفة، وحدد زياً معيناً للرهبان مازال يُعمَل ببعضه للآن. عين باخوميوس طاقماً إدارياً للإشراف على الدير، ورتَّب اجتماعات سنوية للرهبان لانتخاب المشرفين على الدير واهتم بالتعليم. عيّن طائفةً لنسخ الكتب وأخرى للزراعة وثالثةً للمخازن ومسك الدفاتر، ومجموعة أخرى للخدمة خارج الدير ومنهم من كان يساعد الفلاحين في موسم الزراعة والحصاد.

أنشأ باخوميوس في حياته أحد عشر ديراً منها اثنان للراهبات وكانت تلك الأديرة مؤسساتٍ متكاملة وحديثة في نظم إدارتها. توفي باخوميوس سنة ٣٤٦ عن واحد وخمسين عاماً بعد أن أصيب بالطاعون. لقد كان باخوميوس رائد الرهبنة المنظَّمة والتي تبعها بعض رهبان الغرب وخصوصاً رهبان البندكتيين(Bendictine).

لقد اكتُشِف بجوار أحد أديرة باخوميوس ما أطلق عليها فيما بعد مكتبة نجع حمادي والتي بها أناجيل لم تكن معروفةً من قبل ويعتقد أنها كانت موجودة في أحد الأديرة الباخومية، وعندما حرم البطريرك إثناسيوس سنة ٣٦٧ تلك الأناجيل، دفنها بعض الرهبان بجوار الدير إلى أن اكتشفها فلاح يبحث عن سباخ سنة ١٩٤٥. هذه الأناجيل موجودة بالمتحف القبطي بالقاهرة، وقد ترجمت أو البعض منها للغات كثيرة[١]. إلا أنها لم يُترجم للعربية إلا فقرات قليلة منها[٢]. لم يقدر لأديرة النظام الباخومي أن تستمر لأكثر من قرن من الزمان حيث يبدو أن الطبيعة المنظمة لتلك الأديرة لم تناسب المصريين بينما ترعرع هذا النظام في أوروبا.

---

(1) Jean Doresse , The Secret books of the Egyptian Gnostics , MJF Books New York 1986.

(٢) فكري أندراوس، مسيحية مصر في قرونها الأولى. مجلة الكتب وجهات نظر، يناير. سنة ٢٠٠٥. ص ٣٧.

أما الراهب الانبا شنودة (٣٣٣- ٤٥١ م) فقد أنشأ ديراً كبيراً بجوار مدينة أخميم يسمى الدير الابيض على نظام أديرة باخوميوس وقد تجمَّع في هذا الدير حوالي ٢٢٠٠ راهب بالإضافة إلى دير للراهبات تجمع به حوالي ١٨٠٠ راهبة. وكان هذا الدير الكبير مبنياً بحجارة كبيرة أخذت من المعابد الفرعونية (بعد محاربة الأديان القديمة وتدمير مَعَابِدها). كان شنودة يُعلِّم الرهبان الأميين القراءة والكتابة، وكان هناك نظامٌ صارمٌ داخل الدير. كان هذا الدير لقربه من العمران ولشخصية شنودة القيادية أن فتح أبوابه للأهالي مقدماً إليهم ما يحتاجونه من طعام وخدمات، وكان الأهالي يلجأون إليه لحل مشاكلهم. لقد كان شنودة (والاسم يعني ابن الإله بالهيروغليفية) زعيماً آخر في الصعيد، فبالإضافة إلى دوره الديني، كثيراً ما كان يهاجم الظلم الواقع على الفلاَّحين لحساب الأغنياء والذين غالباً ما كانوا يونانيين ورومانين. كان شنودة شخصيةً قياديةً فريدةً وكان خطيباً مفوهاً حفظت لنا مكتبة الدير الأبيض بعضاً من ذلك، ومازالت بعض عظاته تتلى في الكنيسة المصرية للآن. لقد هذَّبَ شنودة اللغة القبطية باللهجة الصَّعيدية منها وأخرج منها الكلمات اليونانية. لقد ترك شنودة لنا تراثاً أدبياً ضخماً هو في الواقع من أروع صفحات الأدب القبطي(١).

كانت الحركة الديرية في مصر منفصلةً ومستقلةً عن الكنيسة إلى أن جاء البطريرك إثناثيوس في القرن الرابع، فجعلها تحت سيطرة الكنيسة وأصبح الرهبان سنداً للكنيسة وأحياناً سنداً لرئيس الكنيسة. لقد اشتهر الرهبانُ المصريون بالروحانية، ليس في مصر فقط بل خارج مصر أيضاً، وقد زارَ بعضُ الملوك والرؤساء القدامى هؤلاء النُسَّاك للتبرُّك أو الشفاء من بعض الأمراض المستعصية وترهبن بالأديرة المصرية الكثيرُ من الأجانب. ما بين القرنين الخامس والتاسع تأثرت انجلترا وإيرلندا بالرهبنة المصرية، وهناك أدلةٌ عن ذلك وليس من المستبعد أن يكون بعض الرهبان المصريين قد بشَّروا بالمسيحية في تلك البلاد(٢).

---

(١) بانوب حبشي. صور من تاريخ القبط. مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي. سنة ١٩٥٠ ص ١١١- ١٦٧.

(2) The Coptic Encyclopedia vol.2. 1991 p. 416.

هذه الأديرة- وخصوصاً دير أبو مقار- الذي حفظ لمصر ولفترة طويلة بعضاً من العلوم القديمة وكثيراً من الكتب والمخطوطات قبل ان تتدهور أحوالها[١]. احتفظ هذا الديرُ بكثيرٍ من المعلومات عن التراث القبطي حتى بداية القرن السادس عشر، عندما بدأت أوروبا تستيقظ وتكتشف باقي العالم وتنهب ثروات الشعوب وآثارها والتي من ضمنها الآثار والمخطوطات القبطية، وقد أرسل باباوات روما الكثيير من "تجار الشنطة" لشراء أو سرقة ما يمكنهم سرقته أو شرائه. وقد ساعد على ذلك تدهور حال الأديرة المادية والثقافية والمعنوية. نُهِبت الكتب والمخطوطات النادرة بقروش قليلة أو بدون مقابل، وقد غرق بعضُها في النهر أثناء انتقال بعض تجار الشنطة[٢]. اختَفَت بعض المخطوطات المهمة، ولولا أن ترجم بعضهاللغه الامهرية ونقلت لإثيوبيا لما وَجدنا مثلا مخطوطة حنا النقيوسي الذي أرَّخ عصر دخول العرب مصر[٣].

---

(١) الأب متي المسكين. الرهبنة القبطية في عصر القديس أبو مقار. مكتبة دير أبو مقار. سنة ١٩٢٧.

(2) Barbara Watterson. Coptic Egypt. Scottish Academic Press. 1999 pages 102m 117, 160

(٣) عمر صابر عبد الجليل. تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي. رؤية قبطية للفتح الإسلامي. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. سنة ٢٠٠٣. ص ٥.

من المؤكد أن المسيحية بدأت تنتشِر في مصر وفي حوض البحر الأبيض منذ القرن الأول، ولكن لم يكُن انتشاراً سريعاً كما قد يتصور البعض، حيث إن عددهم لم يزدد كثيراً إلا في أوائل القرن الثالث ولم تحقق المسيحية انتصاراً إلا في أوائل القرن الرابع. بدأ اضطهاد المسيحيين بنيرون (سنة٥٤-٥٩)حين أحرق مدينة روما، ولإرضاء الجماهير واتهم المسيحيين بحرقها، فثار ضدهم "الوثنيون". كان هذا الامبراطور مختلاً عقلياً، فقد قتل أمه وكذلك زوجته، وقد حكم عليه السنت الروماني بالقتل سنة ٥٩. كانت الإمبراطورية متعددةَ الأديان ولم يكن هناك تعصب يذكر ضد المسيحية في بداية عهدها وخصوصاً أن المسيحية في البداية كانت موجهةً لليهود واعتبرت أنها مذهب يهوديّ. ولكن عندما بدأ عدُد المسيحيين يزداد تنبهت الطبقة العليا والمتوسطة وقيادات الأديان الأخرى إن هذه الديانة الجديدة تنادي بإله واحد وبالمساواة والأخذ بيد الفقراء. بدأ الاضطهاد وزاد أو قلَّ تبعاً لظروف الحكم، وكان الحكام الضُعفاء على استعداد للتضحية ببعض المسيحيين أو الأقليات عموماً لشَغل الجماهير عن مشاكلهم الحقيقية. لقد كان من أسباب انتشار المسيحية أنها أصبحت ديانة المقهورين والرافضين لديانات لم تحُقق الكثير للناس، بالإضافة لأن الكثيرين في ذلك الزمان وحتى الآن يعتقدون أن نهاية العالم قريبةٌ وأصبحت الحياةُ الأرضيةُ غير ذات بالٍ بالنسبة لهم، فقريباً سيعود المسيح لخلاص المؤمنين. ولم يكن الاضطهاد من طبقة الحُكام، فقد بدأ الاضطهاد من قادة الديانات الأخرى والتي بدأت تشعر بالمنافسة المسيحية. نتيجة التعصُّب الذي عانى منه المسيحيون بدأو يعقدون اجتماعاتهم وصلواتهم بطرقٍ سرِيّة مما كان له تأثير عكسي عليهم واتهموا بأنهم جماعة سرية ذات أهداف سياسية خطيرة على الدولة فبدأ الحكام باضطهادهم. لقي المسيحيون في الامبراطورية كلها ألواناً من العذاب وكان رؤساء الكنيسة أكثرهم معاناةً وقد كتب بعض معاصري تلك الفترة عن اضطهاد المسيحيين، وتجد ذلك في عديد من الكتب التيَ أرَّخَت للكنيسة مثل حنا النقيوسي وساويرس ابن المقفع

ويوسابيوس القيصري وآخرين. وتجدها أيضاً في الموسوعة القبطية[1].

في أواخر القرن الثالث سيطرت الفوضى على مناطق عديدة من الإمبراطورية الرومانية واستقلَّ بعضُ الحكام بمناطق حكمهم وضعفت الحكومة المركزية. في ذلك المناخ جاء دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) للحكم ووحَّد الامبراطورية من جديد وأعاد تنظيم الإدارة والجيش وشئون المال، وفصل بين الجيش والإدارة المدنية. رأى دقلديانوس أن الامبراطورية أكبر من أن يحكمها ملكٌ واحد فقسّمها إلى اثنين ثم إلى أربعة تحت رئاسته وحكم كل منها قيصر أو أوغسطس. ودقلديانوس هو الذي أرسى قواعد الامبراطورية البيزنطية في الشرق.

حاول دقلديانوس إعادة مجد الإمبراطورية بإحياء الأديان الرومانية القديمة، وخصوصاً عبادة أبولُّو وجوبيتر، ولكنه لم يصطدم بالمسيحيين من جراء ذلك. ولكن في السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه ولسببٍ ما كان الاضطهاد ضد المسيحيين عنيفاً للغاية. ويقول يوسابيوس القيصري مؤرِّخ الكنيسة عن تلك الفترة[2]:

في السنة التاسعة عشر من حكم دقليديانوس أذيعت أوامر ملكية في كل مكان فأمر بهدم الكنائس إلى الأساس وحرق الكتب المقدسة في النار وطرد جميع المسيحيين من ذوي المناصب الرفيعة، وحرمان خدم البيت من الخدمة إذا أصروا على الاعتراف بالمسيحية.

أما في مصر فمما "زاد الطين بلة" بالنسبة للمصريين عاملان. الأول أن مصر كانت ذات أهمية خاصة فقد كانت ممول الجيش الروماني بالغلال. أما العامل الثاني فأنه كانت هناك ثورات عديدة داخل مصر منها ثورة في قبطوس وأخرى في منطقة قبائل البجا والبشارية، ولكن قد تكون أهم تلك الثورات ثورة الاسكندرية. رغم عدم وجود معلومات كافية عن تلك الفترة، يبدو أن الإسكندرية استقلّت في تلك

---

(1) The Coptic Encyclopedia. Vol 3. page 904.

(٢) تاريخ الكنيسة. يوسابيوس القيصري. ترجمة القُمُّص داود كامل. الطبعة الثانية سنة ١٩٧٩ ص ٣٩٩. النسخة الأصلية كتبت في أوائل القرن الرابع.

الفترة ودام ذلك لفترة ليست قصيرة. ويعتقد البعض أن أرشلاوس والي الإسكندرية في ذلك الوقت رفض أن يعلن خضوعة لدقلديانوس ونادي بنفسه امبراطوراً[1]. ويقول يوحنا النقيوسي مؤرخ الكنيسة القبطية والذي عاصر دخول العرب مصر[2]:

عندما حكم دقلديانوس المصري (لم يكُن مصرياً) ***عاد القادة لمعاونة هذا المنافق مضطهد المؤمنين والظالم الأكبر من جميع الظلمة. امتنعت عليه مدينة الإسكندرية ومصر ولم تريدا أن تخضعا له. واستعد بقوة لمحاربتهما مع جيوشٍ كثيرة وقادة مع شركائه الثلاثة في الحكم وهم مكسيمانوس من النسل الشرير وفرنسطا ومكسيمينوس ونزل إلى أرض مصر وجعلها تنصاع له وهدم مدينة الإسكندرية وبني قصراً شرق المدينة.*** (عمود السواري بالإسكندرية كان اسمه عمود دقلديانوس) ***ومكث هناك زمناً طويلاً لأنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة وضمها إلى نفوذه لهذا السبب. وبعد زمن طويل خرج أهل المدينة، وأروه مدخلاً ليدخل إليها، وبجهدٍ كبير ومشقة فتح المدينة وكانت معه جيوشٌ كثيرة لا تحصى. وفي داخل المدينة كانت آلاف الجنود مجتمعةً لما كان بينهم من الحروب. أما دقلديانوس فقد ألقىَ النار على المدينة وأحرق كل شيء وتسلط عليها. وكان عابدَ وثنٍ ومُقرّب القرابين للأرواح النجسة واضطهد المسيحيين، وكان كالحيوانات المفترسة، وكره كل شيءٍ حَسن. عارض الرب لأن سلطة روما كانت كلها في يديه. وقتل القسيسين والكهنةَ والرهبان ورجالاً ونساءً وأطفالاً صغاراً وأراق الدم بكثرة لا تحصى دون شفقةٍ ورحمةٍ بيد الموظفين آكلي لحوم البشر الذين عَيّنوا في كل مكان.***

كان نتيجة ذلك الاضطهاد هروب واختفاء بعض رؤساء الكنيسة، وكان من ضمنهم البطريرك بطرس (٣٠٠ – ٣١١) وكان لذلك تأثيرٌ مُهم وسنعود إليه. ترك المسيحية ولو من الظاهر الكثير من أتباعها وقدموا الذبائح للإله جوبيتر وأبولو،

---

(١) إيريس حبيب المصري. تاريخ الكنيسة القبطية. الكتاب الأول. مكتبة كنيسة مارجرجس. سبورتنج. الإسكندرية. سنة ١٩٩٩. صفحة ١٠٦.

(٢) عمر صابر عبد الجليل. تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي. رؤية قبطية للفتح الإسلامي. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. سنة ٢٠٠٣. صفحة ٩١–٩٢.

ولكن اخرين رفضوا ترك المسيحية وفضلوا الاستشهاد، وقد كرَّمتهم الكنيسة المصرية فيما بعد باعتبار التاريخ القبطي يبدأ بعصر الاضطهاد والذي اعتُبِر بدايةً من زمن اختيار ديقلديانوس امبراطوراً وهو ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤. أي أن السنة الأولى في النتيجة القبطية تبدأ بذلك التاريخ وتنتهي في ٢٨ أغسطس سنة ٢٨٥. أما شهور السنة فهي نفس الشهور الفرعونية التي ما زال المزارع المصري يستخدمها للآن[١].

من المستحيل معرفة عدد مَن قُتلوا في تلك الفترة إلا أن بعض الأقباط وفي تاريخ لاحق قدروا عدد الذين استشهدوا ما بين ١٤٤,٠٠٠ و ٨٠٠,٠٠٠[٢]. هذا العدد يبدو مبالغاً فيه كثيراً حيث إن ديقليديانوس لم يكن حاكماً مختلاً عقلياً ليسبب دماراً شاملاً للإسكندرية، وهي من أكبر مدن الامبراطورية، بل وتمثل مصر. ولكن الاضطرابات التي حصلت وخصوصاً في الإسكندرية اعتبرها دقلديانوس ثورةً مسيحيةً ضد الامبراطورية، وخصوصاً أن المسيحية كان لها تنظيمٌ دينيٌ به بعض السريَّة كما سبقت الإشارة إليه، له خصائص وتنظيمٌ وإدارة واضحة فكان لها رئيسٌ وهو البطريرك، وأساقفةٌ وكَهَنَة وشَمامِسةٌ ورُهبان. هذا التنظيم لم يعلم عنه الإمبراطور الكثير، والأهم أن هذا التنظيم لم يخضع له. فكان الصِدام العنيف الذي أشرنا إليه والذي لم ينجح في الخلاص من المسيحية. تمكن دقلديانوس أخيراً من إعادة مصر لحظيرة الإمبراطورية بالقوة المسلحة ولكنهم لم يخضعوا له. وقد تعلّم الامبراطور قسطنطين هذا الدرس فعندما جاء بعد دقلديانوس بسنوات قليلة أعلن اعتناقه المسيحية في حركة مسرحية ظريفة ثم أخضعها لسلطان الدولة. بل واعتبر نفسه رئيس الكنيسة الأهم وأغدق على الكنيسة ورجالها الكثير من الهبات[٣]. وأصبح رؤساء الكنيسة مراكز قوة، ودخل قادة الكنيسة في العديد من الصراعات اللاهوتية والتي تَدَخّل فيها الامبراطور وحسمها بنفسه في أحيان كثيرة. كان تدخُّل الدولة في شؤن الكنيسة سلاحاً ذا حدين. لقد اعتبر قسطنطين نفسه أسقفاً يمتلك

---

(١) الموسوعة القبطية باللغة الانجليزية. مرجع سابق. الجزء الثاني. ص ٤٣٣.

(2) Jill Kamil, Christianity in the Land of the Pharaohs, AUC press, 2002, page.10.

(٣) تاريخ الكنيسة. يوسابيوس القيصري.ترجمة القُمُص مرقص داوود. الطبعة الثانية. سنـــــة ١٩٧٩. ص٥٠٢.

الحقيقة ويحكم باسم الإله الواحد، ولكنه أيضاً أغلق على الكنيسة ورجال الدين الموالين له.

لم يكن دقلديانوس في أول الأمر متعصباً أو حتى مهتماً بالمسيحية كدين. ومن غير الواضح سبب هذا الاضطهاد والتعصب المفاجئ. لقد بدأ دقلديانوس حكمه سنة ٢٨٤، ولم يبدأ التعصُّب إلا بعد تسع عشرة سنة (أي سنة ٣٠٢). ماذا حدث حتى يبدأ هذا التغير في السياسة تجاه المسيحيين وهو السياسي والإداري الحاذق؟ يعتقد بعض المؤرخين أن جاليريوس خليفة دقلديانوس المتوقع، وهو أيضاً زوج ابنته كان كارهاً للمسيحيين ويرغب في الخلاص منهم. إما أنه كانت هناك محاولة انقلاب ضد الامبراطور دبَّرها أو اشترك فيها المسيحيون أو أن جاليريوس أقنع الامبراطور بوجود محاولة من المسيحيين للخلاص منه. كانت نتيجة ذلك أن أصدر دقلديانوس ثلاثة مراسيم سنة ٣٠٣ بهدم الكنائس وحرق الكتب المقدسة وسجن وتعذيب قادة الكنيسة والكهنة. وفي سنة ٣٠٤ أصدر مرسوماً آخر، ففرَضَ أن يقدم الجميع للآلهة الرومانية تضحياته[1]. في ذلك الوقت بدأ عددّ المسيحيين يزداد، وكان بعضهم يعمل في القصر الإمبراطوري بالإضافة لوجودهم في الجيش، ثم قامت ثورة في سوريا وحُرِق القصر الإمبراطوري مرتين في فترة وجيزة، بعد ذلك أصبح الاضطهاد شاملاً وإن لم تُنفَّذ تلك القرارات بدقة بل بدرجات مختلفة تبعاً لشعور القيادات المحلية.

قرر دقلديانوس أن يتنازل عن الحكم سنة ٣٠٥، ولم تكُن هناك علاقة لاضطهاد المسيحيين بذلك، وقد عاش عشر سنين بعد ذلك. استمر الاضطهاد حتى سنة ٣١٢، حين جاء قسطنطين Constantine للحكم بعد سلسلة من الحروب مع الأباطرة الآخرين فسمح بحرية العبادة. لم يكن قسطنطين بعيداً عن حوادث اضطهاد المسيحيين خلال حكم دقلديانوس، فقد خدم في بلاطه حين كان والد قسطنطين Chlorus قيصراً في الغرب. لقد وعى قسطنطين أن اضطهاد المسيحيين لم يثمر شيئاً بل بدأ عددهم يزداد رغم الاضطهاد.حاول قسطنطين أن يستأثِر بالسلطة منفرداً فحارب من نازعوه. خلال إحدى هذه الحروب المهمة سنة ٣١٢ تراءت لقسطنطين

---

(١) رأفت عبد الحميد. الدولة والكنيسة. دار المعارف. ج٢. ١٩٨٢. ص ٤٩ – ٥٣.

هالةً مضيئة في وسط النهار تحيط صليباً وارتسمت تحتها عبارة "بهذا ستنتصــر"[١]. وقد انتصر قسطنطين بعد تلك الرؤيا وبعد أن قيل إنه تحوّل للمسيحية، ووضع على ملابس كل جندي حرفي RHO وCHI رمزا لاسم المسيح باللغة اليونانية بالإضافة لصناعة صليب كبير من الذهب رُفع بالأحجار الكريمة[٢] وان كانت هناك صور أخرى لهذه القصة إلا أن هذا ما ذكره يوسابيوس كاتب تاريخ الكنيسة في كتابه حياة قسطنطين. ولكن هذه القصة ينقضها الكثيرُ من الكتاب القدامى والمحدثين[٣] ويبدو أن قسطنطين استخدم المسيحية لأهدافه السياسية. تلك القصة ذكرها يوسابيوس بعد وفاة قسطنطين بحوالي ربع قرن من حدوث تلك المعركة ولم تُذكر من قبل. هل اعتنق قسطنطين المسيحية عن اقتناع أم أنه وجد أنها وسيلة تساعده على الحكم؟ خصوصاً أنه في ذلك الوقت قد زاد عدد المسيحين كثيراً، بل وبدأ عدد المسيحيين يزداد في الجيش، هذا سؤال راود بعض المؤرخين. لقد احترمت بعض الطوائف المسيحية قسطنطين واعتبرته تلميذ المسيح الثالث عشر، رغم أنه لم يُعمَّد للمسيحية إلا وهو على فراش الموت سنة ٣٣٧[٤]. وقد أغدق قسطنطين على الكنيسة ورجال الدين الكثير من المال والهبات. في إحدى هذه المعارك قَتَل قسطنطين زوج أخته امبراطورالشرق. سنة ٣٢٤ توحدت الامبراطورية تحت قيادته وأصبحت المسيحية إحدى ديانات الامبراطوريـــة، ولكنها لم تصبح ديانة الدولة الرسمية إلا سنة ٣٨١. لم يكن قسطنطين يـــدرك شيئاً من المسائل اللاهوتية في الكنيسة، فخطاباته للإسكندرية فيما يتعلـــق بما سميَ بدعة أريوس والتي تبحث عن طبيعة المسيح (إنسان أم الله أم الاثنـــان معاً؟) تدل على ذلك. لم يرغب قسطنطين في فتح باب المناقشة فـــي ذلك الموضوع والذي اعتبره تافهاً للغاية وليست له أهمية جوهرية، مع أن هـــذة

---

(1) Eusebius : Church History. Life of Constantine The Great. WM. B. Eerdmans Publishing. Company , Michigan. 1952.volume 1. page 490.

والموسوعة القبطية بالانجليزية. ج٢. ص ٥٨٨.

(2) David L. Dungan.(D.L.D.) Constantine's Bible. Fortress Press. 2007. page 99.

(3) D.L.D the previous reference. Page 94

(4) Moses Hadas Imperial Rome, Time Life Books, 1965. Page 17 + D.L.D. Page 145.

المشكلة اللاهوتية استمرت وللآن.

لم يكُن تعداد المسيحيين حتى ذلك الوقت أكثر من خمُس تعداد الإمبراطورية، ولكنهم كانوا مُنظَّمين ومتحدين، وكانت هُناك كتب لعقائدهم. لقد حاول قسطنطين أن يطوّع المسيحية في خدمة الإمبراطورية وفي خدمته شخصياً. كان نتيجة السماح بحرية العبادة في الإمبراطورية المترامية الأطراف أن بدأت تظهر بعض الخلافات اللاهوتية بين بعض الكنائس، ولم تكن السياسة بعيدةً عن ذلك، سيان بين بعض رؤساء الكنيسة أو بين الامبراطور والكنيسة التي اعتبر نفسه رئيسها حتى وإن لم يتدخل شخصياً في بعض من تلك الخلافات. وكان لكنيسة الإسكندرية دورٌ في غاية الأهمية منذ ذلك الوقت وحتى سنة ٤٥١ حين انفصلت (أو بالأحرى استقلَّت) الكنيسة المصرية.

عصر اثناسيوس وحتى انفصال الكنيسة المصرية

"العالم كلة ضدك يا اثناسيوس...واثناسيوس ضد العالم"

كانت أغلب المشاكل اللاهوتية التي ظهرت في بداية المسيحية تتعلق بطبيعة المسيح. لن أتعرَّض هنا للمسائل اللاهوتية إلا في أقل القليل، وسأهتم فقط بتأثير تلك المجامع على السياسة وعلى مصر خصيصاً (كلمة مجامع تُطلق علي اجتماعات قادة الكنيسة أو الكنائس ومنها ما هو عام أو مجامع مكانية أو مجامع مسكونية وهي التي تشمل كافة كنائس العالم). لقد عقدت الكثير من المجامع لعلاج وجهات النظر المختلفة. عقدت أول المجامع المسكونة سنة ٣٢٥ لعلاج ما عرف وقتها ببدعة أو هرطقة أريوس بعد قرابة سنة واحدة من توحيد الامبراطوية والاعتراف بالمسيحية كإحدى ديانات الدولة[١]. ملخص هذا الخلاف أن أريوس، وهو كاهن اسكندري من اصل ليبي وواعظ متبحر في شئون الدين اعتقد أن المسيح مخلوقٌ غير مساوٍ للأب

---

(1) Stephen J. Davis. The Early Coptic Papacy. American University press. 2004. p 44

وأيضاً عصر المجامع. القمص كيرلس الأنطوني. ١٩٩١. لا يوجد اسم للناشر. ص ٣١.

(الله) في الجوهر. كانت الاريوسية في جوهرها تبغي إرساء المسيحية على أسس عقلانية، وهي أن الأب إلهٌ حق في مقابل الابن- أي المسيح- الذي ليس إلهاً حقاً. بينما الاتجاه الآخر والذي تبنته الإسكندرية هو أن المسيح يجمعُ بين الإنسان والآلهة في شخص واحد وهو اتجاهٌ روحانيٌّ وليس ببعيدٍ عن بعض تفسيرات البوذية أو الصوفية في الإسلام والذي يعني بعضٌ منها أن الإنسان في حالة روحانية متقدمة يلتحم مع الطبيعة أو مع الكون في البوذية، مع المسيح في المسيحية. هو باختصار خلافٌ بين العقلانية والروحانية وكان ذلك هو التفسير الروحاني لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية وربما له جذور فرعونية في قبول عائلة من الآلهة مثل إيزيس وأوزيريس وحورس (الكل في واحد، والواحد في الكل).

حاول الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧) أن ينهي هذا الخلاف بخطاباته التي أرسلها لكلٍ من الكاهن اريوس والبطريرك المصري إسكندر والتي سبقت الإشارة إليها، ولكن مساعيه لم تنجح وتصاعد الخلاف، خصوصاً أن أريوس كان له مؤيدون في القسطنطينية. قرر قسطنطين أن يعقد أول المجامع سنة ٣٢٥ في مدينة نيقية (مكانها الآن قرية اسنيك التركية) لحل ذلك الإشكال الذي بدأ يُهدد وحدة الكنائس. كان المجمع تحت وصاية قسطنطين وكرمه وهو كما ذكرنا أول امبراطور يتحوّل للمسيحية أو يدعي أنه تحوّل لها. حَضَرَ هذا المجمع ٣١٨ من رؤساء الكنائس والرهبان والكهنة. كان هناك العديد من القرارات، وإن كان أهمها إقرار قانون الإيمان المسيحي والذي تقول إحدى عباراته "إن الابن مساوٍ للأب في الجوهر وإن ناسوته لم يفارق لاهوته لحظةً واحدةً ولا طرفة عين" وهو موقف الكنيسة القبطية وحتى الآن. ولكن هذه المشكلة ظلت تعاني منها الكنيسة المسيحية وللآن كما سنرى، وإن كان موقف الكنيسة القبطية عنيداً ولم يتغير رغم الكثير من الضغوط والتهديدات والاضطهادات. كان هناك ثلاثة مجامع أخرى يتعلق أغلبها بصورةٍ أو بأخرى بطبيعة المسيح، ولن أتعرض لها لأنها مسائل لاهوتية، وراء بعضها على الأقل دوافع سياسية. ولكن سأعود للمجمع الخامس بعد قليل لأنه في هذا المجمع انفصلت الكنيسة المصرية وحتى الآن.

أعتقد أنه لا توجد شخصية عظيمة سياسية كانت أو دينية إلا وبها بعض المتناقضات والغموض. كان إثناسيوس إحدى هذه الشخصيات. قد يكون إثناسيوس إحدى أهم الشخصيات في تاريخ الكنيسة المصرية، إن لم يكن أهمها على الإطلاق. كان إثناسيوس شماس البطريك السابق له ألكسندروس وهو البطريرك التاسع عشر.قبل اختيار إثناسيوس البطريرك العشرين كان هناك انشقاق في الكنيسة المصرية وراءه ثلاثة أسباب. السبب الأول أن سن اثناسيوس وقت اختياره كان ما بين ٢٩ أو ٣٠ سنة وكان القانون الكنسي في ذلك الوقت لا يسمح لمن هم اقل من ٣٠ عاما أن يرأسوا الكنيسة. كان السبب الثاني ان أنصار اريوس معادين لاختيار اثناسيوس بطريركاً وكانت لهم كنائسهم وأتباعهم في داخل وخارج مصر. أما السبب الثالث فكان وراءه كيف تعاملت الكنيسة تجاه عودة المرتدين إلى المسيحية بعد انتهاء عهد الاضطهاد وما ادي الية ذلك. خلال عصر الاضطهاد اضطر بعض المسيحيين إلى ترك المسيحية حتي ينجوا بحياتهم، أما الآخرون ففضلوا الاستشهاد. اضطر البطريرك بطرس أن يختفي لفترات طويلة حتى ينجوا من الاعتقال والتعذيب. في إحدى فترات اختفائه بدأ أسقف ليكوبوليوس (أسيوط الحالية) ميليتس يتولى قيادة الكنيسة بقرار ذاتي وأن يعيِّن كَهَنة وأساقفة بدلاً من الذين اختفوا أو استشهدوا. ولكن البطريرك بطرس عاد سنة ٣٠٥ وقرر حرمان ميليتس وأتباعه لأنه تعدى اختصاصاته. اضطر بطرس أن يختفي مرة أخرى سنة ٣٠٦ قبل اعتقاله واستشهاده سنة ٣١١ وقد اعتبرته الكنيسة المصرية آخر الشهداء. قرار حرمان ميليتس وأتباعه أعيد النظر فيه في مجمع نيقيا سنة ٣٢٥ وسمح بعودتهم للكنيسة بشروط مبسطة. كان البطريرك المصري الاسكندروس متهاوناً في موضوع عودة المرتدين إلى الكنيسة تحت ظروف الاضطهاد السابقة بينما كان ميليتس متشدداً. انشقت الكنيسة وتبع الأسقف ميليتس ٣٥ أسقفاً ومئات من الكهنة والرهبان واستمر هذا الخلاف حتى القرن الخامس[1].

---

(١) الاب متي المسكين. القديس اثناسيوس الرسولي. مطبعة دير القديس أنبا مقار. الطبعة الثانية.سنة ٢٠٠٢.ص٧٤.

بعد استشهاد بطرس جاء البطريرك ارشلاوس لمدة ستة أشهر وتوفيَ ثم خلفه البطريرك الاسكندروس. زال الاضطهاد باستيلاء الامبراطور قسطنطين على الامبراطورية بأكملها سنة ٣٢٤. وتوفي البطريرك الاسكندروس سنة ٣٢٦ دون أن يحدث تقدم في هذا الانشقاق. أصبح ميليتس وانصاره حزباً كنسياً منشقاً وكانوا معادين لاختيار إثناسيوس.

كانت الكنيسة في مصر في ذلك الوقت ضبابيةً مُنشقةً إلى ثلاثة كنائس: الكناس التي تتبع البطريركية وهم الأغلبية، ثم أعوان كل من أيروس وميليتس. في هذا المناخ جاء إثناسيوس ولم يكن اختياره أمراً سهلاً فقد عارضه الاريوسيون والمليتسون (١-٤). يظهر تناقضٌ كبير حول قصة اختيار إثناسيوس. يقول متي المسكين ويمثل رأيه رأي الكنيسة المصرية إن اختيار اثناسيوس كان بتأيد من جانب ٩٤ أسقفاً بينما عارضه ٣٥ أسقفاً من أنصار ميليتس واريوس[١]. بينما يذكر Timothy D. Barnes أنه كان هناك٤٥ أسقفاً فقط من مؤيدي إثناسيوس ومعارضيه[٢]، ولكن قبل الوصول إلى قرار، قرر سبعة أساقفة فقط من أنصار أثناسيوس اختياره ورسمّوه البطريرك في احتفال كنسي[٣، ٤]. ولابد أنه كانت هناك بعض المناورات التي أدت إلى انتصار اثناسيوس واختياره بهذا الأسلوب. بصرف النظر عن هذا التناقض الكبير فقد أصبح إثناسيوس البطريرك ولقي تأييداً كبيراً مـــن المصريين،

---

(١) الاب متي المسكين. القديس اثناسيوس الرسولي. مطبعة دير القديس انبا مقار الطبعة الثانية. سنـــــة ٢٠٠٢. ص ٦٧.

(2) Timothy D. Barnes , Athanasius and Constantius. Haravrd University Press. 1993. page 18

(3) Stephen J. Davis. The Early Coptic Papacy. AUC Press. 2004. page 56

(4) David Brakke. Athanasius and Asceticism. John Hopkins University press. 1995. page. 7

بل وزاد التأييد بمرور الزمن. كان إثناسيوس أصغر من رأس الكنيسة المصرية خلال عشرين قرناً من الزمان. لقد بقي في منصبه حوالي ٤٥ سنة. حاول أعداؤه إقصاءه ونفيه، وقد نُفِيَ فعلاً أو اختفى داخل مصر خمس مرات لمدد مختلفة مجموعها ١٧ سنة وسبعة أشهر، بينما بقي في منصبه سبعة وعشرين عاماً ونصف. وفي المرات التي اختفى فيها داخل مصركان متخفيا بين الأديرة وفي البلاد المصرية المختلفة[١]، ولم تستطع قوة الإمبراطور أو أعداء إثناسيوس داخل مصر أن ينالوه. كان إثناسيوس شخصية فذّة وسياسياً فريداً. لقد تمكّن من توحيد الكنيسة رغم الشقاقات العديدة ورغم أن أعداءه كانوا ينالون مساعدات من خارج مصر ويؤيدهم الامبراطور أحيانا. كان من أسباب متاعب اثناسيوس استقلاليته وعناده وقوة شخصيته وإيمانه بما يدافع عنه. وكان بعده عن العاصمة والامبراطور في القسطنطينية الذي التف حوله الكثيرون من طالبي السلطة وأصحاب الدسائس من حاشية الأباطرة المسيحيين قد سبب له أيضاً الكثير من المتاعب. لقد ذكر يوحنا الآسيوي في كِتابِه عن تاريخ الكنيسة بعضاً مما تعرض له رؤساء الكنيسة المصرية من دسائس المحيطين بالإمبراطور في القسطنطينية وإليك مثال من ذلك[٢]:

عندما كان البطريرك يوحنا السرمي يضايق القيصر طيباريوس محب الله في كل يوم من أجل القائلين بالطبيعة الواحدة الذين هم الأرثوذكس فإن القيصر استحلف البطريرك يوماً بالله لكي يصدقه إن كانوا هراطقةً أم لا؟ بالرغم من أن البطريرك كان مخادعاً إلا أنه عندما استحلفه لم يستطع الكذب، بل أجابه قائلاً إنهم ليسوا هراطقةً في الحقيقة ويؤمنون إيماناً صحيحاً، ولكنهم يبتعدون عنا وعن الكنيسة الرسمية، ولا يريدون الاشتراك معنا في الطقوس. عندئذٍ ردَّ عليه القيصر بقوله ما

---

(١) الاب متي المسكين. القديس اثناسيوس الرسولي. مطبعة دير القديس أنبا مقار. الطبعة الثانية. سنة ٢٠٠٢ ص ٧٥٩. وأيضاً:

David Brakke. Athanasius and Asceticism. Johns Hopkins University press 1995 p. 8

(٢) يوحنا الآسيوي. الكتاب الثالث. تاريخ الكنيسة. ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب. المشروع القومي للترجمة. المجلس الأعلى للثقافة. سنة ٢٠٠٠. ص٤٠.

دمت قد شهدت بأنهم مؤمنون حقاً ومسيحيون، فلماذا إذن تحرضني لكي أكون مضطهدًا للمسيحيين كدقلديانوس؟ اذهب واهدأ كفانا حروباً مع البرابرة، لا تورطنا في حروب مع أتباعنا أيضاً.

مما لا شك فيه أن إثناسيوس كان له أعداء ولكن هناك أيضاً من اختلفوا معه لأسباب قد تستحق الاختلاف. للأسف إن كل ما هو منشور باللغة العربية يمثل فقط موقف الكنيسة. ولكن هناك آراء أخرى من الممكن أن نجدها في الموسوعة القبطية وهي بالإنجليزية من ثمانية أجزاء ورأس تحريرها سوريال عطية وللأسف لم تُترجم للعربية رغم أنها نُشِرَت سنة ١٩٩١[1]. هذا طبعاً بالإضافة إلى الكثير من الباحثين الأجانب إلا أن ما يكتبونه غير متاح للأغلبية ويجد القارئ بعضاً من تلك المصادر في هذا الكتاب وما يقال عن إثناسيوس يقال عن كثيرين آخرين في تاريخ الكنيسة. إثناسيوس كان إنساناً ونقده نقداً موضوعياً واجبٌ ولن يضر الكنيسة المصرية أو المسيحية في شيء، خصوصاً أن إنجازات إثناسيوس كانت هائلة وكُتِبَ لها البقاء. لقد كان هو وغيره من رواد الكنيسة بشرٌ أصابوا وأخطأوا. وإن كانت الكنيسة لها وجهة نظر تؤيد موقفها فهذا حقها. ولكن ما أشير إليه هو البحث العلمي- وليس الوعظ- ومكانة الجامعات ومؤسسات البحث العلمي والتي لها تبعات يعاني منها الباحث أهمها الأمانة والحياد وقراءة ما يكتبه الباحثون الأجانب، وليس بالضرورة أن نتوافق معهم في آرائهم، ولكن إذا اعترضنا على ما يكتبه الباحثون - أجانب أم مصريين - فيجب أن يكون ذلك الاعتراض مصحوباً بالدليل وبالتوثيق. وللأسف هذا النوع من الأبحاث غير موجود عندنا فيما يتعلق بالدين ونحن محرومون منه ونكتفي بما يقوله لنا أو يكتبه بعض رجال الدين والوعاظ. وإن كان بعض هؤلاء يحاولون بجدية أن يقدموا بعض الأبحاث. ولكن للأسف إن وُجِد بعضٌ من ذلك فهو في حيز ضيق جداً لا يناسب أهمية تاريخ الكنيسة المصرية.

---

(1) The Coptic Encyclopedia. Aziz S. Atiya, Editor in Chief. Maxwell Macmillan Interactional 1991.

ربما كان من الأسباب المهمة التي أثرت في تاريخ الكنيسة ومستقبلها أن إثناسيــوس قد ربط الكنيسة بحركة الرهبنة والتي كانت مستقلة قبل ذلك. بعد ذلك الربــط لجــأ إثناسيوس لتعيين الأساقفة من طبقة الرهبان وأصبحت تكاد تكون قاصرةً عليهم بعد أن كانت مــن طبقة العلمانيين والمتزوجين أحياناً. وقد وضحت أهمية ذلك فيما بعد حين أصبح عــدد الرهبان كبيراً وأصبحوا قوةً كبيرةً يؤيدون البطريرك وإن كانت قليلا جدا ما عارضته كما سنرى.

كانت المشكلة اللاهوتية الرئيسية التي عانى منها إثناسيوس هي مشكلة اريوس وطبيعة المسيح، ولن أتعرض هنا للمسائل اللاهوتية لانها طرق مختلفة في فهم العقيدة، وهذا الخلاف موجود في كل الاديان. ولكن يهمنا هنا شخصية اثناسيوس. لقد أصبحت صورة اثناسيوس في نظر البعض أسطورية وكأنها أكبر من الحياة ذاتها. لقد كان اثناسيوس بطلاً مصرياً لم يخشَ الامبراطور حتى عندما كان وحيداً. لذلك أثار إثناسيوس إعجاب وغيرة وكراهية بعض من معاصريه في العالم المسيحي، وكذلك بعض الكتاب الجدد. لقد أعجب المؤرخ جيبون (Gippon ١٧٣٧-١٧٩٤) بشخصية اثناسيوس وكان كارهاً للمسيحية ورجال الكنائس، إلا انه وقف مبهوتاً أمام تلك الشخصية الفريدة، إلا إن بعض الكتاب المعاصرين لهم وجهات نظر مختلفة عن إثناسيوس وشخصيته وبعض من كتاباته[١]، وقد كتب منها قرابة ٤٥ كتاباً ورسالةً وتعليقاً وقد رصدها الأب متي المسكين في كتابة عن إثناسيوس[٢].

استمر اثناسيوس في صراع مع السلطة الرومانية أغلب حياته، ولم يهدأ إلا في آخر سنوات حياته ما بين ٣٦٦ و٣٧٣ حين أسلم الروح بعد كفاح طويل. لقد كرمت الكنيسة المصرية اثناسيوس بأن أطلقت علية اسم إثناسيوس الرسولي لتساويه بحواري المسيح. يعد اثناسيوس حقيقةً مؤسس الفكر الوطني للكنيسة القبطية.

في نهاية القرن الرابع قرر الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٨-٣٩٥) سنة ٣٨١

---

(1) Timothy D. Barnes..Athanasius and Constantius. Harvard University press 1993 page 1-9.

(٢) متي المسكين. القديس اثناسيوس الرسولي. مطبعة دير القديس أنبا مقار. الطبعة الثانية. سنة٢٠٠٢. ص ٧٦٩.

أن المسيحية هي الديانة الرسمية للامبراطورية، والتحمت الكنيسة مع الدولة تماما وأصبحت وحدة ديانة الدولة أمراً مهماً في نظر رؤساء الدولة. عانت الكنيسة كثيراً من تدخل الدولة في شئون الدين وإن كانت الدولة في أوقات التقائها مع الكنيسة أو بعض قادتها قد ساعدت الكنيسة كثيراً واغدقت عليها وأصبح للكنيسة نفوذ قوي حتى خارج الكنيسة.

بعد إثناسيوس وفي أواخر القرن الرابع وحتى منتصف القرن الخامس أصبحت الامبراطورية الرومانية مسيحيّة وإن لم يكُن جميع سكانها قد صاروا مسيحيين بعد. الامبراطور ثيودوسيوس وحَّد الكنيسة والدولة وأعلن في مرسوم تسالونيكي سنة ٣٨٠، أن جميع شعوب الامبراطورية ملزمة باعتناق الدين المسيحي. بالإضافة إلى انه أصدر مرسوماً جديداً سنة ٣٨١ فرض فيه علي جميع الرعايا إيمان المجمع النيقاوي (الذي عقد في نيقيا سنة ٣٢٥ وسبق الإشارة إليه والذي أيدته الكنيسة المصرية وحتى الآن) وعدّ كل من لا يتبعه ملحداً. وبعد ذلك حُرّمت الوثنية بقرار آخر سنة ٣٩١[١]، وإن كان قد استمر بعضها حتى دخول العرب في منتصف القرن السابع[٢]. خلال تلك الحقبة جاء ثلاثة بطاركة كان لهم تأثير واضح وهم ثاوفيليس وابن أخته كيرلس وكان آخرهم ديوسقوروس الذي انفصلت أو استقلت في عهده الكنيسة المصرية ومعها بعض الكنائس الشرقية.

كان هؤلاء البطاركة لهم نفوذٌ قويٌ ومؤثر في الحوادث في مصر بالإضافة إلى نفوذهم في شئون الدين.امتد نفوذ هؤلاء البطاركة خارج مصر أيضاً،الأمر الذي أدى إلى بعض الغيرةِ والحقد من نظرائهم في الخارج وخصوصاً هؤلاء المحيطين بالأباطرة في روما والقسطنطينية. الأنبا ثاوفيليس البطريرك المصري ما بين سنة ٣٨٥ وحتى سنة ٤١٢ وكان ذا شخصية قوية وامتد نفوذه خارج مصر وكان شخصيةً بها الكثير من المتناقضات. عندما قويت شوكة المسيحيين في مصر وزاد

---

(١) فائق ميخائيل. صورة من تاريخ القبط. مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي. سنة ١٩٥٠. ص ٩١.

(٢) حنا النقيوسي. مجلة صهيون. سنة ١٩٤٨. ص ١٤٤.

عددهم، حرَّضَ الأنبا ثاوفيليس الغوغاء لتخريب المعبد اليوناني السيرابيون، وكذلك مقر مكتبة الإسكندرية القديمة والتي كانت تحتوي على عشرات الآلاف من المخطوطات، وكان ذلك خسارةً كبيرةًللعالم و قد بنى كنيسةً محلها[١].

كانت منطقة رهبان نتريا بالقرب من الإسكندرية وبها حوالي ٥٠٠٠ راهب تمثل إشكالاً لثاوفيليس[٢]. كان هناك خلافٌ بين الرهبان فيما يتعلق بما هي صورة الله "خلق الله الإنسان على صورته"[٣]، وهل يفسر ذلك تفسيراً حرفياً أم مجازياً ؟! تذبذب رأي ثاوفيليس في هذا الموضوع، وعندما تصاعد الخلاف ولم يستطع ثاوفيليس السيطرة عليه بالمنطق حرم وشرَّد ونفى مِئات من الرهبان والشيوخ وتعدى عليهم بالضرب وحرق مساكن الرهبان مستخدماً سلطة الدولة[٢]،وكان من تبعية ذلك الخلاف أن ذهب بعض الرهبان إلى بطريرك القسطنطينية يوحنا طالبين المساعدة والتدخل لحل الخلاف. ولكن ثاوفيليس تمكَّن من حرمان بطريرك القسطنطينية وعزله. كان ذلك البطريرك رجلاً قديساً أطلقت عليه الكنائس بعد ذلك -ومن ضمنها الكنيسة المصرية- "يوحنا ذهبي الفم" لما كان لديه من حكمة وروحانية- حدث ذلك بعد أن ألغى البطريرك المصري كيرلس قرار حرمان يوحنا بعد أن توفي في المنفي- عندما جاء الانبا كيرلس للسده المرقسيه واصبح البابا رقم٢٤ (٤١٢-٤٤٤ م) خلفا لخاله الانبا ثاوفيليس بعد ثلاثة ايام فقط من وفاه خاله. أصبحت الكنيسة غنيةً جداً بالمال والرجال المخلصين لها وقد أطلق على كيرلس لقب فرعون مصر وإن أطلقت عليه الكنيسة المصرية لقب كيرلس الكبير لكثير من إنجازاته وكتاباته اللاهوتية وانتصاراته في المجامع التي حضرها[٤].تتبَّع الانبا كيرلس

---

(١) الموسوعه القبطية باللغه الانجليزيه. مرجع سابق. ج٧ ص ٢٢٤٩. وكذلك

S. S. Hassan. Christians Versus Muslums in Modern Egypt. Harvard University Press. 2003. p. 27.

(٢) متي المسكين. الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار. الشركة المصرية للطباعة والنشر. الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢. ص ٢٤٠.

(٣) المرجع السابق ص ٣٣٨.

(٤) فايق ميخائيل. صورة من تاريخ القبط. جمعية مارمينا العجايبي سنة ١٩٥٠. ص٩٣.

خطوات خاله ثاوفيليس واضطهد وعذّب من لم يدخل المسيحية. وكان من ضمنهم Hypatia هيباتيا عالمة الرياضيات والفليسوفة المشهورة في ذلك الوقت والتي سَحَلها بعض رهبان نتريا[١]. كانت هناك أعمالٌ مُشابِهة ضد اليهود، بل وطردوهم من بعض أحياء الإسكندرية وحولوا معابدهم إلى كنائس. كان من أسباب فخر الكنيسة المصرية بالأنبا كيرلس أنه كان وراء الكثير من جمع وحرق كتابات الإمبراطور الوثني يوليانوس من أرجاء الامبراطورية كلها وكانت كتابات ضد المسيحية[٢]. لقد تعرض يوسف زيدان لبعض أحداث تلك الفترة في قصة تاريخية بديعة[٣].

بدأت الديانات القديمة تضمحِل وتُضْطَهَد من قِبَل المسيحيين، ولكن يبدو أنها لم تختفِ من مصر إلا في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع. دُمِّرَت أغلب المعابِد القديمة أو حُوِّلَت إلى كنائس أو استخدمت أحجارُها في بناء كنائس وأديرة جديدة مازلنا نرى بعضاً من آثار ذلك حتى الآن (الدير الأبيض بالقرب من سوهاج بُني بحجارة كانت أصلاً في معابد فرعونية، مازالت الرسومات الفرعونية واضحةً على حوائط هذا الدير). بعد ذلك وحين تحوَّل الكثيرُ من أقباط مصر للإسلام دمروا الكثير من كنائس الأقباط في فترات معينة. وإن كان هناك بعض العنف تجاه الأقباط بعد دخول الإسلام لمصر فقد فعل بعض المسيحيين نفس الشيء تجاه المصريين القدامى والذين ظلوا على الديانات القديمة في الفترة التي كان للكنيسة المصرية فيها نفوذٌ قويّ. هل التاريخ يعيد نفسه بهذه الصورة؟ وهل نتعلم من ذلك؟ إن التلاعب بالدين في السياسة أمرٌ جلّ خطير على الدين والسياسه والإنسان والإنسانية.

كانت قوة وهيمنة الإسكندرية على باقي الكنائس وخصوصاً روما والقسطنطينية أمراً غير مقبول من قادة الكنائس في تلك العواصم ولا من الأباطرة.

---

(١) الموسوعه البريطانيه باللغه الانجليزيه.سنه ١٩٨٠. ج٥ ص ٢٥١. وكذلك الموسوعه القبطيه باللغه الانجليزيه. مرجع سابق ج٣ ص ٦٧٢. وايضا

Stephen J. Davis. Early Coptic Papacy.

AUC press, 2004, page 71. And Encyclopedia Britannica, 1980, volume 5, page 251.

(٢) فايق ميخائيل. صورة من تاريخ القبط. جمعية مارمينا العجايبي سنة ١٩٥٠. ص ٩٥.

(٣) يوسف زيدان. عزازيل. دار الشروق. سنة ٢٠٠٨.

كان من نتيجة ذلك محاولة الأباطرة تحجيم الكنيسة المصرية وانتهى الأمر بتمسُّك الكنيسة المصرية بقوتها وبانفصالها فيما عرف بمجمع خلكيدونية. وسأتوقف قليلاً عند هذا المجمع الخامس لأهميته. عقد هذا المجمع سنة ٤٥١ في مدينة خلكيدون (Chalcedon) وهي مدينة بالقرب من القسطنطينية. كل تلك المجامع التي سبقت ذلك المجمع تتعلق بطبيعة المسيح كما أشرتُ إليها سابقاً. ولم يكن مجمع خلكيدونية مختلفاً عن ذلك في موضوعه بل كان أيضا مجمعاً مليئاً بالدسائس، كان للمجامع الأربعة الأولى وجودٌ قويٌ للكنيسة المصرية، ويمكن القول إن وجهة نظر الكنيسة المصرية سادت تلك المجامع. أما المجمع الخامس فكان مختلفاً عن ذلك. بدأت السُحُب تتراكم ضد نفوذ الكنيسة المصرية والتي لم تكن خاضعةً أو بالقرب من الأباطرة في القسطنطينية أو روما. لقد تمكّن بطريرك الإسكندرية وأتباعه من حرمان بطريرك القسطنطينية وروما، ولم يكن ذلك أمراً من الممكن تجاهله بعد ان التحمت الدولة مع الكنيسة[1].

أصبحت المسيحية في مصر قويةً في القرنين الرابع والخامس، وكان لرؤساء الكنيسة قوةٌ خارجَ الكنيسة أيضاً. لقد شعر البطريرك ديوسقور (٤٤٤ – ٤٥٨) بقوته داخل مصر وقال " *إن البلاد لي أكثر مما هي للأباطرة وإني أطالب بالسيادة على مصر*[2]. استغل ديوسقور تلك القوة، وقد يكون سعى إلى الانفصال عن الكنيسة البيزنطية، وربما الانفصال عن الامبراطورية. ولكن حساباته لم تؤدِ إلى ذلك. تقول الإمبراطورة القوية بوليكاريا Pulcheria إنها عندما رأت الحد الذي وصل إليه بابا الإسكندرية من القوة، وأن اتساع سلطته هذه قد تضر بمملكتها ضرراً لا يحتمل السكوت عليه إذ لا يبعد ان تضيع مصر من يدها وهي أخصب أراضي الامبراطورية وأعظمها غنىً وأكثرها رضوخاً[3].ولم يكن قلق الامبراطورة في غير

(1) Barbara Watterson. Coptic Egypt. Scottish Academic Press1988. page 45.

وقد ترجم ابراهيم سلامه ابراهيم هذا الكتاب الي العربيه ونشرته الهيئه المصريه العامه للكتاب سنه ٢٠٠٢.

(٢) جاك تاجر. أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢. ص ١٣.

(٣) عصر المجامع. القمص كيرلس الانطوني. سنة ١٩٢٥. ص١٨٩.

محله وكان الامبراطور مركيان Marcian زوجها على دراية بكل تلك الأبعاد وبيتت النية من الناحيتين. عندما واتت ديوسقور الفرصة أو اختلقها خلال خلاف لاهوتي ليس ذي أهمية كبيرة، وقرر الطرفان تصعيد الخلاف، وواتت الفرصة لذلك خلال مجمع خلكيدونية. لم تذعن الكنائس الشرقية ومن ضمنها الكنيسة المصرية لرغبة الامبراطور في السيطرة على كنائسهم. لم يكن الانفصال لسبب جوهري في العقيدة بقدر ما هو محاولة لفرض سيطرة الامبراطور من ناحية، وتمسُّك مصر باستقلالها الديني من ناحيةٍ أخرى. من ناحية الامبراطور والملتفين حوله كان لا بد من تحجيم نفوذ بابا الاسكندرية.

في هذا الخلاف احتَضَنَت الكنيسة المصرية المبدأ القائل إن المسيح له طبيعة واحدة إنسانية وإلهيةٍ في آنٍ واحدٍ ولكن بدون اختلاط. بينما الكنيسة (الكاثوليكية) احتضنت المبدأ القائل ان المسيح لة طبيعتان مميزتان في شخص واحد[1]. وقد يتعجب القارئ عندما يتسائل على الفارق الحقيقي بين المذهبين. ويقول أستاذ التاريخ المصري Cyrus Gordon بجامعة براندايس الأمريكية معلقاً على ذلك المجمع :

"عندما ذهب المصريون إلى خلكيدون كانوا معتزين بمجد الفراعنة – وهم علي حق، وكانوا معتزين بآباء الكنيسة المصرية– وهم علي حق، وأعلنوا عقيدتهم صراحة أمام الملأ. فلما رفض المجتمعون الإصغاء إليهم خرجوا في إباء وشمم – وهم علي حق [2].

والدليل على أن هذا الخلاف كان خلافا سياسيا ولم يكن ذا قيمة لاهوتية أن الكنيسة المصرية اتفقت ومعها بعض الكنائس الأرثونكسية الشرقية من ناحية والكنيسة الكاثوليكية من ناحيةٍ أخرى على إصدار وثيقة جديدة توحد رأي الكنيستين في مجال طبيعة المسيح. كان ذلك في عام ١٩٧١، وتمت الموافقة على

---

(١) الموسوعه القبطيه باللغه الانجليزيه. مرجع سابق. ج ٢ ص ٥١٥-٥١٢.

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية. ايريس حبيب المصري. كنيسة مارجرجس بسبورتنج – اسكندرية. الطبعة السادسة. الجزء الأول. سنة ١٩٩٩. ص ٨.

الوثيقة رسمياً في مصر في دير الأنبا بيشوي سنة ١٩٨٨[1]. ولكن هذا لا يعني توحيد الكنيستين، فهناك الكثير من الكنائس صاحبةُ مذهبٍ واحد ولكنها مستقلة. بعد ذلك الانقسام في منتصف القرن الخامس سميت كنائسنا الشرقية الكنائس اليعقوبية أما الكنائس الأخرى فسميت الكنائس الملكية حيث إنها تبعت الامبراطور.

تمسك المصريون برأي البطريرك ديوسقورالذي وانته المنية في المنفى خارج مصر بعد ثلاث أو خمس سنوات من مجمع خلكدونيا. حاولت الكنيسة الكاثوليكية (كلمة كاثوليكية تعني جامعة أو عالمية) فيما بعد عدة مرات أن تضم الكنيسة المصرية إليها، إلا أن الأخيرة رفضت تماماً وحافظت علي استقلالها وحتي الآن. احتفظ المصريون بمذهبهم الديني وقد عانوا من ذلك. كانت هذه بدايةَ حقبةٍ أخرى من التعصب الروماني ضد المصريين إلى أن جاء العرب. اختفت الكاثوليكيه من مصر او كادت، ولكنها عادت مع حملات التبشير الدينيه في القرن السادس عشر.

كانت الامبراطورية الرومانية قد أنهكها الضعف في حروبها الداخلية والخارجية. وكان تدخُلها في شئون الدين وفرض رأيها من أسباب بداية ضعف الامبراطورية. لقد قال المؤرخ الألماني أدولف هارناك تعليقاً على انفصال الكنيسة المصرية "إن الدولة الرومانية تخلصت من أقوى خصومها وهو أسقف الإسكندرية ديوسقور ولو أن الثمن كان باهظاً للغاية "[2]. لقد مَثَّل تمسك المصريين بكنيستهم المستقلة أرقاً للامبراطورية. خلال القرنين التاليين لانفصال الكنيسة المصرية تأرجَحَ موقف الأباطِرَة من الكنيسة المصرية بين العقاب والصُلح والاضطهاد تبعاً لرؤية الامبراطور وحاشيته ورجال الدين في القسطنطينية. فرض الرومان على المصريين بطاركةً من عندهم للسيطرة على الكنيسة المصرية، وكان لبعضهم صلاحيةُ الحاكم، ولكن المِصريين لم يتقبلوا هؤلاء البطاركة البيزنطيين، بل وقتلوا

---

(١) القرارات المجمعية في عهد صاحب الغبطة والقداسة البابا شنودة الثالث. الأنبارويس.الكاتدرائية العباسية.القاهرة ١٩٦٦. ص ١٠٤

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية. إيريس حبيب المصري. كنيسة مارجرجس. سبورتنج. الإسكندرية. الطبعة السادسة. الكتاب الثاني. سنة ٢٠٠٠. ص ٦٢.

أحدهم وهو البطريرك الملكاني بروتيريس Proterius [١]. بعد تعيين ذلك البطريرك بروتيريس تمكن المصريين من تهريب تيموثاوس الي ارض مصر وكان منفيا مع البطريرك المصري ديوسقور ورسموه بطركا وظل في منصبه غير المعترف به من البيزنطيين لمده ٢٢ عاما.لم يتقبل المصريون هؤلاء البطاركة البيزنطيين واختاروا بطاركتهم من بينهم، نفي البطاركة المصريون أو اختفوا في أديرة الصحراء المصرية، وحتى خلال اختفائهم كان نفوذهم قوياً على الكنيسة المصرية. كانت مصر في القرنين التاليين لمجمع خلكيدونية فريسةً للاضطرابات والقلاقل نتيجة الصراع بين الأباطرة الرومان وكنيسة مصر التي يقف وراءها الشعب. لم يكن قتل البطريرك الملكاني بروتيريس من المسيحيه في شيئ ولكنه اعتبر عمل مصري وطني.

دخلت المسيحية لمصر من الباب الخلفي.. باب الخدم والفقراء والعبيد، وساوت المسيحية بين جميع البشر. أي أن المسيحية ساوت بين المصريين وأسيادهم من الإغريق والرومان. واصبح باستطاعة المصريين الوقوف امام حكامهم اللذين اضطهدوهم وقد فعل بعض المصريين ذلك. كان من نتيجة ذلك ان ظهرت في القرنين الرابع والخامس قيادات مصرية أصيلة بعد طول غياب لتقود المسيحية المصرية، بل وتؤثر في مسيحية العالم. من الممكن أن نقول إن المسيحية في مصر بعثت الروح الوطنية بين المصريين في ذلك الوقت، وأصبح لهم قيادات مثل باخوميوس، شنودة، أثناسيوس، وديوقورس وغيرهم. قيادات دافعت عن مسيحية مصر وعن المصريين، قيادات واجهت الموت ومات منهم الكثيرون ولكنهم لم يستسلموا.

لماذا لم يكن لتلك الشخصيات النادرة دورٌ وطنيٌّ ولم تقُد مصر لاستقلالها من الرومان أو من بعض الحكام غير المصريين أو على الأقل أن تحاول ذلك؟ ان الشعب المصري بطبيعته القديمه وللان شعب يهتم بالدين، أعتقد أن المسيحية ومن

---

(1) Stephen J. Davis. The Early Coptic Papacy. American University Press in Cairo. 2004 page 89.

بعدها الإسلام امتصّوا طاقة الشعب المصري وقصرا اهتمامهم على المسائل الدينية والعبادة وفِلاحة الأرض وتركوا السياسة وحكم بلدهم للأجانب الملتفين بعباءة الدين. أي أن ممارسة الدين عندنا قد ساهَمَت في ضعف أو موت الروح الوطنية لفترة طويلة جداً وحتى جاء أحمد عرابي المصري في أواخر القرن التاسع عشر.

أعتقد أن المفهوم المعقول لانفصال الكنيسة المصرية يجب أن يدخل في اعتباره أنه بينما التحمت الامبراطورية الرومانية بالكنيسة وحاولت السيطرة على الشعوب بمظهر ديني، التحمت الكنيسة القبطية بمصر وللآن. أي أنه في مفهوم المصريين أصبح الاستقلال الديني يمثل استقلال مصر السياسي. خلال أكثر من خمسة قرون من الزمان وحتى دخول العرب مصر تغير كثيرٌ من الأباطرة وكثيرٌ من رؤساء الكنيسة المصرية، إلا أن موقف الكنيسة المصرية لم يتغير. هذه حقبةٌ من تاريخ مصر أنتجت أبطالاً مصريين سبق الإشارة إليهم، شكّل هَؤلاء الأبطال ملحمةً مِصريَّة رائعة لا نعرف عنها الكثير. فترةٌ تستحِق الاهتمام وأن تكون جزءاً من التاريخ المصري غير المستبعد. لقد اغدق الاباطرة الكثير من المال والهبات لرجال الدين وبنوا لهم الكنائس الفاخرة. لقد انحني اغلب اساقفة الكنيسة للرغبة الامبراطورية ما عدا اساقفة الكنيسة المصرية ومعهم اساقفة بعض الكنائس الشرقية. لقد ظهر هؤلاء المصريون وتألقوا في تاريخنا بعد قرابة ثمانية قرون من الاحتلال، ألا يستحق أن يعترف بهم كتاب تاريخنا وأن يُدرس ذلك في مدارسنا ؟

الفصل الثالث

دخول الإسلام لمصر

أحوال مصر قبل دخول العرب، احتلال العرب لمصر وهل كان بصلحٍ أم عنوة، وعلاقة ذلك ببعض الفقه الإسلامي فيما يختص ببناء وتعمير الكنائس، تحصيل الضرائب والجزية ومقدارها، ثم تدهور خراج مصر وأسبابه، عمرو بن العاص وولايته لمصر وخلافه مع عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان حول خراج مصر ثم عزله، شخصية عمرو وعزله ثم عودته لولاية مصر حتى وفاته. وصف العرب لمصر.

حالة مصر قبل دخول العرب

كان آخر الأباطرة الرومان الأقوياء هو جوستنيان الذي حكَم ما بين ٥٢٧ و٥٦٥. كانت مملكة الامبراطورية الشرقية في ذلك الوقت تمتدُّ من بلاد القوقاز والجزيرة العربية وحتى جبل طارق غرباً. لقد عَمَّر جوستنيان البلاد وبنى الحُصون والموانئ والكنائس والتي كان أشهرها آيا صوفيا والتي مازالت تشهد على الفن المعماري في عصره. حاول كغيره من الأباطرة فرض المذهب الملكي على مصر وتوحيد ديانة الدولة ولكنه لم ينجح وفشل كما فشل غيره أمام عناد المصريين واستقلاليتهم. جوستانيان أدان أعمال فيلسوف المسيحية الأول أوريجانوس المصري سنة ٥٤٣ بعد ثلاثة قرون من وفاته وساهمت هذه الإدانة في تدمير واختفاء الكثير من أعمال هذا الفليسوف المصري، وقد سبق وأشرت إلى ذلك. جاء بعد جوستينيان بعض الحُكام الضعفاء وكان أسوأهم فوكاس (٦٠٢– ٦١٠) وكان جندياً مشوه الخلقة ظالماً وكان يرأس جيشاً يحكمه الفساد، ولكن البطريرك قرياقوس قد توَّجَهُ في كنيسة القديس حنًا بالقسطنطينية. وعندما ساءت أحوال الامبراطورية كثيراً جاءها هرقل، وكان الحاكم الروماني لإفريقيا وهزم فوكاس وقتله في القسطنطينية(١).

في تلك الحقبة بدأت أحداثٌ عظيمة تحدث في الجزيرة العربية لتغير مجرى التاريخ في فترة وجيزة. في سنة ٦١٠ بدأ رسول الإسلام رسالته التي هزَّت المنطقة

---

(١) ألفريد. ج. بتلر. فتح العرب لمصر.تعريب محمد فريد أبو حديد. مكتبة مدبولي. سنة ١٩٩٠. ص ٨١.

وأعادت تشكيلها، وبنى العرب امبراطورية شاسعة على حُطام الامبراطورية الرومانية والفارسية المتهالكتين، وإن كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية لم تسقط تماما للإسلام إلا سنة ١٤٥٣م، ونُقش اسم الرسول على أعمدة كنيسة آيا صوفيا ولم تُدمَّر الكنيسة.

غزا الفرس الشام ثم مصر (٦١٩-٦٢٨م)، دمروا القدس وكنائسها العظيمة وقتل ما بين ٧٥ ألفاً إلى ٩٠ ألفاً وأُسِر قُرابة ٣٥ ألفاً[١]. وقد هرب الكثيرُ من سكان القدس للإسكندرية وخصوصاً رجال الدين حيث لقوا الكثير من الترحيب. بل وساعدت الكنيسة المصرية فيما بعد في إعادة تعمير القدس.

كانت الكنيسة المصرية في ذلك الوقت غنية وتملك أسطولاً لنقل وتجارة الحبوب قوامه ١٣ سفينةً وإن كانت غالباً ما يتحكَّم فيها البطاركة المعينون من قِبل الامبراطور[٢]. ثم جاء الفُرس لمصر بعد أن استقر لهم الأمر في القدس. في مصر دمَّروا الكثير من الكنائس والأديرة وأخذوا مصر كلها والإسكندرية وليبيا[٣].

كانت الامبراطورية الرومانية في الشرق على وشك أن تنهَزِم وتتحلَّ أمام الفُرس وهاجمتها أيضاً قَبَائِل تُركيَّة وحوصر الامبراطور هرقل في القسطنطينية محاطاً بجيشٍ غير قادر على حمايته وفكر في الهروب. حاول الامبراطور أن يتصالح مع امبراطور الفرس، إلا أن الأخير طلب الاستسلام وتَرك عبادة الصليب لعبادة الشمس. كانت حالة اليأس هذه قد دفعت البيرنطيين لإصلاح أمورهم فلم يكن أمامهم غير الكفاح أو الموت. اقترض الامبراطور الأموال من الكنيسة التي كانت غنية وأعاد بناء الجيش في وقتٍ تراخى فيه الفُرس. تمكن هرقل من هزيمة الفرس

---

(١) ألفريد.خ. بتلر. فتح العرب لمصر.تعريب محمد فريد أبو حديد. مكتبة مدبولي. سنة ١٩٩٠. ص١٠١.
(٢) بتلر. المرجع السابق ص ٩٠.
(٣) بتلر المرجع السابق ص ١١١.

في عقر دارهم، وهرب كسرى وخرج الفُرس من كل البلاد التي احتلوها سنة ٦٢٨. وقد استمرت تلك الحرب ست سنوات. كان انتصار الروم انتصاراً غريباً قل مثلهُ في التاريخ. للأسف لا توجد وجهة نظر مصرية لتلك الفترة، حيث إن مخطوطة حنًا النقيوسي المُهمّة والقريبة من تلك الحقبة قد فُقد منها قرابة ثلاثين عاماً وهي حكم هرقل وحتى قُرب دخول العرب مصر. وليس أمام المؤرخين سوى الاعتماد على ما كتبه رجال الكنيسة أو المتأثرون بها، وهؤلاء كتبوا من وجهة نظر الكنيسة. ساعد بعض اليهود الفُرس في احتلال الشام ومصر وكانوا عيونهم لمعرفتهم بالبلاد وأهلها. وقد سجل المقريزي بعد قرابة ألف عام وصفه لما حدث كالآتي[1]:

بعث كسرى جيوشًا إلى بلاد الشام ومصر، وقتلوا النصاري أجمعهم، وأتوا إلى مصر في طلبهم فقتلوا منهم أمةً كبيرةً وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل وقرية الناصرة ومدينة صور وبلاد القدس فنالوا من النصاري كل منال وأعظموا النكاية فيهم وخربوا لهم كنيستين بالقدس وحرقوا أماكنهم وأخذوا قطعةً من عود الصليب وأسروا بطريرك القدس وكثيراً من أصحابه، ثم مضى كسرى بنفسه من العراق لغزو قسطنطينية تحت ملك الروم فحاصرها أربع عشرة سنة. ....ويستمر المقريزي في سرد ما حدث حتى انتصار الروم، فطلب اليهودُ من الامبراطور هرقل الأمان فوافق على ذلك، إلا إنهُ تحت ضغط رجال الدين نكث بوعده. ويستمر المقريزي فيقول.. ***وأعلمه النصارى بما كان من ثورةِ اليهود مع الفُرسِ وإيقاعهم بالنصارى وتخريب كنائسهم وأنهم كانوا أشد نكايةً لهم من الفرس وقاموا قياماً كبيرًا في قتلهم عن آخرهم وحثّوا هرقل على الوقيعةِ بهم وحسنوا له ذلك .....فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعةً شَنعاء أبادهم جميعهم فيها حتى لم يبقَ في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى.***

كانت العداوةُ وعدم الثقة بين المسيحيين واليهود عظيمةً لاتهامِ اليهود بقتل

(١) الخطط المقريزية. مكتبة الآداب. القاهرة. الجزء الرابع. ٣٩٢ ص.

المسيح، أما اليهود فاعتبروا المسيح إنساناً دجالاً هدد اليهود، ورفضوا رسالته مع العِلم بأنه جاء لهم أولاً. وقد سبق وأشرنا إلى ما فعله بعض بطاركة الإسكندرية مع اليهود. استمرت تلك العداوة حتى العصور الحديث وكان آخر حوادثها المحرقة التي راح ضحيتها الكثير من اليهود، وان كان الأخيرون قد فعلوا بالفلسطينيين ما فُعِلَ بهم من قتل واضطهادٍ وتعذيب بالإضافة للاستيلاء على أراضيهم.

خلال فترة الحكم الفارسي لمصر رغم قِصَرها استسلم المصريون للسيِّد الجديد وكان الفُرس حتى ذلك الوقت يمثلون آخر حلقةٍ من الحكام الأجانب الذين توالوا على مصر قرابة الألف عام. ولم تكن هذه أول مرة يغزو الفرس فيها مصر، فالأسرة السابعة والعشرون (٤٥٤ – ٥٢٥ ق. م.) كان حُكَّامُها من الفُرس، ومرةً أخرى في العائلة الحادية والثلاثين (٣٣٢ – ٣٤٣ ق. م.). وإن كانت الفترة الاخيرة من حكم الفرس لا نعرف عنها الكثير، بل ولا نعرف المدة التي قضاها الفُرس في مصر قبل أن تنهزم امبراطوريتهم، قيل إنها ما بين عشر سنوات واثنتي عشرة سنة. بعد خروج الفُرس من مصر، كانت مدينة الاسكندرية نفسها في حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار، وكانت غالباً ما تعاني حروباً وصراعات بين مذهبي المسيحية الملكيين واليعقوبيين. أما في باقي مصر فقد كان هناك الكثير من عصابات اللصوص وقُطَّاع الطرق والبدو الذين كانوا يهاجمون الأهالي والأديرة على أطراف الوادي. وكان الحكام ضعفاء ولا هم لهم سوى ابتزاز الرعية بسلب أموالهم لتكون غنيمةً للحكام. وبينما كان الحكام مشغولين بجمع المال تحت حماية العسكر كان تجار الروم واليهود ينافسون المصريين في التجارة منافسة شديدة. أصبحت مِصر ميداناً للشغب، وقال حنا النقيوسي إن الفِتن قد سادت بين الطوائف وأوشكت أن تكون حرباً أهلية[1].

لقد أنهكت الخلافات الدينية الامبراطورية الرومانية، وكانت أحد أسباب تدهورها. لقد اعتبر الامبراطور نفسه الكاهن الأكبر،وكان بعضهم يعتبر نفسه حاكماً

---

(١) ألفريد ج بتلر. فتح العرب لمصر. تعريب محمد فريد أبوحديد. مكتبة مدبولي. سنة ١٩٩٠. ص ٤٧. عن حنا النقيوسي. ترجمة زوتنبرج.

باسم الرب أو الحاكميه كما تسمي الان، وكانوا يعينون البطاركة المهمين، وأصبح بعضهم شركاء في الحكم أو يحكمون باسمه في بعض المناطق، كما كان الحال في مصر. كان تَدَخُّل رجال الدين في السلطة بالحكم المباشر أو بالتاثير في الامبراطور مشكلةً أضرت بالسياسة والدين، حيث إن السلطة أفسَدَت رجال الدين وجعلتهم يتدخلون في السياسة، وقد سبق وأشرت لأمثلة من ذلك. كان لوشايةِ رِجال الدين لدى الامبراطور أن أقنعه البعض منهم بضرورة توحيد دين الامبراطورية تحت رئاسته، وقد سبب ذلك قلقلةً في الحكم. كانت آخر محُاولة لذلك وعندما يأس هرقل من توحيد دين الدولة قرر أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن طبيعة المسيح، وعليهم أن يشهدوا أن له إرادةً واحدةً وقضاءً واحداً وسمُي هذا المذهب مونوثيلي "Monothelitism"[1].

أرسل الامبراطور هرقل بطريركاً ملكانياً لمصر اسمه قيرس كرئيس ديني له صلاحيات الحاكم أيضاً، وطلب منه الامبراطور أن يفرض مبدأه الديني على مِصر وأهلها دون حتى محاولة اقناعهم. وهذا المذهب أساساً هو مذهب خلكيدونية بشأن طبيعة المسيح طبقاً لمجمع كنسي عُقِد سنة ٤٥١ والذي رفضته الكنيسة المصرية وسبق الإشارة إليه. كان قيرس هذا هو من سمَاه الكُتَّاب العرب (المقوقس)؛ والحقيقة أن الكثير من الكُتَّاب العرب خلطوا الكثير من الأسماء والتواريخ والأماكن حيث إنهم لم يكتبوا عن تاريخ تلك الفترة إلا بعد قرابة قرنين من دخول العرب لمصر. وكان أول من كتب هو البلاذري (فتوح البلدان) وكان ذلك حوالي سنة ٨٦٨ وابن عبد الحكيم في كتابة فتوح مصر واخبارها سنة ٨٧٠، وكان هذا الكتاب خصيصاً عن مصر، اما باقي ما كتبه العرب فلم يكن كذلك. يعد أهم كتاب متخصص في الغزو العربي لمصر هو كتاب ألفريد ج. بتلر[2] والذي ترجمه محمد فريد أبو حديد بك، ونشرته حديثاً مكتبة مدبولي سنة١٩٩٠، ويقع الكتاب في ٦١٢ صفحة والكتاب موثّق توثيقاً جيداً بالإضافة إلى الكثير من الهوامش من المؤلف والمترجم.

---

(١) الموسوعه القبطيه باللغه الانجليزيه. مرجع سابق. ج٥ ص ١٦٧٨.

(2) Alfred Butler. The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Domination. Oxford University Press 1902 and again 1998.

جاء قيرس (المقوقس) لمصر تسبقه سمُعته بالعنف والقسوة والإصرار على تنفيذ ما طلبه منه الامبراطور، وقد سبب بلاءاً عظيماً للمصريين. هربَ البطريرك المصري بنيامين واختفى بين الأديرة في الصحراء، وكان في حماية الرهبان، ولم يستطع قيرس العثور عليه، وهو نفس ما حدث لبعض ممن سبقوه من البطاركة. استمر تقليد اختفاء الرهبان أو ذهابهم للأديرة حتى الوقت الحديث، وهذا ما حدث للأنبا شنودة خلال فترة السادات. كان قيرس يُعذِّب من لم يقبل مذهب الامبراطور وخصوصاً رئاسات الكنيسة وكأنهم مجرمون[1]. ليس غريباً تحت هذه الظروف أن يُذعِن البعض ويغير اعتقاده ليرضي الحاكم، فليس معقولاً أن يستشهد شعب بأكمله لخلافات تخص مسائل لاهوتيةً معقدةً ليس لأغلب الناس دراية بها. هرب الكثيرون إلى الصحراء، ومن لم يستطِيعوا الهروب من الاضطهاد وكانوا غير راضيين عن تغيير مذهبهم لجأوا إلى التقية وأظهروا غير ما يبطنون[2]. كانت سياسة قيرس قد قطعت آخر ما كان يربط المصريين بالامبراطورية الرومانية. ثم جاء العرب، وكالعادة في أوقات المحن العظام اعتقد بعض المصريين أن مجيء العرب هو من تدبير الرب للانتقام من ظلم الرومان. وإن كان العرب لم يتدخلوا في شئون العقيدة، إلا أن الخطر الأكبر جاء فيما بعد من تحوُّل البعض ثم الكثير مِن المصريين للإسلام لظروف كثيرة، ليُصبح الأقباط أقليةً عَانَت في بعض الأوقات بلاءً عظيماً. كان بقاء الأقباط في مصر لليوم رغم اختفائهم من بِلاد أخرى كثيرة، يعكس طبيعة الشعب المصري بما يملك من رواسب حضارية وتسامح واعتراف الإسلام بأهل الكتاب وخصوصاً مسيحيي مصر. ويقول بتلر[3]:

وليت شعري، ماذا كان يدور بنفوس أهل مصر إذ ذاك؟، وبأي عين كانوا ينظرون إلى تلك الحركة العظيمة التي ثارت في بلاد العرب، فما زالت حتى قرعت بلاد الشام وهزت مدائنها هزاً. إنا نقول، وإن قولنا لمما يُشرِّف القبط، إننا لا نجد أقل دليلٍ يبعثنا على الظن بأنهم نظروا إلى تِلك الحركة نظرة الميل والرضا.على أنهم

---

(١) لفريد بتلر. فتح العرب لمصر. تعريب محمد فريد أبوحديد. مكتبة مدبولي. سنة ١٩٩٠. ص ٢١٧.

(٢) الفريد بتلر المرجع السابق ص ٢٢٤.

(٣) الفريد بتلر. تعريب ابو حديد. مكتبه مدبولي. ١٩٩٠ ص٢٢٤.

لابد قد بلغهم أن المسلمين يدعون للمسيحيين أمور دينهم، وفعلهم قد خطر بقلوبهم عند ذلك أن الخضوع للمسلمين قد يخفف من الآلام التي نغَّصت عليهم حياتهم، وإن نير المسلمين قد يكون أخف حملاً من نير الملك الأصيل في دين المسيح وهو هرقل. لا شك أنهم كرهوا دين الإسلام، وتدل على ذلك كل صفحة من صفحات تاريخهم، ولكن سيف قيرس (المقوقس) قطع آخر ما كان يربطهم بالدولة الرومانية من أسباب الولاء، وذلك لكثرة ما لاقوه في مدة السنوات العشر من الظلم الذي نزل بهم إلى حضيض من الشقاء لا أمل فيه. فرأوا في مجيء المسلمين نازلةً أرسلها الله لينتقم لهم بها من ظالميهم.

لقد شاخت الامبراطورية الرومانية، وأصبح نفوذ رجال الدين أحياناً أقوى من نفوذ الحُكّام، وفسد بعضٌ ممن لديه السلطة منهم، وبدأت أوروبا تدخل في عصر الظلام، وما سُمّي أيضاً بالقرون الوسطى. فعلى سبيل المثال، في عام ٣٩٠ وبعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية، أمر الامبراطور ثيودوسياس Theodosius بعِقاب كل سكان مدينة ثيسالونيكا Thessalonica في اليونان، فما كان من أسقف مدينة ميلانو إلا أن فرض عقاباً دينياً على الامبراطور وأمام الجميع[1]. هناك أمثلة عديدة لفساد رجال الدين حين يمتلكون السلطة، فهم يعتقدون أو يوهمون الناس بأنهم يحكمون باسم الرب وأنهم يمتلكون الحقيقة. هل هي مجرد مصادفة أن بداية عصر الظلام في أوروبا وافقت تعاظم قوة رجال الدين؟ لم تخرج أوروبا من عصر الظلام إلا بعد أن نجحت في تحجيم دور رجال الدين ومنعهم من الحكم أو التدخل فيه، إن أوروبا أصبحت دولاً تحكمها حكومات مدنية فكانت بداية تقدمها. ولكن هذا لا يعني تخلي أوروبا عن مبادئ الدين.

بعد وفاة الرسول رفض بعض المسلمين دفع الزكاة، وارتد البعضُ عن الإسلام، وظهر بعض من ادعوا النبوة. حارب أبو بكر الصديق -أول الخلفاء الراشدين- كل هؤلاء، ووفِّق في الحفاظ على كيان الإسلام والدولة. كان أبو بكر في

---

(1) Moses Hadas. Imperial Rome. Time Life Books. 1965 page 175.

حاجة لشَغْلِ العرب بعيداً عن الخلافات الداخلية بحروب خارج الجزيرة العربية وإغرائهم بغنائم الحروب، بالإضافة لنشر الإسلام كما أمر الدين. واستمر في محاربة الروم والتي ابتدأت قبل وفاة الرسول. كان أحد قادة هذا الجيش هو عمرو بن العاص الذي قال للخليفة "إني سهمٌ من سِهام الإسلام وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها. فانظر واخشاها وافضلها، فارمِ به شيئاً إن جاءك من ناحيةٍ من النواحي"(١).

أُرسِلَت الجيوش إلى الشام، وكُلِّفَ عمرو باحتلال فلسطين، وآخرون وُجِّهُوا لدمشق وحمص والأردن. وقد أبلى عمرو بلاءً حسناً في فلسطين، وإن كان قد اشترك كذلك في وقائع اليرموك ودمشق والأردن مع خالد بن الوليد، لم يكن ينقص عمرو الذكاء ولا الشجاعة، ولكن بدون اندفاع، وكان العربُ محاربين أشداء ولم يكونوا مُنعَّمين؛ فالخشونة كانت حياتهم.

احتلال مصر

بعد أن سيطر العرب على الشام كان لا بد أن يأتي الدور علـــى مصر والتي كانت مزرعة القمح ودُرَّة الامبراطورية الرومانية. وآجلاً أم عاجـــلاً كانت ستسقط في أيدي العرب كالثمرة الناضحة. واتت العرب الكثيرُ مـــن الشجاعة والثقة بالنفس بعد هزيمة الرومان بالشام، بالإضافةِ لمغانم الحــروب. أقنـع عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب بغزو مصر، فوافق ابن الخطاب بعد كثيرٍ من التردد، وبدأ الغزو في ديسمبر سنة ٦٣٩ م. ويبدو أن عمرو كان على بعض الدراية بمصر، ويقال إنه قد زارها من قبل. خرج عمرو على مصـر بحوالي ٤٠٠٠ مقاتل. كيف تخيل عمرو أن يغزو مصر بهذا العدد الضئيل من العسكر وبها جيوشٌ كثيرة وحصون رومانية منيعة؟ هذا سؤال تصعب إجابتـه، ولكن القافلة العربية الصغيرة دخلت مصر، وكانت أول مدينة مصرية دخلوهـــا هي "برمون" والتي سموها العرب "الفرما" وكانت بالقرب من فرع النيـــل الشرقي القديم والمسمي "البلوزي" وكان بها كثيرٌ من الكنائس والأديرة وحصن

(١) حسن ابراهيم حسن. تاريخ عمرو بن العاص. مكتبة مدبولي. سنه ١٩٩٦ ص ٢٧٨.

استولى عليه العرب. ولم يقابل العرب أية مُقاومَة تُذكَر بعد ذلك، حتى وصلوا إلى حصن بابليون (في مصر القديمة الآن، بجوار جامع عمرو). حَدَثَت بعض المناوشات مع الرومان المعتصمين بالحصن، ولكنها لم تؤدِّ إلى شيء. لم يكن لدى العرب وسيلةٌ لهَدم الحصن أو اختراقه فلم يكن لديهم علمٌ بذلك، بالإضافة لوجود قوة رومانية كبيرة داخل الحصن. كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب– الذي كان في فلسطين– رسالةً يقول فيها "إن لم تُرسِل لنا قوةً إضافيةً فلا يمكن الاستيلاء على مصر ". خلال تلك الفترة وقبل وصول المدد، صال وجال هؤلاءالأربعة آلاف مقاتل ووصلوا بالقرب من الفيوم، وفي الطريق احتلوا البهنسا، ويقول حنا النقيوسي إنهم قتلوا من بها من رجال ونساء وأطفال. لم يكن لدى جيش العرب الصغير مشاكل في التموين، حيث إنَّهُم حصلوا عليه بقوةِ السّلاح من شعبٍ أعزل من السلاح. ويقول حنا النقيوسي ايضا إن الأقباط لم يساعدوا العرب في أول الأمر كما يدعي البعض، فإن ساعدوهم كانت مساعدةً قليلة لا تتعدى بعض الأمور.

أرسل عمر بن الخطاب المدد في شهر يونيو سنة ٦٤٠، أي بعد حوالي ستة أشهر من بداية الغزو. ويخلط المؤرخون في عدد المدد المرسل، فبينما قال حنا النقيوسي إن تعداد المدد كان حوالي أربعة آلاف، أكد ابن عبد الحكيم نفس الرقم، بينما ذكر البلاذري أنه كان ١٠,٠٠٠ أو ١٢,٠٠٠. وأورد المقريزي نقلاً عن الكندي أنه كان ١٥,٥٠٠[١]. أظهر عمرو في استيلائه على مدن مصر همةً كبيرةً وذكاءً فائقاً، كما ذكر المؤرخ المصري حنا النقيوسي[٢]. وكان من الطبيعي لجيشٍ غازٍ أن يستعمل العُنف على الاقل كعامل نفساني لإرهاب أعدائه حتى تستقرَّ لهُ الأمور ثم تظهر حقيقة سياسته ونواياه. يقول حنا النقيوسي[٣] :

---

(١) الفريد بتلر. تعريب ابو حديد. مرجع سابق ص ٢٥٦. وكذلك أبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري. مطبعة الآباء اليسوعيين.بيروت سنة ١٩٠٨ ص ٨.

(٢) حنا النقيوسي. مجلة صهيون.. سنة ١٩٤٨. ص ١٢٩. لقد اصبح اسم صهيون يثير الاشمئذاذ لدينا إلا انه اسم قديم والمجلة اقدم من اسرائيل ولا علاقة لها بالصهيونية.

(٣) حنا النقيوسي. المرجع السابق. ص ١٢٩.

أتي الاسماعيليون وقتلوا رئيس الجيش (في البهنسا) ***وكل رفاقه، وأصبحوا سادة المدينة. وكان كل من يقترب منهم يلاقي حتفه، فلم يرحموا الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال، ثم تحولوا بعد ذلك ضد الجنرال يوحنا*** (رئيس الجند) ***فأخذ هذا الأخير ورفاقه خيولهم واختفوا وراء السدود والمزارع من العدو، ثم ساروا أثناء الليل نحو النهر الكبير نحو بويط حيث كانوا يأملون التواجد في مكان أمين، وكان ذلك كله بسماح من الرب. إذ أرشد رئيس الأحزاب التي انضمت إلى أرميا، الجيش الإسلامي إلى الرومان الذين كانوا مختبئين، فوصل إليهم المسلمون وقتلوهم.*** وقد تكرر ذلك في مدن أخرى.

استمرَّ حصارُ العرب لحصن بابليون، ويذكر الكُتَّاب العرب صوراً مختلفةً لمفاوضات بين العرب والرومان تشوبها مثاليةٌ وفخرٌ بمبادئ الإسلام وشجاعة العرب وإن كانت بها تناقضاتٌ مُهِمَّة تعرَّض لها بتلر في كتابه[1]. مات الامبراطور هرقل في مارس سنة ٦٤١ وأثَّر ذلك على الحال في مصر، واستسلم الحصنَ في أبريل بعد حصار دام حوالي سبعة شهور. يقول حنا النقيوسي إن فتح الحصن للمسلمين لم يكن إلا عقاباً من الله على ما فعله الروم بالقبط، فيسبهم ويقول[2]:

إنهم أعداء المسيح الذين دنَّسوا الكنيسة بعقيدة فاسدة واقترفوا كل الجرائم والقسوة التي لطائفة الاريوسين، والتي لم يقترف مثلها الوثنيون ولا البرابرة. واحتقروا السيد المسيح وخدامه، كما أننا لم نعثر على مثل هؤلاء القساة بين عَبَدة الآلهة الكاذبة.

بعد أن استسلم الرومان سُمِح لهم بالخروج، أما من بقي من أهل المدينة فدفع الجزية والتي تقدر بدينار (وقال البعض إنها ديناران) لكل من جنود العرب ولباساً يقول المقريزي إنه جبة وبُرنس وعمامة وخُفَّان. وقد قال عمرو لمن بقي بالمدينة: ليس بيني وبينكم إلا ثلاث خصال: إما دخلتم الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا،

---

(١) ألفريد ج. بتلر. تعريب ابو حديد. مرجع سابق ص ٢٨١ – ٢٨٦.

(٢) حنا النقيوسي. مجلة صهيون. مرجع سابق. سنة ١٩٤٨. ص ١٣٧. وكذلك الفريد بتلر. مرجع سابق ص ٣٠١.

وإن أبيتم فأُعطِيتُم الجِزيةَ وأنتُم صاغِرون، وإما جاهدناكم بالصبر حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين. بدأ بعض القبط والرومان عند ذلك يختارون الإسلام ويفضلون الدخول فيه.. بعضهم عن اقتناع بالدين الجديد وبعضهم تجنباً لدفع الجزية، وبعضهم من أجل أن يتساووا مع الفاتحين، وإن كان ذلك على الأقل من حيث المبدأ. أصبح هؤلاء المتحولون للإسلام وإن كانوا قلةً يمثلون سنداً قوياً للمسلمين لمعرفتهم بطبيعة البلاد وأهلها التي يجهلها العرب، كان هؤلاء المسلمون الجدد بذرةً مهمةً ساعَدَت في تحوُّل الكثيرين من المسيحية للإسلام. كان البطريرك بنيامين مختفياً لمدة ثلاث عشرة سنة، مما أضعف الكنيسة القبطية، بالإضافة لأن أسباب الخلافات الدينية كان يصعُب على العامة فهمهُا فيأس البعض من هذا الصراع وتحولوا للإسلام. ويصف الأسقف حنا النقيوسي المرتدين بقوله " ارتدوا عن دينهم المسيحي ودخلوا في دين البهائم !!". استمرّ انتصارُ العرب، فاحتلوا الفيوم ثم اتريب ومنوف وبعض المدن الأخرى في مصر السفلى، حتى وصلوا إلى مشارف الإسكندرية. أرسل ذلك الرعب في كل المدن المصرية، وتقهقر الرومان أو فرُّوا أمام العرب خائفين، رغم ما لديهم من عتاد حربي، وأخذ الأهالي في الهروب إلى مَدينة الإسكندرية تاركين أملاكهم وأموالهم وحيواناتهم. حوصرت الإسكندرية وكان من الصعب اختراقها لحصونها وموانعها الطبيعية.

في ذلك الوقت كان الامبراطور الروماني هرقل في أواخر أيامه قد مسه شيءٌ من الخبَل، وحلّ الخلافُ بين ورثته، فتولّى ابنه قسطنطين الامبراطورية، ولكنه مَاتَ أو قُتِل بعد مائة يوم، فخلفَهُ ابنُه الثاني هرقلوناس (هرقل الصغير) وكان شاباً صغير السن، ويبدو أن أمه الامبراطورة مارتينة قد خططت لكل ذلك، لأنه كان ابناً غير شرعيٍّ لهرقل. هرقلوناس أعاد قيرس (المقوقس) من المنفى، وكان قد نفاهُ الامبراطور هرقل بعد فشله في مصر، وفوضه في الذهاب لمصر ومفاوضة العرب، وأن يقضي على كُل القِتال. كان قيرس قد جاء لمصر قبل ذلك بحوالي عشر سنوات بقصدٍ ديني فلم يوفق فيه، بل أخفق إخفاقاً شديداً أضعف مصر، ودفعه إلى اليأس والاستسلام للعرب، ثم

جـــــاء أخيـــراً لعقد صُلح مع العرب وتسليم الإسكندرية في عام٦٤١. ويصف حنا النقيوسي ما حدث كما يلي[١]:

توجه البطريرك قيرس إلى بابليون ليكون قريباً من المسلمين، وليتفاوض معهم في الصلح عارضاً عليهم دفع الجزية حتى يمتنعوا عن الحرب في مصر. فقابله عمرو بكل ترحاب قائلاً له : لقد عملتم خيراً بحضوركم إلينا " فأجابه قيرس قائلا : "لقد منحكم الله هذه البلاد فلا يكون بعد ذلك حربٌ بينكم وبين الروم، حيث لم يكُن هناك خصامٌ قبل ذلك بيننا وبينكم " ثم اتفقا على تحديد الجزية التي تقوم البلاد بدفعها وعدم تدخل الاسماعيليين بأي حالٍ من الأحوال في شيء ما، بل يلتزمون العزلة مدة أحد عشر شهراً تبحر عساكر الروم في الإسكندرية أثناءها حاملةً معها أموالها وأشياءها الثمينة، وألاَّ يعود جيشٌ روميٌّ بعد ذلك إليها، وإن الذين يرغبون في السفر عن طريق البر يدفعون رسوماً شهريةً على أن يأخُذ المسلمون مائةً وخمسين جندياً وخمساً من الأهالي رهينةً عندهم حتى يتمَّ الصُلح والسلام، فيمتنع الروم عن محاربة المسلمين، ولا يستولي هؤلاء على الكنائس، ولا يتدخلوا مطلقاً في أمور المسيحيين وأخيراً عليهم أن يتركوا اليهود يقيمون في الإسكندرية.

وهذه المعاهدة هي أقدم سجل لدينا. والحقيقة أن أهل الإسكندرية كانوا يجهلون أمر هذه المعاهدة حتى فوجئوا بوصول العرب لتحصيل الجزية. ويقول النقيوسي إن عمرو كان يعامل المصريين بلا شفقةٍ وكان لا يحترم الشروط المتفق عليها، لأنه كان من أصلٍ بربري[٢]. ربما كان احتلالُ مصر أسهل احتلالٍ خاضه العرب، فهو لم يستغرق إلا أقل من ثلاث سنوات، بينما استغرق احتلال الشام حوالي ثماني سنوات، واحتلال العراق حوالي ثماني عشرة سنة، أما المغرب فاستغرق قرابة خمسين عاماً. يعتقدُ البعض أن سهولة احتلال مصر تعود لتدهور الامبراطورية البيزنطية، بينما يعتقد آخرون أن هذه السهولة كانت لشجاعة العرب ولمساعدة

---

(١) حنا النقيوسي. مجلة صهيون سنة ١٩٤٨. ص ١٤٣. لقد اصبح اسم صهيون يثير الاشمئذاذ لدينا إلا انه اسم قديم والمجلة اقدم من اسرائيل ولا علاقة لها بالصهيونية.

(٢) حنا النقيوسي. المرجع السابق ص ١٤٥.

المصريين للعرب لخلاصهم من الاضطهاد الروماني، وغالبا ما يكون ما سهّل احتلال مصر هو حصيلة كل تلك الأسباب.

كان مركز عمرو يزدادُ قوةً. وكان يحصّل الخراج والجزية التي تقررت، ولكنه لم يأخذ شيئاً من أموال الكنيسة، كما أنهُ لم ينهبها، بل حماها طوال مدة حكومته كما قال حنا النقيوسي[١]. والحقيقة أن عمرو كان لديه حسٌ سياسيٌ جيد. ويُعد أفضل من حكم مصر من العرب خلال حكم الخلفاء الراشدين، ثم خلال حُكم الأمويين والعباسيين.

بعد أن استقرت الأمور لعمرو أصدَر بياناً يعلن فيه عهد الحماية والأمان على البطريرك بنيامين، فعاد من مخبئه ودخل الإسكندرية بمظاهرة ترحيبٍ من الأقباط بعد غياب ثلاث عشرة سنة، وبعد غياب ثلاث سنوات من دخول العرب لمصر[٢]. حنا النقيوسي وبتلر يؤيدان الرأي القائِل إن البطريرك بنيامين لم يساند العرب، ولو كان بنيامين راغباً في مُساندَة العرب لخرج من مخبأه وأعلن ذلك، وهو ما لم يحدث إلا بعد أن استولى العربُ على كُلِّ مِصر، وبعد أن أعطى عمرو الأمان للبطريرك حوالي أواخر عام ٦٤٤. إلا أن المقريزي[٣] قد أيّد الرأي القائِل إن بنيامين أيّد العرب " وذكر "فلما بلغ بنيامين قدوم عمر إلى مصر كتب إلى القِبط يعلمهم أنهُ لا يكون للروم دولة وأن مُلكَهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو". ولكن كتابة المقريزي كانت في القرن الخامس عشر، أي بعد ثمانية قرون من تلك الحوادث. والحقيقة أن الحرب كانت بين العرب والرومان، أما المصريون فلم يتدخلوا في هذا الصراع إلا حين كانوا يجبرون على ذلك.

بعد أن انتصر العرب تقبّل المصريين السادةَ الجُدد كما تقبّلوا مَن سبقوهم. علم عمرو بمركز البطريرك لدى المصريين فرحَّبَ بالبطريرك عندما خرج من

---

(١) حنا النقيوسي. مجلة صهيون. المرجع السابق ص ١٥٠.

(٢) حنا النقيوسي. المرجع السابق. ص ١٤٩. وكذلك الفريد بتلر. مرجع سابق. ص ٤٥٧.

(٣) الخطط المقريزية. دار صادر. بيروت. جزء ١. ص ٢٨٩.

مخبأه واحترمه وقال " إنني لم أرَ في أي بلدٍ من البلاد التي فتحها العَرَب رجلاً مثل هذا من رجال الدين". وجعل لهُ ولاية أمر دينهم، وكان عمر في حكمةٍ يسيرُ على نهج الاعتدال والتسامح. الحقيقة أن عمر لم يتدخل في شئون الكنيسة المصرية أو الكنائس التابعة للرومان كما ذكر حنا النقيوسي، وإن كان أغلب التابعين لكنائس الرومان نتيجة الاضطهاد الروماني قد عادوا للكنيسة المصرية.

هل فُتِحَت مِصرُ بصلحٍ أم عنوةً ؟

السؤال الذي شغل الكثيرين، وخصوصاً الفُقَهَاء ولمدة طويلة هو: هل فُتِحت مصر بصلحٍ أم عنوةً؟ وأهمية السؤال حتى بعد مئات السنين من الفتح العربي يكمن في: هل من حق المصريين المسيحيين أن يبنوا الكنائس والاحتفاظ بكنائسهم القديمة؟ فمن وجهة نظر بعض آراء الفقه الإسلامي إذا كان الفتح بصلحٍ يحق لهم ذلك، أما إن كان عُنوةً فلا يحق لهم ذلك. وقد يبدو هذا التساؤل سخيفاً في القرن الحادي والعشرين، ولكن مشكلة بناء الكنائس بمصر كانت وما زالت مشكلةً مُزمِنة وإن كان الأقباط قد نجحوا في الاحتفاظ ببعض كنائسهم القديمة وبناء الجديد منها بطريقة أو بأخرى لأن مصر كان وما زال بها الكثيرُ من العقلاء، إلا إن ذلك لم يكن بلا مصاعب، بل أحياناً كانت هناك اضطرابات وهُدِمت أو دُمِّرَت بعض أو كثيرٌ من الكنائس. لم يذكر الكاتب القبطي حنا النقيوسي أنهُ كانت هناك مشكلة في بناء وترميم الكنائس خلال حكم عمرو بن العاص، وأعتقد أن ذلك لم يكن ممكناً، فتعداد الجيش العربي كان بضعة آلاف، بينما كان تعداد المصريين بضعة ملايين. لم تُثَر تلك المشكلات إلا عندما ازداد عدد المسلمين، وعندما حاول بعض الحكام أو الفُقهاء الضغط على الأقباط ليعتنقوا الإسلام.

كَانت نصوص المعاهدة التي ذكرها الأسقف حنا النقيوسي- والذي عايش تلك الفترة- تبدو واضحةً (..ولا يستولي هؤلاء -أي العرب- على الكنائس. ولا يتدخلوا مطلقاً في أمور المسيحيين) كما ذكر سابقا. إلا أنه كان هناك الكثير من

التناقض والتفسيرات المختلفة التي أوردها الكُتّاب العرب فيما بعد. المؤرخون العرب لم يكتبوا التاريخ إلا بعد قرابة قرنين من الزمان من أحاديث القدماء المروية والتي قد يعتري بعضها مغالطاتٌ مقصودة أو غير مقصودة لدوافع سياسية او اقتصادية أو دينية. ابن عبد الحكم سجّل كل الآراء المعاصرة له ممن أيّدوا أن مصر فُتِحَت بصُلحٍ أو عنوةً (١).

بعد فتح الاسكندرية، حاول بعض قادة عمرو أن يُقَسِّمُوها - أي أنها فُتِحَت عنوةً - كغنيمة حرب، أسوةً بما فَعَل الرسول مع يهود خيبر حين وزّع أراضيهم على أفراد جيشه المنتصر واستعبد أفراد القبيلة. إلا أن عمرو بدهائه السياسي كان رافضاً لذلك، واستشار الخليفة عمر بن الخطاب. كان رد الخليفة "لا تُقِّسمها وذَرهُم يكون خراجهم فيها للمسلمين قوةً لهم على جهاد عدوهم". بذلك فتحت مصر كلها صلحاً بفريضة دينارين على كل رجل لا يزاد عليهم. وقد أكّد تلك الرواية آخرون. سجّلها ابن عبد الحكم. أما أن مصر فُتِحت عنوةً بلا عهد ولا عقد فقد رواها وسجلها أيضاً ابن عبد الحكم على لسان آخرين. وهناك فئة أخرى رأت أن بعضاً من مصر فُتِح عنوةً وبعضها فُتِح بصُلح. والواقع أن مصر لم تُقسَّم وكان ذلك لمصلحة العرب والمسلمين. وقد رأى بعض الفُقهَاء في نهاية الأمر أنه من الأوفق أن يُصرِّحوا بأن مصر فُتِحَت صُلحاً فيما عدا بعض القُرى ومدينة الإسكندرية التي قاومت.

أما مدينة الإسكندرية فلها وضعٌ خاص، حيث إن الرومان غزوا المدينة في أواخر سنة ٦٤٥ ناقضين اتفاقهم السابق مع عمرو بن العاص، وكان ذلك بعد قرابة ثلاث سنوات من جلائهم عنها. واحتلوها واتجهوا جنوباً. إلا أن العرب استعادوها في صيف ٦٤٦.كان غزو الروم للإسكندرية قد مُهِّد له بثورةٍ من الداخل نتيجة إلغاء الإعفاء الضريبي الذي منحه الرومان لاهل الاسكندرية، وكان لايزال بالإسكندرية الكثير من الروم. في ذلك الوقت عرض بنيامين البطريك المصري مساعدة القبط

---

(١) ابن عبد الحكم. فتوح مصر واخبارها. طبعة جامعه ليدن. سنة ١٩٣٠.ص ٨٤ -٩٠.

للعرب قبل أن يسير عمرو لملاقاة الروم. كان عمرو قد عاد لمصر للدفاع عنها بعد أن كان قد عزله عُثمان لخلاف حول المال. حيث إن عثمان كان يشك في أمانة عمرو او اراد ان يستبدله ببعض من اقاربه. اضطر عثمان لإعادة عمرو لقيادة جيش العرب بعد الغزو الروماني. أعاد عمرو الإسكندرية لحوزة العرب، إلا أن عمرو هذه المرة استخدم العنف ودمَّر الكثير من أسوار المدينة، وكان يمكن لعمرو أن يعتبر الإسكندرية غنيمةً وأن يعتبر أهلها عبيداً أسوةً بما فعل الرسول، إلا أنه لم يفعل ذلك. لم يُقدم الرومان على إعادة محاولة احتلال مصر بعد ذلك إلى أن جاءت الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر. ولو أنه كانت هناك بعض المناوشات الفاشلة.

فيما عدا ذلك يكاد يكون هناك إجماع على أن مصر قد فُتِحَت بِصُلح، وقد أيَّد بتلر ذلك الرأي وناقشه[1]. وأيده أيضاً الطبري الذي قال " أعطى عمر بن العاص للأقباط الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيءٌ من ذلك ولا ينقص"[2]. وقد أفاد المقريزي نفس الشيء[3]. ولكن بعض من أتى بعد ذلك من الحُكام لم يحترموا هذا العهد واعتبروا أن مصر فُتِحَت عنوةً وحق لهم بذلك أن يزيدوا الجزية ويهدموا أو يعيقوا أو يمنعوا بناء الكنائس. تأرجح موقف الحكام والفقهاء بين درجة عالية من التسامح إلى منع بناء أو حتى ترميم الكنائس القديمة. وكانت هناك وجهة نظر فقهية مفادها أن ما بُني من كنائس بعد الفتح العربي وجب هدمه[4].

الشروط العُمَرِيَّة

حماية المسلمين لأهل الذمة كانت في أوائل حكم الإسلام لا تقيدها القيود التي دخلت عليها فيما بعد، وخصوصاً عندما زاد عدد المسلمين وقل عدد الأقباط.

---

(١) الفريد بتلر. مرجع سابق. تعريب ابو حديد ص ٣٤٣.

(٢) تاريخ الطبري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. سنة ١٩٧٠. الجزء الرابع. ص ١٠٩.

(٣) الخطط المقريزية. مكتبة الآداب. سنة ١٩٩٦. ج ١. ص ١٠٩.

(٤) ا. س. ترتون. أهل الذمة في الإسلام. ترجمة وتعليق حسن حبشي. دار المعارف. سنة ١٩٦٧.ص ٥١.

في القرن العاشر دخلت شروطٌ جديدة لم تكن مَوجُودة من قبل ولم يسجلها أيٌّ مِن الكُتَّاب العرب السابقين. سُمِّيت تلك الشروط "الشروط العُمَرِيَّة" نسبة الي عمر بن الخطاب. منها على سبيل المثال أن يلبس أهل الذمةِ لباساً يميزهم ويعقدوا الزنانير على خصورهم، ألا تعلوا بناياتهم على المسلمين، ألا يؤذوا المسلمين بقرع نواقيسهم ولا بترتيلهم في صلاتهم ولا بما يظهرون في عقائدهم، أن تقام مآتمهم بغير احتفال، وأن يُدفَن مَوتَاهم كذلك، أن يركب أهل الذِّمَة البرازين والخيول المعتادة، وأن يتجنبوا ركوب الأصائل، وأن لايتزوج مسيحيٌّ من مُسلمة. بالإضافة إلى عَدَم إهانة الإسلام أو تكذيب وتحقير الرسول، وألا يُعتدى على القرآن[1].

لم يكن من المعقول أن يفرض الغُزاة العرب في أول عهدهم على المصرين هذه التقاليد السابق الإشارة إليها، حيث أن العرب والمسيحيين الذين تحولوا للإسلام كانوا قلةً قليلةً في بداية عصر الإسلام بمصر. قد يكون ذلك ممكناً إذا أصبح عددُ المسلمين كبيراً نسبياً، ولم يحدث ذلك إلا في القرن العاشر أو حتى بعد ذلك. وإن كانت هذه الشروط قد أدخلت في وقت لاحق؛ بل ونسبها البعض إلى عمر بن الخطاب، إلا إن معرفتنا بتاريخ ابن الخطاب تجعلنا نستبعد أنه وراء تِلك الشروط، بالإضافةِ إلى تضارُب هذه الشروط ومصادرها وخلو المصادر العربية المهمة مثل البلاذري وابن عبد الحكم من أية إشارة إليها، ولم يذكُرها الأسقف حنا النقيوسي. وقد أيّد هذا فهمي هويدي، واستبعد أن يكون عمر وراء تلك الشروط وفنَّد ذلك[2].

لقد اختلق بعض فقهاء وكُتّاب العرب الكثير من الأحاديث النبوية والأحداث مما اعتقدوا أنهم في حاجة إليه لتأييد سياسات معينة[3]. ومع ذلك فإن هذه الشروط المجحفة بالأقباط لم تُطبّق إلا في أوقات الاضطهاد والتي غالباً لم تدُم طويلاً وكانت لأسباب سياسية وضعف الحكومة، وسنعود إلى ذلك.

---

(١) الفريد بتلر. تعريب ابوحديد. مرجع سابق عن الماوردي في كتاب الأحكام السلطانية. ص ٤٦٤.

(٢) فهمي هويدي. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. سنة ١٩٨٥. ص ٢٠٣.

(٣) حسين أحمد أمين. دليل المسلم الحزين. دار العين للنشر. الطبعة الحادية عشرة. سنة ٢٠٠٧. ص ٦٧.

وصف العرب لمصر

دخل العرب مِصر وأُعجِبوا بها وبالمصريين أشد الإعجاب. وقد قال عبد الله بن عمر إن قبط مصر أكرم الأعاجم كلها وأسمحهُم يداً وأفضلهم عنصراً وأقربهم رحماً بالعرب عامة وبقريش خاصة، ومن أراد أن يذكُر الفِردوس أو ينظر إلى مِثلِها في الدنيا فلينظر إلى أرض مِصر حين يخضرُ زرعُها وتنور ثمارها[1]. أما الإسكندرية فقد كانت عجب العجاب. وقد تغزّلَ فيها الكُتّاب العرب القدامى. أرسل عمرو كتاباً مشهوراً للخليفة عمر بن الخطاب يصف فية المدينة– نقلاً عن المقريزي، فيقول[2]:

أما بعد.. فإني فتحتُ مدينةً لا أصِفُ ما فيها، غير أني أصبتُ فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهوديٌ عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك، وعن أبي قبيل أن عمراً لما فتحَ الإسكندرية وجدَ فيها اثنـي عشر ألف بقالٍ يبيعون البقل الأخضر.....وكان بالاسكندرية فيما أحصي الحمامات أثنا عشر الف ديماس، اصغر ديماس منها يسع الف مجلس كل مجلس يسع جماعة.

أما الاصطخري فيقول إن الاسكندرية مدينةٌ يكثر المرمر الأبيض في أرضها وبنائِها وعُمدها وإن الطرق كلها تكتنفها العمدان والمدينة تبدو لامعةً في النهار والليل. ويمتدُ وصفه لمنارة الإسكندرية والتي كانت إحدى عجائب الدنيا القديمة، فيقول : *المنارة قائمة على صخرةٍ في البحر وبها اكثر من ثلثمائة غرفةٍ لا يهتدي فيها الزائر إلا إذا هداه دليلٌ، فطولها مثل قامة مائة رجل. وكانت بها مرآة عظيمة، يصفها المسعودي بأنها من الحجر الشفاف، يمكن أن ترى فيها السفن الآتية من بلاد الروم وهي بعيدةٌ عن مدى البصر. أما الإدريسي فقال إن المنارة لا يماثلها شيءٌ في بلاد العالم من قوة بنائِها ونظامها، فهي من أصلب الصخور، صُبَّ بينها الرَّصاص*

---

(١) ابن عبد الحكم. فتوح مصر واخبارها. ليدن. سنة ١٩٣٠ ص ٥.

(٢) المقريزي. مكتبة الآداب. القاهرة. الجزء الأول. ص ٢٦٨.

المنصهر حتى أن حجارتها لا تنفصل بعضها عن بعض[1]. هذه هي نفس الطريقة التي استخدمها الفراعنةُ القدامى لربط حجارة المباني والمعابد القديمة ببعضها، وإن كانوا قد استخدموا "فيونكات" خشبية أو من الحجارة. يبدو أن تصميم المنارة قد أوحى بتِصميم منارات الكنائس ثم الجوامع فيمابعد.

أما مكتبة الإسكندرية الشهيرة فقد ذكر بعض الكُتّاب العرب أنه عندما سأل عمرو بن العاص الخليفة عمر ابن الخطاب عما يفعل بها، قال الخليفة "وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به. وإذا خالفه فلا أَرَب لنا فيه واحرقها" فلما جاء هذا الكتاب عمرو أمر بالكُتُب فوُزِّعَت على حمامات الاسكندرية لتوقد بها، فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر. هذه القصة التي كتبها هؤلاء الكُتّاب العرب من أمثال أبو الفرج والمقريزي، لم يرد لها ذِكرٌ قبل القرن الثالث عشر، ولو كانت هذة القصة حقيقية لما تغافل عنها حنا النقيوسي، والذي عَاصَر تِلكَ الفترة أو الكُتّاب اللاحقون لذلك قبل القرن الثالث عشر. غالباً ما تكون تِلك المكتبة قد اضمحلّت ثم اختفت قبل دخول العرب لمصر. هذه المكتبة كانت من وجهة النظر المسيحية مرتبطة "بالوثنيين"، وكانت الكنيسةُ في غير احتياجٍ إليها فوجدت بعض هذه الكتب طريقها لبعض الأديرة، وربما لخارج مصر. كانت بعض تلك الكتب منسوخةً على رَقائِق الجِلد والتي قد تعيش لمدة طويلة، أما أغلَب المخطوطات فكانت مكتوباً على رقائق البردي وهذه لن تعيش طويلاً خصوصاً في مناخ الإسكندرية الرطب والمالح. تلك الرقائق إن لم يجُدَّد نسخُها دورياً فهي عرضةٌ للتحلل، وهذا ما قد يكون حدث، بالاضافه لبعض الحرائق التي لحقت بالمكتبة قديما. لقد تعرض بتلر بالتفصيل لاحتمالات ما تعرضت له مكتبة الإسكندرية وما كثر حولها من الكلام، وهو يستبعد تماماً أن يكون العرب قد أحرقوا المكتبة[2]. والخقيقة ان اول من ذكر حرق كتب المكتبه هو عبد اللطيف البغدادي (١١٦٠-١٢٣١م).

---

(١) المسعودي. مروج الذهب. دار الأندلس. سنة ١٩٦٥. ج١. ص ٤٢٠ وأيضاً الفريد بتلر. تعريب ابو حديد. مرجع سابق عن الاصطخري ص ٣٨٧ حتى ٤١٧.

(٢) الفريد ج بتلر. تعريب ابو حديد. مرمحع سابق ص ٤١٨- ٤٤٢.

وقد تعرض مصطفي العبادي ايضا لتاريخ تدهور المكتبة، وقد ايد ما سبق واشار اليه الفريد بتلر[1].

لقد أذهلَت الإسكندرية الكُتَّاب العرب حتى بعد سنين طويلة من احتلال الإسكندرية، وقد غالى البعض في وصفها، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت من أجمل مدن العالم القديم، إن لم تكن أجملها على الإطلاق. وللقارئ أن يتخيل مدى ذهول هؤلاء العرب الذين لم يروا غير صحراءَ قاحلةً وحياةً خشنةً عندما شاهدوا المدينة. فلا عجب أن كثيرين منهم تركوا الصحراء للمدن والعمران والحياة الرغدة الهانئة.

ما بعد الدخول - عمرو بن العاص - حاكم مصر

كيف أدار العرب مصر؟ لم يكن للعرب درايةٌ بحُكمِ هذه البلاد الواسعة التي آلت إليهم فاستبقوا من رغب من الروم في البقاء في مناصبهم الإدارية. أما عندما خلت أماكنهم أو من رفضوا أن يكونوا رعيَّة الإسلام فقد حل محلهم الأقباط. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى كانت أغلب المناصِب الإدارية في حوزة الأقباط. قال ابن عبد الحكم: إن عمر بن الخطاب تقدم إلى عمرو بن العاص أن يستشير البطريرك بنيامين (كبير القبط) في خير وسيلة لحكم البلاد وجباية أموالها، فأشار عليه البطريرك أن يستخرج خراج مِصر في أوانٍ واحدٍ عند فراغ الناس من زروعهم، أن تحفر خلجانها وتُصلِح جُسورَها كل عام، وألاَّ يختار عاملاً ظالماً ليلي أمور الناس[2].

لقد أجادَ عمرو في حملته لاحتلال مصر ثم في حكمها، وكان عمرو أفضل مَن حَكَم مصر من العرب خلال حكم الراشدين، ثم خلال حكم الدولة الأموية والدولة العباسية. ولكن كان هناك خلافٌ بينه وبين عمر بن الخطاب؛ حيث إن

---

(١) مصطفي العبادي. مكتبة الاسكندرية القديمة. مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٧٧ ص ٢٢.

(٢) الفريد ج بتلر. المرجع السابق. ص ٤٧٠.

الأخير لم يثق كثيراً في أمانة عمرو أو غيره من حكام الأقاليم الأخرى، فعُمر بن الخطاب كان حاكماً جاداً وعادلاً في حكمه، بل ومتزمتاً أحياناً فيما يراه عدلاً. وقد سجَّل بعض الكُتَّاب العرب بعضاً من تلك المراسلات، وكان لعمرو سياسةً بعيدةُ المدى، فلم يرغب في زيادة الحمل على المصريين حتى يستمروا في العطاء ويستمر العرب في تحصيل الضرائب والجزية. في إحدى هذه المراسلات قال الخليفة ابن الخطاب[1]:

أما بعد، فإني قد عجبتُ من كثرة كُتبي إليكَ في إبطائكَ بالخراج، وكتابك إليَّ بثنيَّات الطرق، وقد علمتُ أني لست أرضى منكَ إلا بالحق المبين، ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمةً ولا لقومك، ولكنِّي وجهتُكَ لما رجوتُ من توفيرك الخراج وحسن سياستك، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيءُ المسلمين، وعندي من قد تعلم.. قومٌ محصورون، والسلام.

طلب عمرو من الخليفة أن ينتظر به على النَّاس حتى يدركوا غِلالهم، متبعاً في ذَلك مشورةَ البطريرك بنيامين. ***وقال للخليفة إنه لا يستطيع أن يزيد الخراج على الناس بغير أن يؤذيهم، وإن الرِّفق بهم خيرٌ من التشدد في أمرهِم وإكراههم على أن يبيعوا ما هم في حاجة إليه في أمور معيشتهم. ولكن يبدو ان الخليفة فقد صبره أو لم يثق في عمرو، وكتب الخليفةُ مرَّةً أخرى يقول[2] :***

فلعمري يا عمرو إذا شبعتَ أنتَ ومن مَعَك ان أهلك أنا ومن معي، فيا غوثاه ثم ياغوثاه. فكتب إليه عمرو بن العاص : لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من عمرو بن العاص..أما بعد، فيا لبيك ثم يا لبيك. قد بعثتُ إليكَ بعيراً أولُها عندك وآخرِها بمصر والسلام عليك ورحمة الله.

مما لا شك فيه أن عمرو أصاب ثروةً جيدة من حكمه لمصر؛ ولكنه لم يختلِف في ذلك كثيراً عن باقي حكام الأقاليم، كان خِراج مصر العام السابق لدخول العرب لها حوالي عشرين مليون دينار. قلّت إلى اثني عشر مليون دينار خلال ولاية عمرو.

---

(١) الفريد بتلر. تعريب ابو حديد المرجع السابق ص٤٧٣.

(٢) الخطط المقريزية. ج ١. ص ٨٧. وأيضاً ابن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها ص ١٦٣.

بعضٌ من ذلك يعود لاضطراب الأمور وعدم دراية العرب بمصر وشئون مالها وإدارتها بالإضافة لاستغلال جبُاة الضَّرائب اضطراب الأمور. كان عمرو على دراية ببعض احتياجات مصر وحاجتها لإصلاح الترع والجسور بالإضافة لتحسين "خليج أمير المؤمنين". عندما عزل عثمان بن عفان عمرو وحل محله ابن أبي سرح، وهو أخو عثمان في الرضاعة، زاد خراج مصر إلى أربعة عشر مليون دينار. فقال عثمان لعمرو " يا عبد الله، دَرَّت اللقحة بأكثر من درّها الاول. قال عمرو: أضررتم بولدها"(١) وقد كان.

بعد عزل عمرو من ولاية مصر استقر بفلسطين، وكان له بها قصرٌ سماه العَجلان. كان عمرو بن العاص شخصيةً قويةً وفذةً وقائداً ذكياً وشجاعاً من قادة المسلمين الأوائل. ولكن شأنهُ شأن أي شخصيةٍ تاريخيةٍ مهمة، كان به بعض السلبيات، ولم يكن على مثاليات الإسلام الأولى وخصوصاً بعد فتوحاته في الشام ومصر، وبدأت الثروات تجد طريقها إلى صفوة العرب. كان زمان الإسلام في أول عهده قد انتهى أو أوشك. كان عمرو رجلَ عملٍ ومَطَامِع، وكان لديه قدرٌ لا يُستهان به من المهارة والرؤية السياسية. لقد انكشف جانبٌ من شخصية عمرو أولاً خلال إسلامه. يقول الطبري عن إسلام عمرو(٢):

قال عمرو : لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجـــالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم : تعلمون والله أني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت أن نلحق بالنجاشــــي (ملك الحبشه) ***فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشــي، فإنا أن نكون تحت يديه أحبَّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وأن يظهــــر قومُنا فنحنُ من قَد عرفوا فلا يأتينا منهم إلا خير. فقالوا إن هذا لرأي. قلت فاجمعـــوا له ما نهدي إليه.......... ثم أراد عمرو قتل رسول محـــمد للنجاشـــي وهـــو عمرو بن أمية الضمري، فقال: فإذا فعلتُ ذلك رأت قريش أنـــــي أجزأت عنـــها حين قتلتُ رسول محمد. ولكن ذلك لم يتِم لرفض النجاشي***

---

(١) ابن عبد الحكم.فتوح مصر واخبارها. مرجع سابق ص ١٦١.

(٢) تاريخ الطبري. الجزء الثالث. دار المعارف. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. سنة ١٩٦٢. ص ٢٩-٣٠.

قتل رسول النبي.

أما القصة الأخرى وهي الأكثر شيوعاً فكانت خلال حوادث قتل عثمان بن عفان وتولية علي بن أبي طالب الخلافه، ثم خلافه مع معاوية بن أبي سفيان، والتي أدت في نهاية الأمر إلى مَذبحَة عليّ وبنيه بوحشيةٍ أدت فيما بعد إلى أول انشقاقٍ في الإسلام وولادة مذهب الشيعة –وبعض المذاهب الاخري– الذي انتشر في أغلب البلاد الإسلامية وإن بقي معتنقيه أقليةً عدا في إيران وبعض بلاد الخليج.

كانت تنحيةُ علي وتولية معاوية مؤامرة سياسية بعيدة عن الأخلاق، وكان عمرو بن العاص هو الذي خطط لها، لقد كان علي بن أبي طالب الخليفة الحق في الزمن الخطأ. كان عمرو يكره عثمان بن عفان لعزله من مِصر، وكان علي علِمَ بأن ابن أبي طَالِب لن يعيده لمصر، ولكن طموحه السياسي جعله يخطط لمعاوية، لإزاحة علي وتولية معاوية، على أن يعود عمرو لحكم مصر بعد نجاح المؤامرة، ولم يكُن ذلك وارداً طالما ظلَّ علي الخليفة. إن المطامِع تُؤلِّف بين الطامعين. القصة معروف الكثير من تفاصيلها وإن اعتراها بعض الاختلاف بين بعض الكتاب. بدأ دهاء عمرو يظهر في موقعة "صفين" والتي كاد علي بن أبي طالب ينتصر فيها، فطالب عمرو بعدم هدر دماء المسلمين، فرفع جيش معاوية المصاحف على أسِنَّة الرِّماح وطولب بالتحكيم، فتحول ما كان يبدو أنه هزيمة لمعاوية إلى تأجيل الهزيمة، ثم انتصاره في النهاية. لقد رضخ علي لمبدأ التحكيم نزولاً على رغبة الأغلبية، رغم علمه أن رفع القرآن على أسِنَّة الرِّماح، وحقن دماء المسلمين كان "حقاً يراد به باطل". وقد لعب عمرو بخبث شديد في التحكيم فنحَّى علياً وولى مُعاوِية. ونال عمرو ولايته الثانيةَ لمصر كما أراد، وعاد ليحكُمهَا سنة ٦٥٨ م (٣٨ هجرية) حتي توفي سنة ٦٦٣. وبعد سنة واحدة من وفاة البطريرك بنيامين. وقد روى الذهبي أن عمرو هتك ما كان معاوية يتستر به من النِّفاق والادِّعَاء خلال موقعة "صفين"، إذ قال :

يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك. أترى أننا خالفنا عليًّا لفَضلٍ منا عليه؟ لا والله، إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها، وأيمُ الله لتقطعن لي قطعةً من دنياك أو لأنا

بِذنبك"[1].

تفاصيل تلك الحقبة موجودةً في العديد من المراجع والكتب القديمة، وقد لخَّصها حديثاً حسن إبراهيم حسن[2]. إن ما حَدَث لعلي بن ابي طالب كانت جذوره قد بدأت تضرِبُ في الأرض مع بداية الفتوحات العربية وانتصار العرب. ومع انتصارهم تدفق المال والثروة ومعهما جاء الفساد.

حتى نعرِف كيف تصرَّف عَمرو أثناء ولايته سواء في الفترة الأولى أو الثانية وجَب عَلينا أن نُلقي نظرةً سريعةً على ما كان يحدث في الجزيرة العربية. في أواخر أيام عمر بن الخطاب بدأ بعض أهالي قريش يُكوِّنون ثرواتٍ طائلةً نتيجة خروج العرب للأمصار، ولم يمنع عمر بن الخطاب قريش من تكسُّب المال، فلم يكن لهُ إلى ذلك سبيلا. قال ابن الخطاب رحمه الله في أواخر أيامه ***"لو استَقبلت من أمري ما استدبَرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها إلى الفقراء***[3]. ولكن لم يكن ذلك مستطاعاً. فقد بدأ الجني يخرج من القمقم. كان ذلك بدايةً لتغيرات جذرية تحدُث في امبراطوريةٍ أثناء مخَاضها وبداية تكوينها. قُتِل عمر بن الخطاب، وتولّى عثمان بن عفان أمور الامبراطورية المتسعة، وتغيرت الأوضاع كثيراً بما يُشبه الانقلاب في نظام الحكم، كما سماه طه حسين. كان عثمان ثرياً من التجارة، وكان كريماً مع معارفه وأقاربه، ولم يكن ذا شخصيةٍ قويةٍ كما كان كل من أبي بكر وعمر. سمح عثمان بن عفان للصحابة بالخروج إلى الأمصار بعد أن كان عمر قد فرض عليهم البقاء في المدينة خشية أن يفتن الناس بهم أو يفتنوا هم بالناس. خرج الجني من القمقم تماماً وانتشر في الأرض؛ وأصبح من المستحيل إعادته للقمقم. ملكت قِلةٌ قليلةٌ من المسلمين أرض الأقاليم وتكوَّنَت طبقةٌ قُرشيةٌ ارستقراطية ذات ثراء ضخم وسلطان، ووجدت بجوارها طبقةُ البُؤساء الذين يعملون في الأرض ويقومون على مرافقة هؤلاء السادة، وكان بين هؤلاء طبقةٌ متوسطةٌ من العرب يقيمون في الأمصار

---

(1) الفريد بتلر. تعريب ابو حديد مرجع سابق. عن أبي المحاسن عن الذهبي. ص ٢٣٦.

(2) حسن ابراهيم حسن. تاريخ عمرو بن العاص. مكتبة مدبولي. سنة ١٩٩٧ ص ٢٣٩.

(3) طه حسين. الفتنة الكبرى.١. عثمان. دار المعارف. سنة ١٩٨٤. الطبعة العاشرة. ص ١٠٧.

ويغيرون على العدو، ويحمون الثغور، ويذودون عمن ورائهم من الناس، وعما ورائهم من ثراء[1].

لقد كوَّن بعض حكام الأقاليم ثرواتٍ طائِلة، وقد قدَّر سعد بسندة قيمة ما تركه بعض أغنياء قريش من ثروات يصعب تصديقها، فمثلاً الزبير بن العوام ترك واحداً وخمسين الف ألف أو اثنين وخمسين ألف ألف (مليون) درهم. وكان للزبير بمصر خطط وبالإسكندرية خططـ، وبالكوفة خطط وبالبصرة دور. وكانت لة غلاّت تقدم عليه من أغراض المدينة[2]. ولم يكُن حُكَّام الأقاليم– ومن ضمنهم عمرو بن العاص بعيدين عن ذلك، كان ذلك هو المناخ العام. كان لذلك نتائج اجتماعية أدت إلى قلقلة النظام، وأودت بحياةِ عُثمان، وجاء الخليفة الرابع أبو طالب. كان أبو طالب متمسكاً بالمثل العليا، وكان يعبِّر عن إنسانية المبادئ الإسلامية في قوله لواليه على مصر مالك الأشتر " ***واشعِر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم... فإنهم صنفان: إما أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق*** [3].

ولكن المناخ كان قد تغير كثيراً، ولم يكن من الممكن أن يعود أغنياء المسلمين للمُثُل العليا بعد أن ذاقوا طعم الثراء الضخم والسلطان الواسع. ولم يكن عليّ ليسمح بذلك. كان من الطبيعي أن يفشل علي، بل وينتهي الأمر بقلته هو وبنيه. وعندما قُتِل علي، كان الخليفة لم يترك لأهله إلا مائتين وخمسين درهماً ومصحفاً وسيفاً[4].

وقد أصبح الأمر كذلِك فليس بمستغربٍ أن يغترِف عمرو– رغم اعتداله واهتمامه بمصر– وغيره من حُكَّام الأقاليم من المال وهم عربٌ فقراء وجدوا أنفسهم بين ليلةٍ وضُحَاهَا أمام ثرواتٍ هائلَة. لقد أثرى الكثيرُ من قادة المسلمين في ذلك الوقت، ولكن جمع المال على هذا النحو لم يكن من الممكن معه أن يستقيم نقاء الإيمان.

---

(١) طه حسين.الفتنة الكبرى.١. عثمان. دار المعارف. سنة ١٩٨٤. الطبعة العاشرة.. ص ١٠٩.

(٢) ابن سعد بسندة. الطبقات الكبرى. جزء ٣. دار صادر. بيروت. ص ١١٠.

(٣) فهمي هويدي. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. سنة ١٩٨٥.ص ٨٣.

(٤) المسعودي. مروج الذهب. دار الأندلس. بيروت. سنة ١٩٦٥. ج٢ ص ٤١٤.

ويقول لنا ابن إياس[1]. لما أشرَف عمرو بن العاص على الوفاة أحضر ما كان جمعه من أموال القِبط لما فتح مصر، وقال لابن عبد الله إذا أنا مِت فاردُد هَذه الأموال التي جمعتها إلى أصحابها. فلما مات الأمير عمرو، سمع معاوية بما أراد عمرو فأرسل وأخذ المال، وقال: نحنُ أحَقُّ بهذه الأموال لدفع العدو. وقال عبد الله ابن عمرو: إن مقدار ذلك المال "كان سبعين جراباً من جِلدِ ثورٍ كاملة"[2]. عندما ضاق عمر بن الخطاب بولاتهِ عموماً أرسل محمد بن مسلمة إلى عمرو بن العاص بكتابٍ قال فيه[3]:

أما بعد، فأنتم معشر العمال قعدتم على عيون الأموال. فجبيتم الحرام، وأكلتم الحرام وأورثتم الحرام، وقد بعثتُ إليكَ محمد بن مسلمة الأنصاري ليقاسمك مالك، فاحضره مالك والسلام.

كان هناك اختلاف كبير بين إسلام عمر بن الخطاب وإسلام الآخرين. لقد كان ابن الخطاب درةَ الخلفاء الراشدين، وكان من طراز إنساني نادر، ولكن وإن كان معاوية بن أبي سفيان قد استولى على الحكم بطرقٍ مُلتويةٍ وغير أخلاقيةٍ إلا أن الدولَة الأموية حقَّقت الكثير من النجاح وأصبحت تحكم امبراطوريةً امتدت من الهند وحتى الأندلُس، ووضعت العرب والمسلمين على خريطة العالم فورثوا الثقافة القديمة للدول التي احتلوها وتقدموا بها لتكون نهضةً أثرت في مسار الإنسانية.

عاش الكثيرُ من الحكام حياة البذخ، وإن كان القليل جداً منهم قد التزم بمبادئ الإسلام كيفما تصور وساعدهم بعض الفقهاء بتفسيراتهم وأحاديثهم المنتحلة. كانت هناك استثناءات قليلة جداً من أمثال عمر بن عبد العزيز، والمهتدي بالله وكان الأول

---

(١) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي. تحقيق محمد مصطفى. الجزء الأول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٢. ص ١١٧.

(٢) ابن إياس. المرجع السابق. ج١ ص ١١٧.

(٣) أبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها. مرجع سابق طبعة ليدن. ص ١٤٦.

في الدولة الأموية والذي قتله أقاربه الأمويون بالسُم بعد سنتين وثلاثة أشهر لأنه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وليخلي مكانه ليزيد بن عبد الملك الشاعر والعاشق. أما المهتدي بالله في الدولة العباسية، والذي قُتِل أيضاً وعُذِّب وشُوِّه جسده بعد أحد عشر شهراً فقط، وكان يأمُر بالمعروف وينهى عن المنكر. وكان ذلك كثيراً على أهل عصره. ولما قبضوا عليه قالوا له " أتريد أن تحمل الناس على سيرةٍ عظيمة لم يعرفوها؟ فقال: أريد أن أحملهم على سيرةِ الرَّسول وأهل بيته والخلفاء الراشدين. فقيل له: إن الرَّسُول كان مع قومٍ قد زهدوا في الدُنيا ورغبوا في الآخرة[١].

استمر عمرو بن العاص يحكُم مِصر حتى تُوفي سنة ٦٦٣. وكانت ولايته الثانية لمدة خمس سنوات، وكانت لا تختلف كثيراً عن ولايته الأولى من حيث اعتداله كحاكِمٍ واهتمامه بمصر وإن كانت قد اختلفت في زيادة مقدار الجزية. يقول حسن الرين [٢]. كان هَمّ الولاة الإثراء السريع، وكانوا يرون الطريق إليه في زيادة الجزية على الأقباط، وقد ظهر شيءٌ يشبه ذلك من عمرو بن العاص نفسه في ولايته الثانية حيث اشتط على القبط وصادر أموال بعضهم. ومع ذلك كانت ولاية عمر الثانية أكثر استقراراً من سابقتها، حيث إن عمرو أصبح أكثر درايةً بمِصر وبما يحدث بها، ولم يكن هناك تهديد من الخارج. دفن عمرو في جبل المقطم، وللأسف فإن ضريحه قد اختفى تماماً نتيجة استخدام الجبل كمصدر للحجارة، وكان عمرو حين حضرته الوفاة قد قال "وسنوا عليَّ التراب سناً ولا تجعلوا في قبري خشبةً ولا حَجَرا"[٣]. وقد تكفل المصريون بأكثر من ذلك. بعد وفاة عمرو بدأت حقبةٌ أخرى اختلفت كثيراً عن سابقتها.

---

(١) المسعودي. مروج الذهب. دار الأندلس. بيروت. سنة ١٩٦٥. ج٤. ص ٩٩.

(٢) حسن الرين. أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي. بيروت. لبنان. سنة ١٩٨٢.ص١٧٣.

(٣) حسن ابراهيم حسن. تاريخ عمرو بن العاص. مكتبة مدبولي. سنة ١٩٩٦. ص ٢٧٨.

الدولة الأموية والعباسية

أحوال مصر خلال الخلافة الاموية والعباسية ومدى التشابه بينهما في حكم مصر، لماذا تدهورت أحوال مصر في تلك الحقبة؟ وكيفة تناقص خراجها من عشرين مليون دينار خلال الحكم الروماني إلى حوالي ثمنمائة ألف دينار فقط في أواخر فترة الحكم العباسي؟، اضطهاد الأقباط وبداية تناقص عددهم، انتقال السلطة الفعلية للإيرانيين والأتراك في العصر العباسي الثاني. كيف عومل المصريون خلال تلك الفترة، ودور الأقباط في جباية الضرائب وتأثير ذلك على علاقة الأقباط بالمسلمين.

الدولة الاموية

كان هدفُ العرب بعد احتلال مصر- شأنهم شأن أغلب المستعمرين- هو جمع المال، نشر الإسلام، تحقيق الاستقرار وتأمين الحدود، إضعاف القوى المحليّة. قد يستاء البعض من ذكر كلمة "احتلال" لأن مصر فُتِحَت بصلح أو لأن العرب جاؤوا لمصر لنشر الإسلام فقط وبرضا المصريين. ولكني أعتقد أن الواقع كان خلاف ذلك تماما. كان احتلالاً عربياً أحد دوافعه نشر الإسلام. ولعلنا نذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب خلال عام ١٩ هجرياً- أي بعد عام الرّمادة بسنة (عام القحط والمجاعة بالمدينة) طلب المزيد من القمح من مصر، فقال لابن العاص " أخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها "[1]. كان العرب في البلدان التي يغزونها يمثلون أرستقراطية السيف والجنس العربي. كان هناك تناقضٌ اجتماعيٌّ بين العَرب وغير العرب حتى وإن أسلموا، بل وجمِعَت منهم الجزية بعد إسلامهم في أحيان ليست قليلة. الإسلام لا يفرّق بين مُسلم وآخر (لا فَرق بين عجمي علي عربي إلا بالتقوى) إلا أن ذلك لم يتحقق عملياً إلا بعد قرون وعندما ذابت الأرستقراطية العربية الحاكمة

---

(١) تاريخ الطبري. تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم. دار المعارف. سنة ١٩٦٨. ج ٤ ص١٠٠.

في الشعوب التي خالطتها. وقد حدث ذلك مع بداية الدولة العباسية والتي كان أحد شعاراتها المهمة علي الاقل في العصر العباسي الأول هو المساواة بين كل المسلمين. كل ما سمح به العرب في أول عهدهم أن ينتسب هؤلاء المسلمون الجدد إلى بعض القبائل العربية. ومن هنا فنَّد عبد العزيز جمال الدين[1] الادعاء الشائع حول الأصول العربية لبعض سكان مصر فوجد أنهم عروبيو الولاء وليسوا من جنس العرب. وكان شائعاً أن تشتري بعض الأسر لنفسها حُجّةً تثبت لها شرف الانتساب لقبيلة عربية، أو كما هو مألوف في مجتمعنا المعاصر أن تشتري أسرة لنفسها حجةً تُثبِت لها شرف الانتساب إلى النبي كما حدث للملك فؤاد حين لعب بخياله انتقال الخلافة لمصر[2].

خلال الدولة الأموية والعباسية تأكد منظور الاحتلال وتعسُّف الارستقراطية العربية في جمع المال وسنعود لذلك. بمرور الزمن اختلف العربُ عن المستعمرين الآخرين لأنهم امتزجوا بالشعب المصري تماماً وأصبحوا نسيجاً واحداً يتكلم العربية. أعطوا المصريين الإسلام، بل وفرضره احيانا. ولكنهم استخدموا المصريين وتعلموا منهم الكثير في الفنون والآداب والصناعة، بل وكان للمصريين دورٌ مهمٌ في إنشاء أسطول عربي. أصبح الاقباط أقليةً واقتصر استعمال اللُغة القبطية على الكنائس مع استعمال العربية معها بدايةً من القرن العاشر الميلادي. كان احتلال مصر منذ قرابة خمسة عشر قرناً مضت، أما الآن فمصر جُزءٌ مهمٌ من العالم العربي، إن لم يكن الأهم، وأعتقد أن مستقبل مصر بمسلميها وأقباطها مرتبطٌ بالعرب وبالقومية العربية.

استمرت مصر تحكَم عن طريق حُكّام مبعوثين من الخلفاء الأمويين ثم العباسيين، ولم يكُن أيٌ من هؤلاء الحكام من أهل البلد (مصر لم يحكمها مصريٌ منذ القرن الرابع قبل الميلاد وحتى ثورة ١٩٥٢) ولم يكُن هؤلاء الولاة على دراية بمصر، ولم يمضوا إلا سنوات قليلة في حكمها، بل كان متوسط مدة حُكم الولاة منذ

---

(١) عبد العزيز جمال الدين. مرجع سابق. ج ٢. ص ١٢١٨.

(٢) عبد العزيز جمال الدين. مرجع سابق. ج ٢. ص ١٢١٢.

عصر الخلفاء الراشدين وحتى نهاية الدولة العباسة سنتين ونصفا. لم تكن تلك المدة كافية للتعرف على مشاكل مصر وطرق حلها. وكان الخليفةُ أحياناً يرُسِل واليين في وقت واحد، أحدهما لتحصيل الخراج ولجمع الضرائب، وسُمِّيَ أمير الخراج والآخر يهتم بشئون الدّين والإدارة والعسكر، وسُمِّيَ أمير الصلاة. والهدف من ذلك إضعاف الولاة لتأكيد سيطرة الخليفة عليهم وكانت هذه سياسةً سيئةً للغَاية وكانت نتيجتُها واضِحة. خلال فترة حكم الرشيد- وهي ثلاثة وعشرون عاماً- حكم خلالها مصر أربعة وعشرون والياً[1].. لقد خشي الخلفاء من أن يستقل حُكّام الأقاليم إن استقروا فيها لمدة طويلة أو إن حكموها بمفردهم. وكان الولاة علي دراية بذلك، فاهتموا بزيادة ثرواتهم ولم يهتموا كثيراً بأمور مصر. بهذة الخلفية لم يكُن من الممكن المحافظة على مستوى معيشةٍ مُعتَدِل بالنسبة للمصريين، حتى يتمكّن العرب على الأقل من تحصيل ضرائب تتناسب مع ثراء مصر الطبيعي.

كانت مصر في تاريخها الطويل تعتمد على مدي قوة الحكومة المركزية، وحتى الآن. إذا كانت الحكومة المركزية قويةً كانت مصر قويةً والعكس صحيح. ولا أقصد بقوة الدولة أن يكون لها وجودٌ عَسكَري قوي هدفه السيطرة على الشعب وموارد الدولة لصالح قلة قليلة. الدولة القوية قديماً وحديثاً لها مقومات عديدة أحدها أن يكون لها وجودٌ عَسكَري يتَنَاسب وظروف واحتياجات الدولة وليس احتياجات الحاكم للسيطرة على شعبه. لقد قال نابليون بونابرت في مذكراته وهو في المنفى، و لم يكن قد قضى في مصر إلا قُرَابة العامين إنه "لا تُوجَد دولة تحتاج لحكومةٍ مركزيةٍ قويةٍ مِثل مِصر" فيقول جمال حمدان نقلاً عن مذكرات نابليون[2]:

بالقوة التي في يد حاكمِ مِصر، إذا أحسنَت الحكومة قيادتها جرى الماء في قنواتٍ اعتُني بحفرِها وصيانتها وإن رُوعيت العدالة في توزيع مياهها، تبعاً لقواعدِ مرصودة غطى الفيضان مساحاتٍ أوسع، أما إذا ساءت الإدارة الحكومية بسبب

---

(١) ابن إياس. مَرجع سابق. ج. ١. ص ١٣٤ وكذلك جاك تاجر.أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢. الهيئة القبطية. نيو جيرسي، الولايات المتحده سنة ١٩٨٤ ص ٦٢.

(٢) جمال حمدان. شخصية مصر. عالم الكتاب. المجلد الثاني. سنة ١٩٨١. ص ٥٤١.

فسادها أو ضعفها، سدَّ الطَمي القنوات، بينما تنهار السدود المقامة بالإهمال عندما لا تُراعَى قواعد المناوبات أو تغلب الأغراض الخاصة للأفراد والجماعات.

لم يكُن نِظام الحكم العربي يسمح أو يُؤهّل لحكومةٍ مَركزيةٍ قَويةٍ خِلال حكم الأمويين أو العباسيين (منذ حوالي سنة ٣٥هجرياً وحتى سنة ٢٥٢ هجرياً أو ٦٤٠ وحتى ٨٦٦ ميلادياً) كان عمرو بن العاص ويكاد يكون وحده الاستثناء لتلك القاعدة، أولاً لذكائه ومقدرته السياسية وبُعد نظره بالإضافةِ لقوةِ شَخصيته، ثم لقُربِ فترة حكمه من الحكم الروماني، وما كان لديهم من درايةٍ بمصر وما لهم من قوانين إداريةٍ افتقر لها العرب. بعد عمرو بن العاص ضعفت مصر وتدهورت أحوالُها فأهملت الإصلاحات العَامة إهمالاً يكاد يكون تاماً، إلى أن جَاء حُكّام استقلوا بمصركالدولة الطولونية والإخشيديية والفاطمية ثم الأيوبيين. لذلك نرى أن خِراج مِصر خلال حكم الأمويين والعباسيين تدهور وقلَّ كثيراً عَمَّا كان مِن قَبل. فبينما كان خِراج مصر خلال الحكم الروماني حوالي عشرين مليون دينارٍ قلَّ ذلِك إلى حوالي اثني عشر مليوناً خلال أول حكم الخلفاء الراشدين، ثم تدهور بعد ذلك إلى حَوالي ثَلاثَة مَلايين دِينار. ويعكس ذلك تدهور احوال مصر. ويقول المقريزي:

انحطَّ خِراج مصر بعد نمو الفساد مع الزمان، وسريان الخراب في أكثر الأرض ووقوع الحروب، فلم يَجبِ بنو أميّة وخُلفاء بني العباس إلا دون الثلاثة ملايين دينار[١].

لم يزِد خِراج مصر خلال العصر الأموي والعباسي إلا في فترتين، إحدهما خلال خلافة هشام بن عبد الملك الأموي وكان الحبحاب والي الخِراج حين زاد ديناراً على كل قيراط زاد الخراج إلى ٤ ملايين دينار، ولكن ذلك أدَّى إلى أول ثورةٍ للقِبط سنة ١٠٧ هجرياً، حين ثارت بعض كور مصر مثل تنور وقربط وطرابية وعامة الحوف الشرقي، فبعث إليهم الوالي الحر بن يوسف فحاربهم وقتل منهم الكثيرين[٢].

---

(١) *الخطط المقريزية.مكتبة الآداب*. ج١. ص ١٥٩.

(٢) أبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري. طبعة جامعة ليدن. ص ٧٣.

ثم زاد الخراج في الفترة الثانية خلال ولاية أحمد بن طولون حين عَمّرَ البلاد فزاد خِراجها إلى أكثر من أربعة ملايين دينار بعد أن وصلت قبله إلى ثمانمائة ألف دينارٍ فَقَط(١). ومع ذلك قُدِّرَت ثروة ابن طولون عند وفاته بحوالي عشرة ملايين دينار(٢).

كان الخلفاء على درايةٍ بهذه الأرقام حتى منذ بداية عصر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ولكنهم لم يدركوا الأسباب أو لم يستطيعوا حيالها شيئاً، حيث إنهم كانوا شرهِين في جمع ما يستطيعون من مَالٍ دون أن يستثمروا جزءاً من الإيرادات في إصلاح شئون البلد. ويحكي لَنَا عبد الحَكَم أنهُ خِلال خِلافة عمر بن الخطاب أن أحد المصريين قال للخليفة " كان لا يؤخذ من خِراج مصر أي شيء إلا بعد عمارتها، وعاملُك لا ينظر إلى العمارة، وإنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها إلا لعامٍ واحد(٣). هذه باختصار شديد كانت سياسة الدولة الأموية والعباسية. بالإضافة لقِصَر مُدّة حكم الولاة وعدم خبرتهم، زادت الضرائب وقلّ دخل الشعب، واستُخدِم العُنف في تحصيل الضرائب، وضعفت مصر كثيرا. كانت مشكلة الشعوب مع الحكام وفي كل زمان وللآن غالباً ما يختص بشئون الضرائب وكيفية تجنُّبها أو الإقلال منها وما تُقدِّم من إصلاحات، ولم يكن المصريون ليختلفوا عن ذلك. كان أغلب تَذَمُّر وسَخط وثورة المصريين خلال الحكم العربي تدور حول جمع الضرائب أساساً، حيث إنهم استسلموا لوجود حاكم أجنبي يمتلك قوةً عَسكريَّة مُنذ قُرون طويلة. كيف أثّر ذلك الوضع على أقباط مصر، ثم على علاقة المسلمين بالأقباط فيما بعد؟ الإجابة السريعة لذلك أن بعض الاقباط من ذوي العلم في شئون المال والإدارة احتكروا إجراءات تحصيل الضرائب لصالح الحكام وانتفعوا من ذلك كثيراً وأصبحوا مرتبطين بالحُكّام بطريقة أو بأخرى وكانوا يعطون الهَدَايا العظيمة إلى بيوت الأمراء وقادة المسلمين في الأعياد والمناسبات، وكانوا يعمرون الكنائس والأديرة(٤).

---

(١) الخطط المقريزية.المرجع السابق ج ١. ص ١٥٩.

(٢) جاك تاجر. مرجع سابق. ص ١١٣.

(٣) ابن عبد الحكم. فتوح مصر واخبارها. مرجع سابق. ص ١٦١.

(٤) تاريخ الجبرتي. مطبعة الأنوار المحمدية. سنة ١٩٨٦. ج ٢. ص ٣٩٣.

والسؤال الذي يتبادر للذهن هو: هل كانت هذه الهدايا والهبات عن طيب خاطر أم انها كانت رشوةً لتفادي غضب بعض المسلمين وقادة الكنائس من وجود قبطي أو أقباط قلائل في مراكز قوة وثروة بينما كثيرون يعانون من الفقر؟ إن جُبَاة الضرائب مكروهون من أغلب المصريين، وإن كان احتكار بعض الأقباط لهذه المهنة ساعد الأقباط في نواحٍ مُعيَّنَة مثل تعمير وبناء الكنائس؛ إلا إن الكثير من عامة الأقباط عانوا من جرَّاء ذلك خلال أوقات ضعف الدولة عِندَما تذمَّر العامة من تحكُم جُبَاة الضرائب وثرائهم الزائد، وأدى ذلك أحياناً لعواقب وخيمة على عامة الأقباط وسنعود لذلك.

الجزية وجمع الضرائب

استمرَّ العربُ في أوائل عهدهم بمصر بجمع الضرائب كما كان يجمعها الروم. كان هناك نوعان من الضرائب: ضريبة الراس والمسماة (جزية) ثم ضريبة الخراجِ وتعني خراج الأرض، بالإضافة إلى ضرَائِب اخرى على المباني والتُجَّار والصنُّاع ولكن إجمالي كل ذلك لم يكن ذا قيمةٍ عَاليةٍ بالنسبة لضريبة الجزية أو ضريبة خراج الأرض. وكانت ضريبة الراس أو الجزية لا تحُصَّل في أول الأمر إلا على القادرين من الذكور ولم تحُصَّل الجزية أيضاً من المعتوهين أو المعدمين أو من رجال الدين والرهبان. الجزية ضريبة لم يبتكرها العرب، بل كانت معروفة من قبلهم واستخدمها اليونانيون والرومان من قبلهم. كلمة (الجزية) أصلها فارسي[١]. خلال الحروب الصليبية فرض الفرنجةُ الجزيةَ على المسلمين[٢]. كان من حق الحاكم أن يرفع الجزية عمَّن يريد. كان الرومان يعطون امتيازاتٍ ضَرِيبِيَّة للبعض؛ فمثلاً سُكَّان الإسكندرية لم يدفعوا الجزية، وهي ضريبة الراس، فلما جاء العرب ألغوا تلك الامتيازات. ألغى العرب ضريبة الراس أو الجزية عمَّن أسلم كما شرع الإسلام، وكان ذلك أحد أسباب دخول البعض في الإسلام خصوصاً عندما ضاق بهم الحال. وإن كان رفع الجزية عمن أسلم لم يُعمَّم إلا مع بداية الدولة العباسية بداية من ١٣٣ هجرياً، الأمر الذي دعا عمر بن عبد العزيز الأموي (٩٩- ١٠١ هجرياً) قبل

---

(١) فهمي هويدي. مواطنون لا ذميون.مرجع سابق. ص ١٢٩.

(٢) المرجع السابق. ص ١٣١.

ذلك عندما علم أن ولاته جمعوا الجزية حتى ممن أسلم أن يقول " إن الله أرسل محمداً هادياً وليس جابياً" وأوقف ذلك العمل ولو مؤقتاً.

بعض الكُتَّاب العرب خلطوا بين الجزية والخراج. وأحياناً سُمِّيَ مجموع الضرائب جزية[1]. والجزية كانت في أول الأمر مقداراً معلوماً، في حين أن خراج الارض يتغير حسب علو الفيضان وبحسب حالة الزراعة وتحسين حال الجسور والسدود[2]. وكان زعماء الناس في القري ينظرون في حالة الزراعة ويجعلون جِباية المال مناسبةً لذلك، فإذا جمع من ذلك المال فوق ما فرض على قَريتِهِم أُنفِق في إصلاح أحوال القرية. وكانت هُنَاك قِطعةٌ من الأرض يخُصَّص ريعُها لإصلاح الأبنية العامة مثل الكنائس والحمامات، وكانوا كذلك يُقدِّرون ما يفرض على الناس من المال لضيافة العرب من حكام وخلافه وكان ذلك حقاً من حقوق العرب فرضت عليهم. ويعتقد بتلر أن العرب كانوا أكثر رأفةً من الرومان في مقدار ضرائبهم خلال فترة حكم عمرو بن العاص. وهي الفترة التي أرَّخَها بتلر. يؤكد ذلك أيضاً جَاك تاجر[3]. بل ويقارن أيضاً بين ما كان الرومان يلجأون إليه من الضرب لحمل الشعب على دفع الضرائب وما شرعه الإسلام من تحريم العقاب البدني. وصرَّحَ فقط بالسجن لمن لا يدفع الضرائب المستحقة. وقد أكَّد أبو يوسف ذلك[4]. وإن كان الحُكَّام العرب قد عادوا فيما بعد إلى استخدام العقاب المدني لحمل الناس على دفع الضرائب كما سنرى.

لم تكن الجزيةُ ضريبةً مُوحَّدَةً بل كانت ثلاثة أو أربعة أقسام حسب مستوى الدخل: فقراء ومتوسطو الناس واغنياؤهم. وكان متوسط مقدار الجزية في أول الأمر دينارين؛ وقال البعض إنها كانت ديناراً. تأرجَحَ موقف الخلفاء والولاة من

---

(١) ابن عبد الحكم. فتوح مصر واخبارها.مرجع سابق. ص ١٥١.

(٢) الفريد بتلر. فتح العرب لمصر. تعريب ابو حديد.مرجع سابق. ص ٤٦٦.

(٣) جاك تاجر. مرجع سابق. ص ٨٢.

(٤) أبو يوسف. مرجع سابق. ص٧٠.

إعفاء من أسلَم من دفع الجزية كما سبق وأشرت إلى مقولة عمر بن عبد العزيز. يذكر ساويرس بن المقفع أن الخليفة العباسي الأول أبو العَبَّاس عبدالله السفاح (١٣٢-١٣٦ هجرياً) قرَّرَ أن يُعفي من الجزية كُلّ من يعتنق الدين الإسلامي ويقيم شعائره (وماذا يكون شرع المسلم الذي لا يقيم شعائر الدين ؟!) فأسلم الكثيرون في ذلك الوقت بسبب فداحة الجزية لأن السَّفَّاح أضاف ما كان يدفعه من أسلموا على من لم يسلموا، مما زاد فداحة الأموال التي كان يدفعها المصريون الأقباط(١).

في أوائل الاحتلال العربي أُعفيَت الكنيسة والأديرة وأملاكهُما ورجال الدين والرهبان من دفع الضرائب كما كان متبعاً في زمن الرومان. مع حاجة الامبراطورية الوليدة لمزيدٍ من المال زادت الضرائب على الناس، فقرَّرَ بعضُ المصريِّين أن يتهرَّبُوا من دفع الضرائب بأن يصبحوا رهباناً(٢). قرر الوالي عبد العزيز بن مروان (سنة ٦٥ هجرياً) إلزام الرهبان بدفع الجزية لأول مرة، وألزم أيضاً بإحصاء رجال الدين وألزم الأساقفة بأن يؤدوا قدراً مُعيَّناً من المال بالإضافة إلى خراج أوقاف الكنيسة والأديرة(٣). وكان من نتيجة ذلك أن بدأ عَدَد الرّهبان يقل وبدأت الأديرة تُهجَر. ولم يكن غريباً أن يتدخل الحكام في اختيار البطاركة أو يرجحوا كفة أحد المرشحين عن آخر؛ حيث إن البطريرك كان يُعتَبَر موظفاً في الدولة ولا بد لتعيينه من موافقة الخليفة. كان هدف العديد من الولاة إضعاف البطريرك لأنه يمثل قيادةً محلية، كان من الممكن– ولو نظرياً– أن تقود مصر. كان بعض الولاة يفرضون إتاوات حتى تتم الموافقة على تعيين البطاركة. في هذه الظروف لم يكن غريباً أن يَظَل المنصب شاغراً لِفَتَرات طويلةٍ، ويعطينا ترتون أمثلةً عديدةً من كل ذلك (٤).

وتستمِر قِلَّة إيرادات مصر ويستمر ضعفها، ويستمرُ الوُلاةُ في استعمال العنف في جمع ما يستطيعون من أموال، فيقول المقريزي في وصف تلك الفترة، وإن

---

(١) عبد العزيز جمال الدين. تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة. سنة ٢٠٠٦. ج٢. ص ٩.

(٢) جاك تاجر.مرجع سابق.ص ٨٨.

(٣) جاك تاجر.مرجع سابق.ص ٨٨.

(٤) اس. ترتون. أهل الذمة في الإسلام. ترجمة وتعليق حسن حبشي. دار المعارف. سنة ١٩٦٧. ص ٨١.

تشابهت مع فترات أخرى تالِية[1]:

خَلا الكُرسي البطريركي ثلاث سنوات، ثم قدم اليعاقبةُ (الأقباط) ***في سنة إحدي وثمانين الإسكندروس*** (الثاني) ***فأقام أربعاً وعشرين سنة ونصفاً وقيل خمسة وعشرين سنةً ومات سنة ستة ومائة*** (كان ذلك خلال ولاية عبد العزيز بن مروان). ***ومرَّت به شدائدّ صودر فيها مرتين، أخذ منه فيها ستة آلاف دينار، وفي أيامه أمر عبد العزيز بن مروان بإحصاء الرهبان، فأحصوا وأخذت منهم الجزية عن كل واحد ديناراً، وهي أول جزِيةٍ أخذت من الرهبان. ولما ولَي مصر عبدالله بن عبد الملك بن مروان اشتد على النصارى واقتدى به قرة بن شريك أيضاً في ولايته على مصر وأنزل بالنصارى شَدَائِدِ لم يبتلوا قبلها بمثلها، وكان عبدالله بن الحبحاب متولي الخراج قد زاد على القبط قيراطاً في كل دينار، فانتفض عليه عامة الحوف الشرقي من القبط، فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم عدةً وافرةً في سنة سبع ومائة. واشتدَّ أيضاً أسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج على النَّصَارى وأوقع بِهِم وأخذ أموالَهم ووسَمَ أيدي الرُّهبَان بحلقةِ حديدٍ فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه فكل من وجد بغير وسمٍ قطع يده وكتب إلى الأعمال بأن من وُجِد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير*** (في بعض المصادر الأخري خمسة دنانير) ***ثم كَبَس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وشم، فضرب أعنَاق بعضهم، وضرب باقيهم، حتى ماتوا تحت الضرب، ثم هُدِمَت الكَنَائِس وكُسِّرَت الصُلبان ومُحيَت التماثيل، وكُسِّرت الأصنام بأجمعها وكانت كثيرةً في سنة أربعٍ ومائة والخليفة يومئذ يزيدُ بن عبد الملك. فلما قام هشام بن عبد الملك على الخلافة كتب إلى مصر بأن يجري النصاري على عوايدهم وما بأيديهم من العهد. فقدم حنظلة بن صفوان أميراً على مصر في ولايته الثانية فتشدَّدَ على النَّصَارى وزاد في الخراج وأحصى الناس والبهائم، ثم جَعَلَ على كُلِّ نصرانيٍّ وشماً صورة أسد وتتبعهم، فمن وجده بغير وشمٍ قَطَعَ يده.***

(١) الخطط المقريزية. مكتبة دار الآداب. ج ٤. ص ٣٩٤.

المقريزي لم يذكر لنا مصادره، وغالباً ما قد تكون من مؤرخي الأقباط السابقين، وقد وَصَفَ ما يشبه ذلك ساويريس بن المقفع[1]. ويصف ابن إياس قرة بن شريك هذا بأنه " كان ظالماً غشوماً جهولاً، قيل كان يَصعَد بالخَمرِ والملاهي علي سطح جامع عمرو بن العاص". وظل قرة بن شريك يحكم مصر قرابة ست سنوات[2]. ويقول ساويرس بن المقفع في وصف تلك الفترة "ما أعظم الحزن والشقاء والتنهُّد الذي كان بأرض مصر....إن قرة أنزل بلايا عظيمة بالنصارى والمسلمين وطرحهم في السجون"[3]. ويذكر ساويريس أيضاً أنه في هذه الفترة "خَلَعَ الولاة الأعمدة الرخامية الملوَّنَة من الكنائس لاستخداماتهم الخاصة وصارت البيعةُ خراباً"[4]. ويؤكد ذلك ما سبق وأشرت إليه وآخرون في المقدمة من أنه لم يوجد حاكمٌ واحدٌ مُسلِم أضرَّ بالأقباط دون أن يضُرُّ بالمسلمين، بل وأصبَحَ ذلك أكثر صِدقاً كُلَّما زَادَ عَدد المصريين المتحولين للإسلام. قد تكون هُنَاكَ بعض المغالاة، ولكن تلك الأحداث ذكرها أكثر من مؤرخ ولم تُختلق من العدم. سجن البطريرك وهو رمز للأقباط ومطالبته بآلاف الدنانير قبل الإفراج عنه وإذلاله ما هو إلا إذلالٌ للمصريين أجمعين وكان الأقباط أكثريةً في ذلك الوقت، وقد تكرر ذلك من ولاة آخرين وأحياناً كان يُسمَح للبطريرك بالتجول في البلاد لجمع ما يطلبه الوالي من إتاوة. كان من نتيجة تحصيل الجزية من الرهبان أن بدأت الأديرةُ تُهجَر وتتدهور؛ وقد كانت في الماضي مركزَ قوةٍ وسنداً للمصريين. كل ذلك ترك مرارةً شَديدةً في النفوس وخوفاً لدى الأقباط من الحكام المسلمين.

جاء عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هِجرياً بروحٍ جديدة تحاول إعادة الإسلام لبعضٍ من مبادئه، ولكن هل كان ذلك ممكناً؟ لقد أقبلَت الدُنيا على الطَّبَقَة العَربيَّة الحاكمة إقبالاً لم يخطر على بالٍ، وأقبلوا هم أيضاً على الدنيا، وحين تُقبِل الدنيا دون

(١) ساويريس بن المقفع. من مخطوطة عبد العزيز جمال الدين. تاريخ مصر. ج ٢. ص ١١٤.

(٢) ابن إياس. ج١. ص ١٢٥.

(٣) عبد العزيز جمال الدين. عن ساويريس بن المقفع. ج ٢. ص ١١٩.

(٤) عبد العزيز جمال الدين عن ساويريس بن المقفع. ج٢. ص ١٥٠.

حدود فلا بد أن تُدبِر العقيدةُ ولو بقدرٍ محدود. لم يعِش عمر بن عبد العزيز طويلاً، لقد قتله أقاربه الأمويون بالسُّمِ غالباً، ومات بعد سنتين وثلاثة أشهر من بداية خلافته. لقد ألغى عمر بن عبد العزيز الجزية عن الرهبان والأساقفة ولكنه حَاول الضغط على الذِّميِّين كجماعةٍ قائمةٍ بنفسها، فأمر بطرد كل الكُتَّاب غير المسلمين من الدواوين. أعاد يزيد بن عبد الملك الذي خلف عمر بن عبد العزيز الجزية على الرهبان وزاد عليها.

والسؤال الواجب أن يُسأل هو: ما علاقة أي من ذلك بمبادئ الإسلام؟ أعتقد أن الإجابة: لا توجد أي علاقة. مبادئ الإسلام كانت بعيدةً عن ذلك تماماً. كانت كل تلك المصائب نتيجة سوء الإدارة وفساد وجهل بعض الحُكَّام، والحاجة لجمع المال. وكانت النتيجة هي تدهور مِصر والمصريين. مع إهمال الإصلاحات العامة قل إيراد الأراضي الزراعية، ويبدو أن الجزية أصبحت المصدر الرئيسي للضرائب، مما زاد البلاء على من بقِيَ عَلى مسيحيته من المصريين. يبدو أن الجِزية لم تكن بالأمر الهيِّن، وإلا لما حملت الكثيرين على التخلي عن دينهم. وحتى نُقدِّر قيمة الجزية، يذكر ساويريس بن المقفع أنه في أوقات الرخاء وحوالي سنة ١٠٠ هجرياً كان الدينار يشتري خمسة وعشرين إردباً من القمح[1]. بينما يقول لنا المقريزي إنه خِلال ولاية ابن طولون (سنة ٢٥٤ هجرياً) وفي أوقات الرَّخَاء أيضاً، كان الدينار يشتري عشرة أرادب من القمح[2]. وفي خِلافة المعز كان الدينار يشتري اثني عشر إردباً[3]. أيٌّ من هذه الأرقام يمثل قدراً لا يستهان به. ولكن هذا لا يعني طبعاً أن كلَّ من أسلم فعل ذلك للتهرُّب من دَفع الجِزية. إن انتشارَ أي دينٍ وفي أي مكانٍ لهُ أسبابٌ كَثيرَة ومُعقَّدَة أحدها هو الاعتقاد أن هذا هو الدين الحق الذي سيحقق سعادةَ للإنسان ولكن هناك عوامل أخرى كثيرة، منها ما هو سياسي واقتصادي واجتماعي ومستوى التعليم والطموح في مشاركة النخبة الحاكمة (الناس على دين ملوكهم).

---

(١) ساويريس بن المقفع.من خلال موسوعة عبد العزيز جمال الدين. ج ٢. ص ١٥٢.

(٢) الخطط المقريزية. ج١. ص ١٥٩.

(٣) عبد العزيز جمال الدين. ج ٣. المجلد الأول. ص ٤٢٥.

كان نتيجة تكفُّل المصريين بضرائب ليست في قدرتهم أن هجر البعض الأراضي قليلة الغلة، خصوصاً في حالة ضعف الإدارة وعَدَم تقوية الجسور وشق القنوات لتصل المياه إلى الأماكن البعيدة عن مجرى النهر. كان ذلك يحدث أيضاً خلال الاحتلال الروماني عند زيادة الضرائب عن مقدرة الزراع. لم يُراعِ جُباةُ الضَّرائب ذلك، فتركها أصحابها فانعدم الخراج المحصل عليها. عندما كثرت الأراضي المتروكة اقترح والي خِراج مِصر عبد الله الحبحاب عام ١٠٩ على الخليفة هشام بن عبد الملك أن يُهجّر بعض العرب لتلك الأراضي لفلاحتها، وقد كان ذلك. كانت أول دفعةٍ هي ثلاثة آلاف فردٍ من قبيلةِ قيس، ولحقهم بعد ذلك خمسمائة آخرون، وقد استقروا في منطقة الحوف الشرقي (بلبيس). خفضت الضرائب على تِلك الأرض إلى نِصف ما كان يدفعة المصريون، حتى من أسلَمَ مِنهُم وكأن تلك الأراضي ما زالت كافرة رغم إسلام أصحابها! اشترى العرب الخيول والإبل من المعونات التي قدمها إليهم الوالي وتحسَّن حالهم كثيراً. كانت هذة أولَ هِجرةٍ عَربيةٍ لمصر[1]. ولكن لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على استقرار القيسيين في منطقة الحوف الشرقي حتي صنعوا ملحمةً في النَّهبِ والسَّلبِ وخلق الفتن والاضطراب[2].

إذا نظرنا إلى الكثافة السكانية في الجزيرة العربية نجدها ضئيلةً جِداً بالنسبة لكثافة سكان المناطق المحتلة مثل مصر والشام والعراق وإيران. وعليه فأعتقد أن الهِجرَة العَربيَّة لتِلك البلاد ومن ضمنها مصر لم تؤثر في ديمغرافية تلك البلاد (الدراسات الإحصائية للسكان). يذكر ابن إياس[3] أنه خلال ولاية عبد الملك بن رفاعة سنة واحد وتسعين هجرية أحصيَ من القرى نحو عَشرَةَ آلاف قريةٍ، في كُلِّ قريةٍ نحو خمسة آلاف من الرجال الذين تفرض عليهم الجِزية (إذا أدخلنا في ذلك تعداد الصغار والنساء والمسنين يكون تعداد مصر أكثر من عشرة ملايين). هذا العدد مغالى فيه كثيراً، ونحن نعرف من العلوم الحديثة أن تعداد مصر في ذلك

---

(١) الكندي المصري. مرجع سابق.نسخة جامعة ليدن. مطبعة الآباء اليسوعيين. بيروت. سنة ١٩٠٨. ص ٧٦.
(٢) عبد العزيز جمال الدين. ج ٢. ص ٩٤.
(٣) ابن إياس. ج ١. ص ١٢٥.

الوقت تأرجح بين ثلاثةإلى خمسة ملايين نَسَمة. وهذا العدد أكبر بكثير من أن يؤثر في ديموغرافيته هجرة عربية قوامها بضعة آلاف. وعليه فمقولة أن الأقباط هم سكان مصر الأصليون أمرٌ مغالى فيه كثيراً. إن المصري الذي يغير ديانته يظل مصرياً. أما الأصول العربية الكثيرة والمنتشرة في مصر فهي أمرٌ مَشكوكٌ فيه. وشرح عبد العزيز جمال الدين كيف حصل البعض على ما سماه "عروبي الولاء" حيث أن بعض الأسر المصرية اشترت لنفسها حجةً تُثبِت بها شرف الانتساب لقبيلة عربية، وهذا يختلف عن الأصول العربية مثل قبيلة قيس، والتي سبقت الإشارة إليها(١). ولكن الإسلام دخل مصر وأثر في ثقافتها وتأثر بها، وأصبَحَت مصر في أوقاتٍ كثيرةٍ أهم مرجع إسلامي، وربما للآن وخصوصاً بعد أن أسس المعز لدين الله الفاطمي جامع الأزهر ومدارسه كمؤسسة للدراسات الإسلامية وزوده بمكتبة زاخرة. إلا أن مصر احتفظت بكثيرٍ من عوائدِها وخواصها وبأقليةٍ قِبطيةٍ تتضاءل بمرور الزمن.

بدأت الدولة الأمويَّة تترهل وتضعف، فكثرت ثورات الأقاليم وتجرأت عليها القبائل المتاخمة لها وكذلك الدولة الرومانية. ففي سنة ١١٨ هجرياً أنفذَ الامبراطور ليو الثالث حملةً على سواحل مِصر فَنَزَلت بِها وخرَّبَت وسلَبَت ما حلي لهم، فغضب الخليفةَ هشام بن عبد الملك وعزل أمير مصر عبد الرحمن بن مسافر بعد سبعة أشهر من ولايته. حل محله عبد الرحمن حنظلة بن صفوان، فزاد من إرهاق أهلِها بزيادةَ الضرائب، فانتفض عليه القِبط في ثاني ثوراتهم، فحاربهم حتى هزمهم، وقتل منهم أعداداً كبيرةً بعد أن سلبَ ونهب(٢).

إزاء هذه الظروف الصعبة، وقصر نظر بعض الولاة، اتجه المصريون إلى السلبية أولاً بترك الأرض والذهاب للأديرةِ والتَهرُب من دفع الضرائب بأي وسيلة ممكنة حتى الهجرة من بلادهم. بعد ذلك وعندما زاد الضغط المالي انتقل بعض المصريين للمقاومة الإيجابية بالثورة ضد الحكام، والامتناع عن دفع الضرائب.

---

(١) عبد العزيز جمال الدين. مرجع سابق.ج ٢. ص ١٢١٨.

(٢) عبد العزيز جمال الدين. ج ٢. ص ١٠٦.

كانت أولى هذه الثَّورَات سبَقَ الإشارة إليها فيما ذكره المقريزي أعلاه عن ثَورةِ الحوف الشرقي. ويستمر المقريزي فيقول خلال ولاية الوليد بن رفاعة(١):

وفي أيامه انتفض القبطُ بالصَّعيد، وحاربوا العُمَّال في سنة إحدي وعشرين (بعد المائة) ***فحورِبوا وقُتل كثيرٌ منهم، ثم خرج بحنس بسمنود، وحارب وقُتلِ في الحرب، وقُتلِ معه قبطٌ كثيرون.....ثم خالفت القبط برشيد فبعث اليهم مروان بن محمد لما قدم مصر وهزمهم وقبض علي البطرك ميخائيل فاعتقله وألزمه بمال فسار باساقفته في اعمال مصر يسأل أهلها فوجدهم في شدائد فعاد الي الفسطاط ودفع الي عبد الملك ما حصل له فأفرج عنه .....فنزل به بلاء كبير من مروان وبطش به وبالنصاري وأسر عدة من النساء المترهبات وراود واحدة منهن فاحتالت عليه ودفعته عنها بان رغبته في دهن معها اذا ادهن به الانسان لا يعمل فيه السلاح واوثقته بان مكنته من التجربة في نفسها فتمت حيلتها عليه واخرجت زيتا دهنت به ثم مدت عنقها فضربها بسيفا اطار راسها فعل انها اختارت الموت عن الزنا.***

زاد فساد الأمويين، ونشطت الدعوة العباسية وبدأ العباسيون يوحدون القوى المعادية للأمويين، وبلغ الأخيرون حشرجة الموت. خلال خلافة مروان بن محمد سنة ١٢٨ هجرياً طارده العباسيون فاضطر للهروب لمصر. خلال ذلك الوقت امتَنَعَت بعض البلاد في مصر من دفع الضرائب حين زادت عن حدود إمكانياتهم. ويقول ساويريس بن المقفع(٢):

لقد عصى على عبد الملك (بن مروان بن موسي بن نصير والي مصر) ***قومٌ من البشمور*** (ساحل الدلتا بين فرعي رشيد ودمياط) ***ومقدمهم مينا بن بكير، وقوم آخرون من "شبرا" بسنبوط ومسكوا تلك الكور ولم يعطوا خراجاً فخرج إليهم عبد الملك*** (الوالي عبد الملك بن مروان بن موسى) ***بعسكرٍ فهزموه. ولما وصل مروان*** (بن محمد الخليفة) ***إلى مِصر عرَّفوه جميع ذلك، فكتبَ لهم كتباً وأماناً فلم يقبلوه،***

---

(١) الخطط المقريزية. مكتبة الآداب ج٤. ص ٣٩٤.

(٢) عبد العزيز جمال الدين عن تاريخ البطاركه. مرجع سابق.ج٢. ص ٣٩٠.

فأنفذ لهم عسكراً كثيراً من مسلمي مصر، وممن وصل في صحبته من الشام فلم يقدر العسكر أن يصلوا إليهم بالجملة، لأنهم تحصَّنوا في مناطق الوحلات.........دخل عسكر مروان (الإسكندرية) ***مع كوزار*** (الكوثر بن سهيل) ***وملكها، وقتل منها جماعةً، ونهب أراخنتها*** (كبار القبط وأغنياؤهم) ***وأسرَ أولادَهم ونساءهم وأخذ كُلَّ ما لهم، وأخذ أنبا خايل*** (خائيل أو ميخائيل البطريرك) ***وقـال له: كيف مكَّنت أولائك النصارى أن يقاتلونا*** (يعني البشامرة، وكأن البطريرك هو حاكم الأقباط) ***وخاطبهُ بكلامٍ كثير، والتمس منه مالاً فلم يكن معه شيئاً فأودعه السجن وجعل رجله فيها طوبة حديد وكان تلاميذه وبعض كهنته لما جري بالإسكندرية هربوا ولم يبقَ منهم إلا أنبا مينا القس.***وأكد المقريزي تلك الحوادث، بل ويضيف "أحرَقَ مِصر وغلاَّتها ويقول عبد العزيز جمال الدين " قبض على البطريرك خايل، ووضعه في السجن. وقد ظلّ البطريرك منذ هذه اللحظـة سجيناً، وحتى الإفراج عنه من قبَل العباسيين يُنقَل مسجوناً مربوطاً بالسلاسـل الحديد في كل مكان يذهب إليه الخليفة الأموي مروان"[١]. سببت جيـوش الخليفة مروان الكثير من الدمار في الإسكندرية، ولم يميز بين أقباط ومسلمـين وبدأ يتخبَّط في تصرفاته. وعندما علِمَ أن جَيْش العباسيين دخل الفَرما وكـان في الطريق لقلبِ مِصر قرَّرَ تخريبَ وحرقَ مَدينةَ الفسطاط، وذهب إلى غَـرب النيل وأحرَق المراكب حتى لا يصل إليه العباسيون. وهنا يقول عبد العزيز جمال الدين " نجد ظاهرةً جديدةً لم نعهدها من قبل، وهي اشتراك المصريين الوطنيين- ونقصد الأقباط- الذين كانوا يكونون أغلبية الشعب المصري حينذاك فـي تلك الحركة التي أدَّت إلى زَوَال الخلافة الأموية .....ونراهم يرحِّبـون بالعباسيين لأنهم أرادوا التخلص من الحكم الأموي، بالإضافة إلى أن العباسيين وعدوهم برفع الجِزية والمغارم عنهم"[٢]. تمكن العباسيون من عبور النيل وقتل مروان بالقرب من مدينة بوصير أو أبوصيرة (اسم لبلدان كثيرة في مصر، وهو تحريف اسم أوزوريس) وبذلك أعلن إنتهاء الخلافة الأموية من مصر ليبدأ العباسيون دولتهم

---

(١) عبد العزيز جمال الدين. تاريخ مصر .مرجع سابق.ج٢. ص ٣٩٨.

(٢)عبد العزيز جمال الدين.المرجع السابق. ج ٢. ص ٦٨٧.

وإن كانت بدايةً دمويةً. فالخليفة السفاح أول الخلفاء العباسيين مثلاً كان اسماً على مُسمًّى. نبش العباسيون قبور الخلفاء الأمويين وأخرجوا رفاتهم ليجلدوها بالسياط. أمر السَّفاح بقتل من بقي من الأمويين، ثم فرش البسط على أجسادهم- وبعضها لم تفارقه الحياة بعد- ومد السّماط وجلس يأكل هو وأعوانه، ثم قال بعد أن شبع: إنة لم يأكل أشهى ولا ألذَّ من ذلك الطعام[١].

خفف العباسيون الضَّرائِب على الأقباط، وحرَّروا البطريرك الذي أسره مروان، وعندما طلب البطريرك من قائد العباسيين أن يحمي أملاك الكنيسة في جميع البلاد أجابه إلى ذلك. وكذلك أعفى العباسيون البشامرة من دفع الخراج.

وإن كانت الدولة الأموية قد حقَّقَت تقدماً في نواحٍ عديدة ووطد الأمويون أركان الامبراطورية ولكنهم تركوا بذوراً أدت إلى التَّمَزُّق والاضمِحلال. كان التعصُّب للعرب قد ألَّبَ من هُم غير العرب (الموالي) ضدهم، وكان اضطهادُ بني هاشم قد ربط مصير الأخيرين بالموالي؛ مما أدى إلى تمهيد الطريق للخلافة العباسية، وكان ذلك بدايةً لعهدِ الانقِسام والتفرق. كان العصر العباسي الأول يعتمد على مبادئ استحقت التأييد ولكن بمرور الزمن انحرفت الدولة العباسية عن مبادئها، وقد تجلى ذلك في العصر العباسي الثاني كما سيأتي ذكره.

(١) محمد سعيد العشماوي. الإسلام السياسي. سينا للنشر. سنة ١٩٨٧. ص ١٨.

رحب المصريون بالدولة العباسية في أول الأمر على أمل تنفيذ ما وعدوا به من مساواةٍ وعدل. كانت شعارات الدولة العباسية جذَّابة، فكان أهمها المساواة بين الشعوب والدعوة إلى الإصلاح ثم أن تؤول الإمامة إلى أهل البيت. كان للإيرانيين دورٌ في غاية الأهمية لنجاح تلك الحركة، وخصوصاً الدور الذي لعبه أبو مسلم الخرساني، فقد كان داعية إسلامياً وزعيماً وقائداً عسكرياً، كانت قيادته تجذب القلوب وكان ملتزماً بمبادئ وشعارات الحركة العباسية. بل واعتبر نفسه المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، إلا أن أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور قد قتله عام ١٣٧ هجرياً للتخلص من قوته ونفوذه بعد أن استقر الولاء للعباسيين[١]. كان معنى الدور الذي لعبه الإيرانيون أن قيادة الامبراطورية الإسلامية أصبحت غير قاصرةٍ على أهل قريش، بل أصبحت شعوبيةً، وهو ما نادى به الإسلام أصلاً من عدم التفرقة بين العرب وغيرهم. كان ذلك واضحاً منذ بداية الدولة العباسية فكان أول وزيرٍ هو أبو سلَمة حفص بن سليمان، وكان من الموالي[٢] أصبح نفوذ الموالي أكثر وضوحاً في العصر العباسي الثاني حين سيطر الإيرانيون والأتراك على أمور الامبراطورية وأصبح الخليفة رمزاً فقَط لأنه من أهل البيت.

ولكن كالعادةِ دائماً بين الحاكم والمحكوم لم يستمر شهر العسل بين العباسيين والمصريين طويلاً. فقد نهج العباسيون نفس منهج الأمويين في القسوة في طلب المال وعدم النظر لحاجة البلاد بالإضافةِ إلى تغيير الولاة كثيراً علَى نهَج ما فعله الأمويون، ولنفس الأسباب، وأدى ذلك إلى نَفس النتائج. خلال خلافة الرشيد وولاية الليث بن الفضل سنة ١٨٢ هجرياً ثار أهل الحوف لأن الوالي أرسل مَسَّاحِين لقياس

---

(١) تاريخ الطبري. تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم.دار المعارف. سنة ١٩٦٦. ج ٧. ص ٤٩٤.

(٢) المسعودي. مروج الذهب. دار الاندلس سنة ١٩٦٥. ج ٣. ص ٢٧٠.

زِمام الأراضي المزروعة، إلا أن هؤلاء انتقصوا من القَصبة أصابع فتظلّم الناس أولاً، ثم رفضوا دفع الخِراج، فحاربهم الليث وقتل منهم كثيرين[1]. ان الولاة خلال الدولة الأموية والعباسية لا يتوانون عن أي شيء في سبيل زيادة الضرائب إلا أن يفكروا في تحسين أحوال البلاد لتزيد الضرائب، وهي سياسة طويلة المدى ولم يكن لديهم الوقت لذلك لقصر مدة حكم الولاة. في أثناء ولاية عيسى بن منصور سنة ٢١٦ هجرياً خلال خلافة المأمون، انتَقَض أسفل أرض مصر كلها عربها وقبطها. يذكر لنا المقريزي بعض ما حدث في منتصف القرن الثالث الهجري فيقول:[2].

في أيامه (يقصد البطريرك مرقص) ***كانت الفتنة بين الأمين والمأمون*** (على خِلافة الدولة العباسية خلفاً لهارون الرشيد) ***فانتهبت النصارى بالإسكندرية، وأحرقت لهم مواضع عديدة وأحرقت ديارات وادي هبيب*** (يقصد أديرة وادي النطرون) ***ونُهِبت، فلم يبقَ من رهبانها إلا نفر قليل، وفي أيامه مضى بطريرك الملكية*** (الروم الأرثوذكس) ***إلى بغداد، وعالج بعض حظايا أهل الخليفة، فإنه كان حاذقاً في الطب. فلما عوفيت، كتب له برد كنائس الملكية التي تغلب عليها اليعاقبة بمصر*** (الأقباط) ***فاستردها منهم ......ثم قدم اليعاقبة بعد وفاة مرقص يعقوب بطريركاً فأقام عشر سنين وثمانية أشهر؛ وفي أيامه عمرت الأديرة، وعاد الرهبان إليها وعمرت كنيسة بالقدس، لمن يرد من نصاري مصر. في أيامه انتفض القبط في سنة ستة عشر ومائتين، فأوقع بهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبدالله المأمون، فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية فبيعوا اواسي أكثرهم. ومن حينئذٍ ذَلَّت القبط في جميع أرض مصر، ولم يقدر أحدٌ منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان، وغلبهم المسلمون على عَامة القرى فرجعوا من المحاربة إلى المكايدة واستعمال المكر والحيلة ومكايدة المسلمين.***

أما الكندي المصري[3] فيصف نفس الفترة فيقول:

---

(١) الكندي المصري.الولاة وكتاب القضاة. مرجع سابق. ص ١٣٩.

(٢) الخطط المقريزية. دار الآداب. ج٣. ص ٣٩٦.

(٣) الكندي المصري. المرجع السابق.ص ١٩٠.

انتفض أسفل مصر كلها، عربها وقبطها، فأخرجوا العمال وخالفوا الطاعة، وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم، ثم قدم الافشين (الافشين حيدر بن الصغدي) ***من بَرقة فقتلوا الكثيرين ....*** (واستمرت الثورة ولم تستقر الأمور، فاضطر الخليفة المأمون للحضور لمصر).... ***فسخط على الوالي عيسي بن منصور وأمر بحل لوائه وأمره بلبس البياض وقال " لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك. حمّلتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتوني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد.***

ويذكر مؤرخ قبطي وهو يعقوب نخلة ثورة البشموريين فيقول:[(١)] أنه لما وصل المأمون إلى مِصر ذهب إليه البطريرك يوساب، فقابله الخليفةُ بما يليق بمقامه وأكرَمَه وكلَّمَه في أمر مخَالفة أقباط الوجه البَحري وطلب إليه أن ينصحهم ويحذرهم بأن يكتب لهم منشوراً يدعوهم فيه إلى الطاعة حقناً للدماء. ووعده أن ينظر بنفسه في راحتهم، وفيما يشكون منه فلبَّى البطريرك طلبه فأطاع الناس وسلَّموا، إلا أهل البشمور وأبوا إلا المقاومة فكانت النتيجة المذكورة أعلاه. ويقول يعقوب نخلة إن المأمون مَكَث بمصر شهرين فرتَّب الحكومة ونظمها وسامح المصريين في الأموال التي كانت باقيةً عليهم.

وتذكر بعض المصادر أن البشموريين بعد أن قُتِل منهم الكثيرون هجروا خارج مصر، وتم توطينهم في مستنقعات الأهواز (شط العرب) في جنوب العراق المطل على الخليج الفارسي ليصلحوا أراضيها لحساب العباسيين، وذلك في ظروف مناخية سيئة وأمراض الملاريا والقحط الشديد، نظراً لتمرُسهم بأساليب القتال في المستنقعات عندما كانوا في براري شمال الدلتا[(٢)]. ولعل بقيتهم شاركوا بعد ذلك في ثورة الزنج (استمرت ثورة الزنج أربعة عشر عاماً مُنذ عهد الخليفة المهتدي وبلغت غايتها العظمي في عهد الخليفة المعتمد، ويدل ذلك على مدى ضعف الدولـــة

---

(١) يعقوب نخلة روفيلة. تاريخ الأمة القبطية. الطبعة الثانية. سنة ٢٠٠٠. ص ٨٧.

(٢) عبد العزيز جمال الدين.تاريخ مصر.مرجع سابق. ج ٢. ص ٨٤٣.

العباسية في ذلك الزمان وقد ساعد ذلك الضعف على استقلال ابن طولون بمصر كما سنرى. وقد كتبت سلوى بكر رواية تاريخية شيقة عن تلك الأحداث(١).

لم يكن من الممكن للامبراطورية العربية الإسلامية، أو أي امبراطورية في ذلك الزمان – أو بعض الحكام الآن في غياب نظمٍ ديمقراطية– أن يسمحوا بثوراتٍ تهز كيانها مهما كان مصدرها حتى وإن كانت في المدينة أو حتى مكة ذاتها. ولقد حدث بالفعل ذلك، ودمَّر قادة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هجرياً المدينة حين خلع أهلها بيعته، فاستباح عسكر يزيد المدينة ثلاثة أيام فيما عُرِف بواقعة الحرة. بعد هزيمة أهل المدينة نهبها جند يزيد وقتلوا من أهل المدينة أعداداً كبيرة، ثم اتجه العسكر إلى مكَّة وفعلوا نفس الشيء واحترقت كسوة الكعبة وأستارها نتيجة القتال، وإن كان غالباً عن غير قصد(٢).. لم يكن هناك فرقٌ كبيرٌ بين ما فعله بعض الحكام من تعسُّف وبطش ضد الأهالي، سواء كانوا مسلمي مكة والمدينة أو أقباط مِصر، في سبيل الحفاظ على قوتهم ومكانتهم وتحصيل المال. وإن كان التاثير على الأقباط مختلفاً، حيث اضطر البعض منهم لترك المسيحية للإسلام. وهذا ليس قاصراً على الإسلام بل قد فعل بعض الحكام المسيحيين نفس الشيء مع الأديان الأخرى وقد سبق وأشرتُ لبعض من ذلك. وحوادث التخيير بين فرض المسيحية على المسلمين واليهود في الأندلس أو طردهم منها ليست ببعيدة عن الذاكرة العربية. وهذا ليس تبريراً لما حَدَث على الإطلاق، بل هو تاريخ الإنسانية في ذلك الزمان. نحن هنا بصدد علاقة الأقباط بالمسلمين وخلفية تلك العلاقة، ولسنا بصدد تقييم الدولة العباسية أو الأموية فكلاهما له إنجازات هائلة في تشييد إمبراطورية مترامية الأطراف، بل وشهدت تقدُّم عُلوم وفنون عديدة في الشعرِ والأدب والترجمة والتفسير المستنير للدين على أيدي رواد المعتزلة، وخصوصاً إبان حكم الرشيد، وإن كان للأسف لم يُقَدَّر لذلك التفسير المستنير الاستمرار،حيث سيطر الفكر السلفي التقليدي على ساسة

---

(١) سلوى بكر. البشموري. المجلس الأعلى للثقافة. سنة ٢٠٠٢.

(٢) تاريخ الطبري.مرجع سابق. ج ٥. ص ٤٩٤.

وفقهاء العالم الإسلامي، وربما كان قتل فكر المعتزلة أسوأ ما حدث للإسلام وأعاق تقدمه ومعايشته للعصر الحديث.

زمن الحكومات المستقلة

تحسُن أحوال البلاد عندما بدأ يتولاها حُكّام مُستقلون أو شبه مُستَقلّين كالطولونيين فالإخشيديين، ثم الدولة الفاطمية فالأيوبيين. كانت العلاقات بين الأقباط والمسلمين طيبة بوجهٍ عام، إلا إنه خلال الدولة الفاطمية، حيث شَهِدَ الأقباط أزهى عصورهم في عصر تساوى فيه الأقباط والمسلمون أو كادوا، ثم أسوأها على الإطلاق حيث يخبرنا المقريزي أنه في عصر الحاكم بأمر الله هُدِمَت حوالي ثلاثة آلاف كنيسة ودير، وخُيِّر الأقباط بين الإسلام أو الطرد من مصر. ما هي خلفيةَ هذا الدمار وأسبابه ؟ شخصية الحاكم بأمر الله، تناقص تعداد الاقباط إلى حوالي الثلث. الحروب الصليبية وتأثيرها.

الدولة الطولونية

في العصر العباسي الثاني زاد نفوذ الموالي من إيرانيين وأتراك، بل وسيطروا على أمور الدولة. كان نتيجة ذلك ضعف الخليفة، وبالتالي ضعف الدولة العباسية. في هذا المناخ كانت المناصب المهمة تبُاع وتُشترى. وكان بعض الولاة يستخلفون آخرين لحكم الولاية مع بقائهم بالقرب من الخليفة. وكان بعض الخلفاء يولون من يَضمَن لهم مبلغاً معيناً كخِراجٍ لمصر. أي أن الوالي يلتزم بدفع مبلغ مُعيَّن عن القُطر كله، بصرف النظر عن قدرة البلاد على الدفع وظروفها المختلفة[1]. كان الولاة يقسون لجمع نصيب الخليفة، بالإضافة لجمع ما يستطيعون لأنفسهم. وبعضهم- بالإضافة لذلك- حاول نشر الإسلام باستخدام العنف. يذكر ساويرس بن المقفع أنهُ مثلاً خِلال خلافة المتوكل (٢٣٢ هجرياً) وولاية عنبسة بن إسحاق الضَبّي، أنزل بأهل الذمة بلايا لا تحُصى وأمَر بألاّ يخدم نصراني في خدمة السلطان، وألزم أكثرهم بالإسلام، وأنه أمَر بهدم البِيع (الكنائس) كلها، وفرض عليهم ملابس مصبوغة

(١) عبد العزيز جمال الدين. تاريخ مصر مرجع سابق. ج ٣. المجلد الأول. ص٣٨٠.

لتظهرهم بين المسلمين(١). هذا بينما تفنن بعضُ الولاة الآخرين مثل ابن المدبر والي خِراج مصر سنة ٢٤٧ هجرياً في ابتكار ضرائب لزيادة دخلهن من أمثال ضرائب على صيد الأسماك، وأخرى على المراعي، وثالثة على الأشجار والنخيل بالإضافة لضرائبٍ على مِلح النطرون المستخرج من وادي النطرون، وقد كان أيضاً مُباحاً من قَبل بِلا ضَرائِب. أصبح المصريون يئنون تحت عبء ثقيل من الضرائب، فقامت ثورات كثيرة خلال تلك الفترة في الإسكندرية وشرق الدلتا والجيزة وخلافها، ولكنها أُخمِدت بقسوة فظيعة(٢). خلال تلك الفترة عانى الأقباط وكنائسهم وأديرتهم الكثير من الظلم والاستبداد. أرسل البطريرك شنودة إلى الخليفة المعتز اثنين من الأقباط ليشرحوا للخليفة ما عانته مِصر من مُرّ لظُلم حكامها وما حدث لكنائسها وأديرتها. فوافق الخليفة بأن تعاد إلى الأقباط جميع الأراضي والكنائس والأديرة وما سُلِب منها(٣). لم يكن بعض الخلفاء ليرضوا عما يفعله بعض حكام الأقاليم من ظُلم إذا عرفوا بذلك، وقد سبق وأشرت لبعض من ذلك خلال حضور المأمون لمصر لقمع ثورة البشموريين.

كان الخلفاء العباسيون يخصُّون ولاية مصر للأتراك، وكان أحدهم أزجور التركي (وسُمِّيَ أيضاً باكباك) والذي أرسل احمد ابن طولون، وكان ابن زوجته نيابةً عنه في منتصف القرن الثالث الهجري. وكان ابن طولون تركي الأصل أيضاً وكان ذا شجاعةٍ وذكاء. بعد سلسلةٍ مِن المناورات، وبما كان له من صلات مع أتراك بغداد، تمكَّن من سجن ابن المدبر الذي سبق وأشرت إليه والذي كرهه المصريون ثم طرده من مصر.

انفرد ابن طولون بحكم مصر لتبدأ فترة جديدة في التاريخ المصري(٤). كان من

---

(١) عبد العزيز جمال الدين. تاريخ مصر. مرجع سابق ج٣. المجلد الأول. ص ٣٢.

(٢) عبد العزيز جمال الدين. المرجع السابق ج٣. ص ٣٨١.

(٣) القمص أنطونيوس الأنطوني. وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها.من مطبوعات دير القديس انطونيوس. دار الطباعة القومية. الفجالة سنة ١٩٩٦. ص ١٢١.

(٤) أحمد إبراهيم الشريف وحسن أحمد محمود. العالم الإسلامي في العصر العباسي. دار الفكر العربي الطبعة الخامسة. بدون سنة إصدار. ص ٨٣. وكذلك عبد العزيز جمال الدين. مرجع سابق. ج ٣. المجلد الأول. ص ٢٦٤.

أوئل أعمال ابن طولون أن ألغى الضَّرائِب الباهظة التي فرضها ابن المدبر فارتاح الناسُ لذلك ووثقوا في ابن طولون، وبدأوا في التعمير واستقرت الأمور. اهتم ابن طولون بتعمير مصر وبنيلها وجسورها وإنشاء مدينة القطائع وبنيت فيها الطواحين والأفران والأسواق وغيرها وبنُيت أيضاً الحمامات وبُنِيَ المارستان (المستشفيات) واهتم بالأخيرة خصيصاً. بنى ابن طولون في القطائع قصراً كبيراً، والجامع الشهير الذي حمل اسمه وما زال أحد معالم القاهرة الأثرية. خلال حكم ابن طولون مات الخليفة المعتز وقام بدلاً عنه المهتدي بالله واضطربت الأمور في بغداد، وساعد ذلك علي استقلال ابن طولون بمصر، رغم بقائه رسمياً تابعاً للخلافة العباسية. بنى ابن طولون جيشاً قوياً من مصادر مصرية وامتد نفوذه وسيطرته إلى سوريا.

عندما جاء ابن طولون لمصر سنة ٨٦٨ م كان عمره ثلاثة وثلاثين عاماً، وحكمها ستة عشر عاماً، وهي اطول مدة لحاكم مسلم منذ دخول الاسلام لمصر.مات ابن طولون وعمرة تسعة وأربعون عاماً. وقد أنجز الكثير بمصر، ونجح في استمالة القلوب إليه وأحبه عامة الناس. ومن أعماله أنه خلَع جُباةَ الضرائب الدخلاء، وعيَّن مِصريِّين بدلاً منهم، وإن كان قد فضَّلَ الأتراك على المصريين في المناصب الهامة. كان خِراج مصر قبل ابن طولون حوالي ثمنمائة ألف دينارٍ فقط، ارتفعت خلال حكمة إلى أكثر من أربعة ملايين دينار. ومع ذلك قُدِّرَت ثروته وقت وفاته بحوالي عشرة ملايين دينار(١).

كان بعض الولاة يقسون على البطاركة لابتزاز الأموال، رغم اعتدالهم في معاملة الأقباط كما حدث مثلاً في عَهد ابن طولون. ويعود ذلك للعديد من الأسباب. قد يكون أهم تلك الأسباب هو حاجة الوالي للمال. السبب الثاني قد يكون الاعتقاد بأن قيادات الكنيسة غنية. قد يكون ذلك صحيحاً في بعض الأوقات. وقد سبق وأشرت لبعضٍ من ذلك في أواخر القرن الثالث، وأوائل القرن الرابع الميلادي، عندما التحمت الكنيسة بالدولة البيزنطية، وأصبحت إحدى مؤسساتها وأغدقت الدولة عليها، كما يحدث في المؤسسات الإسلامية في البلاد الإسلامية والأزهر مثال

(٢) جاك تاجر. اقباط ومسلمون. مرجع سابق. ص ١١٣.

على ذلك. ولكن ذلك لم يستمر طويلاً في الكنيسة المصرية للخلافات اللاهوتية، والتي سبق الإشارة إليها في العصر الروماني. في التقاليد المسيحية يدفع المسيحيون العشور لتوزيعها على الفقراء. والكنيسةُ مصدرٌ لتَجميعِ وتوزيع هذه العشور على الفُقرَاء والمحتاجين. وغالباً ما يحدث ذلك. ولكن أحياناً قد يستأثر البعض من قيادات الكنيسة بنصيبٍ من هذا المال لمصلحتهم الشخصية. ويظهر ذلك من بعض مظاهر الترف التي تبدو على البعض منهم. هذا طبعاً بالإضافةِ لِبعضِ الأوقاف التي يوقفها البعض لصالح الكنيسة والأديرة. ولكن الغرض الأساسي هو مساعدة المحتاجين. هناك سببٌ آخر لابتزاز رؤساء الكنيسة وسوء معاملتهم من قِبل بعض الولاة وهي وشاية البعض من داخل الطائفة ضد رئاسات الكنيسة لأسباب شخصية واتهامها بالإثراء وسوء استخدام الأموال العامة. ويعطينا جاك تاجر[١] مثالاً لوشايةٍ ضد البطريرك ميخائيل خلال ولاية ابن طولون. أقال ذلك البطريرك أسقف اسمه (سقا) لسوء سلوكه وخروجه على النُظُم الكنسيَّة، فحقَد الأسقُف على البَطرَيَرك ووشا به لَدَى الوالي واتهمه بأنه يملك ثروةً طائلة. كان ابن طولون في ذلك الوقت يعد حملته على سوريا وفي حاجة شديدة للمال. أمر ابن طولون البطريرك بأن يودع ما عنده من كنوزٍ في خزانة الدولة محتجاً بأن الرهبان لا يجوز لهم الاحتفاظ بالمال (وذلك صحيح لأن الرهبنة فقرٌ اختياري، ولكن البطريك لم يعد مجرد راهب بل رئيس للكنيسة عليه الكثير من المسؤليات). حاول البطريرك أن يبرهن على افتراء الأسقف ولكنه لم ينجح في ذلك. وضع ابن طولون البطريرك في سجنٍ ضيقٍ لقرابة العام. تمكن كاتما سر ابن طولون - يوحنا وابراهيم بن موسي - من إطلاق سراح البطريرك تحت ضمانتهما على أن يدفع النصارى التابعون له مبلغاً كبيراً من المال، فاضطر البطريرك إلى توقيعِ سندٍ على نَفسه بعشرين ألف دينارٍ تَعهّد بسدادها على دفعتين. لم تستطع الطائفة إلا أن تدفع القِسط الأول. وبعد صعوبةٍ بالِغة وبعد أن اضطر البطريرك لبيع بعض أراضي الكنيسة لبعض اليهود. وقد أيَّدَ تلك القصة المقريزي[٢]. عندما عَجَز البطريرك عن دفع باقي المبلغ أودع في السجن وحتى

---

(١) جاك تاجر. اقباط ومسلمون. مرجع سابق. ص ١١٤.

(٢) الخطط المقريزية. مكتبة الآداب.ج٤. ص ٣٩٧.

توفي ابن طولون وتولى محله ابنه خمارويه فأطلق سراح البطريرك وأعفاه من دفع باقي المبلغ. هذه الحادثة والتي وثَّقها جاك تاجر والمقريزي تدل على أن الكنيسة والطائفة لم تكن غنيةً على الإطلاق في ذلك الوقت كما توهم البعض. لم يكن ابن طولون متعصباً، بل يقول لنا جاك تاجر إنه كانت له صومعة في دير القصير وكان كثيراً ما يذهب إليها لهدوئها وللتأمل، وكان على علاقة طيبة ببعض رهبان هذا الدير. ويذكر المقريزي أن جامع ابن طولون بناه أحد الأقباط وهو سعيد بن كاتب الفغاني، وقد كلَّفَ بناء الجامع مائة ألف دينار، وقد أمر ابن طولون لذلك القبطي بمبلغ عشرة آلاف دينار وأجرى علية الرزق الواسع إلى أن مَات[1]. ولكنً هناك تناقضاً يصعب تفسيره بين حُسن معاملة ابن طولون لأهل الذمة وأغلبهم من الأقباط وبين إذلاله للبطريرك القبطي. قد يكون أحد اسباب ذلك التناقض أن البطريرك وإن كانت له صلاحيات دينية، إلا أنه من الممكن- ولو نظرياً- أن يؤلِّب الأقباط على رئاسة الدولة، وكانوا أغلبيةً أو جزءاً لا يستهان به من التِّعداد في ذلك الوقت. تحجيم أو إضعاف البطريرك يزيل ذلك الاحتمال. ثراء الكنيسة والأقباط موضوعٌ مُهِم حتي في وقتِنا المعاصر فبينما عجز البطريرك وحتى بعد سجنة عن أن يدفع عشرة آلاف دينار سنة ٨٧٠ م، بينما يدعي البعض سنة ٢٠٠١ أن أقباط مصر يملكون ٤٠٪ من ثروات مصر ومن امتيازاتها[2]، مع أن تِعداد الأقباط الرسمي حوالي ٦ ٪. معنى ذلك أن متوسط دخل القبطي حوالي عشرة أضعاف دخل المسلم، واعتقد أن هذا الرقم يمثل مغالاةً كَبيرةً، فأغلب الأقباط يجاورون مسلمين، ويعيش كلاهما على نفس المستوى تقريباً. خلال المؤتمر الإسلامي بالإسكندرية، والذي عُقِدَ سَنَة ١٩١١ (سيأتي ذكره بالتفصيل في الفصل العاشر ص٢١٦) أعلن الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد أن تعداد الأقباط ٦،٤٣٪ وثروتهم لا تتجاوز ١٠٪. واذا عدنا الي عام ١٧٣٧ نجد ان اثرياء الاقباط يمثلوا ١٤٪ فقط من دافعي الجزية وان ٧٠٪ من الأقباط كانوا من الفئة الدنيا (انظر ايضا ص ١٤٨)، أما أن يقال إن

---

(١) الخطط المقريزية. المرجع السابق.ج ٤. ص٣٦.

(٢) محمد عمارة. في المسألة القبطية. دار الشروق. سنة ٢٠٠١.

الاقباط سنة ٢٠٠١ يملكون ٤٠٪ من ثروات مصر وامتيازاتها فهذا يترك مجالاً كبيراً للتساؤل.

جامع ابن طولون وراؤه قصة لها مدلولاتها على ما حدث لكنائس مصر الفاخرة القديمة. يقال إنه عندما دخل عمرو بن العاص مصر وبنى جامعاً بسيطاً في الفسطاط والذي حمل اسمه وحتى الآن، أخذ عموداً واحداً من كل كنيسةٍ قريبةٍ لبناء جامع في الفسطاط، ولم يهدم أي كنيسةٍ ليستولي على عمدانها أو يحولّها إلى جامع. وكان في إمكانه ذلك، فقد كان القائد المنتصر. عندما أراد ابن طولون بناء جامعٍ فاخر في القطائع يقول المقريزي[1]: " قيل له إنه يحتاج إلى ثلاثمائة عمود، فقيل له ما تجدها، أو تنفذ إلى الكنائس في الأرياف والضِيَاع الخراب، فتحمل ذلك، فأنكر ذلك ولم يختره وتعذّب قلبه ". وبنى الجامع مهندسٌ قبطيٌ هو سعيد بن كاتب الفغاني، وبدون أعمدةٍ إلا عمود القبلة[2]. رفض ابن طولون أن يستولي على أعمدةٍ من الكنائس، بينما حُكّام آخرون ومسلمون دمَّروا الكثير من الكنائس للحصول على الأعمدةِ الفَاخِرة لاستعمالاتهم الخاصة. يقول لنا ساويريس بن المقفع إنه في الأوقات السابقة لابن طولون[3] هُدِمَت الكنائس للحصول على ما بها من الأعمدة والأرضيات الرخامية الملونة لتزيين القصور ونقل بعضها حتى بغداد. تشهد بيعة ماري مينا بمريوط على ما حدث من تدمير للكنائس. ومن يزور منطقة ماري مينا الأثرية بمريوط يرى من آثارها القديمة أن أعمدتها وأرضيتها قد نُزِعَت ليعاد استعمالهـا. لقد كانت حقاً بيعةً شاسعةً وعظيمةَ البناء وكان لها قبل تدميرها تاريخ عظـيم. ونحن في مجال هدم وتخريب الكنائس لا بد أن نذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما دخل القدس فاتحاً وحانت صلاة الظهر وهو في داخل كنيسة القـدس الكبرى، أبى أن يصلي فيها، لكيلا يتخذها المسلمون من بعده ذريعةً للمُطالبةِ بها

(١) الخطط المقريزية.مكتبة الآداب ج ٤. ص ٣٦.

(٢) علي حسني الخربوطني. الإسلام وأهل الذمة. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة. سنة ١٩٦٩. ص١٧٠.

(٣) تاريخ البطاركة. صموئيل السرياني. سنة ١٩٨٤. ص ٢٧٨.

واتخاذها مسجداً[1]. هكذا كان الفكر الإسلامي لدى بعض الرواد الذين حافظوا على روح الإسلام.

بعد وفاة ابن طولون خَلَفه ابنه خمارويه سنة ٨٨٣، وتَتَبع سياسة والده وكان على علاقَة طيبة بالأقباط، إلا أنه لم يعِش طويلاً، فقد قُتِل سنة ٨٩٥ م بدمشق. ضعفت الدولة الطولونية وتولاَّها أفرادٌ ضُعفَاء من البيت الطولوني بدايةً من أبو العساكر جيش بن خمارويه، وانتهت بولاية شيبان بن أحمد بن طولون. عادت مصر تابعة للخلافة العباسية سنة ٢٩٢ هجرياً، ٩٠٥ م على يد القائد العباسي محمد بن سليمان الكاتب، فدخل الفسطاط ودعا على المنابر للخليفة المكتفي بالله. أمر محمد بن سليمان بحرق القطائع، ونهب جنده الفسطاط، واستباحوا النساء، وأتوا من الفَظَائِع والمنكرات ما تقشعر له الأبدان من تمزيق ظهور الناس بالسياط وصلبِهم على جذوع النخيل[2]. خرج محمد بن سليمان من مصر إلى دمشق بعد أن أمضى بها أقل من عام. وفي الطريق وافاه رسول الخليفة يطالبه بتسليم ما معه من الأموال والخيل والمنسوجات النفيسة والذهب وغير ذلك مما حمله من مصر وقُدِّر ذلك بنحو مليوني دينار[3] عادت مصر إلى ما كانت عليه قبل ابن طولون إلى أن جاء محمد بن طغج الإخشيدي وكان ذا أصول تركيةٍ أيضاً.

الدولة الإخشيدية

جاءت الدولة الإخشيدية بزعامة محمد بن طغج الإخشيدي سنة ٩٣٥ م، وكانت ولايته الأولى لمدة اثنين وثلاثين يوماً فَقَط، ولكنهُ رَتَّبَ أموره ودَخَل مِصر عنوةً

---

(١) فهمي هويدي. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. سنة ١٩٨٥. ص ٦٧.

(٢) سيدة إسماعيل كاشف. مصر في عصر الإخشيديين. الطبعة الثانية. دار النهضة العربية. سنة ١٩٧٠. ص ١٧.

(٣) سيدة إسماعيل كاشف. المرجع السابق. ص ١٩.

بعد أن لَقِيَ تأييد الفضل بن جعفر وزير الخليفة الراضي بالله، وكان محمد بن طغج قد تزوج ابنة الفضل بن جعفر. كان الإخشيدي والياً ذكياً وقوياً استقلَّ بمصر– وإن لم يكن استقلالاً رسمياً– ونجحت أسرته في حكم مصر لمدة أربعة وثلاثين عاماً. كان الإخشيدي متسامحاً مع المصريين عموماً واحترَمَ تقاليد البلاد وأعيادها. خلال فترة حكمه حضر المؤرِّخ المسعودي عيد الغطاس، وهو احتفال مسيحي بذكرى عمادة المسيح في نهر الأردن على يدي يوحنا المعمدان (يسمي في القرآن يحيى) ويصف الاحتفال الذي حضره وشارك فيه الإخشيدي فيقول[1]:

ولقد حضرت في سنة ثلاثة وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر، والإخشيد محمد ابن طغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل، والنيل يطيف بها، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر النيل في تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى، منهم في الزوارق، ومنهم في الدور القريبة من النيل، ومنهم على الشطوط، لا يتناكرون سروراً ولا تغلق فيها الدروب، ويَغطِسُ أكثرهم في النيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء. هذا ما قاله شاهدُ عيانٍ عَن عَلاقة المسلمين والأقباط في ذلك الوقت.

لم يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال العامة التي لا شأن للدين بها. وكان الأقباط لا يزالون يحتفظون بلغتهم القبطية، ولم يتركوها إلا في أواخر القرن الرابع الهجري، الحادي عشر الميلادي.

دخل البيزنطيون الشام عام ٩٦٠ م، وقتلوا وخربوا المساجد وسَبَوْا من أهل الشام الكثيرين. وعنما وصل خبر ذلك مصر ثار العَامَّةُ وخربوا إحدى الكنائس في مصر القديمة[2]. كان بعض أولي الأمر يستكتبون الشعراء المسلمين قصائد

---

(١) المسعودي. مروج الذهب. دار الاندلس. بيروت. سنة ١٩٦٥. ج ١. ص ٣٧٩.

(٢) سيدة اسماعيل كاشف. مصر في عصر الإخشيديين.مرجع سابق. سنة. ص٢٥٢.

ينسبونها إلى المسيحيين، ويذكرون فيها ما فعلوه في المدن الإسلامية وأهلها استنهاضاً لهِمم المسلمين، وحثاً لهم على الأخذ بالثأر. ومن ذلك القصيدة المعروفة باسم القصيدة الأرمنية التي تنسب إلى شاعرٍ ارتدَّ عن الإسلام. وتنتهي القصيدة بتلك الأبيات[1]:

هُنالِكَ تخلو الأرضَ من كُلِّ مُسلمٍ ... لكلِّ نَقيٍّ الدِّينِ أغلَفَ زَاعِمِ

سأفتحُ أرضَ الله شرقاً ومغــــرباً ... وأنشرُ ديناً للصليبِ بصارِمي

فعيسى عَلا فَوقَ السَمَواتِ عرشُهُ ... يفوزُ الذي ولاَّهُ يومَ التَّخاصُمِ

وصاحِبُكُم بالتُربِ أودى بهِ الثَّرَى ... فصارَ رُفاتاً بينَ تِلكَ الرِّمَائِمِ

بعد محمد بن طغج الإخشيدي جاء أربعةُ إخشيديين آخرين، كان آخرهم أبو الفوارس أحمد ابن علي ابن طغج الإخشيدي ٩٦٨ م. كان الحاكم الفِعلي بعد محمد بن طغج الإخشيدي هو كافور، وكان عبداً نوبياً أو حبشياً. وكان غلام محمد الإخشيدي، ثم أصبح من كبار قادته ومُربي أولاده والوَصي عليهم. كان الأمير والوصي. ضعفت دولة الإخشيد بفعل الحروب التي شنها الامبراطور البيزنطي نيقيفور فوكاس على حدود سوريا، وحقَّقَ فيها نَصراً كبيراً وكان لذلك تأثيرٌ سلبيٌّ على الأقباط من قِبل العامة لاعتبارهم أن أقباط مصر ما هم إلا مسيحيون مرتبطون بالمسيحيين البيزنطيين، فإذا انتصر البيزنطيون تنتقم العامةُ من أقباط مصر وتهاجمهم وكنائسهم، وكان ذلك للأسف نمطاً يتكرَّر ويعاني منه الأقباط كثيراً. لم يكن للحكومةِ يدٌ في هذه الاضطرابات، بل على العكس من ذلك حاولت إخمادها واستعملت القوة في ذلك. وقد أصدَر الخليفة عام ٩٢٥ مرسوماً لتهدِئة النفوس في أنحاء الامبراطورية الإسلامية أعلن فيه أن الجزية لن تُفرَض على الأساقفة والرهبان والعلمانيين المعوزين[2].

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف. المرجع السابق ص ٢٥٣.

(٢) جاك تاجر. مرجع سابق. ص ١١٧.

غالباً ما تعاني الأقليات في حَالاتِ ضعف الدولة أو وجود تهديدٍ خارجي، وفي تلك الفترة عانت مصر من كليهما. ضعفت دولة الإخشيديين وبالإضافة إلى الحروب مع البيزنطيين في الشرق جاءهم الفاطميون من الغَرب لينهوا دولتهم. لم تستمر الدولة الطولونية والإخشيدية لأكثر من خمسين عاماً، وقد شعر المصريون ببعض الارتياح لوجود حكومة مستقلة لدرجةٍ ما. واهتمت تلك الحكومات بمصر وإن كانت ما زالت تابعة للدولةِ العباسية من الناحية الرسمية.

الدولة الفاطمية

مع صعود الدولة العباسية اضطهدوا العلويين!! - نسبةً إلى على بن أبي طالب- فذهب بعضُهُم للمغرب وأنشأوا الدولة الفاطمية، وادَّعُوا الخلافة وبويعوا عليها سنة٢٩٧ هجرياً. وكان أول خلفائهم عبيد الله المهدي (ابن الإمام الحسن بن أحمد بن عبد إسماعيل بن جعفر الصادق). كانت أطماع الفاطميين بعد ذلك مُنصبَّةً على مصر وقاموا بعدة محاولات لدخولها سنة ٣٠١، ثم سنة ٣٠٧ هجرياً، فوصلوا حتى مشارف الفسطاط واحتلوا الفيوم والأشمونين[١]. ولكنهم لم يوفقوا لاحتلالها إلا بعد أن تَوفي كافور، وتدهورت أحوال الإخشيديين. تمكَّن جَوهَر الصقلي من احتلال مصر بدون مقاومة جدية سنة ٣٥٨ هجرياً ٩٧١ م فنُقِلت الخلافة الفاطمية إلى مصر سنة ٣٦٢ هجرياً -٩٧٥ م بعد أن بنى جوهر الصقلي مدينة القاهرة والجامع الأزهر- نسبةً إلى فاطمة الزهراء، وكان اسمه في أول الأمر جامع القاهرة- عاصمة سياسية ودينية للفاطميين. وقد أنشأ جوهر الصقلي الجامع الأزهر حتى لا يُفاجأ المصريون من أهل السُّنَّة في مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي بداية من الأذان "حي على خير العمل" بدلاً من "حي على الصلاة. حي علي الفلاح"[٢].

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف. مصر في عصر الإخشيديين. الطبعة الثانية. دار النهضة العربية.سنة ١٩٧٠. ص ٢٧.

(٢) عبد العزيز جمال الدين.مرجع سابق. ج ٣. المجلد الأول. ص ٥٠٩.

ما يميز العصر الفاطمي في مصر فيما يختص بعلاقة الأقباط بالمسلمين ثلاثة عوامل: العامل الأول هو الاستقلال التام ولأول مرة منذ دخول العرب مصر، فقد أصبحت مَركز الخلافة، وهو ما لم يحدث قبل أو بعد ذلك. العامل الثاني أن الدولة الفاطمية كانت دولة شيعية إسماعيلية المذهب. وهو ما لم يحدُث قبل أو بعد ذلك أيضاً أن حكمت مِصر حكومة شيعية تمثل أقليةً إسلامية. العامل الثالث أن الأقباط خلال الحكم الفاطمي شهدوا أزهى عصورهم من مساواةٍ تكادُ تكون كاملةً إلى أسوأ عصورهم في اضطهادٍ كَانَ مُرعِباً لأغلب الأقباط.

لما استقر الأمرُ للفاطِميين، وكانوا أقليةً دينية حاولوا التودد لأهلٍ السُنّة على حساب الأقباط، فأُلغيت الاحتفالات الدينية القبطية، والتي كان يحُتفل ببعض منها في احتفالاتٍ اصبحت عَامَّة في فترة الإخشيديين، خصوصاً في عيد الغِطاس كما سبق أن أشرت. يقول ابن إياس إن المعز أبطل كل ذلك وهدد من يفعل ذلك بالشنق[١]. إلا أن المعز لم يكن متعصباً على الإطلاق. فقد استخدم المعز بعضاً من أهلٍ الذِّمة في إدارة شئون البلاد، فاكتظت بهم دواوين الحكومة، فشغلوا وظائف الدولة العليا، وحرص الفاطميون على الاستعانة بالأقباط لمهارتهم في الإدارة وخصوصاً في جِباية الخراج والجزية والضرائب عموماً، وكل ما يتعلق بشئون المال. كان تعداد الأقباط في تلك الفترة قد تناقص إلى حوالي ثُلث التِّعداد[٢].

كان المعز حريصاً على العِلم والمعرفة. فزوَّدَ الأزهر بمكتبةٍ كانت نواة للعلم والمعرفة في هذه المؤسسة المهمة بل وزادت أهميتها بعد زوال دولة الفاطميين. وكان المعز يعقد الندوات الدينية للحوار بين زعماء الأديان السماوية، وخصوصاً أن وزيره يعقوب بن كلس كان أصله يهودياً ثم اسلم، وكان هناك أقباطٌ في بعض وظائف الدولة العليا. وكان المعز شغوفاً بالمعرِفة. إلا أن البعض بالغ في أهمية ونتائج تِلك الحوارات الدينية، ولو أنها أظهرت مدى تسامح الخليفة وتفهُّمِه لأهل الذمة.

---

(١) ابن إياس.مرجع سابق. ج ١. القسم الأول. ص١٩٠.

(٢) سلام شافعي محمود. أهل الذمّة في مصر في العصر الفاطمي الأول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٥. ص ٢٧.

بعد المعز جاء الخليفة العزيز لدين الله ابن المعز (٩٧٥ - ٩٩٦ م). كان عصر المعز والعزيز عصريْ رخاء في مصر في الزراعة والصناعة والتجارة. ويبدو أن الضرائب كانت مُعتدلةً فَلَم نسمع عن تذمُّر المصريين لزيادة الضرائب أو حتى تعسُّف جُباة الضرائب. كان العزيز ظاهرةً فريدةً في معاملة أهل الذمة أو الأقليات. ودعا للمساواة الكاملة بين عنصري الأمة وإن التزم النصارى بدفع الجزية. لم يكن هناك أي تعصُّب من جهة الدولة، ولم يَسمَح بأيةِ إساءة لأهل الذمة وكنائسهم وأديرتِهم. واستمر وجود الأقباط في بعض مناصب الدولة العليا. كان يعقوب بن كلس أول وزراء الدولة الفاطمية في مصر وأخلصهم لها، وكان ذا شأنٍ عظيم. أمَرَ العزيز بإعادة تعمير الكنائس والأديرة وبناء الجديد منها وبدون تعقيدات. اعترض بعض فقهاء المسلمين على حركة إعادة بناء وتعمير الكنائس، وتسبَّبَ ذَلِك في بعض الاضطرابات. ولكن العزيز وفَّر الحماية اللازمة[١].

قد يكون أيضاً أحد أسباب استياء بعض المسلمين من العزيز أنه عُنِي بنشرِ المذهب الشيعي، وحَتَّم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب. كما قصر المناصب الهامة على الشيعة[٢]. هذا طبعاً بجانب إعطاء بعض المناصب الهامة لغير المسلمين. أما عن أهل الذمة، وخصوصاً النصارى. فقد كان العزيز متزوجاً من امرأةٍ مسيحية من مذهب الملكيين، وقد أنجب منها ست الملك وكذلك الخليفة التالي له وهو الحاكم بأمر الله. يبدو أن ست الملك وأمها كانوا متعاطفين مع النصارى وكان لهما تأثير على العزيز. تَدخَّل العزيز في شئون الكنيسة الملكية وعيَّن نسيبيه أرسين وأرستد بطريركين أحدهما على الإسكندرية والآخر على إنطاكية[٣].

---

(١) سلام شافعي محمود. أهل الذمّة في مصر في العصر الفاطمي الأول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٥. ص ٣٢٣.

(٢) عبد العزيز جمال الدين. مرجع سابق. ج٣. المجلد الأول. ص ٥١١.

(٣) جاك تاجر. اقباط ومسلمون. مرجع سابق. ص ١٢٢.

في سنة ٩٩٦ قرر الخليفة الخروج لجهاد الروم، وبينما الجيش على أهبة الاستعداد للتحرك إذ بقطع الأسطول الراسية في ميناء المقس تتعرض لحريق مدمر أتى على مُعظَمِها، فاتهمت الرعية تجارَ الروم الواردين بالبضائع لمصر، فقتلوا منهم حوالي مائة وستين، ثم هاجمت العامة والمغاربة كنيسةً للملكيين وأخرى للنسطوريين فأنزل العزيز العقاب الصارم بالمسلمين الذين اشتركوا في قتل الروم ونهب الكنائس، وأمَرَ بإعادة ما أُخِذ من ممتلكات الكنائس[١].

كان نتيجة المساواة بين عنصري الأمة وزيادة نسبة المسيحيين في المناصب الهامة أن استاءَ بعضُ المسلمين من جراء ذلك. ويعكس ذلك بعض ما قاله بعض الشعراء المعاصرين، فقال الشاعر حسن بن بشر الدمشقي[٢]:

تَنَصَّر، فالتَّنصُّرُ دَينُ حَــقٌ   عَليهِ زَمَانُــنَا هَـــذَا يــدلُ
وقُل بثلاثةٍ عَزُّوا وجلُّـــوا   وعُطِّلَ مَا سِواهُم فهـو عطــلُ
فَيعقوبُ الوَزيرُ أبٌ وهَذَا الــ   العزيزُ ابنٌ ورُوحُ القُدُسُ فَضْلُ

في عهدِ الخليفة المعز والعزيز كان الوزير يعقوب بن كلس، وكان يهودياً ثم أسلم. أمّا في عهد الخليفة الظاهر فقد ولي الوزارة أبو النصر صدقة بن يوسف الفلاحي، وكان أيضاً يهودياً ثم أسلم. وكان يدير الدولة معه أبو السعد التستري اليهودي. وكان يعقوب بن كلس شغوفاً بالعلوم والآداب، وكان يعقد بعض مجالسه العلمية في الجامع الأزهر. ولكن كان نتيجة وجود يهود أو من كانوا يهوداً ثم أسلموا أن استاء بعض المسلمين من جراء ذلك، وانعكس ذلك فيما قاله بعض الشعراء. قال أبيات الشعر التالية الشاعر المصري الحسن بن خاقان[٣]، أو الرضي بن البواب[٤]:

---

(١) سلام شافعي محمود. أهل الذمّة في مصر في العصر الفاطمي الأول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٥. ص ٢٢٣.

(٢) فهمي هويدي. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. سنة ١٩٨٥. ص ٧٢.

(٣) فهمي هويدي. المرجع السابق. ص ٧٢.

(٤) سلام شافعي محمود. المرجع السابق. ص ٩١.

يهودُ هَذا الزَّمانِ قَد بلــغوا غَايةَ آمالهِــم وقَد مَلَكُــوا
يا أهل مِصر إني أنصحــكم تهوَّدُوا فقـــد تهوَّدَ الفَلَكُ

وتدل تلك الأبيات على أنه حتى لو أسلَم اليهودي أو القبطي فلن يغفر له تقلد المناصب العليا أحياناً. ويدل ذلك على أن الدين لا علاقة له بذلك الصراع، بل كانت الغيرة والحسد هما الدافع الأساسي. وإن كان لبعض الفقهاء تحفظات لها بعض الأسس الدينية.

كان نتيجة حصول بعض أهل الذمة على المناصب الهامة غضباً مكبوتاً لدى بعض المسلمين مولّهُ الغيره وشعورٌ دينيٌّ كان على استعداد للانتقام من الذميين حين واتته الظروف. وقد حدث ذلك وشجع عليه شذوذ الحاكم بأمر الله. كانت نسبة أهل الذمة في مناصب الدولة الهامة أعلى من نسبة المسلمين- خصوصاً من أهلٍ السُنة- ولكن لماذا ؟ وهل كان اختيارهم لدينهم أم لكفاءتهم وولائهم؟ والسؤال الثاني الصعب والذي لا نجد إجابةً له هو: ما كان حال ومسؤلية أغلب الأقباط ونحنُ نعلمُ أن أغلبهم كانوا مزارعين، ليتحمَّلوا تبعيةَ ذلك العقاب الآتي وهو العقاب الجماعي لأسبابٍ لم يرتكبوها؟ والسؤال الثالث هو: ما هي علاقة كل ذلك من الأديان؟ كل هذه الأسئلة تظهر وتتردد عندما تكون هناك اضطرابات بين الأقلية والأكثرية أو بين مجموعاتٍ اثنيةٍ مختلفةٍ وفي مناطق عديدة من العالم وعلى مرِّ التاريخ وحتى وقتنا هذا. نغيِّر بعض الأسماء والأماكن والفترات الزمنية ونعيد نفس الأسئلة. وأخيراً ما هو الحل؟

بعد وفاة العزيز سنة ٩٩٦ م، تولى الخلافة بعده تسعةٌ من الفاطميين. كان بينهم وقتَ اعتلاءِ العرش ثلاثةُ مراهقين وخمسة أطفال. كان أولهم الحاكم بأمر الله، وكان عمره إحدى عشرة سنة. في بداية عصر الحاكم كانت هناك فتنة بين المغاربة والأتراك، وكان الوصي على الحاكِم هو برجوان الصقلي، الذي استقل بأمور الدولة مع كاتبه فهد بن إبراهيم النصراني، ولم يدَع الخليفةَ يتصرف بأي شيء إلا برأيه. سنة ١٠٠٠م قرر الحاكم التخلص من برجوان لينفرد بأمر الدولة فدبر قتله بالقصر،

وتولّى شئون الدولة بنفسه. منذ ذلك التاريخ أصبح الحاكم طاغيةً مطلقاً، لا تصدر قراراته سوى عن هواه ومزاجه الشخصي. كان الحاكم مصاباً بمرضٍ عقليٍّ من الصعب علينا وصفه حيث إن هناك أنواعاً عديدة من الأمراض العقلية. كانت حياة الحاكم لغزاً، وربَّمَا ما كتبه عنه بعض المؤرخين قد يكون به بعضُ أو كثيرٌ مِن الخيال[١].

في تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية في مصر، كانت هناك فترتان في غاية الأهمية والعنف على مسيرة تلك العلاقات. كانت فترة حكم الحاكم هي إحداهما، أما الفترة الثانية فكانت خلال سلطنة الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الملك الناصر محمد بن قلاون في منتصف القرن الرابع عشر. في هاتين الفترتين عانى الأقباط معاناةً لا مثيلَ لها. كان الحاكم بأمرّ الله إنساناً في غاية التعقيد وكان شاذاً وهوائي المزاج. وعندما يملك إنسانٌ بهذه الصفات قوةً لا حدود لها تُتَوَقَع المصائب الكبيرة. انتهت خلافة الحاكم سنة ١٠٢١ م، أي أنه ظَلَّ في الخلافة قرابة ربع قرن. خلال تلك الحقبة حَدَثت أهوالٌ كثيرة بعضها أصبح بمرور الزمن لغرابته مجالاً للفكاهة. أعطانا ابن إياس أمثلةً عَديدةً على ذلك وان كان بها بعض او كثير من المغالاه ؛ منها مثلا منعُ النساء من دخول الحمامات، فمر الحاكِم يوماً بحمّام الذهب الذي كان بمصر، فسمع فيه ضجيج النساء، فأمر أن يُسَدُّ عليهم باب الحمام، فسدوه عليهن من الوقت والساعة وهو واقف عليه فأقمن داخل الحمام حتى متن به. مَنَع الناس من زرع الملوخية والقرع، وعلل ذلك بأن أبي بكر كان يميل إليهما. اطَّلَع يوماً على جَماعةٍ يأكلون الملوخية، فضربهم بالسياط وطاف بهم في القاهرة، ثم ضرب أعناقهم عند باب زويلة. ومن غريب أعمالة أنة أمر الناس أن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها بالليل. كان الحاكم يتعاطى حسبة القاهرة، فيلبس جبة من صوف أبيض، ويركب على حمارٍ أشهب قدر بغل يسمى القمر ويطوف به أسواق مصر والقاهرة، ومعه عبدٌ أسودٌ طويلٌ عريضٌ يمشي في ركابه، يقال له مسعود، فإن وجد أحداً من السوقة غَشَّ في بضاعته أمَرَ الحاكم ذلك العبد مسعود ليفعل به

(١) أيمَن فؤاد سيد. الدولة الفاطمية في مصر. الدار المصرية اللبنانية. سنة ٢٠٠٠. ص ١٦١.

الفاحشة العظمي وهي اللواط، فيعمل به على دكانه والناس ينظرون إليه حتى يفرغ من ذلك، والحاكم واقفٌ على رأسه. وقد صار مسعود هذا مثلاً عند أهلِ مصر إذا مزح بعضهم مع بعض يقولون :"أحضروا له مسعود". كان يبني المدارس ثم يهدمها. أمر بإحراق الكروم حتى لا تُصنَع منها الخمور. منع الناس من بيع السمك الذي لا قشر له (وهو ما يفعله اليهود). أمر بقتل الكلاب. كان يسبُّ الصحابَة وأمر بكتابةِ سَبِّهم على باب كل مسجد. ويتُحفنا ابن إياس بأمثلةِ عَديدة مِن ذلك لا مجال لها هنا[١].

ما حدث للأقباط واليهود خلال زمن الحاكم لم يكن له مثيلٌ من الاضطهاد والإذلال، اضطر بعضٌ من تمسكوا بالمسيحية لترك مصر لبلاد النوبة، وكانت مسيحيةً حتى ذلك الوقت، أو لبِلاد الحبشة، وبعضهم ذهب لبلاد الروم. اضطر آخرون لِترك المسيحية للإسلام. يذكر ساويريس بن المقفع أن عدد من قُتلوا كانوا قرابة ثمانية عشر ألفاً. ولعلي أفرد ما ذكره المقريزي، وهو يُغني عن بعض الشرح[٢]:

قدم اليعاقبة زخربس (زخرياس) ***بطريركاً فأقام ثماني وعشرين سنة منها في البلايا مع الحاكم بأمر الله أبي علي منصور بن عبد العزيز بالله تسع سنين، اعتقله فيها ثلاثة أشهر وأمر به فألقي للسباع هو وسوسنة النوبي فلم تضُرَّه فيما زعم النصارى. ولما مات خلا الكرسي بعده أربعة وسبعين يوماً. وفي بطركيته نزل بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها، وذلك أن كثيراً منهم كان قد تمكن في أعمال الدولة حتى صاروا كالوزراء، وتعاظَموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم، فاشتد بأسهم وتزايد ضررهم ومكايدتهم للمسلمين فأغضب الحاكم بأمر الله ذلك، وكان لا يملك نفسه إذا غَضِب فقبض على عيسى بن نسطورس النصراني، وهو إذ ذاك في رتبةِ تُضاهي رُتَب الوزراء وضربَ عُنقه ثم قبض على فهد بن إبراهيم النصراني كاتب الأستاذ برجوان وضرب عنقه (وكان قد قتل برجوان قبل ذلك) وتشدد على النصارى وألزمهم***

---

(١) ابن إياس. مرجع سابق. ج١. ص ١٩٨ – ٢٠٦.

(٢) الخطط المقريزية. مكتبة الآداب. ج ٤. ص ٣٩٩.

بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في أوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب والتظاهر بما كانت عادتهم فعله في أعيادهم من الاجتماع واللهو وقبض على جميع ما هو محبس على الكنائس والديارات وأدخله في الديوان وكتب إلى أعماله كلها بذلك وأحرق صلباناً كثيرة، ومنع النصارى من شراء العبيد والإماء، وهدم الكنائس التي بخط راشدة ظاهر مدينة مصر وخرَّب كنائس المقس خارج القاهرة وأباح ما فيها للناس فانتهبوا منها ما يجل وصفه وهدم دير القصير وانتهب العامة ما فيه ومنع النصارى من عمل الغطاس على شاطئ النيل بمصر، وأبطل ما كان يعمل فيها من الاجتماع للهو وألزم رجال النصارى بتعليق الصلبان الخشب التي زنة كل صليب منها خمسة أرطال في أعناقهم (كان من أثر ذلك أن ترك خلف الرقبة علامة زَرقاء ومن هنا جاء اسم "عضمة زرقا "كنايةً عن الأقباط ونكايةً فيهم ولإذلالهم. وإن كان يُستخدم أحياناً على سبيل المزاح، كما هي عادة المصريين. نسخر من كل شيء، بل ومن أنفسنا) ***ومنعهم من ركوب الخيل وجعل لهم أن يركبوا البغال والحمير بسروجٍ ولجم غيرِ محلاة بالذهب والفضة؛ بل تكون من جلودٍ سود. وأمر في القاهرة ومصر ألا يُقلَّ أحدٌ من المكارية ذمياً ولا يحمل نوتيٌّ مسلمٌ أحداً من أهل الذمة، وأن تكون ثياب النصارى وعمائمهم شديدة السواد، وركب سروجهم من خشب الجميز، وأن يُعلِّق اليهود في أعناقهم خشباً مدوراً زنة الخشبة خمسة أرطال، وهي ظاهرةٌ فوق ثيابهم. وأخذَ في هدم الكنائس كلها وأباح ما فيها وما هو محتبس عليها للناس نهباً وإقطاعاً فهُدمت بأسرها ونُهب جميع أمتعتها وأقطع احباسها وبنيت في مواضعها المساجـــد وأُذِّنَ للصلاة في كنيسة شنودة بمصر وأحيط بكنيسة المعلقة في قصر الشمع وأكثر الناس من رفع القصص بطلب كنائس أعمال مصر ودياراتها فلم تردِ قصةٌ منها إلا وقد وقع عليها بإجابة رافعُها لما سأل، فأخذوا أمتعة الكنائس والديارات وباعوا بأسواق مصر ما وجدوا من أواني الذهب والفضة وغير ذلك، وتصرفوا في أحباسها ووجد بكنيسة شنودة مالٌ جليلٌ ووُجدَ في المعلقة من المصاغ وثياب الديباج أمرٌ كثيرٌ جداً إلى الغاية، وكتب إلى ولاة الأعمال بتمكين المسلمـين من هدم الكنائس والديارات، فعمَّ الهدمُ فيهَا من سنة ثلاثة وأربعمائة حتى ذكــــر من يوثق به في ذلك أن الذي هدم إلى آخر سنة خمس وأربعمائة بمصر والشام***

(وكان من ضمنها كنيسة القيامة بالقدس وكان لهدم القبر المقدس وقعٌ عميقٌ في الأمم النصرانية، وكان له فيما بعد أثرة في إذكاء الدعوة الصليبية التي شهرتها البابوية لإنقاذ فلسطين والقبر المقدس) ***وأعمالهما من الهيكل التي بناها الروم نيف وثلاثون ألف بيعة ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة، وقبض على أوقافها، وكانت أوقافاً جليلة على مبانٍ عجيبة، وألزم النصارى بأن تكون الصلبان في أعناقهم إذا دخلوا الحمام وألزم اليهود بأن يكون في أعناقهم الأجراس إذا دخلوا الحمام ثم ألزم اليهود والنصارى بخروجهم كلهم من أرض مصر إلى بلاد الروم فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة واستغاثوا ولاذوا بعفو أمير المؤمنين حتى أعفوا من النفي، وفي هذه الحوادث أسلم كثيرٌ من النصارى.***

أعطانا ساويرس بن المقفَّع صورة لا تختلف كثيراً عما ذكره المقريزي، وإن كانت أكثر تفصيلاً[١]. سُجِن البطريرك زخاري وعُذِّب وعندما أُطلِقَ سراحه، ذهب هو وباقي الأساقفةُ لدير أبو مقَّار وتَرَكوا الأقباط بدون قياداتٍ دينية. ويذكر الأب متي المسكين أن أديرة وادي النطرون تكاد تكون الأديرة الوحيدة التي لم تُدمَّر، ويبدو أن ذلك كان إما لبعدها في الصحراء أو لأنها كانت تحت حماية قبيلتي بني قرة وبني كلاب العربيتين، فأمسك الحاكم عن هدمها[٢].

امتدَّ القتلُ ليشمَل الكثيرَ من المسلمين أيضاً وكان من ضمنهم قادة الحاكم المدنيون والعسكريون وقضاته وقاضي قُضاته وامتدّ ذلك حتى للغلمان والكُتَّاب في قصره وتمتد القائمة لتشمل أعداداً هائلةَ وأصبح حتى من يعمل بقصره في حالةِ رعبٍ دائمٍ. ذكر المقريزي الكثير من أفعال الحاكم والتي يصعب تصديقها[٣].

---

(١) ساويريس بن المقفع. تاريخ مصر. عبد العزيز جمال الدين. ج٣. المجلد الأول. ص ٥٥٥.

(٢) متي المسكين. الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار. الشركة المصرية للطباعة والنشر. سنة ١٩٧٢. ص ٤٨٠.

(٣) الخطط. المقريزية. ج٣. ص ٢٢ – ٢٩.

أعتقد أنه لم يوجد في تاريخ الإسلام الطويل أي خليفة جاء بأعمالٍ مثل ما جاء بها الحاكم. وقد قدَّمَ عبد العزيز جمال الدين عرضاً وافياً لأفعال الحاكم[١]. في أواخر أيام الحاكم وقبل اختفائه الغامض (غالباً ما يكون قد قُتِل)، أصدر عفواً عاماً وأطلق حرية الشعائر للأقباط واليهود، ولكن بعد أن أحدث الكثير من الدمار لمشاعر الناس. رد أيضاً للكنائس أوقافَها المسلوبة وسمح للمسيحيين بتجديد الكنائس. كان عصر الحاكم بداية تدهور الأقباط الحقيقي وتناقص عددهم كثيراً ولم يستطيعوا أن يسترجعوا أحوالهم إلى ما كانوا عليه قبل خلافة الحاكم.

كان اضطهادُ الذِّميِّن من أهم ظواهر عصر الحاكم، وكانت بلا ريب سياسةً مُقرَّرَةَ ولم تحمِل في مجموعها طابع التناقُض وكانت انقلاباً جوهرياً في السياسةِ الفَاطِميَّة إزاء اليهود والنصارى ذلك أن الدولة الفاطمية كانت متسامحةً وكان الذميون يستأثِرون بكثيرٍ من السُّلُطات والنفوذ وتولى النصرانيون الوزارة أربع مرَّات خلال خلافة الحاكم، ولكن أسباب تغير تفكير الحاكم غير واضحة تماماً وقد يكون من المخل إرجاعها إلى خلل عقلي بسيط. يقول عبد العزيز جمال الدين إن الأوامر والأحكام المشددة تجاه الذِّميين لم تكن بدعةً في ذاتها، ولم تكن حدثاً جديداً في الخلافة الإسلامية ولم يكن فيها من الجديد سوى روحها ووسائلها الشديدة التي جعلت منها نوعاً من الاتجاه المنظم. فالذميون كانوا يلقون من الوجهة الاجتماعية دائماً نوعاً من المعاملة الخاصة، ومن بعد خلافة عمر فُرِضَت عليهم بعض الأحكام والقيود التي تجعلهم من الوجهة الاجتماعية أدنى من المسلمين حتى لو أسلموا. يُفسِّر جمال الدين اضطهاد الذميين في عصر الحاكم أنه نوعٌ من الغلو الدينيّ، فكان الحاكم يبدي كثيراً من التّعصُّب والغلو، سواء من الناحية الدينية العامة أو الناحية المذهبية الخاصة [٢].

---

(١) عبد العزيز جمال الدين. ج ٣.المجلد الأول ص ٥٥٥ – ٥٨٧) ثم ص ٦٠٠– ٦١١وكذلك ايمن فؤاد سيد. الدولة الفاطمية في مصر. الدار المصرية اللبنانية. الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٠. ص ١٦١–١٨٦.

(٢) عبد العزيز جمال الدين. تاريخ مصر.ج ٣. المجلد الأول. ص ٥٥٦.

هل كان الحاكم إنساناً مجنوناً ؟ لو كان كذلك لتمكَّن البعضُ من خاصته أو أعدائه من قتله قبل أن يستفحِل في أعماله الشاذة، وخصوصاً أنه كان يسير أحياناً كثيرةً بدون حاشية كبيرة أو حرس. وقد سبق وقتل الكثير من الولاة والخلفاء من قبل. سيظل الحاكم لغزاً. وتحتاج شخصية الحاكم لكثير من التحليل من المتخصصين مع العودة لوثائق أصلية، حيث قد يكون هناك بعض المغالاة فيما كتبه البعض بخصوص جنونه. بعض الكُتّاب جعلوا الحاكم أسطورةً في سفك الدماء. كان الحاكم والمعز والعزيز مهتمين برصد النجوم ومعرفة ما ورائها من أحداث، وكان للحاكم مرصدٌ في جبل المقطم. خلال خلافة الحاكم جاء لمصر بعضٌ من دعاة الشيعة من بلاد الفرس، وكان لهم تأثير على الحاكم في سنواته الأخيرة. كان أحدهم محمد بن إسماعيل الدرزي، وكان من القائلين بألوهية الحاكم وقد شرح دعوته وأصول مذهبه، فقربه الحاكِم وارتفعت منزلته عنده. ولكن بعد غياب الحاكم طارد رجال الدين الدرزي وأتباعه فهرب إلى لبنان، وكَوَّن الطائفة الدرزية، والتي مازالت حتى اليوم موجودة في لبنان وفلسطين، وهي طائفة بها الكثير من الغموض ولها وجودٌ سياسيٌ أيضاً[١]. ألا يزيد ذلك من تعقيد شخصية الحاكم وصعوبة فهمها؟!

ومما يزيد لغز الحاكم تعقيداً أنه أنشأ دار الحِكمة سنة ١٠٠٥م. كانت مكتبةً ومكاناً للدراسات الدينية وغير الدينية ونقل إليها الكتب من قصور الفاطميين. فتحت دار الحكمة أبوابها لعامة الناس. وكان بها أعدادٌ هائلة من الكُتب المنسوخة والمجلدة تجليداً فاخراً، فكان بها على سبيل المثال ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري[٢].

كيف أثّر اضطهاد الأقباط خلال خلافة الحاكم على عِلاقة الأقباط والمسلمين؟

لا شك أن الجميع شعروا بالارتياح لاختفائه. كان التأثير على المسلمين مؤقتاً مع اختفاء من تأثروا بالحاكم، اختفى التأثير أو كاد وأصبح ذكرى للتندُّر. أما الأقباط

---

(١) عبد العزيز جمال الدين. ج٣. المجلد الأول. ص٥١٥.

(٢) أيمن فؤاد سيد. الدولة الفاطمية في مصر. الدار المصرية اللبنانية. الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٠. ص ٥٨٥.

فلم تكُن القضية بهذه البساطة، فحتى لو كان الحاكم إنساناً مجنوناً أو متشدداً وليس له علاقة بمبادئ الإسلام فيما يختص بأهل الذِّمَة، إلا أن هناك بعض العوامل التي تركت تأثيراً باقياً لدى بعض الأقباط. منها أن عدداً من الأقباط الذين تحوّلوا للإسلام ليسوا بالعدد البسيط، ولم يكن ذلك عن إيمان بالإسلام، بل للضرورة القصوى. ولم يرتد للمسيحية بعد اختفاء الحاكم إلا القليل منهم. رغم أن هناك فرقاً كبيراً بين مبادئ الإسلام وما فعله الحاكِم مع الأقباط، إلا أن ما فعله العامةُ من تخريبِ وتدميرِ للكنَائِس والأديرة وبعض أعمال النهب والرُعب والقتل التي انتُهِجَت في تلك الفترة ارتبطت في العقل القبطي بالإسلام والمسلمين وبقيت آثار ذلك في العقل الباطن للأقباط. أصبح هناك خوفٌ أو عَدَم ثقةٍ في العلاقات حتى وإن عادت العلاقات في ظاهرها لما كانت عليه قبل ذلك. لقد أصبح الأقباط عرضةً لأهواء الحكام وعواطف العامة. كان من الممكن لذكرى الحاكم وأعماله أن تختفي من الذاكرة القبطية كما اختفت من الذاكرة الإسلامية، إلا أن بعض الأقباط أبقوها حَيّةً في ثقافتهم القبطية جيلاً بعد جيل وساعد على ذلك تكرار بعض أعمال العنف في العقود والقرون التالية ضد الأقباط. وقد أدى ذلك إلى استرجاع الماضي من الذاكرة ليؤكدها. كما بقي أيضاً في ذاكرة بعض المسلمين أن الأقباط أثرياءٌ ويحاولون إذلال المسلمين وإفقارهم. لأن بعض الأقباط من أصحاب المناصب العليا ومحصلي الضرائب- وهم قلة قليلة - اكتنزوا ثروات ضخمة وتفاخروا بما لديهم من الثروة والسلطان. لم تحتفظ الذاكرة بالأحداث كما حَدَثت بل تغيرت كثيراً بفعل الزمان والمكان وبفعل الحوادث التي تلت ذلك، بعضها احتفظ ببعض من الذاكرة بصورة أو أخرى بينما آخرون لم يحتفظوا بأي ذاكرةٍ لتلك الأحداث ونُسِيَت كما نسيها بعض المسلمين. هذا موضوعٌ يحتاج للبحث والدراسة إذا أردنا أن نفهم أسباب تخوُف الأقباط من الإسلام السياسي وكذلك سوء صورة الأقباط لدى بعض المسلمين. وأعتقد أنه إن قُدِّر لمثل هذه الدراسة أن تتم، فيجب أن يكون عملاً أكاديمياً وليس عملاً قبطياً أو عملاً إسلامياً.

يجب ألاّ تؤخَذ حوادث تلك الفترة بمعايير زماننا المعاصر، فقد كانت العصور الوسطى عصورَ تعَصُّبٍ في مناطق كثيرة من العالم، ويُذكِّرنا فهمي هويدي بأن رفض التعايش مع الأديان الأخرى لم يكن مقصوراً على المسلمين وأعطى بعض الأمثلة على ذلك منها مثلا أن شارلمان أمر بذَبح ٤٥٠٠ من الساكسون في يوم واحد لأنهم رفضوا اعتناق المسيحية، وأن الامبراطور ليو الثالث نصَّرَ اليهود بالقوة[١]. ولم يكن الطرد ومصادرة الأملاك غير معروفيْن في ذلك الزمان. حتى في عصورنا الحديثة وفي أوروبا المتقدمة. شاهدنا ما حدث للارمن في القرن الماضي، لليهود خلال الحرب العالمية الثانية وما حدث للفلسطينين وللمسلمين في يوغوسلافيا.

بعد الحاكم جاء ابنه الظاهر سنة ١٠٢١، وكان دون سن الخلافة فأصبحت عمته ست الملك وصيةً عليه إلى أن امتلك أمور الخلافة. عاد بعض الهدوء والسكينة لمصر، أصدر الظاهر قراراً بعدم عبادة الخلفاء الفاطميين!! وأصدر قراراً آخر بأن الدخول في دين الإسلام يجب أن يكون اختيارياً لا تحت تأثير القوة، وسَمَح للأقباط بالاحتفال بأعيادهم. وإن كان الظاهر قد سمح مثلا بالاحتفال بعيد الغِطاس ولكنه نادى بألاَّ يختلِط النصارى مع المسلمين عند الغِطاس[٢].

بعد الخليفة الظاهر جاء المستنصر بالله (١٠٣٥ - ١٠٩٤) وكان عمره سبع سَنوات ليبدأ العصر الثاني للدولة الفاطمية، وبدأت الدولة الفاطمية تتدهور. كان العسكر في ذلك الوقت أغلبهم من الأتراك أو السودانيين وليس بينهم مصريون. وكان الصراع بينهم مسلحاً انتصر فيه الأتراك ونهب المرتزقةُ الأتراك قصرَ الخليفةِ وجرّدوه من ثروته وأصبَح حاله مثيراً للشَّفَقَة. ذهب العَسكَر السودانيون إلى الصعيد، حيث يكثر القبط وعبثهم بمقدّرات أهله، ونهبوا الكنائس والأديرة وقتلوا الرهبان[٣]. خلال تلك الفترة حل بمصر قحطٌ شديد، ولم يفِض النيل لعدة سنوات، فكانت مجاعات هائلة، واضطر الناس أن يأكلوا الجثث وجِيف الحيوانات ثم الكلاب والقطط،

---

(١) فهمي هويدي. مرجع سابق. ص ٦٢.

(٢) ابن إياس. بدائع الزهور في وقائع الدهور. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٢. ج١. ص ٢١٣.

(٣) سلام شافعي محمود سلام. أهل الذّمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي. دار المعارف. سنة ١٩٨٢. ص٢٣.

وبيع اردب القمح بثمانين ديناراً ثم بمائة دينار بعد أن كان الدينار أيام الرخاء يشتري أكثر من اثني عشر أردباً من القمح. مات من الجوع في تلك الفترة ثُلث سكان مصر[1]. عندما ساءت الأمور وعجز الخليفة عن السيطرة على مصر استنجد ببدر الجمالي والي عكا؛ وكان بدر الجمالي أرمنياً اعتَنَق الإسلام فجاء إلى مصر وأنهى عهد الإرهاب وأعاد إليها الهدوء والأمان وأصبح الجمالي الحاكم الفعلي، ولم يبقَ للخليفةِ إلا السيادة الاسمية ليبدأ عهد وزراء أصبحوا هم الملوك، وتشابه في ذلك الخلفاء الفاطميون مع العباسيين. استمر الأقباط في إدارة دواوين الدولة وتدبير أمورها، وبلغ نفوذ القِلّة مِنهم الذروة[2].

بعد بدر الجمالي جاء ابنه الأفضل شاهنشاه واستبدَّ بالخليفةِ والدَّولة لمدة ثمانية عشر عاماً واستمرَّ في سياسة والده تجاه أهل الذّمة واستحوذوا على الكثير من المناصب الحكومية المهمة.

بعد تلك الفترة انحدرت الخلافة الفاطمية إلى بؤرةٍ من المؤامرات والدسائِس فقتل الخليفة الحافظ ابنه حسين حين تآمر عليه. خلال خلافة العادل حاول عزل والي أعمال الصعيد أبو الشُجاع شاور بن مجير السعدي فإذا بالأخير يجمع بعض العسكر ويذهب إلى القاهرة ويقتل الخليفة، ويولي ابنه العاضد الخلافة وهو دون التاسعة. ولكن نافسه في رئاسة الوزارة– وهي في حقيقتها رئاسة الدولة– واستحوذ عليها أبو الأشبال ضرغام، فهرب شاور لدمشق مستنجداً بنورِ الدين محمود ملك الشام في دمشق وتعهد له بثلث خراج مصر وأن يكون واليه في مصر. بينما لجأ الخليفة العاضد أو ضِرغام إلى الاستعانة بالصليبيين "بأموري" ملك الدولة اللاتينية في القدس. أصبحت مصر مطمع كلٍ مِن الفرنجة في القدس وكذلك نور الدين محمود في دمشق. قبل نور الدين طلب شاور وأرسل أسد الدين شيركوه قائد قواد الشام لمصر ومعه ابن اخوه صلاح الدين– وهو الذي سيصبح ذا شأنٍ مُهِم في العالم

---

(١) ابن إياس. بدائع الزهور في وقائع الدهور. الهيئة العامة للكتاب. سنة ١٩٨٢. ج١ ص٢١٦.

(٢) سلام شافعي محمود سلام. أهل الذّمة في مصر. المرجع السابق. ص٢٢.

العربي وفي مصر[1]. وتستمر المناوشات بين الجيش العربي بقيادة أسد الدين شيركوه والفرنجة بقيادة أموري ويميل الخليفة وشاور إلى ناحية الفرنجة رغم غضب المصريين لذلك. ويسيطر الفرنجةُ على القَاهرة، خلال تلك الفترة حاولت قوات الفرنجة أن تسعى إلى التَّفرِقة بين الأقباط والمسلمين وأن يمُيلوا الأقباط إلى جانبهم، إلا أن الأقباط قابلوهم بالإعراض والازورار، وقد جادلهم زكريا بن أبي المليح أحد وجهاء الأقباط وشعرائهم، إذ تصدى لهم يوماً، فلما حاوروه قال لهم:

نحن جميعاً مصريون وهؤلاء إخواننا وبلادهم بلادنا. والدين لا يفرقنا؛ إذ نحترم دينهم ويحترمون ديننا، حتى الدين لا يجمعنا وإياكم، فإن مذهبكم يختلف عن مذهبنا[2].

وينتهي الأمر بعد مناوشات طويلة بانتصار جيش الشام في يناير سنة ١١٥٩م، فتفتَح القاهرةُ له أبوابها مهللةً ومُرَحِّبةً. أصبح أسد الدين الحاكم الفعلي لمصر، واستمرَّت الخلافة الصورية. توفي أسد الدين وخلفه صلاح الدين الكردي الأصل في سنة ١١٦٩ م لتبدأ حقبةٌ جديدةٌ في تاريخنا.

كانت الخِلافة الفاطمية تسير نحو الانهيار التام شأنها شأن الخلافة العباسية، وأصبح الخلفاء طيفاً من الوهم لا يملكون إلا لقب الخلافة أو كما وصفها شاعر[3]:

خليفة في قفص	بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له	كما تقــول الببغا

(١) قدري قلعجي. صلاح الدين الأيوبي. دار الكتاب العربي. سنة ١٩٦٦. ص ١٦٣-١٧١.

(٢) قدري قلعجي. المرحع السابق. ص١٨٢.

(٣) قدري قلعجي. المرجع السابق. ص ١٦١.

انتهت الخلافةُ الفاطميةُ في مصر بعد مائة وخمسٍ وسبعين سنة، حين قرر صلاح الدين في سبتمبر سنة ١١٧١ م أن يدعو للخليفة العباسي المستضئ بالله في كل جوامع مصر، وعادت مصر سُنيَّة، وتوفي آخر الخلفاء الفاطميين خلال نفس الشهر. أقام صلاح الدين مأتماً للعاضدِ آخر الخلفاء الأمويين استمرَّ ثلاثةَ أيام. يدل ذلك على مدي إنسانية صلاحِ الدين، فقد كان في إمكانه أن يقتل الخليفة العاضد، وأن يفعل ما يريد، ولكنهُ آثَر الفضيلة. أخرَج أولاد الخليفة ونساءه من القصر وأسكنهم داراً فسيحةً وأحسن مُعاملَتِهم، وإن كان قد فَصَل بين الرجال والنساء حتّى لا يتناسلوا.

شخصيةُ صلاح الدين تستحقُ وقفةً قصيرة لأسباب واضحة. بعد ان استقرّ الوضع لصلاح الدين لم ينتقل لأحد قصور الفاطميين، وكان هناك الكثير منها، وكانت من أروع آثار الحضارة الإسلامية. بل استقرّ في دار الوزارة على ضآلة شأنها بالنسبة لفخامة القصور. إلا أنه فيما بعد بنى قَلعَة على جَبل المقطم ليجعل مقامه ودواوينه فيها وكان يخشى أن تزحف جيوش السلطان نور الدين من الشام لانتزاع مصر منه أو يحاول بعض انصار الفاطميين اغتياله وكان ذلك زمن المؤامرات والدسائس. اتسع سُلطَان صلاح الدين وامتدّ ليشمل غرب إفريقيا ووصل حتى تونس ثم امتد للحجاز واليمن. حاول أموري الصليبي ملك بيت المقدس غزو مصر بعد أن شجعه بعض الاسماعيليين وأنصار الفاطميين لعودة مصر للشيعة إلا أن صلاح الدين رد الصليبيين وكبَّدَهم خسائر فادحة. حاول نور الدين غـــزو مصر وجهّز حملةً لذلك إلا أنه مات قبل أن يتحرك جيشه لمصر وخلفه ابنه الملك الصالح اسماعيل وعمره أحد عَشر عاماً. ثم مات في نفس الشهر الملك الصليبـــــي أموري وخلفه ابنه وكان مريضاً بالجزام. هكذا هيأت وساعدت الظروف ليصل صلاح الدين إلى القمّة وليلعب دوراً مهماً في تاريخ المنطقة وفي مصير الحــروب الصليبية. بعد وفاة نور الدين تمزّق الشام لنزاع بين الأمــراء فكل منهم يرغب فـــــي السُلطة، فذهب صلاح الدين لتوحيد الشام سنة ١١٧٤ بعد أن طلب أهل الشــام ذلك، وباركه الخليفة العباسي. وهكذا جمع صلاح الدين

شمل العرب ووحَّد كلمتهم أمام الصليبيين وتجنّب إهدار الدماء فاعترف به الخليفة المستَضيء بالله سلطاناً على مصر واليمن وسوريا.

اهتم صلاح الدين بمصر، فأنشأ المدارس والمستشفيات وقوَّى الجسور. قوى الجيش وزَاد من قوة الأسطول. شَهِدت تلك الفترة جواً من الود بين الدولة والكنيسة فسمح ببناء الكنائس وتجديدها ومنحهم المنشورات التي تحفظ حقوقهم. وإن كان استيلاء الصليبيين على القدس قد حرم الأقباط من زيارة المقدسات المسيحية وحرم الاحتفال ببعض الأعياد القبطية، وسبّبت تلك الحروب بعض المتاعب للأقباط من قِبَل العامة.

في أوائل أيام حكم صلاح الدين أمر النصارى بلبسِ الغيار وطبق معظم الشروط العُمَريَّة السابق الإشارة إليها. لم يكن ذلك إلا لأنهم أظهروا ميلاً للفاطميين وتمسكوا بدولتهم واشترك بعضهم في التآمر على صلاح الدين. غير أن صلاح الدين عندما اطمأن إلى النصارى اشتركوا معه في غزواته كُتَّاباً في جيشه، فقرَّبهم وأنعَم عليهم، فعادوا أرفع منزلةً مما كانوا عليه(١). أما كاتِب تاريخ البطاركة فلم يذكر صلاح الدين بأي سوء، فيقول " ***عمل مع الرعية بديار مصر الخير ما يعجز الواصف عن وصفه، وعدل إليهم وأحسن إليهم وأزال مظالم كثيرة*** "(٢). يبدو أن من تآمر على صلاح الدين في أوائل حكمه كان من الأرمن، ولم يكن من الأقباط(٣). عندما فتح صلاح الدين بيت المقدس عام ١١٨٧ م في موقعة حطين رد إلى رجال الكنيسة القبطية كنائسهم وأديرتهم وكل الأماكن التي كان الصليبيون قد سَلَبوها، ويقال إنه منحهم المكان الذي أصبح معروفاً باسم "دير السلطان". وقد عَامَل صلاح الدين البطريرك اللاتيني (الكاثوليكي) معاملةً طيبةً عندما غادر القدس، بل وأطلق سراح ٧٠٠ أسير من الصليبيين إكراماً للبطريرك الراحل(٤).

---

(١) سلام شافعي محمود سلام عن أبو شامة. أهل الذمة في مصرفي العصر الفاطمي الثاني وفي العصر الايوبي. دار المعارف. سنة ١٩٨٢. ص ٢٦١.

(٢) تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع. إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين. مكتبة مدبولي. ج٣. المجلد الثاني. ص ١٤٧٥.

(٣) سلام شافعي محمود سلام. المرجع سابق. ص ٢٦٠.

(٤) سلام شافعي محمود سلام. المرجع سابق. ص٢٣١.

توفي صلاح الدين سنة ١١٩٣ بعد أن حرَّرَ القُدس وحصر الصليبيين في شريطٍ ساحليٍّ ضيق بين يافا وإنطاكيا. مات بعد أن احتل بأخلاقه وشمائله وجهاده وتضحياته المكان الأسمى في قلوب العرب، فكان موضع حبهم ورمز فخارهم واحترام أعدائه. خلفه ابنه الملك الأفضل.

شعر العرب بالمرارة حيال الحروب الصليبية- وعددها سبع حروب- والتي سميت صليبيةً لاستغلال الدين في السياسة. وقد ساعد رجالُ الدين- وخصوصاً باباوات روما على استغلال الدين لمطامعهم ومطامع حلفائهم، بل لقد قاد بعض رجال الدين تلك الحروب. وما أكثر ما يُستَغَل الدين في السياسة. دخل الصليبيون القدس لأول مرة سنة ١٠٩٩ وكانت تحت حكم الفاطميين، وأعملوا في أهلها السيف، وقد استنكر أعمالهَم بعض المؤرخون الأوروبيون، ويقول ابن إياس إنهُم قتلوا جماعةً كثيرةً من أهل القدس، ونهبوا قبة الصخرة وأخذوا منِها أربعين قنديلاً من الذهب والفضة[1]. حولّ الصليبيون مساجد القدس إلى كنائس، خاصةً مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى واستُخدِم جزءٌ من الأخير كمخزن للذخائر، أما السَّراديب فاستُخدِمَت كاسطبل للحيوانات[2]. وكَما شعر العرب بالمرارة شعر بها أيضاً المصريون بأقباطهم ومسلميهم. لقد اتخذ الصليبيون موقفاً عدائياً من الأقباط نتيجة لاختلاف العقيدة وانفصال الكنائس الشرقية عن الكنائس الملكية سنة ٤٥١. ولم ينسَ الأقباط ما فعله بهم البيزنطيون وقد سبق وأشرت إلى ذلك، بالإضافة لأن علاقاتهم بالعالم المسيحي الغربي انقطعت منذ دُخول العرب مصر وشعروا أنهم جزء أصيل من التركيبة المصرية وقد سبق وأشرت إلى ما قاله أحد زعماء الأقباط المعاصرين للحروب الصليبية. وغالباً ما يكون الصليبيون أو أغلبهم على جهلٍ تام بوجود مسيحيي الشرق في قلب العالم الإسلامي. ومن ناحيتهم اعتبروهم كفاراً شأنهم شأن المسلمين. استمر الأوروبيون في محاولاتهم للاستيلاء على القدس حتى عام ١٢٤٤م حين طردهم المماليك المصريون وخرَج الصليبيون لآخر مرة من القدس إلى أن جاء

---

(١) ابن إياس. مرجع سابق.ج١. ص ٢٢٠.

(٢) سلام شافعي محمود سلام. أهل الذمة في مصر. دار المعارف. سنة ١٩٨٢. ص٢٨٦.

الصليبيون الجدد في القرن العشرين وإن كان لها غلاف يهودي هذه المرة.

كانت الحملة الصليبية السابعة موجهة لمصر بعد أن تدارك الاوروبيون أنها مَركَز القوة في المنطقة. احتل لويس التاسع ملك فرنسا دمياط سنة ١٢٤٩ م، وكان بها كثيرٌ من الأقباط. يذكر جاك تاجر تقريراً وضعه الكونت دي شامباني يذكر فيه أنه قَبل دخول الفرنسيين دمياط قام المسلمون بقتل نصارى المدينة، أما النصارى الذين بقوا بالمدينة فقد أعملوا سيوفهم في رقاب المسلمين بعد دخول الفرنجة واعتبروا الفرنسيين إخوتهم[١]. إلا أن سلام شافعي يرى أن تقرير شامباني هو من جانب واحد، وأن المصادر التاريخية إسلاميةً كانت أو قبطيةً لم تؤكّد أياً من هذه المعلومات، فابن إياس والمقريزي لم يذكرا أياً من هذا[٢]. طُرِد الفرنسيون من دمياط سنة ١٢٥٠ وفي نفس الوقت تقريباً أنزل المغول هزيمةً نكراء بالخليفة البغدادي وتقدموا باتّجاه الشام.

---

(١) جاك تاجر. اقباط ومسلمون. ص ١٦٩.

(٢) سلام شافعي محمود سلام. أهل الذمة في مصر. دار المعارف. سنة ١٩٨٢. ص٣٠٥.

دولـــــة المماليـــــك

ضعف مصر وتدهورها. تنافُس المماليك فيما بينهم لمن تكون السيادة. كان متوسط حكم السلطان المملوكي حوالي ثلاث سنوات. شهدت هذة الفترة، والتي امتدت إلى ٢٧٤ سنة تدهور العلاقات بين الأقباط والمسلمين حين دُمِّرَت أغلب كنَائِس مِصر من الإسكندرية وحتى أسوان في وقتٍ واحدٍ وتبع ذلك حرائق مدمرة في القاهرة أشعلها بعض النصاري للانتقام مما حدث لهم. شهدت تلك الفتره تعسف في جمع الضرائب.ساعد رجال الدين المماليك باعطائهم شرعية دينية فاهتم المماليك بهم وبنوا الكثير من الجوامع والمدارس الدينية واهتموا بها. من فضائلهم انهم حاربوا المغول وهزموهم في موقعة عين جالوت. وكذلك اجلوا الصليبين من مصر والشام.

توفي الملك الصالح أيوب – وهو السابع من ملوك بني أيوب – خلال محاولة الفرنسيين احتلال دمياط، إلا أن زوجته شجرة الدُر قد أخفت ذلك إلى حين، وقادت البلد لبرّ الأمان بذكائها وقوة شخصيتها، وتابعت المعارك خطوةً خطوة، وعينت فخر الدين قائداً للجيش ولكن بعد مقتله في إحدى المعارك تولت القيادة بنفسها. لم تعلن وفاة الملك الصالح إلا بعد وصول ابنه توران شاه (طوران شاه) من الشام وتوليه الحكم. وكان ذلك بعد واقعة المنصورة بعشرة أيام وكان آخر الأيوبيين. هكذا قادت شجرة الدر مصر لبر الأمان. وعندما تنكر توران شاه لشجرة الدر دبَّرَت مقتله. اتفق زعماء المماليك وقادة الجيش على أن تكون شجرة الدُر ملكة مصر، وأُخِذَت البيعة لها وكان يخطب لها على المنابر في الجوامع ونقش اسمها على النقود. اعتبرت شجرة الدر أول من رأس دولة المماليك، وكانت أول امرأة تتبوأ العروش في مملكة إسلامية، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً حيث قُتِلت بالقباقيب لجرأتها على تبوؤ الحكم، وهو من أعمال الرجال فقط، وإن كَان قد سبقتها ملكة مصرية قبل ذلك بقرابة ثلاثة آلاف عام وهي الملكة حتشبسوت من الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة. نحن لا نعرف الكثيرَ عن أصل شجرة الدر، إلا انها جاريةً أجنبيةً اشتراها الملك الصالح أيوب ثم تزوجها بعد أن أنجب منها ولدها خليل.

يكاد يجمع المؤرخون على أن القَدَر قَد رَحم مصر إذ وضع مقدراتها في تلك الفترة الدقيقة في يد شجرة الدر[١]. بذلك تنتهي الفترة الأيوبية لتبدأ الفترة المملوكية التركية والتي استمرت حتى أواخر القرن الثامن عشر.

كان الملك الصالح أيوب أول من جلب المماليك الأتراك إلى مِصر وكانوا أصلاً مِن القَبائِل التي تعيش على تخُوم البحر الأسود، وقد أسرَهُم المغول فبيعوا عبيداً ثم ارتَفعوا ليصبحوا سادة مصر الجدد، وإن كانوا بِلا نَسب أو حسب ولكنهم ملكوا السلاح والتدريب العسكري. زاد عددهم كثيرا حتى ضاقت بهم القاهرة وصاروا يشوشون على الناس وينهبون البضائع من الدكاكين فضج الناس فأسكنهم الملك الصالح أيوب في قلعةٍ بناها لهم بالروضة وسماهم المماليك البحرية[٢]. أول حاكم مملوكي- رجل- كان أيبك التركماني الصالحي، ولُقِّبَ بالملك المعز لشرف الدين بعد أن تزَوّج شجرة الدر بعد تنازلها عن الحكم لصالح الرجال. وقد استوزر المعز لشرف الدين القبطي أبي سعد هبة الله بن صاعد الفائزي. ويقول المقريزي إنه أول قِبطي ولي وزارة مصر[٣]. وقد تفنّن هذا الوزير في فرض ضرائب كثيرة سماها "الحقوق السلطانية" إرضاءً لسيده الذي احتاج لأن يزيد دخله بعد تدهور أحوال البلاد خلال الحروب الصليبية وعدم استقرار الأمور. ولكن المعز لشرف الدين لم يستمر في الحكم حيث قتلته شجرة الدر وولي مكانه ابنه الملك المنصور نور الدين، وفي عهده تولى الوزارة الأسعد هبة الله الفائزي، وكان نصرانياً وأسلَم وزاد الضرائب على الناس فغَضِبَ عليه فصُلِبَ على باب القلعة وأُخِذَت جميع أمواله[٤] ويقول المقريزي إن الأسعد هبة الله أخذ الجوالي (الجزية) من النصاري مضاعفة.

كان تاريخ حكم المماليك عامةً من أسوأ فترات التاريخ المصري، فكان أغلَب

---

(١) قدري قلعجي. صلاح الدين الأيوبي. دار الكاتب العربي. سنة ١٩٦٦. ص ٥٣٥. وكذلك ابن إياس. مرجع سابق.ج١. ص ٢٨٦.

(٢) ابن اياس. مرجع سابق ج١. ص ٢٦٩.

(٣) الخطط المقريزية. طبعة مكتبة الآداب. القاهرة. سنة ١٩٩٦. ج٣. ص ٣٨٦.

(٤) ابن إياس. مرجع سابق. ج١. ص٣٠١.

المماليك مهتمين بما يجمعون من مال وما يشترون من ممَاليك حتى يضمنوا بقاءهم في الحكم. وكان العديد منهم لا يعرف العربية أو يعرف القليل منها. كان بعضهم يحكم لبضعة شهور، ثم يُزاح أو يُقتَل ليُستبَدَل بآخر ليس بالضرورة أفضل ممن حلّ محله. كان الأخ يقتل أخاه أحياناً ليحلّ محله في حكم البلاد. كانت فترات مليئة بالدسائس والمؤامرات، وقد عانى الشعب المصري بأجمعه من سوء تلك الفترة. ومع ذلك حافظ بعض الأقباط على وظائف المال والإدارة وضاق بعض الفقهاء من جرّاء ذلك، وألَّبُوا العامة ضد كل الأقباط بدلاً من تأليبهم ضد حكم الظالمين. ولم تكُن محافظة الأقباط على وظائفهم المالية والإدارية بدون مقابل. كان بعض الأقباط في السلطة يقترحون فَرض ضرائب إضافية مرهقة لدافعيها وكان بعضهم يستخدم العنف في تحصيلها إرضاءً لأسيادهم الحُكَّام وهو ما يسميه بعض الباحثين مسئولية أو عدم مسئولية الأقلية[١].

خلال سلطنة المظفر سيف الدين وهو ثالث سلاطين المماليك البحرية حارب المغول وهزمهم في موقعة عين جالوت الشهيرة سنة ١٢٦٠ م، ثم حرر بلاد الشام[٢]. بعد ذلك النصر العظيم وفي طريق عودته بالقرب من الصالحية قتله جماعةٌ من المماليك برئاسة الأمير بيبرس البندقداري[٣] وتولى حكم مصر باسم الظاهر ركن الدين بيبرس العلاي البندقداري الصالحي النجمي، والذي اشتهر باسم الظاهر بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م). يعتبر الظاهر بيبرس المؤسِّس الحقيقي لدولة المماليك البحرية فوحَّدَ البلاد وأعادَ بناء الحصون، وبنى أسطولاً كبيراً واستولى على إنطاكية أغنى مُدن البيزنطيين، وكانت الأخيرة تقترب من نهايتها. شبّه الظاهر بيبرس نفسه بصلاح الدين، وقيل إنه صَلاح الدين الثاني. واستمرّ المماليك في حروبهم ضد الصليبيين في الشام حتى أجلوهم تماماً في أواخرِ القرن الثالث عشر، إلاّ أن المناوشات استمرت

(١) أبو سيف يوسف. الأقباط والقومية العربية. مركز دراسات الوحدة العربية. سنة ١٩٨٧. ص ١٧٦.
(٢) ابن إياس. مرجع سابق. ج١. ص ٣٠٦.
(٣) ابن إياس. المرجع السابق. ج١. ص ٣٠٧.

بعد ذلك. وكان من حُسن حظ المماليك أن وجُود التتار ببغداد وعدم استقرارهم قد حوّل طرق التجارة لمصر، وأصبحت التجارة المصدر الأول لثراء المماليك.كانت التوابل القادمة من الهند في طريقها لأوروبا تكاد تكون أهم عامل تجاري لدولة المماليك. إلا أنهم طمعوا وقرروا احتكار تجارة التوابل، فزادت الأسعار على الأوروبيين، مما دفع البحرية البرتغالية بقيادة فاسكو دي جاما لاكتشاف طريق الرجاء الصالح سنة ٨-١٤٩٧م، فكانت بداية إضعاف دولة الممالك وذبولها[١]. كان نتيجة ازدهار دولة المماليك في أول عهدها أن ازدهر الفن والعمارة والصناعات الزخرفية، ونرى أمثلةً كثيرةً من ذَلِك في جوامع ومدارس تلك الفترة وفي تحسين المخطوطات العربية وفي النحت وتطعيم الأخشاب والأحجار والمعادن. انعكس ذلك التقدم على كثيرٍ من البلاد الكبيرة والمواني.

مات الظاهر بيبرس سنة١٢٦٠ م، وخلفه ابنه السعيد أبي المعالي محمد وكان عمره اثنين وعشرين عاماً، ولكنه خُلِع بعد قرابة عامين وحل محله أخوه العادل سيف الدين وولي السلطنة لمدة خمسة أشهر فقط ثم أُزِيح وحل محله الملك المنصور سيف الدين أبي المعالي قلاوون الألفي الصالحي النجمي وقد كان الأتابكي - أي رئيس العسكر - سنة ١٢٧٩ م. كان هذا هو حال المماليك؛ يستولي على السلطة من رشحته قوته ومواهبه وكثرة ممالكه. كان متوسط مدة حكم سلاطين المماليك البحرية حوالي خمس سنوات. بدأ حكمهم سنة ١٢٣٠ وانتهى سنة ١٣٨٩ وحكم منهم ثلاثون سلطان[٢].

وفيما يختص بالأقباط يذكر ابن إياس خِلال سلطنة الظاهر بيبرس ما يلي[٣]:

---

(١) عبد العزيز جمال الدين.مرجع سابق. ج٣. المجلد الأول. ص٧٣١.

(٢) عبد العزيز جمال الدين. المرجع السابق. ص ٧١٧.

(٣) ابن إياس.مرجع سابق ج ١. ص ٣٢٤.

ومن الحوادث في هذه السنة كثُر الحريق بالقاهرة، وأشيع بين الناس أن هذا من فعل بعض النصارى، فرَسَم السلطان بجمع سائر النصارى من مصر والقاهرة، فلما جُمِعوا أمَر بحرقهم، فجُمِعَت لهم الأحطاب والحَلْفَاء. فعند ذلك طلع الأتابكي (رئيس العسكر) ***فارس أقطاي المستعرب إلى القلعة، واجتمع بالسلطان وشفع فى النصاري، فرسم السلطان بأن يؤدوا إلى الخزائن الشريفة خمسين ألف دينارٍ،وأن يصلحوا ما فسد من الدور التي احترقت، فتخلصوا من الحرق على ذلك الشرط الذي قُرِّر عليهم، انتهي ذلك.***

في ذلك الوقت اضمَحَلَّ الأقباط عدداً ومقدرةً، وإن كَانَت بداية اضمحلالهم الحقيقية مع اضطهاد الحاكم بأمر الله. ***يذكر المقريزي[1] أنه "في سنة اثنين وثمانين وستمائة كانت واقعة النصارى ومن خبرها أن الأمير سنجر الشجاعي كانت حرمته وافرةً أيامَ الملك منصور قلاوون، فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير في أوساطهم ولا يجسُر نصرانيٌّ على أن يحدّث مسلماً وهو راكب وإذا مشي فبذلةٍ، ولا يقدر أحدٌ منهم أن يلبَس ثوباً مثقولاً، فلما مات الملك المنصور وتسلطن من بعده ابنه الملك الأشرف خليل خدم الكتاب النصارى عند الأمراء وقووا أنفسهم على المسلمين وترفعوا في ملابسهم.***

اعتبَر المماليك الأقباط جزءاً من الأمة لهم خدمات هامة تقدمها قلة منهم للحكام فيما يختص بشئون الإدارة والمال. أصبح في إمكان الحكام ابتزاز أموال الأقلية بسهولةٍ دون أن يخشوا قيامهم بأية حركة ثورية فتعاملوا معهم حسب هواهم.

كانت سلطنة المملوك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة سنة١٣٢٠م من أحلك الفترات في تاريخ علاقة الأقباط بالمسلمين وأعَادَت ذِكرى اضطهاد الحاكم للاقباط.هُدِمَت جميع كنائس أرض مصر وديارات النصارى في وقتٍ واحد!!وانتقم بعض النصاري بإشعال الحرائق في الجوامع ودور المسلمين.كانت فترةً حالكة السواد

---

(١) الخطط المقريزية. طبعة دار صادر بيروت. ج٢ ص ٤٩٧.

في تارخ العلاقات بين الأقباط والمسلمين. يذكر المقريزي تفاصيل تلك الحوادث الرهيبة والتي بدأت حين أراد السلطان أن يحفر بركةً بجواركنيسة الزهري، وكان بجانبها كنائس أخرى. امتد الحفر حول الكنيسة، وكان القصد أن تسقط من غير قصدٍ لخرابها. فيقول المقريزي[1]:

طارت العامةُ من غلمان الأمراء العاملين في الحفر وغيرهم في كل وقت يصرخون على الأمراء في طلب هدمها وهم يتغافلون عنهم إلى أن كان يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الآخر من هذة السَنَة (سنة ٧٢٠ هجرياً) وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة والعمل من الحفر بطّال، فتجمّع عدةٌ من غوغاء العامة من غير مرسوم السلطان وقالوا بصوت عالٍ مرتفع (الله أكبر) ووضعوا أيديهم بالمساحي ونحوها في كنيسة الزهري وهدموها حتى بَقِيت كوماً وقَتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان فيها وهدموا كنيسة بومنا التي كانت بالحمراء، وكانت معظمةً عند النصارى من قديم الزمان وبها عدة من النصارى قد انقطعوا فيها ويحمل إليهم نصارى مصر سائر ما يحتاج إليه ويبعث إليها النذور الجليلة والصدقات الكثيرة، فوجد فيها مالاً كثيراً ما بين نقدٍ ومصاغٍ وغيره، وتسلّق العامة إلى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالاً وقماشاً وجِرار خمر فكان أمراً مهولاً ثم مضوا من كنيسة الحمراء بعدما هدموها إلى كنيستين بجوار السبع سَقايات تعرف إحداهما بكنيسة البنات تسكنها بنات النصارى وعدة من الرهبان فكسروا أبواب الكنيستين وسَبَوْا البنات وكنّ زيادةً على ستين بنتاً وأخذوا ما عليهنّ من ثياب، ونهبوا سائر ما ظفروا به وحَرَقوا وهدموا تلك الكنائس كلها، والناس في صلاة الجمعة، فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولاً كبيراً من كثرة الغبار ودخان الحريق، ومَرَج الناس وشدة حركاتهم ومعهم ما نهبوه، فما شبه الناس الحال إلا بيوم القيامة. وانتشر الخبر وطار إلى الرميلة تحت قلعة الجبل. فسمع السلطان ضجةً عظيمةً ورجّةً مُنكرة أفزعته فبعث لكشف الخبر فلما بلغه ما وَقَع انزعج انزعاجاً عظيماً وغَضِبَ من تجرؤ العامة وإقدامهم على ذلك

---

(١) الخطط المقريزية. طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة. ج٤. ص ٤٢٥.

بغير أمره وأمر الأمير أيدغمش أمير خور أن يركب بجماعة الأوشاقية ويتدارك هذا الخلل ويقبض على من فعله فأخذ أيدغمش يتهيأ للركوب وإذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامة ثارت في القاهرة وخرّبت كنيسة بحارة الروم وكنيسةً بحارة زويلة، وجاء الخبر من مدينة مصر أيضاً بأن العامة قامت بمصر في جمع كثير جداً وزحف إلى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فأغلقها النصارى وهم محصورون بها، على أن تؤخذ، فتزايد غضب السلطان وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة ثم تأخر لما راجعه الأمير أيدغمش، ونزل من القلعة في أربعة من الأمراء إلى مصر وركب الأمير بيبرس الحاجب والأمير الماس الحاجب إلى موضع الحفر وركب الأمير طينال إلى القاهرة وكل منهم في عدة وافرة. وقد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامة، بحيث لا يعفوا عن أحد، فقامت القاهرة ومصر على ساق وفرّت النّهابة فلم يظفر الأمراءِ منهم إلا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذي نهبه من الكنائس، ولحق الأمير أيدغمش بمصر وقد ركب الوالي إلى المعلقة قبل وصوله ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب فأخذه الرجم حتى فر منهم ولم يبقَ إلا أن يحرق باب الكنيسة، فجرد أيدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة فوجدوا عالماً لا يقع عليه حصر وخاف من سوء العاقبة فأمسك عن القتل وأمر أصحابه بإرجاف العامة من غير إراقة دمٍ ونادى مناديه من وقف حل دمه. ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا وصار أيدغمش واقفا إلى أن أذّن العصر خوفاً من عودة العامة وألزم والي مصر أن يبيت بأعوانه هناك .... ويستمر المقريزي في وصف ما حدث في منطقة القاهرة حتي يأتي إلى يوم الأحد الثالث من يوم الجمعة الكائن فيه هدم كنائس القاهرة ومصر. ورد الخبر من الأمير بدر الدين بيلبك المحسني والي الاسكندرية بأنه لما كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر بعد صلاة الجمعة وقع في الناس هرجٌ وخَرَجُوا مِن الجَامِع وقد وقع الصّياح هدمت الكنائس. فركب المملوك من فوره فوجد الكنائس قد صارت كوماً وعدتها أربع كنائس وأن بطاقةً وقعت من والي البحيرة بأن كنيستين في دمنهور هُدمتا والناس في صلاة الجمعة من هذا اليوم فكثر التعجب من ذلك إلى أن ورد في يوم الجمعة سادس عشر الخبرُ من مدينة قوص بالصعيد بأن الناس عندما فرغوا من صلاة الجمعة في اليوم التاسع من شهر ربيع الآخر قام رجل من الفقراء

وقال: يا فقراء، اخرجوا إلى هدم الكنائس. فخرج في جمع من الناس، فوجدوا الهدم قد وقع في الكنائس فهُدِمَت ست كنائس كانت بقوص وما حولها في ساعة واحدة، وتواتر الخبر من الوجه القبلي والوجه البحري بكثرة ما هُدِم في هذا اليوم وقت صلاة الجمعة وما بعدها من الكنائس والأديرة في جميع إقليم مصر كله ما بين قوص والإسكندرية ودمياط فاشتد حنق السلطان على العامة خوفاً من فَسَاد الحال وأخذ الأمراء في تسكين غضبه وقالوا هذا الامر ليس من قدرة البشر فعله، ولو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصورة لما قدر عليه وما هذا إلا بأمر الله وبقدره لما علم من كثرة فساد النصارى وزيادة طغيانهم ليكون ما وقع نقمة وعذاب لهم. ....ويستمر المقريزي فيقول: فلم يمضِ سوى شهر من يوم هدم الكنائس حتي وقع الحريق بالقاهرة ومصر في عدّة مواقع وحصل فيه من الشَنَاعة أضعاف ما كان من هدم الكنائس، فوقع الحريق في ربع بخط الشوايين من القاهرة في يوم السبت عاشر جمادى الأولى وسَرَت النار إلى ما حوله واستمرت إلى آخر يوم الأحد فتلف في هذا الحريق شيءٌ كثيرٌ وعندما أطفئ وقع الحريق بحارة الديلم في زقاق العريسة بالقرب من دور كريم الدين ناظر الخاص في خامس عشر جمادى الأولى وكانت ليلةً شديدة الريح فسارت النار في كل ناحيةٍ حتى وصلت إلى بيت كريم الدين، وبلغ ذلك السلطان فانزعج انزعاجاً عظيماً لما كان هناك من الحواصل السلطانية وسيّر طائفةً من الأمراء لإطفائه فجمعوا الناس لإطفائه وتكاثروا عليه وقد عظم الخطب من ليلة الاثنين إلى ليلة الثلاثاء فتزايد الحال في إشعال النار، وعجز الأمراء والناسّ عن إطفائها لكثرة انتشارها في الأماكن وقوة الريح التي قامت بإسقاط النخيل وغرقت المراكب فلم يشك الناس في حريق القاهرة كلها، وصعدوا المآذن وبرز الفقراء وأهل الخير والصلاح وضجوا بالتكبير والدعاء وجاروا وكثُر صراخ الناس وبكاؤهم، وصعد السلطان إلى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح، واستمر الحريق والاستحثاث يرد على الأمراء من السلطان في إطفائه إلى يوم الثلاثاء، فنزل نائب السلطان ومعه جميع الأمراء وسائر السقايين ونزل الأمير بكتمر الساقي فكان يوماً عظيماً لم يرَ الناسُ أعظم منه ولا أشد هولاً ووكل بأبواب القاهرة من يرد السقائين إذا خرجوا من القاهرة لأجل إطفاء النار، فلم يبقَ أحدٌ من سَقّائي الأمراء وسَقّائي

البلد إلا وعمل وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات وأخذ جميع النجارين وسائر البنائين لهدم الدور فهدم في هذه النوبة ما شاء الله من الدور العظيمة والرباع الكبيرة وعمل في هذا الحريق أربعةً وعشرون أميراً ....

ويستمر العمل إلى أن يتنبه الناس لما نزل بهم وظنوا أنه من أفعال النصارى وذلك أن النار كانت تُرى في منابر الجوامع وحيطان المساجد والمدارس فاستعدوا للحريق وتتبعوا الأحوال حتى وجدوا هذا الحريق من نفطٍ قد لُف عليه خرق مبلولة بزيت وقطران. فلما كانت ليلة الجمعة النصف من جمادي قبض على راهبين عندما خرجا من المدرسة الكهارية بعد العشاء الآخرة وقد اشتعلت النار في المدرسة ورائحة الكبريت في أيديهما فحُملا إلى الأمير علم الدين الخازن والي القاهرة، فأعلم السلطان بذلك فأمر بعقوبتهما، فما هو إلا أن نزل من القلعة وإذا بالعامة قد أمسكوا نصرانياً وجد في جامع الظاهر ومعه خرقٌ على هيئة الكعكة في داخلها قطران ونفط وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر وما زال واقفاً إلى أن خَرَج الدخان فمشى يريد الخروج من الجامع وكان قد فَطن به شخص وتأمله من حيث لم يشعر به النصراني فقبض عليه فتكاثر الناس فجروه إلى بيت الوالي وهو بهيئة المسلمين فعوقب عند الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب فاعترف بأن جماعة من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفطٍ وتفريقه مع جماعة من أتباعهم وأنه ممن أعطي ذلك وأمر بوضعه عند منبرِ الجامع، ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعترفا بأنهما من سكان دير البغل وأنهما هما اللذان أحرقا المواضع التي تقدم ذكرها بالقاهرة غيرةً وحنقاً من المسلمين لما كان من هدمٍ للكنائس وأن طائفة النصارى جمعوا وأخرجوا من بينهم مالاً جزيلاً لعمل هذا النفط واتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الإسكندرية فعرفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى فقال: النصارى لهم بطريرك يرجعون إليه ويعرف أحوالهم. فرسم السلطان يطلب البطريرك عند كريم الدين ليتحدث معه في أمر الحريق وما ذكره النصاري من قيامهم في ذلك فجاء في حماية والي القاهرة في الليل خوفاً من العامة، فلما دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم وتحضَّر إليه الثلاثة نصارى من عند الوالي قالوا لكريم الدين بحضرة البطريرك جميع ما اعترفوا به قبل ذلك فبكى البطريرك عندما سمع كلامهم وقال: هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريبهم الكنائس، وانصرف من

عند كريم الدين مبجلاً مكرماً فوجد كريم قد أقام له بغلة على بابه ليركبها وسار فعظم ذلك على الناس وقاموا عليه يداً واحدة، فلولا أن الوالي كان يسايره وإلا هلك وأصبح كريم الدين يريد الركوب إلى القلعة على العادة، فلما خرج إلى الشارع صاحت به العامة: ما يحل لك يا قاضي تحامي للنصاري وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغال. فشق عليه ما سمع وعظمت نكايته واجتمع بالسلطان فأخذ يهوّن أمر النصارى الممسوكين وينكر أنهم سفهاء وجُهّال فرسم السلطان للوالي بتشديد عقوبتهم فنزل وعاقبهم عقوبة مؤلمة فاعترفوا بأن أربعة عشر راهباً بدير البغل قد تحالفوا على إحراق ديار المسلمين كلها وفيهم راهب يصنع النفط وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر، فجعل للقاهرة ثمانية ولمصر ستة، فكبس دير البغل وقبض على من فيه وأحرق من جماعته أربعةً بشارع صليبة جامع بن طولون في يوم الجمعة وقد اجتمع لمشاهدتهم عالمٌ عظيم فضري من حينئذ جمهور الناس علي النصاري وفتكوا بهم فتكاً وصاروا يسلبون ما عليهم من الثياب حتى فحُش الأمر وتجاوزوا فيهم المقدار، فغضب السلطان من ذلك وهمّ أن يوقع بالعامة واتفق أنه ركب من القلعة يريد الميدان الكبير في يوم السبت، فرأى من الناس أمماً عظيمة قد ملأت الطرقات وهم يصيحون: نَصَر الله الإسلام. أنصر دين محمد بن عبد الله. فخرج من ذلك وعندما نزل الميدان أحضر إليه الخازن نصرانيين وقد قَبَضَ عليهما وهما يحرقان الدور، فأمر بحرقهما فأخرجا وعمل لهما حفرة وأحرقا على مرأى من الناس وبينما هم في إحراق النصرانيين إذ بديوان الأمير بكتمر الساقي قد مرّ يريد بيت الأمير بكتمر وكان نصرانياً فعندما، عاينته العامة القوة عن دابته إلى الأرض وجردوه من جميع ما عليه من الثياب وحملوه ليلقوه في النار فصاح بالشهادتين وأظهر الإسلام فأُطلِق واتفق مع هذا مرور كريم الدين وقد لبس التشريف من الميدان فرجمه من هناك رجمـــــاً مُتتابعًا وصاحوا به: كم تحابي للنصارى وتشذ معهم. فلعنوه وسبُّوه فلم يجد بداً من العودة إلى السلطان وهو بالميدان فقد اشتد ضجيج العامة وصياحهم حتى سمعهم السلطان فلما دخل عليه وأعلمه الخبر امتلأ غضباً واستشار الأمراء ....فقال نائب الكرك: كل هذا من أجل الكُتّاب النصارى فإن الناس أبغضوهم والرأي أن السلطان لا يعمل في العامة شيئًا وإنما يعزل النصارى من الديوان. فلم

يعجبه هذا الرأي أيضاً، وقال للأمير الماس الحاجب: امضِ ومعك أربعة من الأمراء وضع السيف في العامة من حين يخرج من باب الميدان إلى أن تصل إلى باب زويلة، واضرب فيهم بالسيف من باب زويلة إلى باب النصر بحيث لا ترفع السيف عن أحدٍ البتة، وقال لوالي القاهرة: اركب إلى باب اللوق وإلى باب البحر، ولا تدع أحداً حتى تقبض عليه وتطلع به إلى القلعة، ومتى لم تحضر الذين رجموا وكيلي- يعني كريم الدين- وإلا وحياة راسي شنقتك عوضاً عنهم، وعين معه عدة من المماليك السلطانية. فخرج الأمراء بعدما تلكأوا في المسير حتى اشتهر الخبر فلم يجدوا أحداً من الناس حتى ولا غلمان الأمراء وحواشيهم. ووقع القول بذلك في القاهرة فقفلت الأسواق جميعها وحل بالناس أمرٌ لم يُسمَع بأشد منه... خاف الناس وعدَّى كثيرٌ من الناس إلى البر الغربي بالجيزة، وخلت الشوارع ....أمسك الأمراء من العامة نحو مائتي رجل فعزل منهم جماعة أمر بشنقهم وجماعة رسم بقطع أيديهم فصاحوا بأجمعهم: يا خوند، ما يحل لك. ما نحن الذين رجمنا، فبكى الأمير بكتمر الساقي ومن حضر من الأمراء رحمةً لهم وما زالوا بالسلطان إلى أن قالوا للوالي: اعزل منهم جماعة وانصب الخشب من باب زويلة إلى تحت القلعة بسوق الخيل، وعلّق هؤلاء بأيديهم، فلما أصبح يوم الأحد علّق الجميع من باب زويلة إلى سوق الخيل، وكان فيهم من له بزّة وهيئة، فمر الأمراء بهم فتوجعوا لهم وبكوا عليهم ولم يفتح أحدٌ من أرباب الحوانيت بالقاهرة ومصر في هذا اليوم حانوتاً ...... ثم كان حريقٌ آخر وقبض على ثلاثة من النصارى وجد معهم فتائل النفط ...... ثم كان حريقٌ آخر وقبض على ثلاثة من النصارى وجد معهم فتائل النفط واعترفوا بأن الحريق منهم ....فلما ركب السلطان إلى الميدان على عادته وجد نحو عشرين ألف نفس من العامة قد صبغوا خرقاً بلونٍ أزرق وعملوا فيها صلباناً بيضاء، وعندما رأوا السلطان صاحوا بصوت عالٍ واحد: لا دين إلا دين الإسلام، نصر الله دين محمد بن عبدالله يا ملك الناصر يا سلطان الإسلام انصرنا على أهل الكفر ولا تنصر النصاري فارتجت الدنيا من هول أصواتهم، وأوقع الله الرُّعبَ في قلب السلطان وقلوب الأمراء، وصار وهو في فكر زائدٍ حتى نزل بالميدان وصراخ العامة لا يبطل، فرأى أن الرأي في استعمال المداراة.وأمر الحاجب أن يخرج وينادي بين يديه:من وجد نصرانياً فله ماله ودمه.

ونادى بذلك. فصاحت العامة وصَرَخت: نصرك الله. وضجوا بالدعاء وكان النصارى يلبسون العمائم البيض، فنودي في القاهرة ومصر: من وجد نصرانياً بعمامةٍ بيضاء حَلّ له ماله ودمه ومن وَجَدَ نصرانيًا راكبًا حل له دمه وماله. وخرج مرسومٌ بلبسِ النَصارى العمامة الزرقاء، وألا يركب فرساً ولا بغلاً. ومن ركب حماراً فليركبه مقلوباً ولا يدخل نصرانيٌّ الحَمَّام إلا وفي عنقه جرسٌ، ولا يتزيا أحدٌ منهم بزي المسلمين، ومَنَعِ الامراء من استخدام النصارى، وأخرجوا من ديوان السلطان وكتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من النصارى وكَثُر إيقاع المسلمين بالنصارى، حتى تركوا البيعة في الطرقات وأسلم منهم جماعة كثيرة وكان اليهود قد سُكِتَ عنهم في هذه المدة، فكان النصراني إذا خرج من منزله يستعير عمامةً صفراء من أحد من اليهود ويلبسها حتى يسلم من العامة .... وعثر على طائفةٍ من النصارى بدير الخندق يعملون النفط لإحراق الأماكن فقبض عليم وسُمِّروا ونودي في الناس بالأمان وأنهم يتفرجون على عاداتهم عند ركوب السلطان إلى الميدان وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالنصارى وزادوا في الخروج عن الحد فاطمأنوا وخرجوا..... وينهي المقريزي هذا الفصل بقوله..خرب من الديارات شيء كثير، وكانت هذه الخطوب الجليلة في مدةٍ يسيرة قلما يقع مثلها في الأزمان المتطاولة، هلك فيها من الأنفس وتلف فيها من الأموال وخرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته ولله عاقبةُ الأمور.

ويذكر المقريزي الكثير من حوادث تلك الفترة والتي منها عدم استخدام الأقباط في الدواوين حتى إن أسلموا، وأن مَن أسلم لا يمكن له معاشرة أهله وأن يلازم المساجد والجوامع لشهود الصلوات الخمس وأن أكثر كنائس الصعيد هُدمَت وبنيت مساجد ودخل كثيرون من الأقباط في الإسلام بحكم الضرورة القصوى(١).

كانت تلك الحقبة في تاريخ علاقة الأقباط بالمسلمين مليئة بالخوف والقلق والغموض. قد تكون أسوأ نتيجة لتلك الفترة فيما يختص بعلاقة الأقباط بالمسلمين أنهم جميعاً أصبحوا يعيشون في خوفٍ دائم، إذ كانوا عُرضَةً لأهواء الحكام وفي حالة

---

(١) الخطط المقريزية. مكتبة الاداب. ج ٤. ص ٤٢٥ وحتى ص ٤٣٣.

الأقباط بالإضافة لأهواء الحاكم تدخلت عواطف العامة في سير الأمور. للأسف فإن بطش الأكثرية بالأقلية جزء من تاريخ الإنسانية، وخصوصاً في الأديان السماوية وبين بعضها البعض. ولكن لا يوجد علاقة بين ما فعلته العامة وبين تعاليم الدين.

كان المماليكُ غير متأصلين في الإسلام، بحكم أن الكثيرين منهم اعتنقوا الإسلام وهم عبيدٌ صغارُ السِّن، لم يهتموا بالإسلام أو باللغة العربية كثيراً إلا بقدر ما يؤثر على سلطتهم، وغالباً ما يتناقض الاهتمام بالسلطة مع الدين. كانت مبايعة قضاة الإسلام الأربعة للسلطان يكسبه شرعيةً أمام العامة وكان رضاء القضاة لا يكلف الكثير، وكان نفس الشيء للخليفة العباسي المقيم بالقاهرة بعد أن دمّر المغول بغداد سنة ١٢٥٨. كان الخليفة صورةً ليس أكثر، بل كان المماليك يسجنون البعض منهم ويعزلونهم ويعينون بدلاً منهم. نتيجة ذلك استمع السلاطين لبعض الفقهاء فيما يختص بتفسيرات الدين وقد ألَّبَ بعضُ هؤلاء الفقهاء سلاطين المماليك والعامة على الأقباط[١].

هناك بعض أمثلة لبعض فقهاء الإسلام المستنيرين الذين كان لهم دورٌ مهمٌ في حماية النصارى إذا تجاوز الحاكم حدود الشرع، فمثلاً خطر للسلطان سليم الأول أن يفرض الإسلام على غير المسلمين، فيتصدي له زنبيلي علي افندي شيخ الإسلام وقال له بلا محاباة: ليس لكَ على النصارى واليهود إلا الجزية، وليس لك أن تزعجهم في أوطانهم، فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الشريف[٢]. ويحدث نفس الشيء في عصر عباس الأول ابن محمد علي. فقد كان هذا الوالي شديد النّقمة على النصارى وأخرج كثيرين منهم من خدمة الدولة وأراد إخراجهم إلى السودان واحتاج لفتوى من الأزهر بجواز ذلك، فرفض الشيخ الباجوري شيخ الأزهر رغبة الوالي قائلاً: إنه إذا كان يعني الذميين الذين هم أهل البلاد وأصحابها فالحمد لله لم يطرأ على ذمة الإسلام طارئ، ولم يستولِ عليها خلل، وهم في ذمته إلى اليوم الآخر[٣].

---

(١) محمد عفيفي. الأقباط في مصر في العصر العثماني. سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥٤. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ٢٥.

(٢) فهمي هويدي. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. سنة ١٩٨٥. ص ٦١.

(٣) طارق البشري. عن ميخائيل شاروبيم. المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية. دار الوحدة سنة ١٩٨٢. ص٤٠.

وهو نفس الوالي الذي نفى رفاعة الطهطاوي للسودان حتي يحرم المصريين من علمه.

كان زمن المماليك زمنَ ضعفٍ في نواحٍ عَديدة وإن كانوا قد شيدوا الكثير من الجوامع والمدارس لإرضاء رجال الدين والرعية. لقد كانوا غرباء عن الإسلام وغرباء عن العربية، من هنا كان اهتمامهم بالمظهر الإسلامي حتى يعطيهم ذلك الشرعية.

إذا رجعنا لحوادث تلك الفترة، نستطيع مما ذكره المقريزي ان نستخلص بعض الملاحظات العامة عن تلك. قد يكون أبرزها ضعف الحاكم والحكومة. وضح ذلك من عدم قدرتها على السيطرة على البلاد وليس أدل على ذلك من أن السلطان الناصر بن قلاوون قد أزيح من السلطنة وعاد إليها ثلاث مرات[1]. كان السبب الأول لغضب السلطان خلال تلك الأحداث هو: كيف تجرّأ العامة على هَدم كنائس القاهرة بدون أمره !! قد يكون اللغز الحقيقي في هذه الفترة هو كيف هُدِمَت أغلب كنائس مصر من الإسكندرية وحتى أسوان في يوم واحد،وهو التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ٧٢٠ هجرياً بعد صلاة الجمعة. وكان ذلك في منتصف القرن الرابع عشر وليس في زمن الإنترنت! هذا لغز من الصعب تصديقه ويحتاج لكثيرٍ من البحث والتنقيب في أوراقنا القديمة. يتضح ايضا من تلك الحوادث ان حياة المصريين عامه لم تكن ذي قيمه للحكام.

قد يكون من الغريب أيضاً أنه لم يلقِ أيُّ كاتبٍ قِبطي معاصر لتلك الفترة -ولا حتى ابن إياس- الضوء على بعض تلك الأحداث. كل ما ذكره تاريخ البطاركة[2] هو مما كتبه المقريزي وسبق ذكره. لقد حاول كاتب تاريخ البطاركة تبرئة الأقباط من إشعال الحرائق بالقاهِرة على أساس أن المسيحية بريئةٌ من استعمال العُنف وأن من فعل ذلك كان بضعة افراد وليس عامة الأقباط. بالإضافة إلى أن رهبان دير

(١) ابن إياس. طبعة دار المعارف. ج١. القسم الأول. سنة ١٩٨٢. ص ٢٤.

(٢) سلسلة تاريخ البطاركة. دير السوريان. الطبعة الثانية. سنة ٢٠٠٠. الحلقة الثانية. ص ٣١.

البغل الذين كانوا وراء الحرائق كانوا من طائفة الملكانيين (ذوو الأصول اليونانية) ولم يكونوا أقباطاً. كان من ظواهر ضعف الكنيسة عدم وجود سجلات عن تلك الفترة. إن بعض المناصب الكنسية في ذلك الزمان كانت تباع، وكانت تسمّى الشرطونية[1]. بالإضافة إلى أن الإتاوات التي فرضها بعض الحكام على رؤساء الكنيسة، قد اضطرت بعض البطاركة لفرض إتاوات على الأساقفة والكهنة، بالإضافة لفساد البعض منهم. كان الحكام أحياناً يتدخلون في تعيين البطاركة*، بل وأحياناً أخرى يعيقون الموافقة على تعيين بطريرك لمدة طويلة. بعد نياحة البطريرك يوحنا السادس عام ١٢٦١م مضي حوالي تسعة عشر عاما قبل ان ينجح البطريك كيرلس الثالث في تولي البطريركية[2]. كل ذلك بالإضافة إلى أن تناقص أعداد الأقباط أدى إلى ضعف الكنيسة وقياداتها وتسجيلاتها. كان بعضٌ من كل ذلك يحدث في العصر المملوكي.

اما ابن إياس فلم يذكر أي شيء مما سبق الإشارة إليه رغم أنه كتب أربعاً وأربعين صفحة عن سلطنة الناصر بن قلاوون الثالثة، رغم أنه أيضاً جاء بعد المقريزي بقرابة قرن من الزمان وأنه قد قرأ ما كتبه المقريزي كما أوضح ذلك في موسوعته "بدائع الزهور". والغريب أن ابن إياس يذكر لنا أنه خلال سلطنة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون الثانية وهو آخر من ولي مُلك مصر من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون وكانوا ثمانية سلاطين، أن السلطان حسن قرّر مصادرة أوقاف الكنائس والأديرة وهي خمسة وعشرون ألف فدانٍ ووزعها على الأمراء، وقرّر أيضاً هدم الأديرة والكنائس الكبيرة[3].

إلا أن ابن إياس ذَكَر أيضاً شيئاً قليل الشبه بأحداث تدمير الكنائس والحرائق خلال حكم الظاهر بيبرس، وإن كان الأخير قد سبق ابن قلاوون بقرابة قرنٍ من الزمان. ولكن من الناحية الأخرى قد أظهر المقريزي اهتماماً

(١) تاريخ البطاركة. مكتبة دير السوريان. الحلقة الأولى. سنة ٢٠٠١. ص ٢٠.

(٢) عبد العزيز جمال الدين. تاريخ مصر ج٤ المجلد الأول. ص ٥.

(٣) ابن إياس. ج ١. القسم الأول ص ٥٦٤.

* تتدخل الحكومة احيانا وحتي الان في اختيار البطريرك، كما تتدخل في اختيار شيخ الازهر. انظر حوار عادل حمودة مع الاب متي المسكين في جريدة الفجر عدد ٥٤ سنة ٢٠٠٦.

خاصاً بالأقباط، وقد خصّص لهم جزءاً مهماً في الخطط المقريزية[١]. وعلى العموم هذه فترةٌ بها كثيرٌ من الغموض وتحتاج للبحث والتنقيب من قِبل المؤرخين.

تدهورت دولة المماليك؛ وكان ذلك نتيجة طبيعية لاهتمامهم بمصالحهم الشخصية دون الرعية، وكانوا دمويين في حروبهم مع بعضهم أو في قهر أي اضطراباتٍ، ويعطينا ابن إياس أمثلةً عديدةً على ذلك؛ منها مثلاً حين خرج قبائل العربان عن الطاعة وأظهروا العصيان ونهبوا الغلال، فخرج إليهم السلطان وهزمهم سنة ٧٥٤ هجرياً "فصار الأمير شيخوا يقطع رأس كل من يراه من الفلاحين، يقول: "دكيك" فمازال يقطع من رؤوس العربان والفلاحين حتى بنى من رؤوسهم عدة مساطب ومآذن على شاطئ بحر النيل كما فعل هولاكو ببغداد". وفي نفس العام نادي السلطان في القاهرة، ألا يُستعان بيهودي ولا نصراني في ديوان، وألا يركبوا مع مكاري مسلم، وأن تكون عمائمهم أقل من عشرة أذرع، وإذا مروا بالمسلمين وهم راكبون ينزلون عن بهائمهم، واشترطوا عليهم أشياءً كثيرة من هذا القبيل[٢].

حكم المماليك مصر ٢٧٤ سنة وانتهت بهزيمة وقتل طومان باي آخر المماليك. انتصر العثمانيون على المماليك ليصبحوا سادة مصر الجدد ويدخل السلطان سليم القاهرة عام ١٥١٧. كان أهم إنجازات المماليك إنقاذ مصر من الخطر المغولي وتطهير مصر والشام من الاحتلال الصليبي. قد يكون أفضل وصف لفترة الحكم المملوكي لمصر هو ما ذكره لنا حسين فوزي فيقول[٣]:

عثرتُ لك على حسبةٍ بَسيطة من صدر الدولة المملوكية في عهد السلطان حسام

---

(١) الخطط المقريزية.مكتبة الاداب. ج٤. ص ٣٧٤ – ٤٣٧.

(٢) ابن إياس. تحقيق محّمد مصطفى. مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٢.ج ١. القسم الأول ص ٥٥١.

(٣) حسين فوزي. سندباد مصري. دار المعارف. الطبعة الثالثة. سنة ١٩٩٠. ص ٢٠٦.

الدين لاجين في أواخر القرن السابع الهجري، وتقول هذه الحسبة بأن الروك الحسامي قسّم مصر إلى أربعة وعشرين قيراطاً، أربعةً للسلطان، وعشرة للأمراء والإطلاقات، وعشرة للجند". ولكن أين نصيب المصري من هذه الحسبة؟ إن المصري يعيش ولو أكل من خشاش الأرض، ويلبس ولو هدمةً زرقاء ويشرب الماء ولو بطينهِ، ولكن لا بد أن يكون للمصري نصيبٌ من خيرات بلاده خارجاً عن الأربعة وعشرين قيراطاً. ويسترسل حسين فوزي ويتساءل بسخرية عن نصيب الشعب المصري من خيرات أرضه فيسأل جدته التي تقول له "إن نصيب المصري هو القيراط الخامس والعشرين ومكانه مملكة السماء". والحسبة التي ذكرها حسين فوزي صالحة وحتي اليوم لو غيرنا بعض الاسماء !!

العصـــر العثمانـــي

حُكِمت مصر في العصر العثماني من منتصف القرن السادس عشر وحتى أواخر القرن الثامن عشر بمزيج من العثمانيين والمماليك. ساد هذة الفترة الجمود والتخلف على الكثير من نواحي الحياة المختلفة. في هذه الفترة انحطّ مستوى العُلماء الفكري ليتدنى إلى مستوى العامة. وضعفت أيضاً في تلك الفترة الكنيسة القبطية، وكانت علاقة الأقباط والمسلمين متوترةً وأدت إلى بعض الاضطرابات. ضعف الاقباط وتدهور احواهم واصبح ٧٠٪ منهم من الفئة الدنيا.

بعد أن هزم السلطان سليم المماليك في منتصف القرن السادس عشر ودانَ لهُ الجميع بدون مقاومةٍ تُذكَر، حتى شَريف مكة أعلن ولاءه له وأرسل له مفاتيحَ الحرمين الشريفين. كانت الدولة العثمانية أكبر امبراطوريةَ إسلاميةٍ شهدها العالم، وقد تركت للعالم آثاراً جليلة في العِلم والأدبِ والفن. بالإضافة إلى استيلاء العثمانيين على الامبراطوريات الإسلامية القديمة، فقد توغّلوا في قلب أوروبا وسببوا لها الرعب. ولكن أوروبا في ذلك الوقت بدأت تسيرُ قُدماً في عصر التنوير. بدأ عصر الصناعة في أوروبا في القرن الثامن عشر، واستُخدِم البخار في تشغيل الآلات وتسيير السفن. كانت هذة نقطة مهمة في التاريخ. قوةٌ تمثلها أوروبا المسيحية تبدأ مسيرة الصعود وقوةٌ تمثّلها تركيا والعالم الإسلامي تبدأ مسيرة الهبوط. لا أعتقد أن الدين كان مسئولاً عن الأولى أو الثانية، ولكنها ظروفٌ أخرى كثيرة ومعقدة استغل أو لعب فيها الدين دوراً ما.

نقل السلطان الخليفة العباسيَ من مصر إلى اسطنبول، ولم تلجأ الدولة العثمانية إلى ادعاء الخلافة إلا في عصور متأخرة عندما ضعف شأن الدولة العثمانية من الناحية العسكرية، فرأت أن تُوطّد سلطانها من الناحية الدينية[1].

أعاد السلطان سليم تنظيم الإدارة ليضمن دوام تبعيتها للعثمانيين، وذلك بتقسيم السلطة إلىَ ثلاثة قوى يقف كل منها للآخر بالمرصاد، حتى لا يستأسر أحدهم

---

(١) أحمد حسين. موسوعة تاريخ مصر. مطبوعات دار الشعب. سنة ١٩٧٢. ج٣. ص ٨١٧.

بالسلطة، القوة الأولى هي مندوب السلطان "الباشا"، الثانية العسكر(الوجاقات). أما القوى الثالثة فهي المماليك وقد أبقي عليهم السلطان ليديروا مصر لحسابه. يشابه ذلك ما فعله الخلفاء الأمويون والعباسيون من تعيين والٍ لشئون الخراج وآخر لشئون الدين وللحكم. خرج السلطان سليم بعد ذلك من مصر محُملاً بما غنمه من مصر والذي احتاج حمله لقرابة ألف جملٍ إلى حدّ اقتلاع الأعمدة الرخامية القديمة ليعاد استخدامها في تركيا، بالإضافة لأنه أخذ معه من مصر العديد من الفنيين والحرفيين الممتازين، هذا خلاف الذهب والفضة من قصور المماليك وأعيان الناس.

خطط السلطان سليم لم تستمر مدة طويلة. كان من نتيجة تلك السياسة المتنافسة التي وضعها السلطان إضعاف مصر. ابتدأت القوى العسكرية التركية تَضعَف وبدأ الروس يناوشونها على الحدود. عادت مصر يتحكم فيها المماليك وعساكرهم وجباة الضرائب. كان أمين الجوالي (الجزية) يورد مبلغاً ثابتاً ويستبقي الفائض لصالحه، وأحياناً يحتفظ بقرابة نصف الإيراد. كان ذلك النظام يسمى نظام الالتزام[1]. نظام الالتزام لم يكن نظاماً جديداً وإن كان قد أوجد طبقةً ذَات مال ونفوذ أكثر مما سبق. كان لأمين الجوالي مندوبون في القرى، وكانوا يتعاملون أيضاً بنظام الالتزام. تأرجح مقدار الجزية من مقدار ثابت على جميع الأقباط إلى نظام آخر يعتمد فيه مقدار الجزية على مَقدِرَة الذِمّي من ثري ومتوسط وفقير. في منتصف القرن الثامن عشر زادت الجزية المحصلة بفرمان من الباب العالي من ٨ ملايين بارة إلى ١١ مليون بارة حصل الباب العالي منها على خمسة ملايين بارة. وحتى لا يترك أي ذمي قادر بدون سداد الجرية كانت التعليمات تمنع الأشخاص القادرين على دفع الجزية من مغادرة بيوتهم خشية فرارهم قبل بدء عملية التحصيل. من يدفع الجزية يحصل على إيصالٍ ويُطالَب بإبرازه إذا طُلِب منه. كان الجُباةُ (الملتزِمون) بعد أسيادهم الحكام، هم من طبقة الأثرياء الحقيقيين، ولم تكن هناك وسيلة تقف في طريقهم في ذلك الوقت.

---

(١) عبد العزيز جمال الدين. تاريخ مصر. ج٤. المجلد الثاني. ص ١٠٩٤. وكذلك محمد عفيفي. الأقباط في العصر العثماني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ٣٧.

كان الملتزمون يخفون أعداداً كبيرةً من الذميين في النواحي التابعة لهم لكي يستمروا هم في جمع ضريبة الجزية. حاول العثمانيون ضبط نظام تحصيل الجزية من أجل أن يحصل السلطان لنفسة على عائد من الجزية، ولكن ذلك لم يتحقق إلا بزيادة مقدار الجزية على كل فرد. ليس هذا فقط، بل إنهم أضافوا رسوم تحصيل الجزية على أهل الذمة لتزيد على كاهل الأقباط.

كانت تصاحب عملية الجباية الكثير من من العنف والقسوة،كان بعض الأقباط الفقراء يضطرون للهروب إلى الجبال. وقد ذاق فقراءُ الأقباط مرارةً ومَهَانةً كانت تصل إلى حدّ الحبس لغير القادرين على الدّفع وحجز أولادهم للخدمة في البيوت. كان بعض أغنياء الأقباط يشترون الفقراء من حبس الجوالي وكان بعضهم يخصصون الأوقاف لسداد المقرر على الأقباط المحبوسين غير القادرين على الدفع، وسُمِّيَ ذلك وقف حبس الجوالي[١].

لم تكن الجزية فقط هي التي عانى منها الأقباط مادياً، بل كان يُفرَض عليهم أيضاً ضرائب أخرى حسب أهوَاء وظروف الحاكم. عندما حاول السلطان سليمان القانوني فتح بلاد اليمن سنة ١٥٦٦ أصدَرَ أوامره بجمع المبالغ المطلوبة لتلك الحملة من أقباط مصر، وفرض على جميع التجار الإفرنج واليهود ومن جملتهم قبط مصر مبلغ ألفي دينار[٢]. وكان أحياناً يفرض على البطاركة رسوماً معينة مقابل اعتراف الدولة بهم. وإن كانت هذة المغارم تُفرَض على عامةِ الشّعب، إلا أن نصيب أهل الذمة كان أكبر، حيث إنها زادت من أعباء أهل الذمة المادي.

لم يكن الأقباط في ذلك الزمان هم أثرياء مصر كما تصور البعض، ففي عام ١٧٣٧ أحصي ١٢٠٠٠٠ من دافعي الجزية من أهل الذمّة فكان ١٢٠٠٠ من الفئة

(١) عبد العزيز جمال الدين. تاريخ مصر. سنة ٢٠٠٦. ج٤ المجلد الثاني. ص ١٠٩٨. وكذلك محمد عفيفي الأقباط في العصر العثماني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ٣٩.

(٢) محمد عفيفي الأقباط في العصر العثماني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ١٩٩.

العليا (الأغنياء) ٢٤٠٠٠ من الفئة الوسطي و ٨٤٠٠٠ من الفئة الدنيا[١]. كانت الأغلبية العظمي من الذميين أقباط. هذه الأرقام تدل على أن ٧٠٪ منالأقباط كانوا من الفئة الدنيا والشريحة العليا تمثل ١٠ ٪ فقط، و٢٠٪ من الفئة الوسطي. وغالباً ما تكون الشريحة العليا من محصلي الضرائب ومن يعملون كإداريين في خدمة الأمراء. سعت السلطات العثمانية إلى تجريد الأقباط من أي تراكمٍ لأموالهم حتى لا تكون لهم مدخرات خاصة بهم تساندهم اقتصادياً، وتسمح لهم بقدرٍ ولو ضئيلٍ من الحرية[٢]. هذا بالإضافة إلى لبس الغيار الذي كان يفرض أحياناً، كان بعض الفقهاء والحكام يتفننون في طرق الإذلال على الرُغم من أن لبس الغيار لم تكُن لهُ أصولٌ في أيام الإسلام الأولى كما سبق وأشرت. والمقصود بلبس الغيار أن يخالف لبس أهل الذمة لبس المسلمين. كان اللون الأزرق في الغالب للمسيحيين والأصفر لليهود، وإن كانت الألوان تتغير حسب أهواء المتحكمين في الأمر، وكان الاهم ألاّ تشابه ملابس علماء المسلمين. وكان التمييز أحياناً يمتد إلى ركوب الدواب ومنع أهل الذمة من ركوب الخيل، ويمتد ذلك أيضاً إلى دخول الحمامات العامة. كل ذلك لإشعار القبطي أنه دون المسلم ولإعلاء شأن المسلم والإسلام، وكأن الإسلام في حاجة إلى ذلك!! [٣]. وكان لبس الغيار يفرض على أهل الذمة أحياناً حتى يحصل الحكام على رشاوى لإلغاء العمل بلبس الغيار.

كان ذهاب الأقباط للقدس أحياناً مشوباً بصعوبات، فقد منعهم الصليبيون من دخول بيت المقدس، إما لمخالفتهم في العقيدة أو لوقوفهم مع المسلمين عندما غزا الصليبيون مصر، وسبق أن أشرت إلى ذلك. ولكن أحياناً كانت الصعوبة تأتي من بعض الحكام أو الفقهاء. يحكي لنا الجبرتي[٤] أنه:

في حوالي سنة ١١١٧ هجرية أن نصارى الأقباط قصدوا الحج إلى بيت المقدس،

(١) عبد العزيز جمال الدين. ج٤. المجلد الثاني. ص ١٠٨٩.

(٢) عبد العزيز جمال الدين. ج٤. المجلد الثاني. ص ١١٠٧.

(٣) محمد عفيفي. الأقباط في مصر في العصر العثماني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ٥٢.

(٤) تاريخ الجبرتي. طبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة. ج ١. ص ٢٤٦.

فكلم نوروز – وهو كاتب رضوان كتخدا – الشيخ عبد الله الشبراوي في ذلك، وقدّم له هديةً وألف دينارٍ فكتب له فتوى وجواباً ملخصه أن أهل الذمة لا يمنعون من دياناتهم وزياراتهم. فلما تم لهم ما أرادوا شرعوا في قضاء أشغالهم وتشهيل أغراضهم وخرجوا في هيئة وأبهة وأحمال ومواهي وتختروانات فيها نساؤهم وأولادهم ومعهم طبول وزمور ونصبوا لهم عرضياً عند قبة العزب وأحضروا العربان ليسيروا في خفارتهم، وأعطوهم أموالاً وخلعاً وكساوي وإنعامات، وشاعَ أمر هذه القضية في البلد، واستنكرها الناس، فحضر الشيخ العبد الله الشبراوي إلى بيت الشيخ البكري كعادته وكان علي أفندي أخو سيدي بكري متمرضاً فدخل إليه بمودةٍ فقال له: أي شيء هذا الحال يا شيخ الإسلام –علي سبيل التبكيت– كيف ترضى وتفتي النصارى وتأذن لهم بهذه الأفعال لأنهم رشوك بألف دينار وهدية؟ وعلى هذا تصير لهم سنة ويخرجون في العام القابل بأزيد من ذلك ويصنعون لهم محملاً ويقال حج النصارى وحج المسلمين! وتصير سُنّة عليك وزرها إلى يوم القيامة. فقام الشيخ وخرج من عنده مغتاظاً وأذّن للعامة في الخروج عليهم (يعني الأقباط) ***ونهب ما معهم وخرج كذلك معهم طائفةٌ من مجاوري الأزهر، فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصي والمساوق ونهبوا ما معهم وجرّسُوهم ونهبوا أيضاً الكنيسة القريبة من دمرداش، وانعكس النصارى في هذه الحادثة عكسية بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه في الهباء.***

لم تستمر سيطرة العثمانيين فترةً طويلةً حيث مع بداية ضعف الدولة العثمانية عاد الأمر للمماليك وعادوا لحروبهم مع بعضهم بعضاً، خصوصاً في غياب أحد المماليك الأقوياء من أمثال علي بك الكبير وكان هؤلاء قلة. رغم أن علي بك الكبير وهو أقوى المماليك في العصر العثماني، وتمكّن من الوصول إلى مشيخة البلد، إلاّ أن أعداءه ومنافسوه اضطروه للفرار من مصر مرتين، فأقام في الحجاز تارةً وفي فلسطين تارةً أخرى. كان من نتيجة ضعف القيادة أن عاد المماليك إلى النّهب. ويعطينا الجبرتي الكثير من تفاصيل تلك الفترة، والتي عانى منها كافة المصريين(١).

(١) تاريخ الجبرتي. طبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة. ج٢. ص ١٥٨–١٧٧.

فمثلاً في شهر رمضان سنة ١٢٠٠ هجرياً (١٧٨٦م) خلال عصر ابراهيم بك ومراد بك وكانوا على رأس السُلطة، يخاطب الباشا (مندوب السلطان التركي) إبراهيم بك فيقول له "لقد أرسلتم تقولون إنكم تبتُم ورجعتم عن الأعمال المتقدمة ثم أرسلتم أمراء منكم ينهبون البلاد ويطالبون الكلف الزائدة ....وكان لاجين بك ومصطفى بك بعد التوبة بيومين فعلوا أفاعيلهم بالبلاد وطلبوا هذه الكلف فضجت أهالي البلاد وذهبوا إلى عرضي حسن باشا العثماني، وشكوا ما نزل بهم، فأخذ بخواطرهم وكتب لهم فرماناً برفع الخراج عنهم سنتين ". كان المماليك يطوفون بالمدن والقرى يطالبون الأهالي بالأموال مضافاً إليها ضريبة جديدة سميت "حق الطريق". فإن تأخر الأهالي في آداء ما قُرّر عليهم كان مصيرهم الخراب والدمار. كان المماليك يطالبون بالمال، وكان السلطان أيضاً يطالب بالمال، ومرت فترات لا يعترف أحدهما بالآخر. فكل من معه عسكر يُحَصّل ضرائب، فحُصّلَت الضرائب من البعض مضاعفةً. يستمر الجبرتي في وصف الكثير من الشدائد التي عانى منها الناس وليس لديهم أي قوةٍ أو قيادةٍ تمُثِّلهُم وتنصرهم. كلما اشتدت الأزمة الاقتصادية لجأ العامة إلى مظاهرات الاحتجاج، فأُغلِقَت المحلات، وخرجت مظاهرات مختلفة الحجم تجتاح شوارع القاهرة ست مرات، ما بين سنة ١٦٧٨ وسنة ١٧٣٣[1].

يقول الجبرتي عن بعض ما حصل للأقباط في تلك الفترة [2]:

أمر الباشا بإحصاء بيوت النصارى ودُورهم وما هو في مُلكهم وأن يكتب جميع ذلك في قوائم ويقرر عليها أجرةَ مثلِها في العام، وأن يكشف في السِّجل عما هو جارٍ في أملاكهم، ثم قرر عليهم أيضاً خمسمائة كيسٍ فوزعوها على أفرادهم، فحَصَل لفقرائهم الضرر الزائد، وقيل إنهم حبسوا لهم الجواري المأخوذة منهم من أصل ذلك على كل رأس أربعون ريالاً. وقرَّر أيضا على كُلِّ شخصٍ ديناراً جزيَةَ العال كالدون، وذلك خارج عن الجزية الديوانية المقررة.

---

(١) نلي حنا.ثقافة الطبقة الوسطى في العصر العثماني. ترجمة رؤوف عباس. سنة ٢٠٠٤. ص ٢٢٠.
(٢) الجبرتي. ج ١. مرجع سابق. ص ١٧٥.

كان بناء الكنائس مشكلةً مزمنةً للأقباط، وما كان العصر العثماني ليختلف عن ذلك. الشروط التي وضعها بعض فقهاءُ المسلمين وألزموا أهل الذِّمّة بوجوب اتباعها " أنه لا يجوز أن يحدثوا بيعةً ولا كنيسةً ولا صومعةً ولا بيتَ نارٍ في دَارِ الإسلام، ويُعاد المنهدم منها من غير زيادةٍ على البناء الأول، ولا يعدل عن النقص الأول إن كفى"[1]. كان من الصعوبة تلبية تلك الشروط، وكان الأقباط يتحايلون على ذلك بطرقٍ أو بأخرى، منها رشوةُ بَعض الحكام أو استغلال نفوذ بعض كبار القبط. ويذكر لنا الجَبرتي في المصدر السابق أنهُ في سنة ١٧٠١ إبان ولاية أحمد قرة محمد باشا أن الأقباط أحدثوا بنياناً جديداً في كنائِسها، وقد ثبت ذلك عليهم وكان المفروض أن يُهدَم البناء الجديد، إلا أن بعض المماليك تدخّلوا وتشفَّعُوا لدى البَاشَا فقبِل التشفع بعد أن فرض على الأقباط غرامةً ماليةً كبيرةً، فطاف البطريرك يؤنس السادس عشر بحارات النصارى ودخل البيوت وجمع ما تيسر إلى أن تمّ الحصول على الغرامة المفروضة. ويذكر نفس المصدر أنه كانت هناك بعض الشكاوى الكيدية والتي ثبُتَ كذبها بعد أن تحرّاها الحكام[2].

كان من العادات المتبعة خلال الاحتلال العثماني أن يجري كشف دوري كل عام على دور عبادة أهل الذمّة الكائنة في الديارات المصرية بناءً على فَرَمَان يصدره السلطان العثماني[3]. بينما كان الأقباط يعانون من صعوبة المحافظة على كنائسهم ويعتمدون على إمكانياتهم الذاتية، كان حال المسيحيين من غير الأقباط يختلف عن ذلك فكانوا يتمتعون بالحِمايةِ الأجنبية بحكم الامتيازات التي مُنِحَت لهم لاشتغالهم بالتجارة، فكان هناك حارة للنصارى، وحارة للروم، وأخرى لليهود[4]. كانت تلك الحماية الأجنبية لطوائف المسيحيين ذات الأصول الأجنبية معياراً لزيادة

(١) عبد العزيز جمال الدين. ج٤. المجلد الثاني. ص١١١٢.
(٢) محمد عفيفي. الأقباط في مصر في العصر العثماني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ٢٠٨.
(٣) عبد العرير جمال الدين. ج٤. المجلد الثاني. ص١١١٦.
(٤) أنطونيوس الأنطوني. وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها. دار الطباعة القومية بالفجالة. سنة ١٩٦٦. ص ٣١٦.

القوى الأوروبية في مصر. شهدت تلك الفتره بداية حملات التبشير والتي عادة ما تسبق الاحتلال.

خلال أواخر الحكم العثماني بدأت تظهر طبقةٌ وسطى كان أغلبها من خريجي الأزهر والذين لم تساعدهم الظروف ليكونوا من طبقة العُلمَاء وكتب بعضهم كتباً قرأها بعض العامة[1]. ***أما العلماء في ذلك الوقت فقد كانوا قرب قمة المجتمع، لأنهم أعطوا شرعيةً دينيةً للحُكّام الأجانب فقد ذكر الشيخ الدمنهوري مثلاً أن الدولة العثمانية أقرب ما تكون إلى الخلافة الراشدة من حيث تمسكها بالشريعة ورعايتها للعلماء***[2]. وقد كافأتهم الطبقة الحاكمة مادياً واجتماعياً؛ فمثلاً الشيخ محمد أبو الأنوار بنى قصره على بِركة الفيل، وأضاف إليه مسجداً له مِنبر كامل لتقام فيه صلاة الجمعة حتى لا يضطر لأدائها بالمسجد الجامع ويذكر علي بركات[3]. أن بعض العلماء تكالبوا على الدنيا، فيذكر :

أن الشيخ عبد الله الشرقاوي اتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها. وأن الشيخ محمد المهدي زادت ثروته ورغبته وسعيه في أسباب تحصيل الدنيا ......وهكذا ....فإن بعض العلماء كانت لهم أنشطة اقتصادية متنوعة مثل نِظارة الأوقاف وحيازة الالتزامات والعمل بالتجارة، وهي أنشطةٌ شغلتهم عن متابعة العلم والبحث، مما جعل الجبرتي يطلق عليهم لقب "مشايخ الوقت". يذكر الجبرتي أن "الشيخ محمد شنن المالكي كان أغنى أهل زمانه بين أقرانه، فكان ملياً متمولاً، وعندما مات جعل الشيخ محمد الجداوي وصياً على ولده سيدي موسى، فلما بَلَغ رشده سلمه ماله، فكان من صنف الذهب البندقي أربعون ألفاً، خلاف الجنزرلي والطرلي وأنواع الفضة والأملاك والضياع والوظائف والجماكي والرزق والأطيان وغير ذلك "[4]. ويورد

---

(١) نلي حنا. ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية. ترجمة رؤوف عباس. سنة ٢٠٠٤. ص ٢٢٤.

(٢) نلي حنا. المرجع السابق ص ٢١٦.

(٣) علي بركات.رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٧. ص ٤٩. وكذلك نلي حنا. المرجع السابق ص ٢١٨.

(٤) الجبرتي. طبعة الأنوار المحمدية. القاهرة. ج ١. ص ٩٧.

لنا الجبرتي أيضاً أن بعض العلماء كانوا ضعفاءً في علمهم، وكانوا أشبه بالمرتزقة؛ مما عرَّضَهُم لنقد الطبقة المثقفة من داخل الأزهر. فيقول الشيخ حسن البدري الحجازي الأزهري(١):

الجامع الأزهر ابتـــــلاه	رب له العزِ والوجود
بكل فظ قحف وطـــرف	عليك بالبشر لا يجود
قطعة صخر ألبس فيــه	الثقل واليبس والجمود
عمائماً كبروا وكمـــــــا	قد وسعوه لكي يسود
وتحت آباطهم روايـــــا	تسعين كراسا أو تزيد
بها يميلون حيث مالـــوا	لأجل مالٍ لهم تصيد

وتستمرُ القصيدة الطويلة على نفس المنوال ناقدةً بعض رجال الدين الذين لن تستفيد منهم شيئاً لدنياك او آخرتك. كانت تصرفات بعض العلماء المرموقين مظهراً من مظاهرأزمة الحياة الفكرية في ذلك الوقت، والتي تعرض لها الجبرتي بشجاعة وأمانة. وقد أدى ذلك فيما بعد إلى ظُهور طبقةٍ جديدة ذات رؤية مختلفة نظرت داخل وخارج مصر وأنجَبَت أشخاصاً من داخل الأزهر مثل الشيوخ العطار، الطهطاوي ، ومحمد عبده وغيرهم. وربما كان الجبرتي أكثر مثقفي عصره من جهة الموضوعية والدقة. فكان ناقداً لأحوال الأزهر وللفرنسيين مع توضيح مزاياهم، ثم نقده لمحمد عَلي بعد ذلك لاستبداده، النَقد الذي جر عليه الكثيرَ من المتاعب(٢).

لم تكُن الطبقة الوسطى قاصرةً على خريجي الأزهر،بل كان للأقباط نصيبٌ من ذلك وإن لم تكُن لديهم مؤسسة عريقة كالأزهر، فكان لديهم كتابٌ يشابه كتاب المسلمين وإن اهتموا بدراسة الحساب، وكان الأقباط أحياناً يدرسون في الأزهر، وربمـــا

---

(١) الجبرتي. طبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة. ج١ ص١٠٧.

(٢) علي بركات. رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية. سلسلة تاريخ المصريين ٨. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٧ ص ١١٧.

كان الأهم هو التعليم أباً عن جد خصوصاً في علوم الإدارة وشئون المال. كانت الطبقة المرتبطة بجُباة الضرائب والمباشرين قليلٌ منهم من الشريحة العليا وأغلبهم من الطبقة المتوسطة. وقد تبدو ثقافة تلك الطبقة في أن بعض الأقباط في ذلك الوقت كانوا قادرين على تقديم الشكاوى وأن ينالوا بعض من حقوقهم، ولن يتأتى ذلك إلا من طبقةٍ على قدر من الثقافة والدراية بالقوانين. فمثلاً اشتكى بعض النصارى بالمنصورة من أنهم بسددون مال الميري وأنهم يتعرضوا للأذى من جماعة زاويةٍ مجاورة. صدرت فتوى شرعية بعدم التعرض لهم[1]. ويذكر محمد عفيفي في المصدر الأخير أمثلةً أخرى من ذلك القبيل ومن واقع وثائق تلك الفترة.

هذه الطبقة الوسطي والتي نبتت في الأزهرلم تلبث بعد سنواتٍ قليلة أن أصبحت مركزالمقاومة المصرية وطلائع الحركة التحررية المصرية على المستويين السياسي والاجتماعي. وقد حمل بعض مشايخ الأزهر اللواء بعد ذلك في مقاومة الاحتلال الفرنسي، ثم غدوا المعقل الاكبر لمقاومة استبداد محمد علي. كان من نتاج تلك الحركة الجبرتي مؤرخ تلك الفترة وعمر مكرم نقيب الأشراف، القائد الذي لعب دوراً مهماً فيما بعد في تولية محمد علي.

لقد عانى المسلمون والأقباط خلال الحكم العثماني/ المملوكي من سوء المعاملة ومن إرهاقهم بالضرائب. خلال ولاية حسن باشا الجرائرلي (١٧٨٦-١٧٨٧، أي قبل الحملة الفرنسية ببضع سنوات) وحربه مع كل من إبراهيم بك ومراد بك قادة المماليك، في ذلك الوقت كانت هناك بعض الفتن الطائفية. لقد عَصَرَ هؤلاء الحكام الشعب المصري اقتصادياً خلال تلك الحرب. لذلك لجأ العامة إلى التنفيس عن أنفسهم باضطهاد الأقباط، سواء لأسباب مالية لمواجهة المعاناة الاقتصادية التي تطحنهم أو لأسباب معنوية لإيهام أنفسهم بأنهم في مكانةٍ أعلى من الأقباط، فالمضطهد الذي لا يملك سبيلاً لدفع الأذى عن نفسه يسقطه على غيره. وواضح أن الإدارة التي تبطش

---

(١) عبد العزيز جمال الدين. ج٤. المجلد الثاني. ص ١١١٦. وكذلك محمد عفيفي. الأقباط في مصر في العصر العثماني.الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ٢٠٤.

بالجميع قد أعطت الضوء الأخضر لحوادث العامة ضد الأقباط. ويقول محمد عفيفي إن حوادث الفتنة الطائفية لا تقوم إلا في ظل إدارة ضعيفة أو معاناة اقتصادية مصحوبة بمظالم من الإدارة تنعكس آثارها على الرعية[1]. لم يكن ذلك صحيحاً في تلك الفترة فقط، بل كان صحيحاً على طوال التاريخ وبدون تحديد من تكون الأقلية ومن تكون الأكثرية. ولأن الحكام مماليكَ كانوا أم أتراكاً أجانب عن المصريين، فأحياناً استغلوا سياسة فَرِق تَسُد بين الأقباط والمسلمين. ويذكر لنا محمد عفيفي عن الجبرتي مثالين متناقضين نتبين منهما تضارب موقف الإدارة خلال تلك الفترة. فيحدثنا أولاً عن اعتراض الأمراء على أحد العلماء المسلمين لأنه يمر في الطريق مردداً الإهانات للنصارى. أما المثال الثاني فعندما ضرب أحد كبار العلماء مباشراً قبطياً، وعندما ذهب المباشر ليشتكي للأمير الذي يعمل لديه كان رد الأمير "ماذا أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا؟" [2].

ماذا كان موقف الأقباط من تلك الفتنة الطائفية؟ يقول محمد عفيفي: إن موقف الأقباط لم يكن مختلفاً عن موقف بعض المسلمين. إن مجريات الأمور دفعت الأقباط نحو المزيد من الإحساس بالانتماء الديني وبغربتهم عن المحيط البشري الذي أصبحوا يعيشون فيه. لتلك الخلفية لا يؤيد محمد عفيفي الرأي القائِل بوقوف الأقباط إلى جانب المسلمين لمواجهة الحملة الفرنسية على مصر، فقد أصبح المفهوم الإسلامي للجهاد ضد الكفار هو الإطار العملي لموقف المسلمين من الحملة الفرنسية، ولا يسمح هذا الإطار بضم المخالفين في العقيدة. وقد دفعت الفترة القلقة السابقة على الحملة الفرنسية الأقباط إلى انتظار ما يأتي به القادم الجديد وهم الفرنسيون[3]. قبل دخول الفرنسيين مصر بقرابة عشر سنوات رحل عن مصر حسن باشا الجرائرلي.كان نصيب السلطان من مال الجزية فقط حوالي١٥مليون بارة

---

(١) محمد عفيفي. الأقباط في مصر في العصر العثماني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص٩٧.

(٢) محمد عفيفي. الاقباط في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٢ ص٩٣.

(٣) محمد عفيفي. المرجع السابق. ص١٠٠.

سنة ١٧٣٤، ثم قلت إلى ١،٥ مليون بارة سنة ١٧٨٣ ثم توقفت تماماً سنة ١٧٩٠، بذلك انعدم وجود العثمانيين في مصر.

كان التدهور في أواخِر العصر العثماني له ظواهر عديدة، تراه بوضوح في تدهور أحوال الدين المسيحي والإسلامي على السواء. بدأت البعثات التبشيرية البروتستنتية والكاثوليكية الواردة من الغرب تغزو مصر، ولم تنجح في تحويل المسلمين، ولكنها نجحت في تحويل بعض المسيحيين لضعف مستوى الكهنة الأقباط وسوء تعليمهم. ونلاحظ ان حملات التبشير الغربية غالبا ما كانت تسبق الاحتلال العسكري بل كانت كذلك في الهند والصين. لقد تصدت قيادات الكنيسة المصرية لهذا الغزو، وإن كان لوجود هذه الطوائف في مصر، أن بدأت الكنيسة القبطية تستيقظ وتسترجع بعض عافيتها، وإن لم تظهر بوادر ذلك إلا في القرن التاسع عشر مع يقظة مصر تحت حكم محمد علي ثم إسماعيل. أما عن الدين الإسلامي فمظاهر ذلك التدهور تراه في تدهور مستوى علماء الدين وعدم اهتمامهم بالعلوم العقلية ويدل على ذلك ظاهرة الانحراف في ممارسة العقيدة، ومنها الدور الذي لعبه أدعياء التصوُّف مبرراً للهروب من الحياة الجادة فكثر الأدعياء الذين لبسوا مسوح الصوفية وقدروا على اجتذاب الناس من شتى الطبقات رجالاً ونساءً، كان بعض هؤلاء يسيرون عرايا ولهم الكثير من المريدين. ويذكر علي بركات العديد من تلك الأمثلة نقلاً عن الجبرتي، وإن كان أظرفها "حين اختلى الأمير يوسف الكبير بمحظية فرأى علي سوأتها كتابةً فسألها عن ذلك وهدّدها بالقتل، فأخبرته أن المرأة الفلانية ذهبت بها إلى هذا الشيخ وهو الذي كتب لها ذلك ليحببها إلى سيدها "[1]. ولم يبدأ تغير تلك الأحوال إلا في القرن التاسع عشر، وكان أول المصلحين رفاعة الطهطاوي والذي قال عن فرنسا "لقد رأيتُ إسلاماً ولم أرَ مُسلمين أما عندنا فيوجد مسلمون، ولكن لا يوجد إسلام" وتبع رفاعة جيلٌ من الفطاحل منهم الإمام محمد عبده والأفغاني وامين الخولي وأحمد أمين وغيرهم.

---

(١) علي بركات. رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٧. ص ٥٩.

تكاد تكون القيادة المحلية الوحيدة التي ظهرت في الفترة العثمانية/ المملوكية هي من مَثّلَها ثورة همام بن يوسف شيخ عربان الهوارة في صعيد مصر. حقق همام ثروة كبيره ونفوذاً واسعاً وكان مستقلاً في صعيد مصر من المنيا وحتى الشلال. وقد صاحبت هذه الثورة عمليات عسكرية شأن الحرب الأهلية، كان الصعيد منفصلاً عن الحكومة المركزية منذ سنة ١٧٦٥ وحتى سنة ١٧٦٩. ومثلت هذه الثورة مظهراً من مظاهر تحالف الفلاحين والبدو، ويعتقد لويس عوض[١] ان أحد أهداف هذه الثورة هو استخلاص مصر من أيدي المماليك وتمليك الارض للمصريين. بل يعتقد لويس عوض أن هذه الثورة كانت بمثابة تجربة لنظام جمهوري. ولذلك فليس عجباً أن يُصممّ علي بك "الكبير" على قتله، وقد نجح المماليك في ذلك بمساعدة ابن عم همام المدعو أبو عبد الله[٢]. ويشير محمد عفيفي أن همام في فترة استقلاله بصعيد مصر نجح في إدارة البلاد ونال رضا جميع فئات المجتمع أثرياء وفقراء، مسلمين وأقباطاً[٣].

---

(١) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. دار الهلال. سنة ١٩٩٤. ص ٢٠.

(٢) تاريخ الجبرتي. طبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة. ج ١. ص ٤٤٦.

(٣) محمد عفيفي. الأقباط في مصر في العصر العثماني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ١٠٢.

دخول الفرنسيين

الحملة الفرنسية دامت ثلاثة أعوام كشفت مدى تخلُّف مصر وضعف المماليك والعثمانيين، كانت تلك الفترة بدايةً لتغيرات جذرية في المجتمع المصري. شهدت أواخر تلك الفترة توتراً طائفياً وشهدت تكوين فيلق قبطي ساعد الفرنسيين برئاسة المعلم يعقوب، تلك الشخصية التي أثارت الكثير من الجدل وللان.

قبل دخول الفرنسيين بسنوات قليلة زاد الظلم على المصريين وبدأت حركة شعبية لمقاومة ذلك الظلم قادها بعض علماء الأزهر، وبدأت تثمر بعض النتائج. كانت الأولى عندما عين السلطان العثماني تركياً نقيباً للأشراف بدلاً من السيد عمر مكرم، ولكن العلماء رفضوا ذلك التركي وتمسكوا بعمر مكرم نقيباً لهم، وقد كان. أما الحركة الثانية وهي الأهم وقد أنتجت أول وثيقة بين الحكام الأتراك والمماليك من ناحيةٍ وبين علماء الأزهر ومن ورائِهم الشعب من الناحية الأخرى. وتنص تلك الوثيقة على إبطال أعمال الظلم والسلب والنهب وإبطال الضرائب الاستثنائية وإلغاء الجمارك الداخلية - فيما عدا جمرك بولاق - وصرف أموال الأوقاف وغيرها على مُرتَّبات العلماء. وإن كانت تلك الوثيقة خاليةً من ذكر ضمانات تشريعية، إلا إنها مع ذلك أعطت المصريين قوةً بوجودهم وبمقدرتهم على الوقوف أمام بطش وابتزاز الحكام كان إصرار المصريين على توقيع صك مكتوب يسجل بعضاً من التزامات الحاكم تعد شيئاً جديداً في الحياة السياسية المصرية[1]. والغريب أن تلك الحركة كانت بعد سنوات قليلة من الثورة الفرنسية وإعلان حقوق الإنسان. قاد تلك الحركة من علماء الازهر المشايخ: السادات، عمر مكرم، الشرقاوي، البكري ومحمد الأمير. كان موقف الأقباط من تلك الحركة هو موقف المتفرج المتحفز بعد المعاناه التي سبق الإشارة إليها ولكن لم يستمر ذلك طويلاً.

---

(١) الجبرتي. طبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة. ج ٢. ص ٣٨٨. وكذلك لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. دار الهلال. سنة ١٩٩٤. ص ٦٩.

يقول الجبرتي في بداية الجزء الثالث من "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" وهو وأول وصف لأحوال البلاد وقت دخول الفرنسيين ***"وهي أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعُف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب".*** دخل الفرنسيون الإسكندرية في يونيو ١٧٩٨ ووصلوا لمشارف القاهرة بدون مقاومة تُذكَر. ويصف الجبرتي ما حدث من مواجهة الفرنسيين في القاهرة فيقول في بعضٍ منها " ***جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم. وخرج الفقراء بالطبول والزمور وهم يضجون ويصيحون بأذكار مختلفة. وصعد السيد عمر نقيب الاشراف إلى القلعة فأنزل بيرقاً كبيراً سمته العامّة البيرق النبوي فينشره بين يديه من القلعة إلى بولاق، وأمامه وحوله آلاف من العامة بالنبابيت والعصي يهللون ويكبّرون ومعهم الطبول والزمور ....وجلس مشايخ العلماء بزاوية علي بك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر ....أما بلاد الأرياف فقامت على ساقٍ يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً، وكذلك العرب غارت على الأطراف والنواحي وصار قُطر مصر من أوله إلى آخره في قتلٍ ونهب وإخافة طريق، وقيامِ شَرٍّ وإغارةٍ على الأموال وإفساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد فحبسوا بعض التجار الأجانب بالقلعة وبعضهم بأماكن الأمراء، وصاروا يفتشون في محلات الإفرنج عن الأسلحة وغيرها، وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام والكنائس والأديرة على الأسلحة وغيرها والعامة لا يرضون إلا أن يقتلوا النصاري واليهود فيمنعهم الحكام عنهم ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة وقت الفتنة .... وأصبح يوم السبت، فوصل الفرنسيون إلى أم دينار-على بعد ١٥ ميلاً من الجيزة- فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر، ولكن الأجناد متنافرةٌ قلوبهم منحلةٌ عزائمهم مختلفةٌ آراؤهم، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مختالون في ريشهم، مغترون بجمعه محتقرون شأن عدوهم....... ولما ابتدأ القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم يا رب ويا لطيف ويا رجال الله ونحو ذلك، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم، فكان القليل***

من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم إن الرسول والصحابة يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ........ واستمر القتال ثلاثة أرباع الساعة ثم كانت الهزيمة وفرّ مُراد بك ومن معه إلى الجيزة .... حول الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقي وضربوها وتحقق أهل البر الآخر من الهزيمة فهرب الأمراء وحريمهم وأتباعهم. مراد بك إلى الصعيد وإبراهيم بك والوالي التركي والسيد عمر مكرم إلى الشرقية ثم إلى غزة ومنها إلى سوريا(١).

لقد كانت حرباً بين القديم والجديد. لقد اصطدمنا بغرب غير الغرب الذي عرفناه أيام الحروب الصليبية. وسرعان ما رأى المماليك أنه لا أساس لما زعموه من أنه إذا جاء جميع الإفرنج لا يقفون في مواجهتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم. لقد كنا سنة ١٧٩٨ وقت دخول الفرنسيين أسوأ مما كنا سنة ١٢٥٠ إبان الحروب الصليبية، وكان الفرنسيون أفضل مما كانوا.

انتصر بونابرت وتسلّم القاهرة في ٢٣ يوليو سنة ١٧٩٨ بعد مشاورات من علماء الأزهر، وأصدر مرسوماً بتأليف وزارة مصرية (الديوان) من تسعة أعضاء، كان نواتها بعضاً من العلماء الذين فاوضوا المماليك والأتراك وحصلوا على الوثيقة المذكورة سابقاً. كان ذلك جديداً على المصريين، كان اختصاص الوزارة الأمن العام والتموين والصحة، وتبع نابليون ذلك بإنشاء دواوين الأقاليم. قد تكون أهم خطوة اتخذها بونابرت هي إنشاء الديوان العام وتعداد أعضائه ١٨٠ عضواً، ٢٧ من القاهرة والباقي من الأقاليم، وكان ثلثهم من طبقة العلماء، وثلث من التجار وثلث من الأهالي. عُقِد أول اجتماعٍ لهذا "البرلمان أو الجمعية التأسيسية" في أكتوبر سنة ١٧٩٨، وكان من وظائفه البحث في : ١- ما هو أصلح نظام لتأليف مجالس الديوان في المديريات، وما هي مرتباتهم؟ ٢- ما هو النظام الذي يجب وضعه

---

(١) تاريخ الجبرتي. طبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة. ج٣. ص ٧-١١.

للقضاء المدني والجنائي؟ ٣- ما هو التشريع الذي يكفل ضبط المواريث ومحو أنواع الشكوى الموجودة في النظام الحالي؟ ٤- ما هي الإصلاحات والاقتراحات التي يراها الديوان لإثبات ملكية العقارات وفرض الضرائب؟

لقد حاول الفرنسيون نقل صورة من النظام الفرنسي لإدارة لمصر كان لها بعض التأثير فيما بعد، إلا أن تلك الصورة لم تكن لتحقيق الديمقراطية حيث إن نابليون لم يؤمِن بالنظام النيابي في فرنسا ذاتها. كان الهدف الحقيقي هو مساعدة الفرنسيين في تنظيم شئون البلد. إلا إن ذلك كان أكثر بكثير مما يسمح به المماليك أو العثمانيون.

رغم ما قاله نابليون من كلامٍ طيبٍ عن نبي الإسلام وعن شعب مصر وحتى عن السُلطَان التركي، بل وحتى إعلان إسلامه، إلا إن الجميع حتى العامّة كانوا على درايةٍ بنوايا الفرنسيين الاستعمارية وأنهم يختلفون شكلاً وموضوعاً عنا. لقد خاطب نابليون جنوده قائلاً : "أيها الجنود، أنتم مقبلون على غزوٍ سيكون له أثرٌ لا حد له على الحضارة والتجارة العالمية. إنكم ستسددون لبريطانيا ضربةً قويةً في صميمها حتي يأتي اليوم الذي فيه توجِّهون إليها الضربة القاضية عليها". كان هذا هو هدف نابليون الحقيقي. لم يكن الانجليز ليسمحوا بوجود فرنسي في مصر يهدد طريقهم للهند. فدمَّروا الأسطول الفرنسي في أبو قير بقيادة الجنرال الانجليزي نيلسون الذي دمر الاسطول الفرنسي/الاسباني ودولة نابليون فيما بعد، بعد قرابة شهر واحد من وصول ذلك الأسطول لمصر، وفرضوا حصاراً على الفرنسيين في مصر. وبعد ثلاث سنوات وبضعة أيام تعاون الانجليز مع السلطان العثماني لطردهم من مصر.

اصطحب نابليون في حملته العديد من أعظم علماء فرنسا في ذلك الوقت وأصدروا فيما بعد سنة ١٨٢٧ الموسوعة الفرنسية عن وصف مصر. وكانت وصفاً علمياً ممتازاً مرفقاً بالصور والتي ترجم بعضها زهير الشايب وصدر بعضها عن مكتبة الخانجي وبعضها عن مكتبة مدبولي. ومن مدى اهتمام فرنسا بتلك الموسوعة أنها صنعت لها ورقاً خاصاً كان في ذلك الوقت أكبر ورقٍ صُنع حجماً. قد يكون من أهم ما أنشأ نابليون في مصر هو المجمع العلمي المصري، والذي كوَّنه بعد قرابة شهرين

من وصوله لمصر، وكان به ٤٨ عالماً في الطبيعة والاقتصاد والرياضة والآداب والفنون. وما زال هذا المجمع قائماً بأعماله وفي مكانه، حيث أنشأه بونابرت، ويقع في تقاطع الشيخ ريحان مع شارع القصر العيني. كان ذلك المجمع أول أكاديمية للعلوم والفنون والآداب عرفتها مصر الحديثة(١). في هذا المجمع كتب العلماء الفرنسيون بعضاً من موسوعة (وصف مصر) والتي سبق الإشارة إليها. بالإضافة لذلك كان المجمع يصدر مجلةً أو أوراقاً دوريةً اسمها (كورييه دي ليجيبت) لنشر بعض أعمال المجمع، وقد ترجمتها دار البستاني في جزأين سنة ١٩٧١(٢). كان هذا المجمع مفتوح للجميع وكان بعض علماء الأزهر ومن ضمنهم الجبرتي يترددون علي هذا المجمع، ونشأ بينهم وبين بعض العلماء أُلفةً ومَودّةً مشوبةً بالإعجاب. وكان الجبرتي من علماء الأزهر القلائل المهتمين بجوانب من العلوم الطبيعية أو التطبيقية إلى جانب العلوم الدينية، وقد ورث ذلك الاهتمام من والده(٣). كان لهذا المجمع تأثير على محمد علي، فكان شديد السخاء في الإنفاق على العلوم والفنون وإرسال البعثات للخارج، وإن كان قد وضح ذلك فيما بعد. لقد كتب صنع الله إبراهيم روايتين مهمتين تدوران حول المجمع العلمي والفرنسيين في مصر ** كانت الأولى هي (العمامة والقبعة) والثانية (القانون الفرنسي).

بعد تدمير الأسطول الفرنسي وحصار الفرنسيين في مصر لجأ نابليون لسد احتياجاته بإمكانياته الذاتية عن طريق استخدام العلماء المصاحبين له وعلى إمكانات مصر المتاحة. كان من نتيجة ذلك زيادة الضرائب والتفنن في تنويعها. وإن كانت هذه الضرائب لم تلحق ضرراً كبيراً إلا بالموسرين الذين حرّكوا العامة للتمرد، فكانت ثورة القاهرة الأولى في أكتوبر ١٧٩٨ والتي استُعمِل العنف في قمعها. ذهب نابليون للشام وألحق هزيمةً شديدةً بالجيش العثماني وأعدم حوالي ٣٠٠٠ أسير. عاد نابليون لفرنسا وخلفه كليبر الذي بدأ يُرتّب للانسحاب من مصر. ثارت القاهرة مرة

---

(١) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. دار الهلال. ١٩٩٤ ص ١٦٥.

(٢) صلاح الدين البستاني.بونابرت في مصر. دار العربي للبستاني. سنة ١٩٧١.

(٣) علي بركات. رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٧ ص ٤١.

** صنع الله ابراهيم. العمامة والقبعة وكذلك القانون الفرنسي. دار المستقبل العربي. سنة ٢٠٠٨.

أخرى سنة ١٨٠٠، حيث تسلّل بعض الأتراك والمماليك بسلاحهم ومولوا الأهالي لإثارتهم ضد الفرنسيين والأقباط وغيرهم من النصارى لقلقلة الوجود الفرنسي. أخمد كليبر هذه الثورة ولكن سليمان الحلبي اغتاله وخلفه عبد الله جاك مينو الذي كان قد تزوّج من مسلمة **. أخيراً خرج الفرنسيون في أكتوبر سنة ١٨٠١ بعد مغامرة فرنسية فاشلة إلا أنها تركت تأثيراً مهماً على مِصر، ودرجة من الارتباط أو التعاطف مع بعض الفكر الفرنسي. وضح ذلك فيما بعد في إرسال العديد من بعثاتنا التعليمية لفرنسا بداية من عهد محمد علي.

كيف كانت علاقة الأقباط بالمسلمين خلال وجود الحملة الفرنسية بمصر؟ من الممكن تقسيم ذلك في ثلاثة موضوعات. الموضوع الأول هو جباية الضرائب. الثاني هو قصة الجنرال يعقوب والفيلق القبطي. والثالث هو تصرف العامّة تجاه الأقباط.

كما تعاون حكام مصر السابقون على مرّ التاريخ مع الأقباط المتخصصين في جمع الضرائب استمر الفرنسيون على نَفس المنوال. ليس هناك ما يدل على أن الفرنسيين قد ألغوا أو حتى خفضوا الجزية على الأقباط. أولاً لأن نابليون كان يريد إثبات حسن نواياه تجاه الأغلبية المسلمة، فالرجل قد أعلن إسلامه المزعوم، بالإضافة أيضاً لحاجته الشديدة للمال لمصاريف الجيش خصوصاً وأن جيشه كان معزولاً عن فرنسا. عيّن نابليون المعلم جرجس الجوهري مباشراً عاماً وخوّلَهُ السلطة على سائر المباشرين، ولكنه حَرَصَ على أن يكُون معه موظف فرنسي لمراقبته. كان نابليون يترقب فرصةً للتخلص من الجوهري، وبعد ذهابه لفرنسا أرسَل إلى كليبر كتاباً مؤرخاً ٢٢ أغسطس عام ١٧٩٩ يقول فيه بصراحة "....كنت مزمعاً إن سارت الأمور سيرها الطبيعي أن نضع نظاماً جديداً للضرائب يجعلنا نستغني تقريباً عن خدمات الأقباط "[١]. لم ينجح في إزاحة هيمنة الأقباط على جباية الضرائب إلا الانجليز عندما جاؤوا لمصر بعد قرابة قرنٍ من الزمان.

---

(١) جاك تاجر. أقباط ومسلمون. طبعة الهيئة القبطية. سنة ١٩٨٤. ص ٢١٣.

** كتب ألفريد فرج مسرحية عن سليمان الحلبي نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٩.

أما عن يعقوب أو "الجنرال يعقوب" الذي تعاون مع الفرنسيين وعينوه جنرالاً على الفيلق القبطي وخرج معهم عند جلائهم من مصر فكان شخصيةً أثارت الكثير من الجدل. ساتعرض لتلك الحوادث بالتفصيل ليس لاهميتها التاريخيه بل لانها تعكس بعض وجوه علاقة الاقباط بالمسلمين، وقد تكرر وجوه من ذلك فيما بعد. يقول الجبرتي عن المعلم يعقوب ما يلي :

إن يعقوب القبطي لما تظاهر مع الفرانسوية وجعلوه ساري عسكر (أي رئيس عساكر) القبط، جمع شبانَ وحلق لحاهم وزياهم بزي مشابه لعسكر الفرنساوية، مميزين عنهم بقبعٍ يلبسونه على رؤوسهم وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة مع ما يضاف إليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم وصيرهم عسكره وعزوته وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التي هو ساكنٌ بها خلف الجامع الأحمر وبنى له قلعةً وسوّرَها بسورٍ عظيم وأبراج وباب كبير[1]. أما عن خروجه مع الفرنسيين فيقول الجبرتي[2]. أرسل إبراهيم بك أماناً لأكابر القبط فخرجوا أيضاً وسلَّموا ورجعوا إلى دورهم. أمّا يعقوب فإنه خرَج بمتاعه وعازقه وعدى إلى الروضة، وكذلك جمع آلية عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا إلي قائممقام وبكوا وولولوا وترجوه في إبقائهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء وأصحاب صنائع ما بين نجار وبنّاء وصانع وغير ذلك. فوعدهم أن يرسل إلى يعقوب أنه لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه.

لم يكن الأقباط أول من زوّد الجيش الفرنسي بالرجال فقد سبقهم إلى ذلِك عمر القلقجي الذي "توسط لمغاربة الفحامين وجمع منهم ومن غيرهم عدةً وافرةً وعرَضَهُم على ساري عسكر، فاختار منهم الشباب وأولي القوة وأعطاهم سلاحاً وآلاتَ حربٍ ورتّبهم عسكراً ورئيسهم عمر المذكور "[3]. ولكن شخصية المعلم يعقوب وعلاقته

---

(١) تاريخ الجبرتي. طبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة. ج٣. ص ٢٣١.

(٢) المرجع السابق. ص ٢٦٤.

(٣) جاك تاجر. أقباط ومسلمون. طبعة الهيئة القبطية بأمريكا وكندا. سنة ١٩٨٤.ص ٢٢٣.

القوية بالفرنسيين سلّطت على الفيلق القبطي الأضواء أكثر من غيرها. لم يكن تعاون البعض مع المستعمرين أو اعداء البلاد أمراً غير متوقع وإن كان نادر الحدوث. فقد حدث ذلك على مرّ التاريخ وفي كل البلاد، وحدث في مصر على طوال تاريخها وللآن. فإذا نظرنا إلى الجيش الانجليزي بمصر نجد أنه قد استخدم الكثير من المصريين وإن لم يكونوا في القوات المقاتلة، كان بعضهم فنيين وبعضهم في شئون الخدمات وزودهم بعض التجار باحتياجاتهم من التموين. هناك ضرورات تفرضها الظروف والحاجة للمعيشة على الأهالي. لقد رفضت الأغلبية العظمى من الفيلق القبطي مغادرة مصر عند جلاء الفرنسيين كما أشار الجبرتي أعلاه.

كان من الممكن أن تنتهي قصة المعلم يعقوب حيث أنهاها الجبرتي أعلاه. وقد حدث ذلك فعلاً ولفترة طويلة، ولكنها عادت للحياة بعد أكثر من قرنٍ من الزمان عندما نشر المؤرخ محمد شفيق غربال أستاذ التاريخ المصري كتيباً يحمل عنوان (الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١) - نشره كاملاً عبدالعزيز جمال الدين[1]. ولاسكاريس هذا يبدو أنه كان مغامراً وكان له دور في ترجمة ونقل، وربما إعادة، صياغة أو تشكيل ما قاله يعقوب. يقول شفيق غربال إنه لو خلصت مصر لفرنسا لحكموها كما ينتظر من حكومة جمهورية قائمة على قواعدِ الثورة الفرنسية في عصر بداية الثورة الصناعية والتجارية. إن نابليون كتب في مذكراته قرب آخر أيامه فصلاً رائعاً عن إمكان ضبط النيل وإنشاء سدّين على فرعيه عند رأس الدلتا لتحسين أحوال الزراعة بمصر. وفكر الفرنسيون أيضاً في توصيل البحر الاحمر بالأبيض إلا أنهم أخطأوا في حساباتهم. ولكن نابليون أيضاً يعلق على بعض أخطاء الفرنسيين والتي منها أنهُ حرّر غير المسلمين من وطنيين وأجانب أنفسهم من قيود مختلفة من المذلة التي كان المسلمون يعدونها إذ ذاك شرطاً من شروط بقاء الإسلام، وقد عرف نابليون ما في

(١) عبد العزيز جمال الدين. ج ٤. المجلد الثاني ص ١٣١٣. الكتاب الأصلي منشور سنة ١٩٣٢. وأيضاً دار الشروق سنة ٢٠٠٩.

هذا التحرر من إساءة للشعور الإسلامي وهو نفس ما ذكره الجَبَرتي[1]. وبيّن نابليون في مذكراته "أنه لا فائدة في إظهارنا الاحترام العميق للدين الإسلامي إذا كنا نسمح للأقباط والروم والمسيحيين الغربيين بقدرٍ من التحرر يغير من منزلتهم الماضية، وقد أردت أن يكونوا أكثر خضوعاً وأكثر احتراماً لكل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين مما كانوا في الماضي. لقد تعرّض محمد شفيق غربال بموضوعية لما حققته الحملة الفرنسية وما حاولت تَحقيقه وما فشلت فيه. لقد كان كتيباً مكثفاً وشيقاً للقراءة، ولن أتعرض لذلك حيث إننا بصدد المعلم يعقوب. أما عن الجيش الذي كوّنه يعقوب ويتراوح تعداده ما بين ٨٠٠ إلى ٢٠٠٠ فيقول شفيق غربال إن يعقوب قد عوّل على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربةً على النظم الغربية، فكان سبّاقاً إلى تفهُّم الدرس الذي لقّنه الفرنسيون للمماليك. أو أنه قد أدرك ما أدركه محمد علي بعد قليلٍ من أن انتصار الغربيين يعتمد على النظم الحربية الحديثة. عـثر شفيق غربال على أربع مذكرات في سجلات وزارتي الخارجية الانجليزية والفرنسية فيقول "بعد أن كدتِ أطرح الأمل في العثور على تفكير مصري أو غير مصري في حل المسألة المصرية بالاعتراف باستقلال مصر، كانت المذكرة الأولى من القبطان إدموندز للورد الأول للبحرية الانجليزية، يتضمن أحاديثه مع يعقوب في الطريق إلى فرنسا. وقد تكون هذه المذكرة أهم المذكرات، وهي تحتوي على ١١ نقطة. تقول النقطة السابعة في هذه المذكرة " لتكن الحكومة الجديدة إذن عادلة وحازمة ووطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام في الصعيد التي رويت لك قصتها. ولا شك أنها ستكون عندئذٍ موضع الاحترام والطاعة والحب"[2]. وقد سبق وأشرت في هذا الكتاب إلى حركةَ همام لاستقلاله بصعيد مصر. المذكرة الثانية مشروع استقلال مصر، مكتوبةً بالفرنسية وملحقةً بالكتاب المذكور بقلم الفارس لاسكاريس، والوثيقتان من وزارة الخارجية الانجليزية. الوثيقة الثالثة كتــاب من لاسكاريس موقع عليها بتوقيع نمر أفندي للقنصل الأول. والمذكرة الرابعــة بنفس التوقيع لتليران وزير الخارجية، وهاتان الوثيقتان بوزارة الخارجيــة

---

(١) تاريخ الجبرتي. طبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة. ج٣. ص ٥٥.

(٢) ترجمة هذة المذكرات الأربع موجودة في : لويس عوض. الفكر المصري الحديث. دار الهلال ١٩٩٤. ص ١٤٣ و كذلك أحمد حسن الصاوي. المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. سنة ١٩٨٦. ص ١٢٤.

الفرنسية. ويقول محمد شفيق غربال "بعد قراءة هذه الأوراق بدأت في تكوين رأي آخر في يعقوب وفي طبيعة علاقاته بالفرنسيين". يسترسل شفيق غربال فيقول "خدمات يعقوب للحكم الفرنسي، كانت من نوعين: خدمات من نوع ما كان يقوم به للفرنسيين جرجس الجوهري (كبير المباشرين) وملطي وأبو طاقية وغيرهم من كبار الأقباط، أساسها السعي للنفع الشخصي من جهة والخلاص مما كانوا فيه من امتهانٍ لا يرفعهم من حضيضه ما ملكوه من مالٍ وجاه، ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام إليهم، وخدمات من نوعٍ آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد السياسي بالتعضيد المؤقت للحكم الغربي. من حقق النظر في أحوال الشعوب الشرقيّة الخاضعة لحكم السلطان العثماني أثناء القرن التاسع عشرلم يجد أن الطوائف غير الإسلامية منها نظرت في أول الامر للتدخل الغربي في شئونها بالعين التي نظر بها إليه يعقوب في آخر القرن الثامن عشر". ويستمر محمد شفيق غربال فيقول: ***"أول ما في تأييد يعقوب للتدخل الغربي هو تخليص وطنه من حكمٍ لا هو عثماني ولا هو مملوكي، وإنما هو مزيجٌ من مساوئ الفوضى والعنف والإسراف لا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولةً قائمةً مستمرةً. فرأى يعقوب أن أي نوعٍ من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت.***

كان المعلم يعقوب من أغنياء القبط، فقد عمل في خدمة سليمان بك أغا، الذي كان من كبار أغنياء المماليك، وقد كوَّن ثروةً لا يستهان بها نتيجة خدماته. عندما جاء الفرنسيون عرض خدماته عليهم، وكان بالإضافة لعلمه في شئون المال والضرائب يتمتع ببنية قوية مكنته من التدريب على الفروسية. حارب يعقوب مع الفرنسيين ضد المماليك وأبلي بلائاً حسناً فجذب إليه أنظار القادة الفرنسيين وخصوصاً الجنرال ديزيه ونمَت بينهما صداقة قوية. يبدو أنه قد تعلّم بعض مبادئ الثورة الفرنسية من الحرية وحقوق الإنسان من خلال تلك الصداقة.

ما جعل قصة المعلم يعقوب تنال أكثر مما قد تستحق، أنها قد نُسِجَت حولها قصص تختلف من البطولة والرؤية المستقبلية للوطن، إلى الخيانة، بالإضافة إلى أنه

كان قبطياً وخرَج مع الفرنسيين عند جلائهم عن مصر ومات في الطريق ليترك لنا مجالاً واسعاً للتخمين.كان شفيقَ غربال في كتابة "الجنرال يعقوب والفارس لاسكارس " هو الذي أعاد قصة يعقوب للحياة في عصورنا الحديثة. اعتقد البعض أن يعقوب عندما خدم مع الفرنسيين قد تأثر ببعض مبادئ الثورة الفرنسية وخصوصاً المساواة وحقوق الإنسان وأنه فكّر في الاستعانة ببعض الدول الأوروبية خصوصا انجلترا لتخليص مصر من الأتراك والعثمانيين، حيث إنه اعتقد أنه لم يكن في قوى المصريين الذاتية القدرة على تحقيق ذلك. لقد اعتقد يعقوب أنه بدون قوة عسكرية ومن الخارج لن تستطيع مصر أن تحرّر نفسها من المماليك والعثمانيين. لقد كان يعقوب على دراية على الأقل ببعض من تاريخ مصر الذي عاصره وخصوصاً ١- حركه الشيخ همام للاستقلال بصعيد مصر والتي عاصرها والتي سحقها علي بك الكبير. ٢- بعض مبادئ الثورة الفرنسية نتيجة صداقته الحميمة لبعض ضباطها وخصوصاً جنرال ديزيه.

التقط لويس عوض هذا الخيط وكتب عنه في تاريخ الفكر المصري الحديث[1]. وإن كانت أول طبعة قد صدرت من نفس الدار سنة ١٩٦٩ وسماه مشروع الاستقلال الأول. تبحَّر لويس عوض في كتابه عن خلفية أفكار يعقوب وإن كان قد وضعها في إطار تاريخي، كما وضع حركة همام الهواري كما سبقت الإشارة، كما وضع الوثيقة التي حصل عليها علماء الأزهر من الأتراك والتي سبق وأشرت اليها في نفس السياق التاريخي. سأنقل للقارئ ملخص رأي لويس عوَض[2]، لأن ما كتبه لويس عوض أثار الكثير من اللغط خصوصاً على صفحات المجلات والجرائد:

أما المشتغلون بالسياسة وحرب العقائد فيسارعون عادةً في اتهام بعضهم بعضاً بالخيانة والتعصُّب ونقص الوطنية، ولكن المؤرخ يقف محايداً بين كل هذه المدارس، ويصفها بأنها مدارس مختلفة في الوطنية والكفاح القومي تختلف في

---

(١) لويس عوض.تاريخ الفكر المصري الحديث.دار الهلال. سنة ١٩٩٤. ص ١٣٢.

(٢) لويس عوض. المرجع السابق ص١٤٩.

أسسها الفكرية والعاطفية والطبقية والطائفية أحياناً ولكنها تستهدف تحرير الوطن بحسب مفهومه عند أصحابها. وإذا كان اختلاف العقيدة الدينية أو تطرفها يلون أحياناً نظرة الناس إلى الأمور، فهو مجرد عنصر واحد من عناصر التكوين القومي، وهو ليس كل شيء في هذا التكوين، ومن الخطأ أن نحاول به تَفسير الفلسفات القومية المتضاربة التي تستولي على أفئدة الناس وتدفعهم إلى مَذاهب شتى في الفعل والفكر. من الخطأ أن نصوّر عمر مكرم ورجاله من أصحاب السياسة العثمانية أو المملوكية بأنه إملاء العاطفة الدينية الإسلامية المتطرفة فحسب، فهذا يقوم على تسليم خاطئ بصدق دعاوى الاستعمار الأوروبي كلما تحدث عن رغبته في تحقيق استقلال مصر وإعادة مجدها الغابر وإشاعة العدل فيها ومراعاة حقوق الإنسان بين أبنائها كما كان بونابرت يفعل. كَذَلك من الخطأ أن نصوّر موقف الجنرال يعقوب ورجاله من أصحاب السياسة الأوروبية بأنه من إملاء العاطفة الدينية المسيحية المتطرفة فحسب أو من إملاء ما يسمى بعقدة الاضطهاد؛ ففي هذا تناسٍ لآثام الاستعمار العثماني والاستغلال المملوكي وتخلّفهما قروناً عن ركَب الحضارة وإشاعتهما الظُلم والظَلام أينما استقرا، وإهدارهما لأبسط معاني الإنسانية حيثما قامت لهما دولة في مكان، لا بين المسيحيين وحدهم ولكن بين رعاياهم من المسلمين أيضاً. وربما كان للشعور الديني دخلٌ في تكوين هذا الموقف المتطرف أو ذاك ولكن المبالغة في تصوير هذا الشعور الديني في تكوين القيم الوطنية لا محل له في الأحكام التاريخية الموضوعية. وكل من يعرف شيئاً عن تاريخ الثورات الإيديولوجية، كالثورة الفرنسية والثورة الروسية، وما قبلهما وما بينهما من ثورات يعلم أن حرب العقائد والمصالح الطبقية حين يشتد أوارها ترتفع أمامها الحواجز القومية ذاتها. فلا تعود تميز بين الخونة وفرسان العالم الجديد. ونموذج الجنرال يعقوب وفيلقه القبطي بالذات كان نموذجاً شائعاً في عصر بونابرت في العالم المسيحي قبل العالم الإسلامي، فقد كان ياور بونابرت نفسه الكولونيل سلوكوفسكي الذي قتله الثوار في ثورة القاهرة الأولى ضابطاً بولندياً تطوَّع في الجيش الفرنسي إيماناً بمبادئ الثورة الفرنسية، وأمثالهم كثيرون. وعلى نقيضه كان الكولونيل فيليبو، ضابطاً فرنسياً من نبلاء العهد البائد انضم إلى سيدني سميث، وأحمد باشا الجزار والي عكا كرها في مبادئ الثـــــورة

الفرنسية وقاتل بونابرت حتى رفع بونابرت عن عكا الحصار وماتَ داخل أسوارها قبل ارتداد الفرنسيين عنها، وأمثاله كثيرون.

هكذا دفعت معتقدات عمر مكرم أن يقاتل الفرنسيين تحت اللواء العثماني ودفعت بيعقوب إلى أن يقاتل العثمانيين والمماليك تحت اللواء الفرنسي. فماذا كان موقف أعضاء الديوان من هذه الأحداث الخطيرة؟ لو أننا حكمنا عليهم بظاهر الأمور لاتهمناهم أيضاً بالخيانة، فنحن نعلم أن عبد الله جاك مينو بعد إخماد ثورة القاهرة الثانية (في مارس سنة ١٨٠٠) أشار على أعضاء الديوان، وكانوا تسعة، أن يرسلوا تهنئةً إلى بونابرت بمناسبة تعيينه قنصلاً أول في فرنسا. وأن يبدوا رغبتهم في انضمام مصر إلى فَرنسا نهائياً فبادر المشايخ : البكري والشرقاوي، ومحمد الأمير، والمهدي والصاوي، والفيومي، والسيد علي الرشيدي، وعبد الرحمن الجبرتي، بإعداد خطاب بهذا المعنى قُرئ بالديوان في ٢٤ جمادى الثاني ١٢١٥، ١٣ نوفمبر سنة ١٨٠٠م. ثم تقرر حفظه في سِجل الديوان بإشراف كل من: الشيخ إسماعيل الزرقاني القاضي والسيد إسماعيل الخشاب وثائقي الديوان وكاتب سلسلة التاريخ.(١). ويقول لويس عوض: إننا لو نظرنا إلى سطح الأمور لاتهمنا مشايخ الديوان بالخيانة الصريحة ولكن، حفظ هذه الوثيقة دون إرسالها يدل على أنها كُتِبت تحت ضغط القوة القاهرة.

كان ذلك ما كتبه لويس عوض ويمثل إحدى وِجهَات النظر، والتي لا تختلف كثيراً عن وجهة نظر شفيق غربال. أما أحمد حسين الصاوي فقد كتب كتيباً عن (المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة) (٢). ويمثل وجهة نظر مختلفة عن تلك التي تبناها شفيق غربال ثم لويس عوض. فالصاوي يرى أن المعلم يعقوب ما هو إلا إنسانٌ خائنٌ لوطنه ومغامرٌ مهتمٌ بمصالحهِ الشّخصية،أما عن مشروع استقلال مصر فهو أساساً من أحلام يعقوب ومن صياغة المغامر لاسكاريس الذي رافقه مع الفرنسيين

---

(١) لقد وجد كاتب هذه السطور الصورة الكاملة لما ذكره لويس عوض عن مشايخ الديوان أعلاه في كوربيه دي ليجيبت. دار العرب للبستاني. ج٢. سنة ١٩٧١. ص ٣٣٦.

(٢) احمد حسن الصاوي.دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. سنة ١٩٨٦. ص.١٣٧.

الخارجين من مصر.

يقول الصاوي إن الحملة الفرنسية وحكم الفرنسيين مصر ثلاث سنوات كان في حد ذاته هزة عنيفة أحدَثَت نتائجَ بعيدةَ المدى قوية الأثر في حياة مصر وبنيتها السياسية والاجتماعية، ولعل من أسوأ نتائج الحملة الفرنسية ما أوشكت أن تحدثه من شروخ في بنية الأمة ووحدتها[1]. يقول الصاوي إن المعلم يعقوب كانَ على رأس من تعاونوا مع سُلطات الاحتلال وكان من ضمنهم مراد بك وبعضٌ من المماليك[2]. وكان من أعوان يعقوب في قهر المصريين بعض المسلمين[3]. بينما هادن كبار الأقباط الآخرين وعلى رأسهم جرجس الجوهري زعماء المسلمين ومن تَسلَّل إلى القاهرة من المماليك والعثمانيين وأعانوهم بالمال واللوازم مداراةً لهم وفداءً لأرواحهم وعطفاً على حركتهم خلال ثورة القاهرة الثانية[4]. يعتقد الصاوي أن مفاوضات يعقوب التي كان يزعم عقدها مع الإنجليز ومقولة "وفد مصري مفاوض" هي من وحي خياله، نسجها هو ولاسكاريس المغامر أو من وحي لاسكاريس بمفرده، بينما يعقوب في طريقة هارباً أو مهاجراً من مصر. هل كان هناك وفدٌ فعــلاً ؟ الصاوي لا يعتقد ذلك. على كل حال هذه قصةٌ لم يكن من الممكن القيام بها لأسباب عديدة؛ ففرنسا لم تستطِع أن تستمرِ في مصر لأكثر من ثلاث سنوات. فقد فقدت الحملة اتصالها بفرنسا وحوصرت بمصر، ولم ينل الفرنسيون قبول المصريين وكانت انجلترا ووراءها تركيا تقف لها بالمرصاد. أما انجلترا فكانت مُرتبَطةً في حروب بأوروبا وخصوصاً مع فرنسا، وكانت قد خرجت مهزومةً من أمريكا قبل ذلك وكان ما يهمها في مصر هو ألاّ تقع في أيدي فرنسا لتعرقل طريقها للهند. بالإضافة إلى أنها تحالفت مع العثمانيين لإخراج الفرنسيين. وكانت هناك بقايا من رمق في الامبراطورية العثمانية، والتي لم تتفكك وتنهرم إلا بعد قرابة قرن من الزمان، وإن كانوا سيفقدون مكانتهم في مصر بعد سنوات قليلة على أيـــــدي محمد علي.

---

(١) احمد حسن الصاوي.دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. سنة ١٩٨٦. ص ٥.

(٢) المرجع السابق. ص١٥.

(٣) المرجع السابق. ص٣٥.

(٤) المرجع السابق. ص٢٥.

أعتقد أن ما كان محل نقاش هو فكرة استبدال الاستعمار التركي المملوكي باستعمار أوروبي نتعلم منه، ويساعد في تنمية وبناء دولة عصرية إلى أن تتمكن من تحقيق استقلالها، لأن الاستعمار أو السيطرة التركية المملوكية سادها الفوضى والتعسف، وكانت سيئةً على جميع المصريين وقد انكشف ذلك النظام بدخول الفرنسيين لمصر. لقد كان هناك عدة مظاهر من الحملة الفرنسية استحقت الإعجاب وبعضها حاز قُبول بعض علماء الأزهر، ويذكر الجبرتي بعضاً من ذلك.

والأمر الذي لا نستطيع أن نغفله سواء وافقنا على أن يعقوب كان خائناً لوطنه أو صاحب رؤيةٍ بعيدة المدى؛ أن الاتصال بدولةٍ أجنبيةٍ لتحقيق منافع داخلية أو استقلال لم يكن نادرَ الحدوث وليس بالضرورةِ دليلاً على الخيانة. لقد حَدَثَ بعضٌ من ذلك في منطقتنا العربية في القرنين الماضيين. بل لو عُدنا لزمن علي بك الكبير لوجدنا أنه انتهز *فرصة* الحرب بين تركيا وروسيا سنة ١٧٦٧، فطَرَدَ الباشا العثماني والي مصر وأعلن نفسة قائممقام للوالي، وصفى مَرَاكِز السلطة العثمانية وتحالَف مع الشيخ طاهر العمر في سوريا، واتصلا بروسيا أيام الامبراطورة كاترين الثانية فساعدهما الأسطول الروسي في البحر الأبيض على مُناجزة تركيا. وهناك من يعتقد أن علي بك كان يخطط للاستقلال بمصر لذلك اتصل بالرُّوس[١]. بل ويجب ألاَّ ننسى أيضاً أن الألفي ذهب إلى انجلترا في ديسمبر سنة ١٨٠٣ وبعد خروج الفرنسيين من مِصر وحاول إقناع الانجليز بمساعدته لتأكيد مصالح بكوات المماليك أو للتوسُّط بينهم وبين الباب العالي[٢]. ولكن المسرح السياسي في مصر كان به سياسيٌّ داهيةٌ غيَّرَ مجَرى الحوادث لغير ما يشتهي المماليك.

لقد كثُرَ اللَّغط حول شَخصيَّة وتصرفات المعلم يعقوب. فقد نَشَرَ رجاء النقاش كتاباًتعرَّض في بعض منه للمعلم يعقوب[٣]. وإن كان رجاء النقاش يؤيـــد رأي

---

(١) عبد العزير جمال الدين. ج ٤. المجلد الثاني. ص١١٤٣. وكذلك لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. دار الهلال. سنة ١٩٩٤. ص ٣٠.

(٢) عبد العزيز جمال الدين. ج ٤. المجلد الثاني. ص ١٢٤٣.

(٣) رجاء النقاش. لويس عوض في الميزان. دار الشروق. سنة ٢٠٠٦.

أحمد حسين الصاوي في أن يعقوب كان إنساناً مغامراً وخائناً لبلده، وأنة ذكر أن آخرين مثل جلال كشك قد شنّوا حملةً عنيفةً على آراء لويس عوض[1]. ثم نشر كتاباً عنوانه "الغزو الفكري" لجلال كشك وأيضاً كتاباً لمحمود شاكر عن "أباطيل وأسمار " وهو الكتاب الذي رد فيه محمود شاكر بكثيرٍ من العنف على بعض آراء لويس عوض في الأدب والسياسة والتاريخ، وكذلك كتاب لحسين مروه "دراسات نقدية في ضوء المنهج العلمي الواقعي"[2]. ثم كتاب اخر عن فاروق عبد القادر بعنوان " أوراق أخرى من الرماد والجمر" خلاف العديد من المقالات[3]. وإن كان رجاء النقاش قد أيّد رأي الصاوي بخيانة يعقوب ألا أنه تعرَّض لِبعض آرَاء الآخرين من مؤيدي وجهة نظر شفيق غربال ولويس عوض. وقد يكون أهم هذه الآراء هو ما ذكره نسيم مجلي من أن بعض من كتبوا قبل منتصف القرن الماضي من أمثال شفيق غربال ومحمد فهمي عبد اللطيف – الذي حقّق كتاب الجبرتي – والذين قالوا إن يعقوب كان أول مصري فكّر في جعل المسألة المصرية مسألةً دوليةً. وعلى النقيض من ذلك جاءت كتابات الستينات التي كانت رداً على لويس عوض؛ فقد أصر كتابها على إدانة يعقوب واتهام لويس عوض بالفرعونية والطائفية. إن شفيق غربال ومحمد فهمي عبد اللطيف وغيرهما كانوا يعيشون في مناخ الديمقراطية الليبرالية خلال الثلاثينات والأربعينات وكان لديهم الحرية لرؤية الواقع التاريخي على حقيقته دون تحيز، أما كتاب الستينات الذين عارضوا لويس عوض فقد تأثروا بصورة الوحدة الوطنية والوحدة القومية وأسقطوا هذا الإحساس على مِصر العثمانية الإسلامية فرأوا يعقوب خائناً وفي أحسن الحالات منشقاً على نظام المجتمع الإسلامي كما رأى أحمد حسين الصاوي[4].

ويذكر لويس عوض بالمرارة نتيجة الهجوم الشديد عليه، لأنه وضع يعقوب في إطار تاريخي كما سبق وذكر فيقول : "لقد استفدتُ كثيراً من كراسته (يقصد شفيق

---

(١) رجاء النقاش. لويس عوض في الميزان. دار الشروق. سنة ٢٠٠٦. ص ٤٣.

(٢) عايدة الشريف. محمود محمد شاكر. دار الهلال.سنة ١٩٩٧ ص٩٣ وايضا المرجع السابق. ص ٤٣.

(٣) رجاء النقاش. المرجع السابق. ص٤٣.

(٤) المرجع السابق. ص ٣٧.

غربال) عن الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس وتبينت آراءه فيها، فجرَّ ذلك عليَّ الكوارث لأنه فتح دمل التعصب الديني في بعض المثقفين المصريين، فطفح كل ما فيه من قيح على السطح. وسوف يحاسب التاريخ الرجعية العربية حساباً عسيراً لأنها سجدت أمام التمثال الذي أقامه شفيق غربال للجنرال يعقوب، ثم مزقتني إرباً لمجرد أني رددت آراءه وترجمت وثائقه. ونُقادي لا يستطيعون ادِّعاء الجهل لأني أصّلت لهم كل شيء قلته عن الجنرال يعقوب في شفيق غربال "[1]. قضية الجنرال يعقوب، أو المعلم يعقوب، لن ينهيها هذا الحوار بين بعض المفكرين، فقد دخلت التاريخ وارتبطت بالحملة الفرنسية والتي كانت محور تغير في مصر، وإن لم تكن السبب الوحيد، وسيستمر البعض في البحث والتنقيب وتأييد وجهة نظر أو أخرى.

ماذا كانت وجهة نظر الكنيسة وبعض رجال الدين فيما يتعلق بالمعلم يعقوب؟

كما كان هناك اختلافٌ في آراء المثقفين فيما يختص بالمعلم يعقوب، كان هناك أيضاً اختلافٌ في رأي من كتبوا التاريخ القبطي فيما يختص بالمعلم يعقوب. كُتَّاب التاريخ الكَنَسِي يهتمون أساساً بتاريخ البطاركة ورؤساء الكنيسة، ولكنهم أيضاً يفردون مكاناً "للأراخنة" وهم طبقة من العلمانيين الأقباط -أي من غير رجال الدين - هذه الطبقة لها تأثير على الكنيسة وأغلبهم من أثرياء القبط، والكثير منهم من المباشرين أو العاملين في خدمه طبقة الحكام. بعض من كتبوا لم يكونوا كُتّاب تاريخ، ولكنهم كتبوا في حدود ظروفهم وقد اهتموا بأحوال الكنيسة والرعية. إلا أن بعضهم من أمثال حنا النقيوسي وساويرس بن المقفع كتبوا ما يمكن اعتباره كُتُب تاريخ مهمة، وفي العصور الحديثة كثرت الكتب المتاحة عن تاريخ الأقباط، وإن برز من هؤلاء الكتاب إيريس حَبيب المصري، والتي كتبت مجموعة "قصة الكنيسة القبطية" وإن كان هناك كثيرين آخرين. قد يكون أقدم سجل عن المعلم يعقوب بعد ما كتبه الجبرتي هو ما كتبه يعقوب نخلة روفيلة[2]. يقول هذا المؤلف إن يعقوب

(١) لويس عوض. أوراق العمر. مكتبة مدبولي. سنة ١٩٨٩. ص ٥٩٧.

(٢) يعقوب نخلة روفيلة. تاريخ الأمة القبطية.الطبعة الثانية. سنة ٢٠٠٠.ص ٢٨٩. وكانت الطبعة الأولى سنة ١٨٩٨.

قد سار في خطةٍ تخالف ما كان عليه أبناء جنسه، حيث الهدوء والسكينة والصبر والاحتمال وفداء أرواحهم وأعراضهم في بعض الأحوال ببذل المال والعطايا. فإنه فضلاً عن مخالفته لهم في الزّي والحركات اتخذ له امرأةً من غير جنسه بطريقةٍ غير مشروعةٍ (تزوج من فتاة مسيحية سورية من حلب بعد وفاة زوجته الأولى، ولم يكن الزواج على الطقس القبطي)، على أن رجال الدين ولا سيّما البطريرك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله. ويقول مؤلف هذا الكتاب إن يعقوب دخل الكنيسة راكبا جواده (وهو أمر غالباً ما يكون مستبعداً).ويذكر الجبرتي- وهو ما لم يذكره أي مؤرخ قبطي- أنه بعد وفاة المعلم يعقوب حضرت زوجته للتصرف في ميراثه، إلا أن الكنيسة أنكرت هذا الزواج ولم ترث زوجته شيئاً[١].

إذا نظرنا إلى ما كتبته إيريس حبيب المصري[٢]، نجد أنها تعطينا صورةً عن المعلم يعقوب تقارب ما ذكره الجبرتي، وأيضاً لما ذكره شفيق غربال، بل وتذكُر أيضاً بعض القصص غير المذكورة عن حياته. منها مثلاً عندما تأخّر أهل قرية في بني سويف عن دفع الضرائب فأمر الجنرال بليار باحتجاز مشايخها رهينةً عنده. فلما علم المعلم يعقوب بذلك احتجّ ونصح الجنرال المذكور بعدم إرهاق الأهالي، فوافقه ديزيه على ذلك، وتم الإفراج عن الرهائن[٣]. والذي يتضح من كتابات إيريس حبيب المصري أن يعقوب لم يكن خادماً للكنيسة إطلاقاً. بل لقد اتخذ موقفاً معادياً منها. فلم يقل عنه أحد- حتى مادحيه- أنه بنى كنيسة أو رَمَّمها أو وَقَف عليها شيئاً من أمواله الطائلة ولا أنه صَرَفَ على نَسْخ الكتب الكنسية أو ساهم في أي مشروع كنسي. وقد تُعتَبَر هذه النقطة مهمةً لأنها تزيل عنه بعضاً من الارتباط الديني وتجعله يميل إلى الاتجاه المدني غير الديني كما نعرفه الآن، وخصوصاً إذا ما قارناه بما كان يفعله أثرياء الأقباط تجاه الكنيسة في ذلك الوقت. وتذكُـر المؤلِّفَة أيضاً أن محمد صبري في مُؤلَّفَه تاريخ مصر الحديث (سنة ١٩٢٦) يذكر " أن

---

(١) تاريخ الجبرتي. ج٣. ص ٣٨٣.

(٢) إيريس حبيب المصري. الكتاب الرابع.مطبعة الكرنك. سنة ٢٠٠٠. ص ١٩٥-٢٢٦.

(٣) المرجع السابق. ص ١٨٩.

يعقوب رأس وفداً مصرياً مؤلفاً من أعيان القبط. وكانت فكرته الأساسية مخاطبة انجلترا في أمر استقلال مصر"، وتذكر إيريس حبيب المصري أيضاً بعضاً من تلك الأسماء وخلفيتها.

أمّا القُمُّص أنطونيوس الأنطوني[1] فيقول: " إذا كان المعلم يعقوب قد عمل على استتباب الأمر للفرنسيين المحتلين فإن الثائرين على هذا لم يرجوا أكثر من إرجاع الحكم التركي، فلا معنى مطلقاً لأن يرمي الأول بالخيانة ويصِف الثاني بالوطنية. ويؤكد هذا المؤلف أيضاً تجاهل المعلم يعقوب للكنيسة. أما بخصوص الفيلق القبطي فيقول إن يعقوب شعر بأن مصر محرومةً من جيش وطني، ففكَّر في تأليف فرقة قبطية، وطلب ذلك من الفرنسيين فوافقوا على ذلك، فجمعهم من شباب أهل الصعيد الذين عملوا في الجيش الفرنسي صناعاً وعمالاً وكانوا نحو ألفين، ووكّل أمر تدريبهم عسكرياً إلى ضباط انتقاهم كليبر، وضم يعقوب إلى الألفي شاب شباباً آخرين، فألف منهم الفيلق القبطي، ولكن معظم هؤلاء الشبان عادوا بعد ذلك إلى قُراهم ولم يبقَ منِهُم سوى ٧٠٠ أو ٨٠٠ مقاتل تولى يعقوب قيادتهم وجهزهم بالسلاح والمؤن من ماله الخاص.

أما كتاب تاريخ البطاركة[2]– وهو أقرب ما يمثل رأي الكنيسة– فيقول: إن يعقوب كان إدارياً حازماً ومالياً قديراً وكان فوق ذلك بطلاً مغواراً وفارسا مهيباً. كان يخوض غمار الحرب وميادين القتال غير هيَّابٍ ولا وَجِل. فقد كان بجانب سليمان بك –والدنيا مُدْبِرَة– حين هرب أمام جيوش الأتراك المنتصرة كما كان بجانبه –والدنيا مقبلة– مع مراد بك وقد انهزمت أمامهما نفس الجيوش العثمانية في واقعة المنشية بأسيوط في ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨. وبعد أن دخلت الجيوش

---

(١) القُمُّص أنطونيوس الأنطوني. وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها. دار الطباعة القومية. سنة ١٩٩٥.ص ٣٥٨.

(٢) تاريخ البطاركة. مكتبة دير السريان. تجميع صالح كامل نخلة عضو لجنة التاريخ القبطي. الطبعة الثانيـــــة. سنة ٢٠٠١. الحلقة الخامسة ص ٧٨.

الفرنسية فتكالب المماليك على المسيحيين وهجموا على بيوتهم وكنائسهم وأديرتهم للتنقيب عن الأسلحة وغيرها فانضم يعقوب إلى قادة الفرنسيين وأفادهم بخبرته ودبر لهم مئونة العساكر، وسهل لهم البريد بين القاهرة والشلال وكان مركزه أسيوط. دلهم أيضاً على أفضل الأماكن للمواقع الحربية واشترك معهم في كثيرٍ من المواقع، وتولى بنفسه واقعة عين القوصية، وأبلى بلاءً حسناً فقلده ديزيه القائد الفرنسي سيفاً كتب على نصله اسم الواقعة، وقدَّم له في حفلهِ على مشهدٍ من الجيش. ولم يذكر كاتب تاريخ البطاركة أي شيء عن الفيلق القبطي!!

تدل ملحَمَة المعلم يعقوب على أن الاقباط كان موقفهم ايضا متضاربا شانهم شأن المسلميين. الكنيسة ليس لها غير سلطة روحية على الأقباط فهي لا تمثل قيادةً للأقباط إلا فيما يختص بشئون الدين. لقد اعتقّد البعض –ومن ضمنهم الرئيس السادات فيما بعد– أن الكنيسة تملك السلطة العليا على الأقباط داخِل مصر بل وخارجها أيضاً ولكنه كان مخطئاً. يلتفُ الأقباط حول الكنيسة في حالات التوتر والفتنة الطائفية، وحتى في تلك الأوقات، تجد من يعارض موقف الكنيسة، فالبعض يرى أن الكنيسة يجب أن تأخذ موقفاً متشدداً وآخرون يرون أن الكنيسة ليس لها دور تلعبه في أوقات الفتنة، فهذه مسئولية الدولة.

كانت المفاوضات بين الفرنسيين من ناحية والانجليز والأتراك من ناحية أخرى قد ضمنت حرية وسلامة من تعاونوا مع الفرنسيين وإعطاءهم حرية الخروج مع الفرنسيين أو البقاء في مصر. وبعد أن دخلت القوات العثمانية القاهرة كَررت المناداة بالأمان للحيلولة دون حدوث اضطرابات طائفية تخل بالأمن في محاولة لاكتساب تأييد ساكني مصر جميعاً. ولكن لم يكن ذلك بالأمر الهيِّن، فكان من الصعب تجنُب الفوضى والاضطراب في مثل تلك الظروف. وصف الجبرتي بعضاً من تلك الاضطرابات الطائفية فيقول في بعض منه[1]:

---

(١) تاريخ الجبرتي. الجزء الثالث. مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة. سنة ١٩٨٦. ص ١٣٢-١٥٢.

كان فُقهاء المكاتب يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقاً وطوائف حسبة وهم يجهرون ويقولون كلاماً مقفّى بأعلى أصواتهم يلعن النصارى واعوانهم وأفراد رؤسائهم، كقولهم (الله ينصر السلطان -العثماني- ويهلك فرط الرمان)....في العشرين من شهر شوال سنة ١٢١٤.... قال نصوح باشا عند ذلك للعامة: اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم. فعندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من النصارى وبيوتهم التي بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكي، فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان، وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم، فتحزَّب النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ما قدر عليه من العسكر الفرنساوي والأروام، وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر، فوقعت الحرب بين الفريقين وصار النصارى يقاتلون ويرمون بالبنادق والقرابين من طبقات على المجتمعين بالأزقة من العامة، والعسكر ويحامون عن أنفسهم والآخرون يرمون من أسفل.....وكان كل من قبض على نصراني أو يهودي أو فرنساوي أخذه وذهب به إلى الجمالية؛ حيث عثمان كتخا، ويأخذ عليه البقشيش، فيحبس البعض حتى يظهر أمره ويقتل البعض ظلماً، وربما قتل العامةُ مَن قتلوه وأتوا برأسه لأجل البقشيش.... وحضر أيضاً رجلٌ مغربيٌّ يقال إنهُ الذي كان يحارب الفرنسيين بجهة البحيرة سابقاً، والتفت عليه طائفة من المغاربة البلدية، وجماعةٌ من الحجازية ممن كانوا قدموا صُحبَة الجيلاني الذي تقدم ذكره وفعل ذلك الرجل المغربي أموراً تُنكَر عليه لأن غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه فكان يتجسس على البيوت التي بها الفرنسيون والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمعٌ من العوام والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهم من الحلي والثياب، ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعاً فيما على رأسها وشعرها من الذهب وتتبع الناس عورات بعضهم البعض وما دعتهم إليه حظوظ أنفسهم وحقدهم وضغائنهم.

ولم يكن ذلك العذاب قاصراً على الأقباط فقط، بل طال أيضاً بعض المسلمين الذين تعاونوا أو اعتقد البعض أنهم تعاونوا مع الفرنسيين. وكان من ضمن ذلك قتل بعض النساء ممن اعتُقِدَ أنهن تبرجن مع الفرنسيين ومن ضمنهم ابنة الشيخ البكري[1]. بعد خُروج الفَرنسيين أُشِيع أن السلطان كتب فرماناً على النصارى ألاّ يلبسوا الملونات ويقتصرون على لبس الأزرق والأسود فاستغل العامة ذلك، فمن سار من الأقباط بطربوش أو مداس أحمر أُخِذَ منه. ويقول الجبرتي: "ليس القصد من ذلك الانتصار للدين، بل استغنام السلب وأخذ الثياب"[2]. بعد أقل من شهر من تَوقيع اتفاقية الجلاء عن القاهرة نودي بألاّ يُتَعَرَّض بالأذى لنصراني ولا يهودي سواء كان قبطياً أو رومياً أو شامياً فإنهم من رعايا السلطان والماضي لا يعاد.

ما بعد الحملة الفرنسية

فرح المصريون بخروج الفرنسيين ومن ضمنهم الأقباط الذين عانوا من العامة وبعض المتطرفين نتيجة وجود الفرنسيين. ولكن الفرحة لم تطُل. لقد كانت السنوات ما بين ١٨٠١ و١٨٠٥ سنواتٍ من الفوضى؛ لأن العثمانيين سيطر عليهم أنهم يغزون بلاداً جديدةً فاستباحوا النَهب والتعسُّف وبلغ تذمُّر العامة أقصاه. لقد عاثوا في الأرضِ فساداً، فكثر القتل والرعب وتاجروا وأخذوا ما أرادوا بغير ثمن، وأمروا أهل بعض الدور بالخروج منها ليسكنوها[3]. نهب العساكر الأرناؤوط، ونهب العساكر الانكشارية وقاتلوا بعضهم بعضاً. لقد أعلن علماء الازهر- تعبيراً عن الجماهير- رفضهم للظلم أياً كان مصدره سواء كان من الفرنسيين الكفار أم العثمانيين حماة الدين كما كانوا يدعون. وسجل الجبرتي هذا التحول في الرأي العام المصري، واعتبر العثمانيين مسئولين عن شقاء المصريين. بلغ العداء للعثمانيين أقصاه؛ فجعل علماء الأزهر يرحبون بمندوب نابليون سباستياني سنه ١٨٠٢، ويصارحونه بتمنيهم عودة الحكم الفرنسي لمصر مرةً أخرى. لقد رفعت المظالم التي وقعت على لمصريين بعد عودة

(١) تاريخ الجبرتي. طبعة الانوار المحمدية.ج ٣. ص ٢٧٢.

(٢) تاريخ الجبرتي. ج ٣. ص ٢٧١.

(٣) تاريخ الجبرتي.. ج ٣.ص ٢٧٣.

العثمانيين من مستوى الوعي الجماهيري عموماً، ووعي الطبقة المثقفة على وجه الخصوص. لقد فرض تعسف وظلم العثمانيين على المصريين أن يقارنوا بينهم وبين الفرنسيين. ***وينقل لنا الجبرتي بعضاً من ذلك الحوار، ويستنتج أن مفهوم العدالة ليس بالضرورة مرتبطاً بالدين من واقع ممارسات الحكام. فالفرنسيون الذين لا دين لهم كانوا أعدل من حكام مصر والانجليز المتحالفون مع المماليك ولا يرجى الخير منهم لأنهم متعاونون مع حكام مصر السابقين وهو يدعو إلى عدم تصديق دعواهم في حماية مصر.*** ويعد هذا مفهوماً جديداً على زمانه آتياً من أحد علماء الأزهر المرموقين. لقد لاحظ محمد السروجي في دراسته لـــ "عجائب الآثار" أن الجبرتي في تلك الفترة وبعد خروج الفرنسيين ودخول العثمانيين قد اقترب من الموضوعية[١]. وهو نفس ما يشير إليه علي بركات[٢] فيقول :

خلاف حالات القمع التي التجأ إليها الفرنسيون خلال ثورة القاهرة الأولى – التي عارضها الجبرتي– والثانية كان الفرنسيون يتعاملون بأمانةٍ مع الأهالي، فكانوا يدفعون نقداً ثمناً لما يُقدَّم لهم من خدمات، خلاف ما كان يفعله العثمانيون الذين ادعوا أنهم حُماة الإسلام. وينظر الجبرتي بإعجاب لموقف الفرنسيين وعدالتهم حتى في محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر "بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال اوباش العساكر الذين يدعون الإسلام "، ويصفهم الجبرتي بأنهم شرٌ من مشي على الأرض. يلخص لنا عبد العزيز جمال الدين ما حدث للمصريين في تلك الفترة من واقع ملاحظات الجبرتي، فيقول: هذه المحن على تلُون صورِها، كما يصفها الجبرتي كانت عاملَ يقظةٍ جماهيريةٍ وأخذت تسقط تباعاً من أذهان الناس فكرة الدين الذي يجمع بين المصريين والعثمانيين؛ وباتت فكرة الاستقلال، وهي الصورة المبهمة، تتبلور من خلال التناقضات المحلية والدولية خاصة بعد أن طرح المعلم يعقوب فكرة استقلال مصر كوطن للمصريين[٣].

---

(١) عبد العزيز جمال الدين. تاريخ مصر. ج٤. المجلد الثاني. ص ١٢٠٢.

(٢) علي بركات. رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٧. ص٤٨.

(٣) عبد العزيز جمال الدين. ج٤. المجلد الثاني. ١٢٠٠ وحتى ١٢١٨.

زمن محمد علي وحتي عصر اسماعيل

بداية دخول مصر العصر الحديث بدايةً من محمد علي، والذي سماه البعض والي النصارى، وحتى نهاية عصر إسماعيل مروراً بعصر سعيد، وهو العصر الذي ألغي فيه دفع الجزية وبدأ الأقباط يدخلون في صلب الحياة السياسية المصرية. أصبحت مصر قوةً إقليميةً لا يُستَهان بها. البعثات التعليمية لأوروبا. قناة السويس. ديون إسماعيل. بداية حركة ديمقراطية.

من خلال الفوضى التي سادت مصر بعد خروج الفرنسيين، ظهر محمد علي ليحكم مصر وبإرادة الشعب. قد تكون هذه أول مرة في تاريخ مصر يتدخل فيها الشعب لاختيار من يحكمه. لقد كان محمد علي داهيةً سياسيةً وكان في منتهي الذكاء. تحالف محمد علي مع المماليك في أول الأمر ثم أوقع خلافاً بين زعميهم البرديسي والألفي. ونجح في التآمر على الوالي العثماني خسرو باشا وعزله. اشترك المشايخ برئاسة نقيب الأشراف عمر مكرم في مساندة محمد علي، واشترك مع المشايخ كبير المباشرين جرجس الجوهري(١). ***استطاع الشعب بقيادة المشايخ ومن ورائهم محمد علي الذي يحركهم، أن ينجح في عزل الوالي العثماني خورشيد باشا خليفة خسرو باشا الذي عُيِّن بأمر السلطان وعُزِلَ بأمر الفلاحين كما قال خورشيد باشا نفسه.*** اخيراً يوافق السلطان مضطراً لتعيين محمد علي والياً على مصر في يوليو سنة ١٨٠٥. التزم محمد علي لعلماء الأزهر برئاسة عمر مكرم أن يحكم بالشورى، واعتقد عمر مكرم أن مبدأ "طاعة الرسول وأولي الأمر " تعني أن العلماء هم أولو الأمر مع الحاكم العادل"، ولكن سرعان ما فشل ذلك الاعتقاد. تستمر المؤامرات والدسائس ويحاول السلطان عزل محمد علي ولكن المشايخ ومن ورائِهم الشعب يتمسكون بمحمد علي ويستسلم السلطان مرة أخرى لإرادة الشعب.

---

(١) تاريخ الجبرني. مرجع سابق. ج٣. ص ٤٨٥.

يخرج الانجليز من مصر بعد هزيمتهم وفشل تآمرهم مع المماليك خصوصاً بعد وفاة البرديسي والألفي وهزيمة حملة فريزر الانجليزية في رشيد عام ١٨٠٧. اقترح العلماء استمرار المقاومة، ولكن محمد علي رفض ذلك وقال "ليس على رعية البلد خروج، وإنما عليهم المساعدة بالمال للعسكر ". كان محمد علي كغيره ممن حكموا مصر منذ قرابة ٢٥٠٠ سنة، رافضاً تكوين مقاومةٍ شعبيةٍ قد تنبُت مِنها قوةٌ تشاركه السُلطة. وكذلك لم يفكر في إنشاء جيش مصري في أول الأمر إلا بعد أن دفعته الظروف لذلك.

كان محمد علي مصلحاً عظيماً نهض بمصر بعد أن تدهورت أحوالها لقرون طويلة. كان الطريقَ أمام محمد علي مليئاً بالعثرات، فكان هناك السلطان وعسكر العثمانيين وكان هناك المماليك وما زالت لهم أطماعهم، وكانت هناك أطماع خارجية ممثلة في انجلترا، بالإضافة لانهيار الإدارة. ولكن بذكائه ورؤيته لإمكانيات مصر تمكّن من تخطي أغلب العثرات حتى استقرّ له الأمر وإن كان بعد ذلك قد تنكّر للشعب، ولم يشرك العلماء في الحكم كما سبق واتفق معهم. نُفي عمر مكرم لدمياط من مبدأ أطيعوا أولي الأمر حين اعترض عمر مكرم على بعض أعمال محمد علي(١). خَذَل علماء الازهر عمر مكرم وهو الزعيم الشعبي، بل رفعوا أيضاً كتاباً للباب العالي مليئاً بالاتهامات الكاذبة لعمر مكرم، منها أنه أدخل في سجل الأشراف أسماء أشخاص أسلموا من القبط واليهود(٢). كان هؤلاء العلماء من الطبقة المتيسرة وكانت لهم مصالحهم والتي تختلف عن مصالح الشعب. كان عمر مكرم مختلفاً عنهم. كان محمد علي عليماً بدسائس أولئك الشيوخ، فكان يقرب بعضهم ويضربهم ببعض، لقد عرف "الباشا" كيف يسحب من هؤلاء جميعاً القيادة السياسية والثقافية وتجرأ عليهم واحداً إثرَ واحدٍ (٣).

---

(١) الجبرتي. ج ٤. ص ١٣٧.

(٢) المرجع السابق. ص ١٤٣.

(٣) عبد العزيز جمال الدين. ج٤. المجلد الثاني. ص ١٢٢٧.

رغم نجاح محمد علي في تغيير دفة الحكم في مصر ومحاولة بناء دولةٍ عَصريةٍ إلا أن حكومته كانت استبداديةً لها بعض المساوئ. يقول الإمام محمد عبده: إذا نظرنا إلى الإنجاز المادي الكبير لمحمد علي نجد أنه كان يقابل ذلك تدنٍّ في فروع العلوم الإنسانية مثل اللغة والدين والفلسفة والتاريخ[١]. وهو نفس ما اكده لويس عوض من أنّ محمد علي لم يلتفت إلى بناء الانسان من حيث هو إنسان[٢]. وإن كان كل ذلك قد كتب بعد أكثر من قرن من الزمان، فإن شيخ مؤرخينا الجبرتي وشاهد عيان تلك الفترة يعطينا العديد من الأمثلة لذلك[٣]. يقول مثلا "حين كلفت طوايف الناس بتعمير القاهرة اجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذائل وهي السخرة، والعونة، وأجرة الفعلة، والذل، ومهانة العمل، وتقطيع الثياب، ودفع الدراهم، وشماتة الأعداء، وتعطيل معاشهم، وعاشرهم أجرة الحمام ". وقد ساعد بعض النصارى من الأروام والأرمن محمد علي في احتكار الكثير من السلع، فاغتنى هؤلاء وضج العامة وكرههم، وكانوا يتباهون بما لديهم من ثروةٍ وقوة. ويقول الجبرتي أيضاً إن محمد علي زيّف العملة فكان يزغلها حتى أصبحت الفضة منها لا تكاد تحوي إلا كسراً ضئيلاً من الفضة[٤]. هذا بالإضافة للاحتكار الذي أفسد علي الفلاحين رغبتهم في الزرع، فتنكروا لمعايشهم الأساسية فغلا الأرز والقمح واللحم والخبز. كان نتيجة سياسة محمد علي الاحتكارية أن ارتفعت أسعار السلع بين الضعف والثلاثة أضعاف، بل ارتفع بعضها عشرة أضعاف[٥]. واحتكر بيع بعض المحاصيل للفرنجة، فكان يبيع أردب القمح بمائة قرش بينما سعر الأردب بالقاهرة ثمانية عشر قرشاً[٦]. بات الجبرتي الذي كان قبل أيام محمد علي يرقب

---

(١) طارق البشري عن محمد عبده. المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية. دار الوحدة. سنة ١٩٨٢. ص ٢٦.

(٢) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. الخلفية التاريخية. دار الهلال. سنة ١٩٦٩. ص ٨٤.

(٣)تاريخ الجبرتي. ج ٤. ص ١٥٥ و ١٦٩و ٢٢٥.

(٤) تاريخ الجبرتي. ج ٤. ص ٢١٦ و ٢٢١.

(٥) تاريخ الجبرتي. ج ٤. ص ٢١٤.

(٦) (الجبرتي. ج٤. ص ١٧٨.

فيضان النيل ويتفاعل بخيره لا يقيم لهذا الفيضان وزناً لأن خيره يذهب للوالي[1]. ربما لذلك تعاطَفَ الجَبرتي مع الحركة الوهابية، والتي بزغت خلال حياته لسببين: الأول استبداد محمد علي واستئثاره بالسلطة، والثاني لما شاب الإسلام المصري من الكثير من البِدع[2]. كان البعد السياسي للحركة الوهابية هو الاستقلال، وإن كان الدين هو الواجهة، شأنها شأن الحركة المهدية في السودان والإدريسية في ليبيا.

بدأ محمد علي يبني جيشاً قوياً. وعندما طلب منه السلطان تصفية الحركة الوهابية المتعاونة مع الأمير سعود، حاول محمد علي تلبية طلب السلطان لإرضائه ولتوسيع حدود مملكته. كان من ضمن طموح محمد علي بناء جيش قوي وتوسيع حدود مملكته. ولكن محمد علي خشي أن يرسل جيشاً للحجاز ويترك المماليك في مصر دون قوة عسكرية تسيطر عليهم، فكانت مذبحة القلعة[3]. وكانت هناك مذبحة أخرى في إسنا. كانت مذبحة القلعة بشعة، ولكنها خلصت مصر من المماليك. عندما عرف العامة بخبر قتل المماليك انبثُّوا كالجراد المنتشر إلى بيوت الأمراء المصريين ومن جاورهم بغية النهب والحصول على الغنائم، فولجوها بغتةً ونهبوها نهباً ذريعاً وهتكوا الحرائر والحريم وسحبوا النساء والجواري وسلبوا ما عليهنّ من الحلي والجواهر والثياب، وأظهروا الكامن في نفوسهم[4].

ماذا كان وضع الأقباط وعلاقاتهم بالمسلمين في عصر محمد علي؟

رغم بعض سلبيات عصر محمد علي، فقد أجمع الباحثون في تاريخ الشخصية المصرية على اعتبار الحملة الفرنسية وتولي محمد علي حكم مصر بعد ذلك بمثابة الميلاد الحقيقي للدولة الحديثة في مصر، فإن الأمر ينسحب أيضاً على الأقباط، إذ تُعتَبَر هذه الفترة هي بداية مدخلهم الحقيقي للحياة العامة. وتفسير ذلك أن محمد

---

(١) عبد العزيز جمال الدين. عن الجبرتي. ج ٤ ص ١٢٢٢.

(٢) علي بركات. رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٧. ص ١٠٦.

(٣) تاريخ الجبرتي. ج٤. ص ١٨٢.

(٤) تاريخ الجبرتي. ج ٤. ص ١٨٤.

علي قد أعطى اهتمامه للعنصر المصري في إدارة الدولة نتيجةً لنزعته الاستقلالية عن الخلافة العثمانية. فكان ذلك انعكاساً على الأقباط كجزء من ذلك العنصر المصري[1]. لأن محمد علي كان حاكماً قوياً واهتمّ بإصلاح مصر، واستغلّ كل طاقات الشعب، لم يكن هناك تعثرٌ في علاقات الأقباط بالمسلمين. استعان محمد علي بالخبراء الأجانب لحاجته لبناء دولةٍ حديثةٍ تشابه دول الغرب وتعتمد على العلوم الحديثة التي تفتقر لها مصر. لم يَرُق للبعض ذلك، وأطلقوا عليه عبارة (والي النصارى) لأنه بدلاً من استشارة علماء الأزهر استشار علماء النصارى والذين كان أغلبهم أجانب أوروبيين أو من الأرمن. ولكن لم يكن لذلك تأثير على محمد علي في سير الأمور. لقد أبقى محمد علي للأقباط دورهم التقليدي في إدارة الشئون المالية وحسابات الداخل والخارج وتقدير الضرائب وجبايتها. زاد نفوذ هذه الفئة من الأقباط لازدياد نفوذ الدولة وحاجتها للمال. كان كبير المباشرين في أول عهد محمد علي هو جرجس الجوهري. إلا أن محمد علي قبض عليه وعلى باقي المباشرين وسجنهم وطلب محاسبتهم على أموال الضرائب منذ ترك الفرنسيون مصر؛ أي طيلة الخمس سنين السابقة على اعتلاء محمد علي كرسي الحكم. طلب محمد علي من المباشرين المسجونيين ثلاثين ألف كيس، ولكنه في النهاية قَبِل سبعة آلاف كيس[2]. عزل محمد علي جرجس الجوهري ومعه بعض المباشرين الأقباط وحل محله المعلم غالي وآخرين من الأقباط. بعد بضعة شهور من نفس العام عاد محمد علي فحبس المعلم غالي ومباشرين آخرين، وسجن بعضهم بدمياط وبعضهم بالقلعة وختموا على دورهم. ووجدوا عند المعلم غالي نيفاً وستين جاريةً بيضاء وسوداء وحبشية. ثم قلدوا المباشرة إلى المعلم منصور صريمون والمعلم بشارة رزق. ثم أنزلوا النصارى المحبوسين في القلعة وصالحوهم على أربعة وعشرين ألف كيس[3]. في الشهر التالي تصالح المعلم غالي مع الوالي وطلع إلى القلعه وخلع عليه الباشا خلع الرضا، وألبسوه فرو

---

(١) سميرة بحر. الأقباط في الحياة السياسية المصرية. مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة الثانية. سنة ١٩٨٤. ص ٣٦.

(٢) تاريخ الجبرتي. ج ٤. ص ١٥٤.

(٣) تاريخ الجبرتي. ج ٤. ص ١٧٥.

سمّور، وأنعم عليه بأربعة آلاف كيس من أصل الأربعة وعشرين ألف كيسٍ المطلوبة. ونزل إلى داره وأمامه الجاوشية والأتباع بالعصي المفضضة وجلس بدكة داره وأقبل عليه الأعيان من المسلمين والنصارى للسلام عليه والتهنئة(١). كان كبار المباشرين يشون ببعضهم بعضاً وكان ذلك لمصلحة الوالي. هكذا كان حال المباشرين الأقباط، هم يحملون الناس ما هو فوق طاقتهم من الضرائب، والوالي يبتزهم حين يستطيع ذلك، أما أغلبية الأقباط فكان شأنهم شأن أغلبية المسلمين؛ فلاحين مقهورين ومظلومين وقليلي الحيلة. كان محمد علي يفرض أتاوات على الأغنياء أو من اعتقد أنهم أغنياء. هكذا تعامل محمد علي مع عماله أقباطاً كانوا أم مسلمين. عُزِل المعلم غالي وأُعيد لمنصبه أكثر من مرة بعد دفع بعض الغرامات، ويذكر طارق البشري العديد من الأسماء القبطية التي تعاملت مع محمد علي في شئون المال والإدارة(٢).

كان أهم ما ميّز عهد محمد علي أنه أنشأ العديد من المؤسسات، بعضها بقي معنا لليوم وإن تغير الاسم والمكان. على رأس قائمة إنجازات محمد علي إنشاء جيش قوي، وإرسال البعثات التعليمية للدول الأوروبية لتغطية الحاجة الشديدة للعلوم الحديثة. فيما يختص بالجيش فقد حاول محمد علي أن يبني الجيش من العسكر السودانيين ولكنه اقتنع بضرورة إدخال المصريين للجيش طبقاً لما أوجدته الديمقراطية الفرنسية من مبادئ التجنيد الإجباري "الجهادية". كانت مدة التجنيد ثلاث سنوات يعُطَى في أثنائها لحمٌ وأرز "مفلفل" مرتين في الأسبوع ومرتبٌ قدرة ثمانية قروش كل شهر. كان ذلك ينطبق على الفلاحين، أما الشريحة المتوسطة والعليا فكان أصحابها يدفعون "البدل" نقدا حتى يتم إعفاؤهم من الجهادية. أُنشئت المدارس العسكرية، ومن ضمنها مدارس الخدمات من الطب والهندسة والتموين والإدارة وما إلى ذلك في العديد من مدن مصر ما بين أسوان والإسكندرية عملاً بسياسة

---

(١) تاريخ الجبرتي. ج ٤. ص ١٧٦.

(٢) طارق البشري. المسلمون والاقباط في إطار الجماعة الوطنية. دار الوحدة. سنة ١٩٨٢.ص ٢١.

اللامركزية. كانت كل القيادات في تلك المدارس أو في الجيش والبحرية إما أوروبية أو تركية مملوكية. ولكن بدأت عملية التمصير وكانت حتميةً وأدت في النهاية إلى الثورة العرابية.

لم يدخل الأقباط في الجهادية إلا خلال فترة حكم سعيد باشا حين أُلغيَت الجزية عام ١٨٥٥[١]. وإن كان عبد العزيز جمال الدين[٢] يذكر أن الجزية ألغيت عام ١٨٥٨. وتساوى الأقباط والمسلمون. لقد عارض عموم المصريين الجهادية واعتبروها نوعاً آخر من أنواع السخرة. لم يكن هناك الوعي الكافي لأهمية أن يكون لدينا جيش مصري، بالإضافة إلى أن المصريين كانوا شديدي الارتباط بعائلاتهم وقُراهم. ومما أساء إلى اسم الجهادية أن الكثيرين ممن جُنّدوا واشتركوا في الحروب لم يعودوا لقراهم وماتوا في تلك الحروب أو من الأوبئة، فارتبط الاستدعاء للجهادية بالجنازات في عقول الكثير من المصريين. اضطر البعض الي قطع احد اصابع اليد لتجنب الجهادية.قتلت الآلاف المؤلفة من المصريين في حروب في الحجاز، والسودان، والحبشة، وبلاد الشام أو بلاد اليونان أو حتى في المكسيك للدفاع عن مصالح الفرنسيين في حروبٍ كثيرة ليس لهم فيها القليل أو الكثير *. وما أساء أيضاً للجهادية في ذلك الوقت أن بعض العساكر كانوا يعملون خدماً في بيوت الضباط كنوع من أنواع السُخرة.

يقال إن الأقباط قابلوا قرار الوالي سعيد بتجنيد الأقباط بروح المعارضة وأن البطريرك وسّطَ الانجليز ليضغطوا على الوالي ليعفيهم من التجنيد. كان البطريرك في ذلك الوقت هو الأنبا كيرلس الرابع والذي سُمّي أبو الإصلاح وكان شديد الفخر ببلده وكونه بدأ حركةً مهمةً في إصلاح الكنائس والأديرة وعلم الكهنة،وأنشأ المدارس

(١) طارق البشري نقلاً عن جاك تاجر. الأقباط والمسلمون في إطار الجماعة الوطنية. دار الوحدة. سنة ١٩٨٢ ص٣١.

(٢) عبد العزيز جمال الدين ج٤. ص ١٣٧١.

* لقد كتب حسام فخر رواية (يا عزيز عيني). دار ميريت سنة ٢٠٠٦. رواية تصف بعض ما حدث للجنود المصريين في المكسيك، والتي تكاد تكون مجهولةً بالنسبة للمصريين. لم يعد أغلبية هؤلاء المصريين.

التي تعلم فيها المسلمون والأقباط وأنشأ مدارس للبنات. تخرَّجَ من هذه المدارس بعض القادة المرموقين من مسلمين وأقباط. لما أُشيع طلب إعفاء القبط من التجنيد صرح البطريرك علانيةً "***يقول البعض إني طلبت إلى الباشا أن يعفي أبناءنا القبط من الخدمة العسكرية، فحاشا لله ان أكون جباناً بهذا المقدار، لا أعرف للوطن قيمة، او أفتري على أعز أبناء الوطن بتجريدهم من محبة أوطانهم، وعدم الميل لخدمته حق الخدمة والمدافعة عنه، فليس هذا ما طلبت ولا ما أطلبه***" (١).

أنشأ محمد علي العديد من المدارس الابتدائية والمدارس المهنية. وحتى يتحسن مستوى التعليم بدأ محمد علي إرسال البعثات التعليمية للخارج بداية من سنة ١٨٢٦ وحتى سنة ١٨٤٧ وكان تعدادها تسع بعثات إلى إيطاليا، فرنسا، النمسا، وانجلترا. غطت تلك البعثات العديد من المجالات الحربية، الزراعية، الصناعية، الطبية، والتعدين والكيمياء. ذكر الرافعي تفصيل تلك البعثات وبعض أسماء طلابها، وقد انتظم في بعض هذه البعثات أنجال وأحفاد محمد علي(٢). لم يكن للأقباط نصيبٌ في بعثات محمد علي العلمية لأوروبا، والتي كان مجموع تعدادها حوالي خمسمائة طالب، وإن ذكرت إيريس حبيب المصري اسم طالب قبطي واحد، وهو ابراهيم السبكي، والذي درس الطب البيطري. وقد يكون أحد أسباب عدم اختيار أقباط في هذه البعثات هو ما اختص به الأقباط من مهن في جهاز الإدارة المالية ومسح الأراضي، وكان الاقباط أكفاء في ذلك، ولم تكن مصر تحتاج لخبرةٍ أجنبيةٍ في ذلك المجال. لم يكن الإسلام شرطاً للالتحاق بهذه البعثات. ويلاحظ طارق البشري أن الغالبية من المبعوثين كانوا من غير المصريين الأصليين (الفلاحين)؛ كانوا من الأتراك والجراكسة أو من المتمصرين من ذوي الأصول التركية أو الجركسية(٣). بعد محمد علي اتّسع باب القبول للبعثات من بين المصريين، وكان للأقباط نصيبٌ

---

(١) طارق البشري، عن سلسلة تاريخ البطاركة. المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية. دار الوحدة. سنة ١٩٨٢. ص ٣١.

(٢) عبد الرحمن الرافعي. عصر محمد علي. دار المعارف. الطبعة الرابعة. سنة ١٩٨٢. ص ٤٠٧.

(٣) طارق البشري. المسلمون والاقباط في إطار الجماعة الوطنية، دار الوحدة. سنة ١٩٨٢. ص ٢٣.

في ذلك. في عهد إسماعيل أرسل المصريين من أقباط ومسلمين في بعثات تعليمية للخارج. ورصد طارق البشري بعضاً من ذلك(1).

بدأت سياسة محمد علي تؤتي نتائجها، خصوصاً فيما يتعلق بالجيش الذي أصبح من القوة بحيث خضع لمحمد علي الحجاز والشام الكبير والسودان. ولم يقف طموح محمد علي عند ذلك. فتقدم، فاحتل قونية ثم كوتاهية ومغنيسيا، على بعد أميالٍ قليلة من اسطنبول. وهنا تألبت عليه الدول الأوروبية وأرغمته على الانسحاب من تركيا مقابل ضم الشام الكبير والحجاز وكريت لمصر بموجب معاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٣. حاول الأتراك التحرك العسكري لاسترداد الشام بتأييد من الدول الأوروبية، إلا أن الجيش المصري أوقع بالأتراك هزيمة نكراء. واستسلم الأسطول التركي لمحمد علي. ظهرت مصر كقوةٍ إقليميةٍ كبيرة، وكان من الممكن أن ترث الامبراطورية العثمانية كلها وتبعث فيها حياةً جديدةً، إلا أن الدول الأوروبية بقيادة روسيا، والنمسا، وانجلترا،وفرنسا وبروسيا (ألمانيا الآن) رفضت أن تسمح بذلك، وفضلت التعامل مع تركيا المتآكلة (2). طلب الأوروبيون سنة ١٨٤٠من محمد علي الخروج من الحجاز والشام وكريت وقبول التبعية للباب العالي عسكرياً وقانونياً وإدارياً ودفع الجزية للسلطان، وتحديد عدد أفراد الجيش المصري. رفض محمد علي ذلك وهو في أوج قوته، إلا أنه كانت هناك قوى اكبر.تآمر عليه الأوروبيون وتكتلوا في مواجهته، ودمروا الجيش المصري والذي قُتل منه على الأقل ثلاثون ألفاً، إن لم يكن ضعف ذلك العدد (3). وعادت مصر لقواعدها غير سالمة. لقد عشق محمد علي السلطان بأكثر من إمكاناته الحضارية، أو كما وصفها لويس عوض بأنها طلب "العظموت" قبل اكتمال مقومات العظمة، فكانت هناك فجوة بين الحلم والحقيقة(4).

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط في إطار الجماعة الوطنية، دار الوحدة. سنة ١٩٨٢. ص ٣٣.

(٢) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. المبحث الأول. ج١. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٠. ص ٣٣.

(٣) المرجع السابق. ص ٣٤.

(٤) المرجع السابق. ص ٧٤.

أصيب محمد علي في أواخر أيامه بالجنون، وتولى السلطة عباس الأول قليل الطموح، فأعاد البعثات الأوروبية ونفى رفاعة الطهطاوي ألمع مثقفي مصر في ذلك الوقت للسودان ليكون ناظراً لمدرسةٍ هناك. كان عهد عباس (١٨٤٨ – ١٨٥٤) عهد جمود وركود، انطفأت فية البقيةُ الباقِية من نهضة محمد علي. كان عباس كارهاً للنصارى فطرد الكثيرين منهم من دواوين الدولة، وحاول طرد الأقباط للسودان، إلا أن الشيخ الباجوري شيخ الأزهر تصدى لذلك، ورفض إصدار فتوى تجيز ذلك كما سبق وأشرت[١]. قُتِل عباس. وجاء سعيد الذي ألغى الجِزية عن الأقباط قبل أن تُلغيها الامبراطورية العثمانية تحت الضغط الأوروبي. تساوى الأقباط مع المسلمين، ولم تكن هُناك مشاكل طائفية في تلك الفترة. لقد أجمع نقاد هذا العصر على تقدم العلاقات بين الأقباط والمسلمين تقدماً ملحوظاً. لم يفرق محمد علي بعد أن استقر له الحكم بين الأقباط والمسلمين، ولكن يعود الفضل في إدخال الأقباط في صلب الأمة المصرية إلى كل من سعيد وإسماعيل. كان سعيد يرغب في إشراك الأهالي في حكومة البلاد وعمل على إخراج الجراكسة أو البعض منهم من سلك الوظائف المدنية والحربية وإحلالهم بالمصريين[٢]. يقول الرافعي إن سعيد باشا أحب الفلاحين، وإن عرابي رافق سعيد باشا في زيارتة للمدينة المنورة ياوراً له سنة ١٨٦١[٣]. اهتم سعيد بترقية المصريين في الجيش، فرقى عرابي لرتبة ملازم من تحت السلاح سنة ١٨٥٩، ثم رقي إلى رُتبَة صاغ، ثم بكباشي سنة ١٨٦٠. كان ذلك بداية لتمصير الجيش والتي أدت إلى الثورة العرابية وكان هدفها الأول المساواة مع الجراكسة، وإن كانت قد أدت لأكثر من ذلك. يقال إنه خِلال رحلة عرابي مع سعيد باشا للمدينة المنورة كان ياوراً له، وإن سعيد أعطى عرابي تاريخ نابليون باللغة العربية[٤]، وأنه كان لتلك المذكرات بعض التأثير على عرابي فيما بعد في سعيه للمساواة والحرية.

---

(١) طارق البشري عن ميخائيل شاروبيم. المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية. دار الوحدة. ١٩٨٢. ص ٤٠، وكذلك رياض سوريال. المجتمع القبطي في مصر في القرن ١٩. مكتبة المحبة. سنة ١٩٧٧. ص ٢٥٩.

(٢) جاك تاجر. اقباط ومسلمون. مرجع سابق. ص ٢٣٥.

(٣) عبد الرحمن الرافعي. الثورة العرابية والاختلال الانجليزي. دار المعارف. سنة ١٩٨٣. ص ٨٢.

(٤) صلاح عيسى عن مذكرات عرابي. دار المستقبل العربي. سنة ١٩٨٢. ص ١١٢. وكذلك سمير محمد طة. احمد عرابي ودوره في الحياة السياسية المصرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٦. ص ٢٣.

كان سعيد مهتماً أيضاً بتعليم الضباط المصريين، وعندما سافر لفرنسا للعلاج أرسل إلى إسماعيل في مصر يأمره بجمع الضباط المُرفَّعين من تحت السلاح والتشديد عليهم بالدراسة ليلاً ونهاراً [١].

في عهد إسماعيل أنشئ أول مجلسٍ نيابيٍّ سنة ١٨٦٦ -كان مجلساً للشورى- وكان رئيس وزرائه نوبار باشا الأرمني. نص قانون هذا المجلس على السماح بترشيح أي مصريٍّ عمره يتجاوز الخامسة والعشرين، شريطة أن يكون أميناً ومخلصاً، وأن تتأكد الحكومة من أنه وُلِدَ في البلاد [٢]. كان المجلس يتكون من ٧٥ عضواً وانتُخِبَ في ذلك المجلس الأقباط والمسلمون. ويرصُد طارق البشري بعض الأسماء القبطية، وإن كان أغلبها من العُمَد والمشايخ. في إحدى مُناقَشَات هذا المجلس أجمع النواب على أنه يتَوجّب على المدارس الأميرية أن تقبل أبناء النصارى والمسلمين بدون تفرقة. وقال محمد الشواربي في اجتماعات المجلس: إن الأقباط لم يخرجوا عن كونهم من أبناء الوطن، ولذلك يجب أن يكونوا ضمن المدارس التي تعمل بالمديريات ولا يكونوا خارجها متى ما أرادوا دخولها [٣]. لم يُكتَفَ بترشيح الأقباط وانتخاب بعضهم في مجلس الشورى، بل تم تعيين بعضهم قضاةً في المحاكم. لقد شهد بعض الزوار الأجانب في تلك الفترة بروح المساواة التي سادت ذلك العصر، فتقول لوسي دوف جوردون "إن أهالي "ببا" ومعظمهم مسلمون انتخبوا جرجس القبطي عمدةً لهذه البلدة" [٤]. وكان بعض الاقباط يحضرون الاحتفالات بسفر المحمل مندوبين عن الخديوي. وقد قررت الحكومة خلال وزارة بطرس غالي الاحتفال بأول السنة الهجرية، فهو أول من جعل هذا اليوم إجازةً مصريةً في مصر [٥].

---

(١) سمير محمد طه. احمد عرابي ودوره في الحياة السياسية المصرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٦. ص٢٥.

(٢) طارق البشري.المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية. دار الوحدة. ١٩٨٢. ص ٣٢ وكذلك جاك تاجر. الاقباط والمسلمون مرجع سابق. ص ٢٤٠.

(٣) جاك تاجر. اقباط ومسلمون. مرجع سابق.ص ٢٤٠. عن الوقائع المصرية.

(٤) جاك تاجر. المرجع السابق.ص ٢٤٢.

(٥) رياض سوريال. المجتمع القبطي في مصر في القرن ١٩.مرجع سابق. ص ٢٦٢. عن الوقائع المصرية.

خلال حكم سعيد واسماعيل يذكر لنا جاك تاجر أن كليهما أراد ألا تُسبّب المسائل الدينية أي احتكاك بين العنصرين، فيعطينا مثالين لذلك: الأول من عهد سعيد الذي مَنَع الأفراح التي تقام في حالة اعتناق قبطي للديانة الإسلامية لما تسببه تلك الأفراح من حساسيةٍ ومشاكل [١]. أما المثال الثاني فهو من عهد إسماعيل، وملخصه أن خليل عوض الحاوي القبطي قدم طلباً للخروج من الدين المسيحي والدخول في الإسلام، فطلبت الحكومة وجوب وجود قسيس وأكثر من عمدةٍ من عمد الأقباط ليتحققوا من أنه فعلاً راغبٌ في تغيير ديانته حتى لا تكون هذه المسألة وسيلةً فيما بعد للشكاية [٢]. وأعتقِد أنه مازال يُعمَل ببعضٍ من ذلك للآن. كانت علاقة الخديوي إسماعيل طيبةً بالبطريرك ديمتريوس، فعندما استُقرَّ على تنظيم شوارع مصر وفتح شارع كلوت بك ؛ كان النظام يقضي بأن يمر الشارع بكنيسة الأقباط، فعرض على البطريرك أن تبني الدولة له كنيسةً أفخر من هذه الكنيسة وكذلك داراً للبطركية أفخر من دارها الحالية. فأجاب البطريرك "إني أتشاءم من هدم معبدٍ ديني ليكون طريقاً، كما أنني لا أرضى لجناب الخديوي أن يوافق على هذا العمل". قال اسماعيل: لتكن إرادة البطريرك، وليبقَ المعبد قائماً كما هو [٣]. في عهد اسماعيل نرى حاكماً مُسلِماً يُشجّع أدبياً ويدعم مادياً التعليم القبطي، فطلب من الحكومة منح المدارس الأرثوذكسية إعانةً ماليةً لتعيين معلمين لتعليم اللغات الأجنبية ونحو ذلك، ومنح البطرخانة ألف وخمسمائة فدان عشورية من أطيان المتروك والمستبعدات الموجودة بالمديريات على ذمة الميري [٤].

تولى إسماعيل عرش مصر سنة ١٨٦٣. وأراد أن يبني في مِصر قاعِدةً للقوة في مواجهة النفوذ الأوروبي المتزايد. لم يبدأ ببناء القوة العسكرية كما فعل محمد علي، وإنما بدأ ببناء الدولة العصرية. أنشأ إسماعيل خطوط السكك الحديدية والتلغراف

---

(١) جاك تاجر. اقباط ومسلمون. مرجع سابق.ص ٢٣٧. عن محفوظات عابدين.

(٢) جاك تاجر. اقباط ومسلمون. مرجع سابق. من سجلات محفوظات عابدين.ص ٢٣٩.

(٣) جاك تاجر. المرجع السابق.عن ذكريات قليني فهمي. ص ٢٣٩.

(٤) جاك تاجر. المرجع السابق.عن محفوظات عابدين.ص ٢٣٩.

اكمل قناة السويس، وأنشأ مصانع السكر وشقّ الترع وبنى القناطر، وأنشأ أحواض الموانى والمنائر وأصلح ميناء الإسكندرية والسويس، وأرسل البعثات التعليمية للخارج بالإضافة لإنشاء ٤٨١٧ مدرسة بعد أن كان عدد المدارس وقت سعيد ١٨٥ مدرسةً فَقَط، وأرسل البعثات لاكتشاف منابع النيل، وجَمَّل المدن الكبرى وأمدها بمياه الشُرب وغاز الاستصباح. هذا طبعاً بالإضافةِ لإعادة تقوية الجيش الذي بلغ تعداده ٩٣ ألف ضابط وجندي سنة ١٨٧٤. ولتدريب ذلك الجيش في معارك حقيقية اشترك في حروبٍ لا تخصه في المكسيك لمساعدة فرنسا، وساعد السلطان في حروبه مع روسيا والصرب. بالإضافة لإنشاء دار الأوبرا والقصور وحياة البذخ التي عاشها اسماعيل، وإن كانت جزءاً بسيطاً من إجمالي ما صُرِف (١). وذكر لويس عوض تفاصيل تكلفة تلك المشروعات في مرجع اخر (٢). من أين جاءت مصر بكل هذه الأموال لتحقيق كل ذلك؟ جاءت بها من فرض الضرائب، ومن الاستدانة من الداخل ومن البنوك الغربية. لقد ترك إسماعيل مصر مثقلةً بدين خارجي قوامه ٩١ مليون جنيه مصري (كان من ضمنها ١١ مليون جنيه من عهد سعيد. لم تستلم من قيمة هذه الديون إلا ٥٤ مليون جنيه. الفرق كان نتيجة سعر الفائدة المُركّب والاستدانة لدفع الأقساط). لقد تصرف إسماعيل خلال حكمه في ٢٠٠ مليون جنيه، صرف أغلبها على المشاريع السابق ذكرها، وإن كانت تكاليف تلك المشاريع أكثر من قيمتها الفعلية نتيجة الفساد والسماسرة الأجانب والمصريين.

بدأت الأحوال المالية في مصر تضطرب، وأصبح من الصعب على مصر الالتزام بدفع ديونها. دعا إسماعيل لجنةً من الخبراء الماليين برئاسة ستيفن كيف الانجليزي لدراسة أسباب اضطراب المالية المصرية ووسائل علاجها. كان أهم ما ورد في تقرير اللجنة أن اضطراب مالية مصر راجعٌ إلى سوء إدارتها المالية من ناحية،

---

(١) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. المبحث الأول. ج ٢. سنة ١٩٨٣. ص ٥٠.

(٢) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٠. المبحث الأول. ج١. ص ١٢٧.

واندفاعها لتطوير نفسها حضارياً بأكثر مما تسمح به مواردها، وكان من أهم ما قررته لجنة كيف، أن مصر لم تكن دولةً مُفلِسةً وأن مواردها القائمة يمكن أن تواجه ديونها لو حسُنَ تدبيرها. [1]. وقد تأكد ذلك من واقع دراسة الاقتصاد المصري بعد الاحتلال البريطاني. فقد زادت إيرادات الحكومة ٨٠٪ تحت الاحتلال البريطاني دون ارتفاعٍ يذكر في الضرائب [1]. استمرّت الاضطرابات المالية، ولم يستطع إسماعيل السيطرة على الشئون المالية، فجاءت لجنة المراقبة الثنائية الانجليزية- الفرنسية للسيطرة على شئون مالية مصر فباعت حصة مصر من صافي أرباح قناة السويس. كان من حق أعضاء المراقبة الثنائية أن تُسائِل رئيس الوزراء المصري وتحدد المصاريف. تعرقلت الأمور وأعفي أو أقيل إسماعيل تحت ضغوط المستثمرين الاجانب وحل محله ابنه توفيق.

---

(١) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٠. المبحث الأول. ج١. ص ٢٩٠.

زمن توفيق، الثورة العرابية، والاحتلال الانجليزي

وصول توفيق للحكم والانتكاسة المصرية، ونمو الحركة الوطنية برئاسة عرابي وفشلها ثم الاحتلال البريطاني. حركات التبشير الغربية ومحاولة لاختراق الكنيسة القبطية. اغتيال بطرس غالي ثم انعقاد المؤتمر القبطي والمؤتمر الإسلامي سنة ١٩١١. ظهور مبادئ الحزب الوطني وحزب الأمة.

كان توفيق على العكس من اسماعيل، ضعيفاً وراضياً بتبعية مصر لتركيا، وبالحكم تحت العلم البريطاني. أدت فترة حكم توفيق وضعفه إلى الثورة العرابية والاحتلال البريطاني لمصر. كانت الثورة العرابية من الأحداث المهمة في تاريخ مصر. قال عرابي في مذكراته :

إنني ابن فلاحٍ مصري. وقد اجتهدتُ قدرَ طاقتي أن أحقق الإصلاح لوطني الذي أنا من أبنائه ومحبيه. لقد كنت أجتهد في حفظ استقلال بلادي مع نَيلِ الحُرية والعدل والمساواة للمساكين الذين أنا خادم لهم. فلسوء الحظ لم يتيسّر لي الغرض المقصود. وسيرضيني دائماً أن أنادى ب " أحمد عرابي المصري" فقط، وبغير ألقاب. لقد ولدت في بلاد الفراعنة وستظل أهراماتها قبري. إن الأمة المصرية بأسرِها كانت معي، وصحبةً لي، كما أني محبٌّ لها أبداً، فآمل أنها لا تنساني.

إن الدور الذي لعبه الجيش المصري في الثورة العرابية لافتٌ للنظر، إذ إن الجيوش وبعض قوات الشرطة لدينا يُنظَر إليها عادةً باعتبارها جهازاً لقمع الحركات الشعبية والوطنية لصالح الطبقة الحاكمة. ولكنّ الثورة العرابية كانت على العكس من ذلك. لقد فشلت الثورة العرابية، لأن القوى المعارضة لها كانت عاتيةً، بالإضافة لخيانة البعض من الداخل وعدم نضوج حركة قومية غير عاطفية. أعتقد أننا لنقيّم الثورة العرابية –وليس هذا مجالها– تقييماً عادلاً من الأفضل أن ننظر إليها كحركة شعبية. لقد التفّ الشعبُ المصري بأقباطه ومسلميه حول تلك الحركة وأيدوها.

سبق وأن أشرت إلى ترقية عرابي من "تحت السلاح" في عهد سعيد إلى رتبة "بكباشي". في عهد اسماعيل زاد النفوذ الجركسي التركي على حساب الأقلية المصرية من الضباط، ولم يُرقّ الضباط المصريون إلا بعد فترة طويلة. لقد رقي عرابي من "تحت السلاح" إلى رتبة "بكباشي" خلال ست سنوات في عهد سعيد، بينما ظل ١٩ عاماً في رتبة القائم مقام في عهد إسماعيل. بدأ بعض الضباط النشطين والمضطهدين من المصريين يتجمعون وكوّنوا جمعية سياسية سنة ١٨٧٦ سموها (مصر الفتاة) وكانت تضم- بالإضافة للعسكريين- عناصر مدنية من أمثال عبد الله النديم ويعقوب صنوع -اليهودي- وعدداً من الليبراليين وبعض الأوروبيين الأجانب المقيمين بمصر والمهتمين بنشر الاتجاهات الثورية في البلاد الشرقية. كان هدف هذه الجمعية ضرب السيطرة المملوكية التركية وإشاعة جوٍ من الحريات العامة(١).

نتيجة ديون إسماعيل تناقص تعداد الجيش كثيراً لخفض مصاريف الحكومة، واستمر ذلك خلال عصر توفيق. في ١٨ فبراير سنة ١٧٨٩- خلال عصر إسماعيل- قررت وزارة نوبار المعروفة بالوزارة الأوروبية إحالة بعض الضباط إلى الاستيداع بنصف مرتباتهم، وكانوا لم يتسلموا مرتباتهم لمدة ١٨ شهراً. تجمهر ٢٥٠٠ ضابط أمام وزارة الحربية واعتقلوا نوبار باشا والوزير الأوروبي ولسون وضربوهما، فسقطت الوزارة وتراجعت الحكومة عن قرارها بإحالة الضباط للاستيداع. كانت هذة الحركة تمثل أولَ عصيانٍ عسكريٍّ في تاريخ الجيش المصري.

كانت نتيجة تلك الحركة أن أدرك بعض الضباط المصريين أنهُم يملكون بعض القوة، وأن في إمكانهم عمل شيء ما. بعد حركة عصيان الجيش السابق الإشارة إليها بأربعة شهور عُزِل إسماعيل في يونيو سنة ١٨٧٩ نتيجة إفلاس المالية المصرية وتحت الضغط الأوروبي وخلفه توفيق. استمرت محاولة الحكومة لتخفيض عدد الجيش، فتقرر جعل الجيش العامل اثني عشر ألفاً فقط، وأُحيل عددٌ كبيرٌ من الضباط

---

(١) صلاح عيسى. الثورة العرابية. دار المستقبل العربي. سنة ١٩٨٢. ص ١١٣.

للتقاعد، وقرّر أيضاً عَدَم ترقية العساكر من تحت السلاح لرتب الضباط. بذلك يقفل باب الترقية للعساكر المصريين من تحت السلاح. كان من بعض أهدافِ وزارة الحربية تصفية الجيش من بعض العناصر المصرية (أي الفلاحون المصريون). تقدّم ثلاثةٌ من الضباط الفلاحين، عرابي وعبد العال حلمي وعلي فهمي بشكوى لرياض باشا رئيس الوزراء (وفي رواية أخرى للخديوي توفيق) طالبين عزل عثمان رفقي وزير الحربية وتعديل القوانين بحيث يُكفل العدل والمساواة بين جميع الأجناس. وقالوا في مذكرتهم " إن مناط الترقية هو الكفاءة والمعرفة، وكفتنا في هذة الناحية ترجح كثيرا على كفة الذين ظفروا بها دوننا " [1].

وصف عثمان رفقي وزير الحربية هذه الحركة بأنها "حركة فلاحين شغالين بالمقاطِف". اعتقل الضباط الثلاثة للتحقيق معهم[1]. ولكن حركة "الفلاحين بالمقاطف" قد نجحت. هاجمت بعض القوات برئاسة البكباشي محمد عبد مكان اعتقال الضباط الثلاثة وحررتهم، وتوجهوا إلى سراي عابدين، فاضطر توفيق إلى عَزل ناظر الجهادية عثمان رفقي وتعيين محمود سامي البارودي وزيراً للحربية. تطورت الأحوال بسرعة، واشتهر عرابي كقائدٍ شعبيٍّ وزعيمٍ للجيش ومتحدثٍ باسمه. حدثت تغييرات شتى في الجيش تلبيةً لمطالب الوطنيين، ولكن الدّسائس ضدهم ازدادت. ساءت الأمور واتضح ضعف وزارة رياض باشا، اتصل عرابي برؤساء الحزب الوطني – الذي كان من ضمن أعضائه شريف باشا رئيس الأرستقراطية المصرية التركية– واتفق معهم على القيام بمظاهرة سلمية لتقديم عريضة للخديوي لتغيير الوزارة، وكانت المواجهة المشهورة بين عرابي والخديوي والتي قال فيها الخديوي "كل هذه الطلبات لا حقّ لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلا عبيد إحساننا" فردّ عرابي بجملته الخالدة " لقد خلَقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثاً أو عقارا. فوالله الذي لا إله إلا هو إنّا لن نُستعبد بعد اليوم" [2].

---

(١) صلاح عيسى. الثورة العرابية. دار المستقبل العربي. سنة ١٩٨٢. ص ١١٦.

(٢) سمير محمد طه. أحمد عرابي ودوره في الحياة السياسية المصرية. عن أحمد عرابي. كشف الستار عن سر الأسرار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنَة ١٩٨٦.ص ١٠٣.

ولكن تَدَخَّل عاملٌ آخر في تلك المواجهة؛ فقد وجد عرابي وزملاؤه فجأةً أنفسهم وجهاً لوجه أمام قناصل الدول العظمى، والذين تكلموا باسمه بعد أن تراجع توفيق إلى قصره. ولكن انتهت المواجهة في النهاية إلى عزل وزارة رياض باشا وتعيين وزارة شريف. اعترض شريف باشا في أول الأمر على قبول رئاسة الوزارة إذا كان الطلب مقدماً من الجيش. دعا عرابي مجلس النواب المعطل وتوجهوا بكامل هيئتهم إلى شريف باشا، وطلبوا منه تشكيل الوزارة. وافق شريف باشا، ولكنه طَلَب قبل قبول الوزارة أولاً : أن يضمن الخديوي السلامة الشخصية لزعماء الثورة. وثانياً : أن يخرج عرابي وعبد العال حلمي بفرقتهما إلى مكان يختاره لهما حتى لا تقع الوزارة تحت سيطرتهم. قبل عُرابي شروط شريف باشا. كانت هذه "ملحمة ميدان عابدين" باختصار شديد كما وصفها عرابي وبعض القناصل الأوروبيين والتي وقعت في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ (١).

كانت تلك الحركة انتصاراً للمصريين ضد الخديوي توفيق. وكان الشعور الوطني فياضاً بل وتحدث البعض عن خلع الخديوي. وفي نفس الوقت نشط البرلمان المصري وبدأ يلعب دوراً أكبر من أن يكون مجرد مجلس شورى، وطالب أعضاؤه شريف باشا بسلطة إقرار الميزانية، وهو ما يتعارض مع المراقبة الثنائية- الانجليزية الفرنسية- التي فرضها الدائنون. توجه وفدٌ من ١٥ عضواً من مجلس الشورى، وطلبوا من شريف باشا الموافقة على اللائحة الأساسية للمجلس (الدستور). وافق شريف باشا على اللائحة، عدا ما يختص بالإشراف على الميزانية لتعارضه مع لجنة المراقبة الثنائية. كانت تلك اللجنة مكوّنة من ١٥ نائباً، وكان بها على الأقل قبطيٌ واحدٍ من واقع الأسماء. ذهب النواب لمقابلة الخديوي، وطالبوا بإقالة شريف باشا وتعيين محمود سامي البارودي رئيساً؛ فوافق الخديوي؛ واشترك عرابي في الوزارة كوزيرٍ للحربية والبحرية.

---

(١) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٠. المبحث الأول. ج١. ص ١٨١.

كان تعيين وزارة محمود سامي البارودي اعترافاً بقوة العرابيين والتيار الوطني. أعلنت تلك الوزارة دستور ٨ فبراير سنة ١٨٨٢؛ وهو الدستور الذي سقطت بسببه وزارة شريف. تحول مجلس شورى النُواب إلى مجلس النوّاب، وأصبح ملزماً للحكومة في قراراته، وأصبح له حق إقرار الميزانية.

تآمر بعض الضباط الأتراك، ومن ضمنهم عثمان رفقي وزير الحربية السابق على حياة العرابيين وحوكموا عسكرياً. صدَر الحكم على أربعين ضابطاً بالنفي إلى أقاصي السودان مدى الحياة. خَفّفَ الخديوي الحكم بالنفي من مصر ولكن ليس للسودان. رحل الضباط إلى تركيا وتقاضوا مرتباتهم من الحكومة التركية، ثم عادوا لمصر بعد الاحتلال البريطاني. كان ذلك بدايةَ انقسامٍ بين المدنيين والعسكريين. يقول كرومر في مذكراته إنه لم يعد هناك شكٌ في أن العرابيين قد قرروا عزل الخديوي ونفي أسرة محمد علي وتعيين محمود سامي البارودي حاكماً عاماً بالإرادة الشعبية [١]. تأزم الموقف، وقدّم البارودي استقالته واقتربت ساعة تدخُل الأوروبيين. في٢٥ مايو ١٨٨٢ قدم قنصلا فرنسا وانجلترا مذكرةً- أو بالأحرى إنذاراً – يتضمن رحيل عرابي عن مصر مؤقتاً، ونفي علي فهمي وعبد العال حلمي إلى داخل البلاد، بالإضافة لإقالة البارودي.

وافق الخديوي على الإنذار الأنجلو فرنسي، ورفضه عرابي وأعلن التعبِئة. أصبح لعرابي مطلق السيطرة على مصر، وأصبح لانجلترا مطلق السيطرة على الخديوي من خلال القنصل الانجليزي، وكان أسطولها على مشارف الإسكندرية. دخل الانجليز الإسكندرية في ١١ يوليو بحجة حماية الأجانب- أو كما روّجوا لها في أوروبا لحماية المسيحيين الغربيين من المسلمين وللتشهير بمصر وبالعرابيين. رصد لويس عوض تفاصيل الوقائع التي رتّبها الخديوي والانجليز، والتي اتُخِذَت ذريعةً لدخول الانجليز [٢].

---

(١) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٠. المبحث الأول. ج١. ص ١٩٥ .

(٢) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٠. المبحث الأول. ج١. ص ٢٢٥. وكذلك صلاح عيسى الثورة العرابية. دار المستقبل العربي. سنة ١٩٨٢. ص ٣٨٤.وأيضاً الرافعي. الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي.دار المعارف. الطبعة الرابعة. سنة ١٩٣٨.ص٢٩٥.

لقد قُتِل فيما أطلق علية "مذبحة الإسكندرية" من واقع تقرير لجنة الأطباء التي شكلها قناصِل الدول في الإسكندرية ٤٩ قتيلاً، منهم ٣٨ من الأجانب و ١١ من المصريين، وإن كان عدد المصابين في بعض التقارير وصل إلى ٣٠٠ مصاب[١]. لم يرِد ذِكر في تقارير الأجانب لأي اعتداءٍ محددٍ وَقَع علَى أقباط مصر.

بعد نزول الانجلير للإسكندرية وذهاب توفيق إليها للتصييف!! تبلور الموقف تماماً، فمن جانب الخديوي قرر عَزل عرابي في ٢٠ يوليو، أي بعد دخول الانجليز بتسعة أيام وفي حمايتهم. أما من الجانب الوطني فقد عقدت جمعيةً عموميةً بالقاهرة حضرها قرابة خمسمائة من الأعضاء يرصد أسماءهم جميعاً الرافعي[٢]. وكان من ضمنهم بعض أمراء الأسرة الحاكمة وبعض علماء الأزهر ومن ضمنهم شيخ الأزهر، وكذلك البطريرك القبطي والحاخام اليهودي بالإضافة لقاضي قضاة مصر ومفتيها. وقَّع جميعُ الحاضِرين على قرار بتأييد عُرابي واستمرار المقاومة، وأن الخديوي قد خَرَج عَن الشرع الشريف. وقد قَرأ الإمام محمد عبده بعضاً من تلك القرارات، والتي أهمها عدم عَزل عرابي، وعدم إطاعة أي أمرٍ من أوامر الخديوي ووزرائه المقيمين معه بالإسكندرية. وقد كان هذان القراران بمثابةِ خلع الخديوي.

بغض النظر عن تفاصيل سير الحوادث، كانت انجلترا عازمــــةً على احتلال مصر وكان لَديها القوة العسكرية لذلك، واختلَقَت المنــــاخ السياســي لذلك. لقد كانت تجربة نابليون في مصر تجربـــةً مريرةً لانجلـــترا. وكانت تجربة محمد علــــي للنهضة بمصـــــر تجربةً أخـــرى مريـــرةً لانجلترا لوجـود دولة قوية في مصر، ثم جاءت تجربة اسماعيل لتحديث مصر تجربة أخـــــرى مريرةً لانجلترا قامت بتدميرها، كما دَمّرت تجربـــة محمد علــي وتجربــة

---

(١) لويس عوض. المرجع السابق. ص ٢٢٦.

(٢) الرافعي. المرجع السابق. ص ٣٥١. وأيضاً لويس عوض. المرجع السابق. ٢٥١.

نابليـــون مـــن قبل. لقد كان أمام انجلترا منذ أواخر القرن الثامن عشر خياران: إما أن تخفف قبضتها على الهند، أو أن تحتل مصر، خصوصاً بعد إنشاء قناة السويس. وقد واتتها تلك الفرصة أخيراً لاحتلال مصر بعد مصالحتها مع فرنسا، فاختلقت بعض الحوادث لتهيئة الرأي العام الأوروبي لاحتلال مصر، وصورت لهم تدخلها في مصر على أنه حمايةٌ للمسيحيين الأوروبيين من المسلمين(١).

لقد كانت الوحدة الوطنية أثناء الحركة العرابية مثاراً للإعجاب. وكانت صرخة "مصر للمصريين" الأساس في الوطنية المصرية، وعليها تأسّس الحزب الوطني الأهلي، وقد وضع برنامج هذا الحزب الإمام محمد عبده، ولويس صابونجي. وقد نص برنامج الحزب الذي وافق عليه أحمد عرابي وجعله ميثاقاً وطنياً لحركته على أنه حزبٌ سياسيٌ لا دينياً، وإن كان أغلب أعضائه مسلمين، بحكم التعداد ولكنه مُؤلَّف من رجالٍ مختلفي العقيدة والمذهب، فكان من ضِمنهم أقباطٌ ويهودٌ وكل من حرث الأرض(٢). وتقول سميرة بحر "إنه قد بلَغ من تقدير عرابي لوطنية الأقباط وتشجيعه للتآخي معهم حد أنه عندما قويَ مركزه ذَهَب إلى الخديوي توفيق يطلب منه الموافقةَ على مَنح رتبة الباشوية للأقباط- ولم يكن قد نال هذه الرُّتبة أي من الأقباط حتى ذلك الوقت- وبناء على ذلك مَنَح الخديوي رتبة الباشوية لبطرس غالي في ١٨٨٠، والرتب وقتذاك كانت عزيزة(٣). لقد كان عرابي مصرياً عاشَرَ الأقباط وعاش معهم. لقد علَّمَهُ الكتابة والأعمال الحسابية صرّاف بلدهم ميخائيـــل غطاس(٤). لقد حاول أعداء الحركة العرابية أن يُشوّهوا قيمتها، فأشاعوا أن الغَرَض

---

(١) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. المبحث الأول. ج١. سنة ١٩٨٠. ص ٧٩، وكذلك ص ٢٢٧.

(٢) سميرة بحر. الأقباط في الحياة السياسية المصرية. مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة الثانية. سنة ١٩٨٤. ص ٢٧.

(٣) سميرة بحر .المرجع السابق. ص ٢٨.

(٤) سمير محمد طه. أحمد عُرابي ودوره في الحياة السياسية المصرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٦. ص ١٥.

الحقيقي لعرابي هو دفع المسلمين إلى الاستيلاء على أموال النصارى، فاندفع بعض الغوغاء يحاولون الاستفادة من هذه الفُرصة، إلا أن عرابي بادر بمقاومة هذه الفتنة، فأرسل الأوامر المشددة بالمحافظة على أموال الأقباط وحياتهم [١].

في ١٥ سبتمبر دخل الانجليز القاهرة، وعاد الخديوي إليها في أحضان أسياده ومن تآمَر معهم من المصريين من أمثال سلطان باشا رئيس مجلس النواب آنذاك*.

في ١٩ سبتمبر أصدر الخديوي مرسوماً بإلغاء الجيش المصري لاشتراكه في الثورة العرابية وقبض على حوالي ٢٩ ألفاً [٢] من ضِمنهم جميع زعماء تلك الحركة، ١٥٪ من أعضاء مجلس النواب وبعض العمد والمشايخ. وأخيراً يُسدَل السّتار عن الخاتمة الحزينة لحركة شعبية قمعها المحتل وبعض قيادات مصر، وعلى رأسها حاكم مصر الذي اعتبر أن زيارة الأسطول البريطاني زيارةً ودية. ولكن من رماد تلك الحركة انبثقت حركة مصطفى كامل، ثم ثورة سنة ١٩١٩.

الغزو الاوروبي للكنيسة القبطية

قبل الغزو الفرنسي أو الانجليزي لمصر كان الغزو الأوروبي للكنيسة المصرية. عادة ما كان التبشير المسيحي الاوروبي يسبق الغزو العسكري علي الاقل كان ذالك هو الحال في مصر، فالكنيسة القبطية هي احد مؤسسات الدوله. في ذلك الوقت كانت الكنيسة القبطية قد عانت من تراكم الضعف الذي عانت منه مصر، لم تعد الكنيسة القوية التي كانت قديماً، إلا أنها احتفظت بهيكلها العام وبالكثير من

---

(١) سميرة بحر. الاقباط في الحياة السياسية. عن زاهر رياض. مرجع السابق. ص ٢٩.

(٢) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. المبحث الأول. ج ١. ص ٢١٨.

* سلطان باشا باعَ الثورة بمكافأة قَدرَها عشرة آلاف جنيه، ولَقّب "سير" من الملكة فكتوريا. لقد كتب أنور لوقا قصة سلطان باشا "جوانب خفية من الثورة العرابية. دار المعارف. سنة ١٩٨٣". انحاز سلطان باشا واخرين لتوفيق بعد أن رأوا أن كَفته سترجح بدخول الانجليز. كان سلطان باشا من أغنى أغنياء مصر في ذلك الوقت.

طقوسها. كان غالبية الكهنة قليلي أو عديمي التعليم؛ بل وبعضهم كان أمياً ورِثَ المهنة عن آبائه واجداده، كما كان الحال في أغلب الحِرَف القَدِيمَة وكانت أُجُورُهُم على شَكل هِبات عينية، وكان مستواهم المعيشي قريباً من الفقر. تذكر ثناء حسن في كتابها [1] أنها زارت كاهناً في أبو تيج – مركز بجنوب أسيوط– في العقد الماضي، ووجدت أنه يعيش هو وزوجته وأولاده في حُجرة واحدة بدون دورة مياه صحية، ويشاركهم في المعيشة بعض الدجاج والماعز، وكان دخله عبارةً عن معونة المحسنين أو عندما يَعقِد زواجاً أو يصلي علي ميت. كان ذلك من بقايا العصور الماضية إلا إنه كان وصفاً جيداً لما كان عليه حال الكثير من الكهنة قديماً وحتى منتصف القرن العشرين. في هذا المناخ من الفقر المادي والثقافي بدأ غزو الكنيسة القبطية.

إن التبشير بالمسيحية، كما في الإسلام أحد الأركان المهمة في الدين. إلا أن قيادات بعض المبشرين الغربيين كان لهم على الأقل اتصالٌ برِجَال السِّياسة الغربيين. رغم جهل الغالبية العظمي من الأقباط– بل وأغلب الكهنة في ذلك الزمان– بالفروق اللاهوتية بين الكنيسة القبطية وكنائس الغرب الكاثوليكية والبروتستنتية، إلا أن اغلب الأقباط عارضوا هذه المذاهب، لأنهم رأوها غزواً خارجياً. وكان الرّفض من حس وطني بالتاريخ القبطي والمصري رغم عدم القدرة على بلورة ذلك، لما انتابنا من قصور شديد في التعليم. لقد مَنح المبشرون الغربيون مفاهيمَ بسيطة عن المسيحية من الممكن أن يتقبلها العقل، وكان مظهر هؤلاء المبشرين ومعرفتهم بالإنجيل جيدان للغاية، إلا إن هذه المعرفة كانت خاليةً من المعجزات والأساطير المترسخة في الديانات الشرقية. بالرغم من أن المبُشرين أنشأوا المدارس والمستوصفات والملاجئ في بعض القرى والنجوع وأن المصريين تقبلوا ما تقدمه تلك المؤسسات من خدمات، إلا أن الغالبية العظمي لم تنخرط في تلك المذاهب، ولو أن القليل من المصريين فعلوا ذلك.

---

(1) S. S. Hassan. Christian versus Muslims, Oxford University Press, 2003. Page 129.

كان هدف تلك البعثات التبشيرية تحويل المصريين عامةً إلى مذاهبهم، إلا أنهم وجدوا شبه استحالة في تحويل المسلمين فاتجهوا للأقباط.كان من نتيجة نشاط البعثات التبشيرية أنها امتصت ما بين ٥-١٠٪ من أقباط مصر. في عام ١٩٥٢ كان عدد الأقباط المتحولين للبروتستنتية يقرب من المائة ألف، وبلغ عدد المسلمين المتحولين إلى ما يقرب من المائة فقط. في عام ١٨٧٨ كان في مصر ٣٥ مدرسة بروتستنتية أمريكية بخلاف النشاط الكاثوليكي والذي أصبح له بطريركاً كاثوليكياً سنة ١٨٩٠ [١]. كان من أوائل من تحول للبروتستنتية الأمريكية هو المعلم غالي في زمن محمد علي، وكان له نفوذٌ كبير، وبما له من نفوذ فقد ساعد الحركات البروتستنتية في مصر [٢].

ولا شك أن مدارس المبشرين كانت تعطي نوعاً من التعليم يناسب وجود الاحتلال من إتقان اللغات الأجنبية والانضباط، مع إهمال التاريخ المصري واللغة العربية. وقد لجأ بعضُ المقتدرين من مسلمين ومسيحيين إلى تعليم أبنائهم في تِلك المدارس، والتي كانت مُكلفةً ولم يقدر عليها العامة وخصوصا المسلمين خوفا من التبشير. كان هناك بعضٌ من خَدَمات المبشرين المجانية في المناطق الفقيرة مثل (منطقة الزبالين بالمقطم) أو (ملجأ ليليان للأيتام بأسيوط) وبعض المستوصفات الطبية. إلا أن هؤلاء كانوا يعدون قلةً بالنسبة لاهتمام المبشرين بالتعليم واجتذاب من يستطيعون إلى دياناتهم. الحقيقة أن تمسُّك الأقباط بكنيستهم القومية رغم فقر وجهل الكثير منهم يستحق الإعجاب. ويدل ذلك علي ان مسيحية المصريين كانت ومازالت مترسخه في الوجدان القبطي. فمن ناحيةٍ كانت قيادة الكنيسة القبطية متخلفة، بينما قدَّم المبشرون نموذجاً أفضل في تعليم المسيحية والتأهيل للحياة. أعتقد أن مستوى الأقباط الأرثوذكس المادي- وربما الثقافي- أقلّ من مستوى البروتستنت والكاثوليك المصريين، وتلاحظ ذلك إذا نظرت لكنائسهم وملابسهم في الماضي.فإما أن الأغنياء

---

(١) ثناء حسن. اقباط ضد مسلمون. المرجع السابق بالانجليزية. ص ٧٣-٧١.

(٢) ثناء حسن. المرجع السابق. ص ٧١.

تركوا كنيستهم لكنائس الغرب، والتي اعتبروها أكثر استنارةً، من أمثال المعلم غالي وعائلته، أو أن من تحولوا لكنائِس الغرب قد حازوا على تعليم أفضل مكّنهم من تحسين أحوالهم المعيشية. أعتقد أن هذا موضوعٌ يستحِق الدراسة وأنه لم يُوفَّ حقه من البَحث.

كان من فضائل الغزو الأوروبي للكنيسة القبطية أنها كانت عاملاً مُساعداً لإيقاظ الكنيسة القبطية من ثباتها العميق، ولتوعيتها بهذا الخطر المحدق بها. بدأ بعض من لهم رؤية في الاهتمام بالتعليم، وبدأت الكنيسة تقاوم، بل وأحياناً تحارب ذلك الغزو. ولم تكُن المقاومة من جانب الكنيسة فقط، بل ساعدتها الدولة. في عام ١٨٦٧ سافر البابا كيرلس الخامس –وهو الذي أيد الثورة العرابية وكذلك ثورة ١٩١٩– إلى أسيوط على مَتن باخرةٍ نيلية وضعها الخديوي إسماعيل تحت إمرته. عمل ذلك العاهل على الوقوف في وجه النشاط البروتستنتي المتزايد في تلك النواحي. منعت الكنيسة الأقباط من إرسال أبنائهم إلى مدارس التبشير، وطاف الكهنةُ على البيوت يحرمون –أي يكفرون !– كُل أبٍ يُرسِل أولاده إلى هَذِه المدارس أو يزور مكتباتها أو يقرأ كُتُبها أو يُصادق أحداً من المبشرين [1]. عندما قويت هذه المقاومة ونقص عدد التلاميذ المنتسبين لتلك المدارس ذهب المبشر هوج مع السفير الأمريكي لمقابلة البطريرك ليطمئنه أن مَدَارس التبشير لا تقوم بأكثر من تعليم الإنجيل للتلاميذ. يذكر طارق البشري أن البطريرك عندما سمع ذلك استشاط غيظاً وكأنما أُلقِيَت قنبلةً في وسط الغرفة الواسعة وقال "هل الأمريكان وحدهم هم الذين لديهم الإنجيل؟ ولماذا لا تعلمونه لعبيدكم؟ لماذا يذهب الأخ إلى الحرب ضد أخيه (مشيراً إلى الحرب الأهلية). إن الإنجيل عندنا قبل أن تولد أمريكا للوجود..إننا لا نحتاج إليكم لتعلمونا الإنجيل. فنحن نعرفه أكثر منكم [2].

كان للكنيسة رؤيتها المبكرة من النضوج والوعي. ففتحت المدارس واستخدمت برامج التعليم الحديثة وكان من أضاء مصباح النهضة الحديثة البابا كيرلس الرابع،

---

(١) سميرة بحر. الأقباط في الحياة السياسية.مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة الثانية. سنة ١٩٨٤. ص ٢٥.

(٢) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع السابق. ص ٣٦.

والذي سُمِّيَ أبو الإصلاح (١٨٦٢-١٨٥٢). اشترى ذلك العاهل مطبعةً من أوروبا، وكانت تُعدُّ من أولى المطابع باللغة العربية، وأرسل بعضاً من أبنائه ليتعلموا الطباعة في المطبعة الأميرية، ولكنّ بعض الأقباط "شنّعوا" على هذا العائل، ولاحقوه بالأقاويل، حتى أنهم قالوا إنه أتى بالمطبعة ليطبع عليها ديوان عنترة العبسي[١]. هكذا قاوم البعض التحديث من داخل الكنيسة. أنشأ كيرلس الرابع العديد من المدارس للبنين، وأنشأ أربع مدارس للبنات، كان أولها في أسيوط معقل الحركة البروتستنتية سنة ١٨٧٨. تخرج من بعض هذه المدارس نخبةٌ ممن أصبحوا رجال الدولة فأصبح بعضهم من قادة مصر من وزراء ورؤساء وزارات، من أمثال عبد الخالق ثروت، وحسين رشدي، بطرس غالي، وقليني فهمي وغيرهم. وقد عرفت الحكومة بفضل هذه المدارس، فكان رفاعة الطهطاوي يحضر سنوياً لامتحان طلبتها، وتقرر إعفاؤهم من الخدمة العامة العسكرية. منح إسماعيل المساعدات المالية لتلك المدارس، وأوقف عليها الأراضي الزراعية لتفي باحتياجاتها، بل وموّلها بالمال إلى أن تَدَهور الاقتصاد المصري، فتوقّف التمويل المادي[٢]. لم يكتفِ قادةُ الكنيسة بإنشاء مدارس التعليم العام، بل أنشئت أيضاً مدرسة الأقباط الصناعية لتقدم للدولة ما تحتاج إليه من الصناع المثقفين المهرة. وقد أُنشئت تلك المدرسة بفضل وهبي بك الذي كان قد طلب العلم في الأزهر ووضع كتاب (الخلاصة الذهبية في علم العربية) وكذلك (مرآة الظرف في فن الصرف)[٢]. كان هناك رواقٌ للأقباط بالأزهر يتلقون فيه العلوم المنطقية والشرعية، وقد تعلّم بالأزهر بعضٌ من الأقباط الذين أصبحوا كُتّاباً مرموقين من أمثال أولاد العَسّال قديماً ومنهم حديثاً ميخائيل عبد السيد صاحب صحيفة الوطن[٣].

في عام ١٩٤٨ بعد أكثر من مائة عام عقدت الكنيسة الانجليزية مؤتمرها السنوي في مدينة لامبث. تردد في قرارات المؤتمر شعورٌ بالأسى بسبب الفشل في إقناع الكنيسة المصرية بأن يكون للإنجليكان صلة بتعليم رجال الكنيسة القبطية وتدريبهم [٤].

---

(١) زخارياس الأنطوني. كيرلس الرابع. أبو الإصلاح. دار الطباعة القومية بالفجالة. سنة ١٩٩٤ ص ١٨٣.

(٢) سميرة بحر. الاقباط في الحياة السياسية.مرجع سابق. ص ٢٦.

(٣) طارق البشري.المسلمون والاقباط. مرجع شابق. ص٤٣.

(٤) سميرة بحر. المرجع السابق. ص ٢٧.

الاستعمار البريطاني وبذور التفرقة

كان موقف الانجليز فيما يتعلق بعلاقة الأقباط بالمسلمين يتسم بالمرونة الشديدة للإيقاع بينهما. لم تكن هناك خلافات تذكر بين المسيحيين والمسلمين قبل دخول الانجليز كما ذُكِر سابقاً خلال الثورة العرابية؛ بل ومنذ حُكم محمد علي. وجد الانجليز أن الأقباط يشغلون العديد من مناصب الدولة دون أن يُسبب ذلك سخطاً أو تذمراً مِن المسلمين، فلم يكن هناك داعٍ للأقباط للتعامل مع الانجليز كأقلية تستنجد بهم لحمايتها. كان من مزاعم دخول الانجليز مصر حماية المسيحيين الأوروبيين وليس الأقباط.

بعد أن سيطر الانجليز على مِصر لجأوا إلى سياسةٍ أخرى للتفريق بين الأقباط والمسلمين. أولاً نجحوا في إنهاء سيطرة الأقباط على شئون جباية الضرائب ومسح الأراضي بعد أن كانوا يسيطرون عليها منذ القدم. لقد أراد الانجليز التحكُّم في نظام الضرائب فأنشأوا هيئة المساحة على نُظم حديثة لمسح الأراضي وحصرها[1]. ثم أسس حزب الأحرار الدستوريين مدرسةً للصيرفة وجهازاً كاملاً لجمع الضرائب سنة ١٩٢٩، وحصروا دخول تلك المدرسة على حَمَلة الشهادة الثانوية أو شهادة الكفاءة أو ما يماثلها، ودخلها كثيرٌ من المسلمين، خصوصاً من الطلبة الأزهريين [2]. بذلك انتهى عهدُ سيطرة الأقباط على هذه المهنة المربحة. وثانياً استغني الانجليز بالتدريج عن الأقباط في الوظائف المهمة تحت حجة العدالة الاجتماعية ولتنمية الإحساس بالفوارق الدينية وحق الأغلبية في المناصب الرئيسية، مع تقدير أن هذه السياسة ستلتصق تلقائياً بالحكومة المحلية المسلمة. ومع الزمن ثارت مشكلة اضطهاد الأقباط [3]. ولكنّ هناك سبباً آخر لتلك السياسة في عدم الاعتماد على الأقلية- التي

---

(١) رشدي سعيد. رِحلة عُمر. دار الهلال. سنة ٢٠٠٠ ص ١٥.

(٢) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص ٢٥٦.

(٣) سميرة بحر. الأقباط في الحياة السياسية المصرية. مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة الثانية.سنة ١٩٨٤.ص ٤٦.

تشترك مع الانجليز في الديانة- في حكم العامة. كانت مصر ولا تزال مركزاً للإشعاع الثقافي والديني ومهبطاً للدارسين في الأزهر، فأدرك الانجلير أن أي سياسة طائفية تُتَّخَذ ضد مسلمي مصر ستترك أصداءها في المحيط الإسلامي[١]. لكن انجلترا عَادَت فاختارت بطرس غالي ثم يوسف وهبة لرئاسة الوزارة. ويعلق على ذلك لويس عوض بقوله: إنه نظرياً لم يكُن هناك ما يمنع من تقليد مسيحي رئاسة الوزراء، ولكن عملياً كان القصد هو استفزاز شعور الأغلبية المسلمة، ووقع غالي في الفخ ففقد حياته، وكاد أن يقع فيه يوسف وهبة، فَنجا من الاغتيال على يدِ قبطي، الذي لو تم علي يد مسلم لتسبب اغتياله في فتنة طائفية. او علي الاقل هذا الاحتمال كان الدافع لكي تتم محاولة الاغتيال علي يد قبطي[٢].

بعد الاحتلال البريطاني اشتدّ ساعد الحركة الوطنية. ظهرت حركة مصطفى كامل الذي أنشأ الحزب الوطني في سنة ١٩٠٧، وانتخب الأعضاء الثلاثين للجنة الإدارية ويذكُر الرافعي أن أهم ما جاء في لائحة الحزب أن رئيس الحزب وهو مصطفى كامل رئيس مدى الحياة [٣]. كانت جريدة اللواء مصدر لمقالات مصطفى كامِل ونشاطات الحزب المختلفة. ألهب مصطفى كامل وجريدة اللواء الشعور الوطني ضد المحتل، كان أكثر أنصار مصطفى كامل من المؤمنين بالجامعة الإسلامية ومن بينهم كبار الأتراك والشراكسة، لم تكن حركة مصطفي كامل تهدف إلى الانفصال التام عن الدولة العثمانية وقد لَقيت تأييد الخديوي عباس حلمي[٤]. كان ويصا واصف أحد المنتخبين في اللجنة الإدارية للحزب. كان هناك تيارٌ سياسيٌ آخر يخشى عودة الحكم التركي أو سيطرة الخديوي على الحكم فأنشأوا حزب الأمة سنة ١٩٠٧. أيّد ذلك الحزب نخبةٌ من المثقفين المصريين منهم حسن عبد الرازق، علي شعراوي،

---

(١) سميرة بحر. المرجع السابق. عن طارق البشري. مصر الحديثة بين أحمد والمسيح. ص ٤٦.

(٢) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث.الهيئة المصرية العامة للكتاب.سنة ١٩٨٠. المبحث الأول. ج١. ص ١١٤.

(٣) عبد الرحمن الرافعي. مصطفى كامل. دار المعارف. الطبعة الخامسة. سنة ١٩٨٤. ص٢٦٨.

(٤) حاولت تركيا أن تمد خط سكك حديدية حتى طابا- على بعد ٧ كيلومترات من العقبة- ولكن انجلترا اعترضت لأن طابا مصرية، ولكن مصطفى كامل والحزب الوطني أيدوا الأتراك في حقوق تركيا في طابا.عبد الرحمن الرافعي. مصطفى كامل. دار المعارف. الطبعة الخامسة. سنة ١٩٨٤. ص ٢٠٣.

أحمد لطفي السيد، ورأسه محمود سليمان الذي رأس اللجنة التنفيذية لحزب الوفد فيما بعد سنة ١٩١٩. هذا الحزب جمع صفوةً ممن تلقوا ثقافة غربيةً -وفرنسية على الأخص- فهم يتشيعون للدستور والنظام البرلماني المشابه للنظام الأوروبي. أنشأ حزب الأمة "الجريدة" والتي أظهرت كُتَّاباً أصبحوا قياداتٍ فكريةً مُهمةً بعد ذلك من أمثال طه حسين، عباس العقاد، مصطفى عبد الرازق، أحمد لطفي السيد، حافظ إبراهيم وآخرين.

كان أعضاء حزب الأمة هم من قادوا الحركة الوطنية في أوج قوتها والتي انبثق منها حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين. كان حزب الأمة وكُتّابها يمثلون قفزةً شاسعة في إرساء مبادئ أصبحت مطلباً شعبياً، منها أن الاستقلال لن يتحقق بمساعدة تركيا أو فرنسا، فلا سبيل إلا بالمجهود الذاتي للمصريين، السعي لإزالة الفُرقَة وإحلال التساوي في العقيدة، توجيه النقد للسلطتين الشرعية والتنفيذية، الدعوة لمبدأ الحرية وأهمها حرية القضاء وحرية الكَلِمة[1]. انضمَّ بعض أقباط تلك الفترة لحزب الأمة والحزب الوطني، ولكن بتحفظٍ ولم يكن لأي منهم دورٌ قيادي.

كان الاحتلال البريطاني عاملاً خارجياً أثر بالتأكيد على علاقة الأقباط بالمسلمين وأضاف للحساسية الموجودة أصلا. ففي أول الأمر رفَع الانجليز راية حماية الأكثرية من احتكار أو ظلم الأقلية، ولكن عندما احتاجوا لنقيض سياستهم طالبوا بحماية الأقلية المسيحية! تميّزت تلك الفترة بنمو الحركة الوطنية وظهور قيادات مصرية ذات رؤية مستقبلية حملت الراية لمدة طويلة. ولكن من الناحية الأخرى في تلك الفترة أيضاً ظهرت فتنةٌ طائفية، وإن كانت بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر، وساعد عليها الانجليز والظروف الاقتصادية. قد تكون بداية تلك الفتنة حين استقال شفيق بك منصور بسبب ما قيل من اضطهاد وكيل الحقّانية بطرس غالي له، والذي اتهِم بالتَّعَصُّب لأبناء دينه ضد الموظفين المسلمين. في ذلك الوقت سنة ١٨٨٨ كتب محمد عبده، وهو في المنفى في لبنان مقاله في مجلة "ثمرات الفنون" البيروتية، حذّر

(١) عبد العزيز جمال الدين. تاريخ مصر. ج٤. المجلد الثاني. ص ١٤٦١.

فيها من الانسياق إلى طريق الفتنة الطائفية. نعرضها هنا كما سَجّلها محمد عمارة:

لَفَت محمد عبده النظر إلى التفرقة بين ما هو وطني وما هو أجنبي. ففي حالة الأجانب من الممكن أن نأخذ الكل بذنب البعض، لجواز أن يكون ذلك موقفاً جماعياً لهذه الفئة من الأجانب، أما بالنسبة لطائفة هي جزء من الوطن والمواطنين فإن أخطاء البعض منها لا تنسحب على هذه الطائفة كلها، بل المسئولية فردية، بصرف النظر عن عقيدة المخطئ الدينية، لأن الرباط القومي والجامعة الوطنية تشمل الجميع. كتب الرجل يقول "...إن التحامل على شخص بعينه لا ينبغي أن يُتَّخَذ ذريعةً للطعن في طائفة أو أمة أو ملة، فإن ذلك اعتداء على غيرِ مُعتدٍ، ومحاربة غير محارب .....فليس من اللائق بأصحاب الجرائد أن يعمدوا إلى إحدى الطوائف المتوطنة في أرضٍ واحدةٍ فيشملوها بشيءٍ من الطعن تعللاً بأن رجلاً أو رجالاً منها استهدفوا ذلك.. فإن تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بما يحط شأن الأخرى، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم.نعم.. إن كانت الطائفة أو الأمة من قوم أجانب من البلاد، متغلبين عليها بقوة قاهرة، أو حيلةٍ غادرةٍ وكانت أعمال أحدها مبنيةً على أصول سنها المتغلبون، فيكون عمل الواحد كأنه صادرٌ عن الجملة، كما في أعمال الانجليز بمصر. جاز للناقد أن يأخذ الجماعة بإثم الواحد منهم، ويستصرخ أبناء الوطن جميعا لكشفهم عن بلاده، واستخلاص الحق منهم لأربابه [1]. كان مقال محمد عبده يمثل رأي إنسانٍ له رؤية ومهتم بما يحدث بمصر حتى وهو في المنفى بعيداً عنها.

تطورت الأمور وتصاعدت الفتنة، عُقِد المؤتمر القبطي في أسيوط، وعقبه المؤتمر الإسلامي في الإسكندرية. رغم محاولة الانجليز استغلال ذلك إلا إنهم فشلوا. لم تمضِ إلا سَنَوات قليلةٌ بعد توتر العلاقات بعقد المؤتمر القبطي والإسلامي إلا وانتظم بعدها الأغلبيةُ الساحقةُ من المصريين تحت زعامة سعد زغلول في حركة شعبية عظيمة في التاريخ المصري. حركة يجب أن نجعلها حيةً في الوجدان المصري.

---

(١) محمد عمارة. تجديد الفكر الإسلامي. محمد عبده ومدرسته. كتاب الهلال. سنة ١٩٨٠. ص ٧٨.

في تلك الفترة كثرت الصحافة وأُتيح مناخ من الحرية الصحفيـــة، وإن كانت بداية ذلك في عصر اسماعيل. كان ذلك في مصلحة المحتل للتعـــــرف على اتجاهات الشعب وكان للانجلير صحفهم- والتي منها جريدة المقطم- وكـــان لهم كُتَّابهم المدافعون عن سياستهم من بين الأقباط والمسلمين، فعندنا- كما فـــي كل الشعوب- ذخيرةٌ من الخونة والمنتفعين. في هذا المناخ المحدود من الحريـــة التي لم تنضج بعد لاحترام الآخر، تخطّى بعض الكتاب حـــدود الحريـــــة لمهاجمة الآخر من أبناء الوطن. بـــدأت حملـــةٌ مـــن العَدَاء بين بعض الكُتَّاب الأقباط والمسلمين؛ الأمر الذي أدى إلى فتنة طائفيـــة أدت إلـــى المؤتمـــر القبطي ثم المؤتمر المصري (الإسلامي)، كلاهما خلال عام ١٩١١. لقد كان هــــــذا التوتر الذي عبّر عنه هذان المؤتمران في ظروف أزمة اقتصاديـــــة شـــديدة بدأت عام ١٩٠٥ وامتدت حتى ١٩٠٩. وكان ذلك عاملاً مُساعداً ومؤثراً علـــى سيرِ الأمور [١]. نشرت جريدتا "مصر" و"الوطن"- الأخيرة ذات الطابع القبطـــي- في مايو سنة ١٩٠٨ مقالةً تُهاجم كل من وطِئت أقدامهـــم أرض مصـــر مـــن بدء الإسلام إلى اليوم عَرباً كانوا أم أتراكاً، إنجليزاً كانـــوا أم فرنسيين. ثم حمل فريد كامل في مقالة أخرى على التاريخ الإسلامي. فنَشَر الشيخ عـــبد العزيز جاويش رداً على ما كتبه الأقباط في جريدة اللواء- لسان حـــال الحـــزب الوطني- تحت عنوان "الإسلام غريبٌ في بلده" تكلم فية بأقسى ما يمكن أن يُكتَب في هذا الموضوع. وكان لحديثه وقعٌ شديدٌ على المسيحيين [٢]. ردت جريدة مصر بتساؤلها :مَن يكون هذا الدخيل الذي قذفته إلينا بلاد تونس -كان الشيخ جاويش ضمن الحماية الفرنسية- لينفث سموم تعصبه ضـــد المسيحيين؟ ويقـــول طارق البشري: رغم أن صحيفة الوطن بدأت هذا الاستفزاز، إلا أن سقطـــة الشيخ جاويش كانت كبيرة، فقد وجد الفخ أمامه فقفز فيه بقدميه وسَقَط فيـــة بجمعه، وكان بعيداً عن النهج المستنير الذي دعا إليه الشيخ محمد عبده، والـــذي قال إن جاويش اعتدى على غيرِ مُعتدٍ ونَاضَلَ مـــن غير حـــربٍ [٣]. بادرت اللجنة

---

(١) أبو سيف يوسف. الأقباط والقومية العربية. مركز دراسات الوحدة العربية. سنة ١٩٨٧. ص ١٧٦.

(٢) طارق البشري. المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية. دار الوحدة. سنة ١٩٨٢. ص ٥٥.

(٣) طارق البشري. المرجع السابق. ص ٥٦.

الوطنية للحزب الوطني إلى إصدار بيان تتبرأ فيه مما كتبه الشيخ جاويش.

كانت جريدة الوطن "القبطية" ذات ميول انجليزية، اعتقدت أن الدعوة للدستور والحياة النيابية- كان ذلك مطلباً شعبياً- منذ ثورة عرابي- من شأنه الإضرار بمصالح الأقباط. ونقلت عن ثيودور روزفلت الذي قال في زيارته لمصر إن الدول التي تَمْنح الدستور وهي لا تزال في طور التكوين تكون خطراً على نفسها لأنها لم تَتمُ فيها الصفات التي تمُكِّنها من الانتفاع بالدستور. لقد أثنت جريدة الوطن على خطاب روزفلت ووصفته بأنه نصيرُ الحق ومُنصِف الأقلية من الأكثرية(١). يبدو أن ثيودور روزفلت قد نَسيَ أو تَنَاسى تاريخ أمريكا وقصة الدستور الأمريكي حين زار مصر.

اغتيل بطرس غالي على يدِ ابراهيم الورداني سنة ١٩١٠. ذكر الورداني أن اغتيال بطرس غالي يعود لثلاثة أسباب: لأنه رَأسَ محكمة دنشواي الشهيرة (٢)، لأن وزارة بطرس غالي كانت أيضاً تعمل على تمديد امتياز قناة السويس ٤٥ عاماً، وثالث أسباب الاغتيال كان اتفاقية السودان، التي جعلت انجلترا شريكةً لمصر. يقول سعد زغلول في مذاكراته- وكان وقتها وزيراً في وزارة بطرس غالي " يظهر بطرس باشا شيئاً من القلق، فيُبدي تأسفه على قبول مسند رئاسة الوزارة! وكثيراً ما يردد قوله: ما الذي حملَني على أن أحمل هذا العبء الثقيل وقد كنت خاليَ البال من شواغله، والناس ليسوا مستعدين لإدراك الحقائق، والمحتلُون لا يتركون لنا الحُريّة

---

(١) طارق البشري. المرجع السابق. ص ٥٧.

(٢) عبد الرحمن الرافعي. مصطفي كامل. دار المعارف. الطبعة الخامسة. سنة ١٩٨٤ ص ٢٠٥. ذهب خمسةٌ من الضباط الانجليز لصيد الحمام في دنشواي، فأصابوا امرأة وتسببوا في حريق جُرن، فثار الأهالي وطاردوهم. فهرب الانجليز ركضاً أمامهم، فمات واحدٌ منهم مصاباً بضربةِ شمس. كانت المحكمة مُشَكّلة من بطرس غالي رئيساً وعضوية فتحي زغلول، رئيس محكمة مصر الابتدائية، بالإضافة لبعض الأعضاء الانجليز، وكان المدعي إبراهيم الهلباوي، وكان محامي الفلاحين أحمد لطفي السيد. أصدرت المحكمة حكمها بعد أُسبوع واحد من الحادث بالشنق على أربعة فلاحين- كان عمر أحدهم ٧٠ عاماً- حُكِم على اثنين بالأشغال الشاقة المؤبدة، وحكم على أحد عشر آخرين بالسجن بالأشغال لمددٍ مختلفة، بالإضافة للحكم بجلد آخرين. وللدفاع عن هذه البشاعة اتُهِمَت الأمة المصرية كلها بالتعصب الديني ورُوِّجَ لذلك في أوروبا. نعى كرومر على المصريين أنهم مصابون بعقمٍ أبدي مرجعه إلى الجمود الديني الذي يقف بأهله إلى ما قبل ألف سنةٍ للورا.

في العمل، والجناب العالي لا يبالي بما في عمله من الخطأ، والحالة أصعب من أن تسهُل! فهونتُ عليه وقلت: لمثل هذه الأحوال الصعبة تُعد عقلاء الرجال ". ويسترسِل سعد زغلول في مذكراته فيقول "وفي الواقع إن في الأفكار تشويشاً عاماً، وكل هائمٍ على وجهه لا يَدري الغايةَ التي يسعى إليها، وليس بينهُم اتفاق إلا على هذه الحقيقة وهي أنهم ينفرون من الحق[1].

اعتقد بعض الأقباط أن وراء اغتيال بطرس غالي تعصباً دينياً، ولكن تصدى لذلك بعض الأقباط ومن ضمنهم ابن بطرس غالي نفسه. كان الكثيرون حذرين من أن يؤدي اغتيال بطرس غالي لفتنة طائفية. فقال مرقس فهمي: حتى إذا قتل الورداني تعصباً وحده أو مع شركائه فليس ذلك دليلاً على أن كل المسلمين أرادوا هذا القتل بسببه، وقال نصيف جندي المنقبادي "أنا أعرِفُ الورداني شخصياً؛ ملأت صدره الوطنية الحرة، وليس رجلاً متعصباً. أنا بصفتي قبطياً أُصرّح بأن حركتنا هي حركة وطنية مجردة، ما تهمة التعصب إلا من إشاعات الانجليز ليبرروا المظالم التي يرتكبونها [2].

كانت فكرة عقد مؤتمر قبطي قد عارَضَها بطرس غالي عندما كان رئيساً للوزراء. ووقَفَ ضِد تحقيقها، ولكن دُعَاة المؤتمر استغلوا اغتياله. لا يختلف الكثيرون مِن الكُتّاب على أن الانجليز ساعدوا على عقد المؤتمر القبطي ثم المؤتمر الإسلامي، وإن كان من وراء الستار أحياناً. وقد استغلوا بعض صغار العقول من الأقباط. كان أول وأكبر داعيةٍ للمؤتمر هو أخنوخ فانوس من أسيوط، والذي تَلَقّى تعليمه في مدرسة الأمريكان بأسيوط- معقل حركات التبشير- وذوي النفوذ القوي في الطائفة الإنجليكية، وقد تبنى المؤتمر أيضاً عائلتا خياط وويصا من أسيوط والمتأثران بالتعاليم البروتستنتية الأمريكية. لقد كَتَب سالم سيدهم تادرس في جريدة "التايمز المصرية" سنة١٩٠٨يتهم أخنوخ فانوس بالخيانة ويخاطبه قائلاً "لقد أصبحت

---

(١) مذكرات سعد زغلول. تحقيق عبد العظيم رمضان. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ج٢. ص ٣٩٥.
(٢) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص ٦٤.

الشخص الذي إذا مرّ في الطريق قلنا هذا أحد صنائع الانجليز في مصر، والآلة التي يحركها المقطم – الجريدة التي تعبر عن رأي الانجليز– اتقِ الله أيها المجتهد الباطل" [1]. وقد أيّد الخديوي عباس عقد المؤتمر القبطي وصرّح بأن للأقباط مطالِب يجب النظر إليها. اعتقد الخديوي أن ذلك يخلِق للمعتمد البريطاني جورست ارتباكاتٍ قد تُسقِطُه. كان ويصا واصف ومرقص حنا من كبار الأقباط الذين وقفوا بإصرار ضد الشقاق، وكان الاثنان في الحزب الوطني تحت زعامة مصطفى كامل. كما عارضه أيضاً بطريرك الأقباط، وإن كان مطران أسيوط القبطي قد حضر المؤتمر إلا ان كلمته كانت قصيرة، وكل ما بها أنه حثّ الحاضرين على أن يحافظوا على أحسن العلاقات مع بقية إخوانهم المصريين. والحقيقة أن اغلب المصريين المفكرين وقفوا ضد المؤتمر. لقد كان المؤتمر القبطي والإسلامي قمةً ليس فيما وصلا إليه ولكن لأنها قمةٌ انحسرت بعدها شقّة الخلاف.

عندما عُقِد المؤتمر القبطي لم يسمح لأخنوخ فانوس برئاسة المؤتمر، واختير بشري حنًّا لرئاسته– انضم للوفد بعد ذلك– فخفّت كثيراً حدة الخلافات في خطب المتحدثين وانحسرت مطالبهم في ١– مساواة جميع المصريين. واعتبار يوم الأحد يومَ عطلة للأقباط ٢– التعويل على الكفاءة دون سواها مع إهمال النسب العددية ٣– أن يتمتّع الأقباط بجميع حقوق تعليم الأهالي القائمة بها الآن مَجالِس المديريات وتجبى لأجلها ضريبة الخمسة في المائة من جميع المصريين –٤ تشخيص حميع العناصر المصرية في جميع العناصر النيابية تشخيصاً يضمن للجميع المدافعة عن حقوقهم والمحافظة عليها.

كان أبرز ما ميَّز جلسات المؤتمر هو تأكيد الانتماء الكامل للوحدة الوطنية بغير إثارة شك. لقد قال توفيق دوس في إحدى جَلسَات المؤتمر إنه يعارض تمييز المسلم بأي منصب ويعارض تمييز القبطي أيضاً وإذا وُجِد قبطياً يحابي قبطياً آخر فهو خائنٌ يجب وقفه. لقد تعرض طارق البشري بتدقيق المؤرخ لخلفية تلك الفترة، وكان

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط.مرجع سابق. ص ٦٢.

عادلا في عرض وجهتي النظر بالتفصيل غير المخل[١]. ولا يختلف ما ذكره طارق البشري عمّا ذكرة المؤرخون الأقباط مثل سميرة بحر ورياض سوريال[٢]. لقد أجمع أغلب المؤرخين على أن يد الاستعمار حاولت العبث بالوحدة الوطنية.

عُقِدَ المؤتمر الإسلامي رداً على المؤتمر القبطي في الإسكندرية. وقد رأس المؤتمر مصطفى رياض رئيس الوزراء السابق بتشجيع من جورست المندوب البريطاني. ومن المعروف أن رياض كان رجل الانجليز. حضر المؤتمر نخبةٌ من سياسييّ مصر المرموقين من أمثال فتح الله بركات، أحمد لطفي السيد، علي شعراوي، وآخرون. لم يختلف هذا المؤتمر عن نظيره القبطي في تأييد الوحدة الوطنية والوقوف أمام المتسببين في الفتنة. لقد حاول المؤتمر بحث الشئون المصرية جميعها، بما فيها مطالب الأقباط، وحاول تهدئة الشعور الوطنية وأُعطِيت أمثلةٌ عديدةٌ لعمق الشعور الوطني للمصريين جميعاً. تكلم الكثيرون في المؤتمر، وكان النمط متشابهاً بوضوح. فتكلم أحمد عبد اللطيف عن الأقلية الدينية والمجالس النيابية، وقال إن مؤتمر أسيوط جعل السياسة مبنية على الفوارق الدينية. فليكن مبدؤنا: لا وطن للدين ولا دين للوطن. لقد قامت الأحزاب السياسية في أوروبا على أنقاض الأحزاب الدينية. طلب الشيخ عبد العزيز جاويش "جعل الخزانة العامة مصدراً للإنفاق على جميع المرافق المصرية على السواء "، ثم ذكر وجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان في تطبيق أحكام الشريعة، ودعا إلى فتح أبواب الاجتهاد. تكلّم أحمد لطفي المحامي عن الطُرَق المؤدية لحسن الوفاق بين عناصر الأمة وطبقاتها. أما الشيخ علي يوسف- صاحب جريدة المؤيد- فقد تحدّث عن التعليم في مصر وحظ المسلمين والأقباط منه. كان تقريراً طويلاً تم تبادل قراءته. وكان شديداً على الأقباط، فرفض ما أسماه زَعم الأقباط أنهم أكفأ من المسلمين، وذكر أن المصريين جميعاً مسلمين وأقباطاً من أصل واحد. تحدث المؤتمر عن دور المبشرين الأجانب، وخصوصاً الأمريكان والانجليز.

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. المرجع السابق. ص ٥٥ -١٠٠.

(٢) سميرة بحر.الأقباط في الحياة السياسية المصرية. مكتبة الأنجلو. الطبعة الثانية. سنة ١٩٨٤. ص ٤٣. وكذلك، رياض سوريال المجتمع القبطي في القرن ١٩. مكتبة المحبة. سنة ١٩٨٤. ص٢٦٨.

وذكر أيضاً أن نِسبة الأقباط العددية ٦,٤٣٪ وثروتهم لا تتجاوز ١٠٪ ونسبتهم في نِظارة المعارف ٦٪ ونسبتهم في في نظارة الداخلية ٩٥,٦١٪ [١]، ونِسبَتهم في نظارة الحقانية ١٥٪ ونسبة رواتبهم ١٤،٥٪،وفي نظارة المالية ٤٦٪ فضلا عن الصيارفة الذين يبلغون ١٨٧٧ صرافاً، منهم خمسون فقط من المسلمين.

كان من ضمن توصيات المؤتمر الإسلامي (المصري) : ١- رفض الحقوق السياسية بين الطوائف الدينية، مع تقرير أن الأمة المصرية هي في مجموعها كلٌ لا يقبل التجزئة في الحقوق السياسية، وأنه مع ما لكل طائفة دينية من الحرية في عقيدتها، فإن للحكومة المصرية ديناً رسمياً واحداً هو الإسلام ٢- تقرر بالإجماع أن تكون الكفاءة هي القاعدة في التعيين، مع لفت نظر الحكومة إلى التحقق من اسباب شَغل الكثير من مصالحها بالموظفين الأقباط مع وجود الأكفاء من المسلـــــمين. ٣- رفض تعديل قانون الانتخابات بما يجعل لكل طائفة دينية دائرةً خاصةً بهـــا ٤- رفض أن تصرف الحكومة على المرافق الطائفية، لأن الأقباط مثلاً متمتِّعُون في التعليم بجميع أنواعه بأكثر مما يتفق ونسبتهم العددية ونسبة ما يؤدون من ضرائب. ويلاحظ طارق البشري أنه فيما عدا المطالبة بيوم الأحد إجازةً للأقباط فإن جوهر قرارات المؤتمر لا تختلف عن نظيره القبطي. وقد قال محمد حسين هيكل باشا تعليقا على المؤتمرين "لم تكن هذه المحنة شراً خالصاً، فقد وضعت هذه الخصومة السافرة حداً لسوء الظن المتبادل وكانت تنفيساً شفى النفوس[٢].

خلال تلك الحقبة توفي مصطفي كامل. واشترك في تأبينه الكثير من المصريين أقباطاً ومسلمين، كان ألمع أعضاء الحزب الوطني من الأقباط هما ويصا واصف ومرقص حنا، وكلاهما لعب دوراً مهماً فيما بعد ذلك مع سعد زغلول. وإن كان الأقباط لم يندمجوا تماماً في الحزب الوطني (خلاف الحزب الوطني الذي أُنشئ خلال الثورة العرابية) لأنه سَعَى لخروج الانجليز والعودة للخليفة العثماني. ويعتقد

---

(١) يعتقد طارق البشري أن هذه النسبة العالية تعود إلى الوظائف المدنية والإدارية الصغيرة. طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق ص ٨٧.

(٢) طارق البشري. المرجع السابق. ص ٩٥.

البعض أن سياسة مصطفى كامل والحزب الوطني كانت استخدام العلاقات القديمة مع تركيا للخلاص من الانجليز وليس بالضرورة لعودة الأتراك. لقد لعب مصطفي كامل دوراً في غَاية الأهمية في إيقاظ وتنمية الشعور الوطني الذي ورثه بعد ذلك سعد زغلول ورجاله ونموه. اندمَجَت الأغلبية الساحقة من الأقباط والمسلمين في تلك الحركة. توفي مصطفي كامل وكان عمره ٣٥ عاماً. بعد مصطفى كامل جاء محمد فريد الذي لم تمتد به الأيام كثيراً أيضاً. وقد قال وهو على فِراش الموت بعد أن استمع لأحد مقالات سينوت حنا: الحمد لله الذي حَقّق امامي ورأيت بعيني اتحاد أمتي قلباً وقالباً على طلب الاستقلال التام، وهذا ما كنت أدعو إليه خصوصاً وقد وضع المسلم يده في يد أخيه القبطي، وكلهم ينادون بصوتٍ واحد بلادي بلادي[١].

(١) طارق البشري عن صحيفة مصر. المسلمون والاقباط. مرجع سابق ص ١٣١.

ما بين ثورة ١٩١٩ وحتى ثورة ١٩٥٢

تبلور حركة سعد زغلول وزملائه. بُزوغ الوفد كأكبر حزب شعبي، النضال في سبيل الديمقراطية والاستقلال، دستور ٢٣، انشقاقات الوفد، دور الأزهر في السياسة، نظام التعليم والدين، ومحاولة نقل الخلافة الإسلامية لمصر، الأقباط والمسلمين في ظل الوفد. الوفاق بين النحاس ومكرم عبيد، صعود وهبوط مكرم عبيد، تواطؤ أحزاب الأقلية مع القصر والانجليز، ظهور وصعود الإخوان المسلمين، حرية الفكر وتعثره.

ذهب سعد زغلول وعلي شعراوي وعبد العزيز فهمي- وكانوا أعضاء منتخبين في المجلس التشريعي- لمقابلة المعتمد البريطاني ريجنلد ونجت يوم ١٤ نوفمبر ليعبروا عن قلقهم على مستقبل مصر بعد نهاية الحرب، وطالبوا بالاستقلال التام. لم يسفر ذلك الاجتماع عن أكثر من استطلاع رأي. كانت تنقص هذه المجموعة الصفة القانونية للمطالبة بالاستقلال. بدأ سعد ورفاقه يحصلون على توقيعات من مختلف أفراد الشعب وهيئاته وجماعاته بتوكيلهم في الدفاع عن القضية المصرية والمطالبة بحرية البلاد واستقلالها. وكَّل المصريون كلاً من سعد زغلول، علي شعراوي، عبد العزيز فهمي، محمد علي علوبة، عبد اللطيف المكباتي، محمد محمود، وأحمد لطفي السيد، لتمثيلهم في التعبير عن الأمة. اعتُبِر ذلك التاريخ عيد الجهاد الوطني، كان جميع أعضاء الوفد أعضاء منتخبين في الجمعية التشريعية. هكذا أُنشئ الوفد، وكان هدفه السعي بالطرق السلمية المشروعة وحيثما وجد للسعي سبيلاً لاستقلال مصر استقلالا تاماً. طبع سعد توكيلات للتوقيع عليها في خمس مديريات؛ أولاً لتكون بعيدةً عن عيون المخابرات العسكرية لوجود قوانين الحماية البريطانية وحالة الطوارئ. بعد معرفة الشعب بتلك التوقيعات وَّقعت عليها أعداد هائلة من المصريين من الإسكندرية وحتى أسوان.

كان قيام الوفد على هَذا النحو وخلوه من الأقباط قد سبّب بعض اللغط، أوفد بعض زعماء الأقباط ويصا واصف عضو الحزب الوطني القديم ونقيب المحامين

ومعه عضوان من أعضاء نادي رمسيس القبطي لمقابلة سعد زغلول الذي رحب بهم، وتفاهموا على أن ينضم للوفد واصف بطرس غالي (ابن بطرس غالي) وأصبح أحد شعارات الوفد (الدين لله والوطن للجميع). بعد ذلك انضمّ أقباط آخرون للوفد، وتألق منهم الكثيرون. عندما استفهم جورج خياط من سعد زغلول عند انضمامه للوفد عما سيكون في شأن الأقباط بعد الاستقلال قال سعد له : يكون شأنهم شأننا، لا فرق بين أحدٍ منّاً إلا في الكفاءة الشخصية. وقد كان ذلك[1]. بعد ذلك انضمت الأغلبية الساحقة من الأقباط للوفد، شأنهم شأن الأغلبية الساحقة للمسلمين. بذلك انتقلت الحركة الوطنية المصرية من المفهوم العام للجامعة الإسلامية إلى المعنى المحدد للوطنية المصرية، وكان ذلك مُعَبراً عن تيار علماني او مدني (الحقيقة ان الحكومة المصرية لم تكن في اي وقت حكومة علمانية بل كانت حكومة مدنية). أصبحت دعوة سعد زغلول ورفاقه تعني سقوط السيطرة العثمانية والانجليزية في وقت واحد [2].

كانت شخصية سعد زغلول فريدةً، صقلتها الأيام. وُلِدَ سعد حوالي سنة ١٨٥٧. كان ابن فلاح من عائلةٍ متيسرةٍ لدرجةٍ ما. في شبابه اشتركَ في الثورة العرابية، كمَا اشترك فيها أساتذته وناله الاعتقال بغير سببٍ واضح وخسر وظيفته. استمر سعد في مراسلة بعض أعضاء الثورة البارزين وكان قريباً من عبد الله النديم ومحمد عبده، واستمر في الاتصال بهما حتى بعد أن نُفِيَ بعضهم بعد فشل الثورة العرابية. اتهم سعد بالاشتراك في جمعية سرية للانتقام ممن خانوا الثورة العرابية، ولكن التهمة لم تثبت عليه، ومع ذلك استمر سجنه ثلاثة أشهر[3]. تزوّج سعد زغلول من صفية، ابنة مَصطفى باشا فهمي سنة ١٨٩٦، والذي رأس الوزارة المصرية بضع مرات، كان أطولها ما بين ١٨٩٥ وحتى ١٩٠٨ واعتبره المؤرخون رجل كرومر[4]. كانت كل الوزارات فيما بين الثورتين وزارات مستسلمة للحكم البريطاني.

---

(١) سميرة بحر.الأقباط في الحياة السياسية المصرية. مكتبة الأنجلو. الطبعة الثانية. سنة ١٩٨٤. ص ٧٤.

(٢) سميرة بحر. المرجع السابق. ص ٧٥.

(٣) عباس محمود العقاد. سيرة سعد زغلول. دار الشروق. بدون تاريخ إصدار. ص ٧٠.

(٤) يونان لبيب رزق. تاريخ الوزارات المصرية. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام. سنة ١٩٧٥. ص ١٤٩.

كان مصطفى فهمي رجل الجميع، وبالرغم من اشتراكه في وزارات الثورة العرابية، إلا أنه بعد أن تعقدت الامور ترَك البلاد بدعوى سوء الصحة ولم يعد إليها إلا بعد أن هدأت الأمور. لقد مر سعد زغلول بمرحلة الثورة العرابية في شبابه، ثم مرحلة الاحتكاك بأهل الحكم وتحصيل الخبرة والتعليم. حصل على ليسانس الحقوق من جامعة باريس سنة ١٨٩٨ ومارس المحاماة. ثم جاءت مرحلة النضوج والتي اشترك فيها في المجالس النيابية والوزارة، فكان وزيراً للمعارف ثم وزيراً للحقانية، ثم أخيراً قاد مرحلة ثورة سنة ١٩١٩، وكان عمره في ذلك الوقت قرابة الستين عاماً. وكأن حياته دائرةٌ بدأت بثورةٍ وانتهت بأخرى. وكان المصريون قد تعلّموا من فشل الأولى وحققوا بعض النجاح النسبي في الثانية. في حفل وداع لورد كرومر في دار الأوبرا سنة ١٩٠٧ أثنى فيه كرومر على بعض الحاضرين ومن ضمنهم مصطفى فهمي "للُطفه"! أما عن سعد زغلول فقال " أذكر أخيراً اسم رجل لم أشتغل معه إلا من عهدٍ قَريب، ولكن معاشرتي القصيرة له علَّمَتني أن أحترمه احتراماً عظيماً وإن أصاب ظني ولم يخطئ كثيراً فسيكون أمام ناظر المعارف الجديد سعد زغلول باشا مستقبلٌ عظيم للمنفعة العمومية لأنه حائزٌ لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده؛ فهو صادق، أمين، كفؤ، مقتدر، شُجاع فيما هو مقتنع به. وقد احتمل الطعن والذم من كثيرين هم دونه فضلاً بمراحل من أبناء وطنه فهذه صِفات سامية، فالواجب أن صاحبها يتقدم كثيراً [(١)].

كانت الحركة السياسية طوال السنوات الأربع ما بين ١٩١٤ وحتى نهاية الحرب العالمية في أواخر سنة ١٩١٨ مرحلة قلقة للغاية شهدت الحرب العالمية الأولى وإعلان الحماية البريطانية على مصر، وخلاص مصر من السيادة التركيـة -أو كادت- واستبدالها بالسيادة البريطانية، وازدياد تسلُّط الانجليز واشتداد المقاومة لهم. ما بين ١٩١٤ و ١٩١٩ استقالت وزارة حسين رشدي باشا أربع مرات، وظلت مصر بدون وزارة أربعة أشهر خلال ١٩١٩. سعت وزارة رشدي بالاتفاق مع سعد زغلول ورفاقه بذهاب وفدين لباريس لحضور مؤتمر الصلح لما بعد الحرب لبحث وضع مستقبل مصر:

---

(١) مذكرات فخري عبد النور. تحقيق يونان لبيب رزق. دار الشروق. سنة ١٩٩٢. ص ٢٧.

وفدٌ رسميٌّ يمثله وزارة رشدي. ووفدٌ شعبي يمثلهُ سعد زغلول ورفاقه.وكان سعد وكيلاً منتخباً للجمعية التشريعية (١).

سمح الانجليز لوفود من سوريا، لبنان، فلسطين، الحجاز، وأرمينيا للذهاب لفرنسا للمشاركة في مؤتمر السلام ولكنهم رفضوا سفر كلا الوفدين المصريين. كانت مقاومةُ فرض الوصاية البريطانية على مصر مقاومةً شعبية وقوية؛ ولكن المصريين تقبلوا ذلك على مضض حتى انتهت الحرب العالمية الأولى. مع نهاية الحرب كثرت الإضرابات والمظاهرات والاعتقالات. حذرت الحكومة البريطانية المصريين من القيام بأي عملٍ يرمي إلى عرقلة سير الإدارة تحت الحماية الانجليزية. زاد الإنذار البريطاني من الشعور المعادي لها. عندما رفضت انجلترا سفر الوفدين المصريين استقالت وزارة رشدي وبدأ الموقف يتأزم. أخيراً قبِل السلطان استقالة وزارة رشدي، اعترض الوفد على قبول الاستقالة، لأن ذلك لا يسمح لمصري ذي كرامة وطنية أن يخلفه في مركزه! كيف فاتهم أن وزارةً تُؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضيٌّ عليها بالفشل؟ (٢). ولكن ما أشعل الثورة حقيقةً كان اعتقال سعد زغلول، محمد محمود، حمد الباسل واسماعيل صدقي ونفيهم إلى مالطة في ٨ مارس ١٩١٩. فور سماع تلك الأخبار اندلعت المظاهرات المعادية للانجليز في أغلب المدن المصرية. استُعمِل العُنف لفض المظاهرات، مات الكثير من المتظاهرين ولم تتوقف المظاهرات. لم تستطع الحكومة السيطرة على البلاد فاضطرت للإفراج عن الزعماء الأربعة في ٧ أبريل، وسُمِح لهم بالسفر إلى أي مكان. أعيد تشكيل وزارة حسين رشدي بعد الإفراج عن سعد ورفاقه ولكنها لم تبقَ في الحكم إلا اثني عشر يوماً، لأن الوزير الانجليزي لورد كرزون ألقى خطبة عرض فيها بالثورة المصرية، وادعى أن الموظفين لم يشتركوا في الثورة. أضرب الموظفون وساندهم التجار، وشلّ ذلك أعمال الحكومة لمدة ٢١ يوماً. لم تستطع الوزارة الاستمرار إزاء إصرار الموظفين على الإضراب فاستقالت الوزارة. ظلت السُلطة في مصر شهراً آخَر عاجزةً عن تكوين وزارة. لم تستطع وزارة

---

(١) يونان لبيب رزق. تاريخ الوزارات المصرية. مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام. سنة ١٩٧٥. ص ٢٠١.

(٢) مذكرات فخري عبد النور. تحقيق يونان لبيب رزق. دار الشروق. سنة ١٩٩٢. ص ٥٤.

حسين رشدي الرابعة والأخيرة الاستمرار إلا من ٩ أبريل إلى ٢٠ مايو سنة ١٩١٩.

بعد إلغاء نفي سعد ورفاقه لحق بهم باقي أعضاء الوفد، وكانوا عشرة أعضاء مسلمين وأربعة أقباط، وسافروا جميعاً لفرنسا. يوم وصول الوفد لفرنسا أعلن الرئيس الأمريكي ويلسون تحت الضغط البريطاني أن أمريكا وافقت على استمرار الوصاية على مصر. بذلك نفضت أمريكا يديها عما نادت به سابقاً من حق الشعوب في تقرير مصيرها وبقيت خيوط السياسة الدولية في أيدي الانجليز. حاول بعض أعضاء الوفد الدعاية لوجهة النظر المصرية بين المثقفين وفي الإعلام. شُكِّلت لجنة مركزية من بعض أعضاء الوفد بالقاهرة لتكون همزةَ وصلٍ بين الوفد الموجود في أوروبا وبين الأُمة. واشترك في تلك اللجنة أقباط ومسلمون ولم تكن هناك أية حساسية بينهم وكان الهدف واضحاً. من أسباب نجاح الثورة الشعبية التي قادها سعد زغلول أنه عندما ألف الوفد نظمه في طبقات سرية، إذا نُفيت الطبقة الأولى، برزت الطبقة الثانية لتتولى الزعامة. كان هناك أربع طبقات مستعدة للقيادة.

في ٢٠ مايو ألّف محمد سعيد باشا الوزارة واعلن أنها وزارة إدارية، ولم تكن وزارة محمد سعيد باشا رافضةً لمبدأ الحماية. كان أحد أهداف هذه الوزارة أن تسعى إلى تأليف جماعة سياسية قابلة للتعاون مع الوجود البريطاني، ولتواجه شعبية الوفد الطاغية. كان على تلك الوزارة أن تُعد لاستقبال لجنة "عظيمة" من بريطانيا برئاسة مِلنر لتحدد صفة الحماية وتعرض رأيها فيما يختص بإدارة البلاد في المستقبل. طالب محمد سعيد بتأجيل حضور لجنة مِلنر حتى يتمكن من تنفيذ برنامجه السياسي. ازدادت حالةُ القلق في مصر وعجّلت بريطانيا بطلب حضور مِلنر ولجنته. أصر محمد سعيد باشا رئيس الوزراء على الاستقالة قبل وصول لجنة ملنر في ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩، ولقيَ ذلك ترحيب المصريين.

كانت خطة بريطانيا ضرب الوحدة الوطنية قبل وصول لجنة ملنر للحصول على قبول المصريين للحماية. في هذا المناخ المضطرب قبِلَ يوسف وهبة رئاسة وزارة جديدة وكان وزير المالية في الوزارة السابقة ووزيراً في العديد من الوزارات السابقة.

اشترك في الوزارة الجديدة خمسة وزراء من الوزارة السابقة، ودخلها ثلاثة وزراء جدد [١]. تكونت الوزارة الجديدة تحت رعاية الانجليز الذين توقعوا أن يفسد وجود رئيس وزارة قبطي الوحدة الوطنية المتكتلة حول سعد زغلول. ولكن ذلك لم يحدث. يذكر اللنبي في رسالة للخارجية البريطانية أن كل هؤلاء الوزراء يجمعهم الولاء لبريطانيا [٢]. عارضت جموع الأقباط والمسلمين يوسف وهبة، وحاول اغتياله شابٌ قبطيٌ في كلية الطب اسمه عريان يوسف سعد حتى لا يُستَغل اغتياله لإشعال الفتنة الطائفية إذا اغتاله مُسلم [٣]. كانت هناك ثلاث محاولات أخرى لاغتيال ثلاثة أعضاء من تلك الوزارة. نتيجة لتلك الاغتيالات قررت الوزارة أن تمنَح الوزراء المعينين لقب "صاحب المعالي"، وأن تُعطي له معاشاً قدره ألف وخمسمائة جنيه يستمتع بها طيلة حياته ومع ذلك استقال اسماعيل سري وزير الحربية والأشغال. ولكن كل ذلك لم يجُدِ. واستقال يوسف وهبة ووزارته في ١٩ مايو سنة ١٩٢٠، أي بعد خمسة شهور من تشكيلها. يقول لويس عوض إنه نظرياً لم يكن هناك ما يمنع من تقلُّد مسيحي رئاسة الوزراء (كان نوبار مسيحياً أرمنياً، وكان رياض يهودياً تحوّل للإسلام). ولكن عملياً كان القصد هو استفزاز شعور الأغلبية المسلمة [٤]. وقَع بطرس غالي في الفخ ففقد حياته كما سبق وأشرت حين اغتاله الورداني. وكاد يوسف وهبة أن يقع في الفخ، إلا أن القنبلتين اللتين ألقاهما عريان يوسف القبطي على موكب يوسف وهبة لم تقتلاه ولكنهما وضعتا نهاية لمحاولة الانجليز كسر الوحدة الوطنية.

كانت مقاومة المصريين الأقباط ليوسف وهبة ملحمة للوحدة الوطنية وضد الاحتلال البريطاني. لقد تجمّع في الكنيسة المرقسية بالقاهرة يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٩ قرابة الألفين من المصريين من أقباط ومسلمين، وامتد ذلك لكنائس الأقاليم.

---

(١) يونان لبيب رزق. تاريخ الوزارات المصرية. مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام. سنة ١٩٧٥. ص ٢١٦.

(٢) يونان لبيب رزق. المرجع السابق. ص ٢١٧..

(٣) سميرة بحر. الأقباط في الحياة السياسية المصرية. مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة الثانية. سنة ١٩٨٤. ص ٨٥.

(٤) لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٠. المبحث الأول. ج١. ص ١١٤.

وكذلك اجتمع في الكنيسة المرقسية يوم ١٢ ديسمبر أكثر من مائتين من السيدات المصريات من قبطيات ومسلمات وفي مقدمتهن هدى شَعراوي وزوجات بعض شيوخ المسلمين مثل الشيخ علي غنيم ويوسف غنيم وكثيرين غيرهم [١]. كانت معارضةً جماعية. أُلقيت الخطب ووُقِّعت البيانات، وأُرسِلَت البرقيات ليوسف وهبة تقول: نستحلفكم بالوطن المقدس وبذكرى أجدادنا العظام أن تمتنعوا عن قبول هذا المنصب الشائن. كتب سينوت حنا سلسلة مقالات تحت عنوان "الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا" ووجّه كلامه ليوسف وهبة قائلاً: بصفتي قبطياً ونائباً في الجمعية التشريعية أقول لك أنت تُضرُّ ببلدك عامةً وبالقبط خاصةً. وأعلن للعالم أن يوسف وهبة لا يمثل القبط وأنهم منفضون من حوله. أما ويصا واصف فكتب قائلاً ليوسف وهبة " إنك تَتَحمّل مسئولية فعلتك أمام الأجيال القادمة، وإنك لا تمُثل القبط ولا تعبِّر عن أمانيِّهم " [٢]. عندما لم ينجح أيٌّ من ذلك، كانت محاولة عريان لاغتيال يوسف وهبة وحُكِم على عريان بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات، ولكن أُفرِجَ عنه في وزارة سعد زغلول سنة ١٩٢٤ وعُيِّن موظفاً بمجلس الشيوخ.

بدأت الوحدة الوطنية تأخذ شكلاً جديداً بين المصريين وبصورة لم يسبق لها مثيل. اشترَكَ المسلمون في الاحتفال بأعياد الأقباط، واشترَكَ الأقباط في الاحتفال بأعياد المسلمين وكأن كل الأعياد الدينية أصبَحَت أعياداً قومية. كان الشيوخ وكبار المسلمين يخطبون في الكنائس، وكان الكهنة وكبار الأقباط يخطبون في الجوامع. في ٢٤ أبريل سنة ١٩١٩ ذهب وفدٌ من السيدات القبطيات إلى مسجد السيدة زينب حيث كان في انتظارهن فريقٌ من السيدات المسلمات. ذهب أولئك لرد التهنئة لهؤلاء، فكان ذلك حدثاً فذاً في التاريخ المصري [٣]. لم تكن مظاهر الوحدة الوطنية قاصرةً على القاهرة، بل امتدت لبعض المدن الأخرى. امتدت مظاهرات التأييد لسعد ورفاقه من الإسكندرية وحتى أسوان، واضطُرّ الانجليز للتدخل عسكرياً ولكن دونَ

---

(١) سميرة بحر.الأقباط في الحياة السياسية المصرية.مكتبة الأنجلو المصرية.الطبعة الثانية. سنة ١٩٨٤. ص ٨٦.
(٢) سميرة بحر.المرجع السابق. ص ٨٦.
(٣) سميرة بحر. المرجع السابق. ص ٧٥.

جدوى. لم تكن تلك الحركة وليدة الساعة بل كانت حركةً تختمر في الوجدان المصري خلال قرن من الزمان، وكان لها الكثير من الأسباب، ولكن كان لشخصية سعد زغلول، ذلك الفلاح المصري، أثرٌ كبيرٌ في بلورة آخر مراحلِ تلك الفترة. وكان سعد ديمقراطيَ النزعة محاطاً بنخبة من المصريين من أهل الرؤية وإن اختلفت تلك الرؤية.

كان أعضاء الوفد في أوروبا يحاولون القيام بما يستطيعون. أما في مصر فكانت لجنة الوفد تزاول نشاطها لمنع التعامل مع لجنة مِلنر، وأصرّت على أن التعامل لن يكون إلا مع الوفد، فشلت لجنة ملنر. أبلغت الحكومة البريطانية مصر في ٢٦ فبراير ١٩٢١ أن الحماية على مِصر غير مُرضيةٍ ودَعَت مصر للدخول في مفاوضات رسمية للوصول إلى استبدال الحماية بعلاقةٍ أخرى[١]. أصدر السلطان فؤاد مرسوماً بتشكيل وزارة للتفاوض مع الانجليز برئاسة عدلي يكن في مارس ١٩٢١. عاد سعد زغلول ورفاقه في أبريل، طلب عدلي من سعد الاشتراك في المفاوضات. اشترط سعد للاشتراك مع الوزارة أن تكون الغاية إلغاء الحماية بوجهٍ عام، والوصول إلى الاعتراف بالاستقلال التام، إلغاء الاحكام العُرفية قبل الدخول في الانتخابات، وأخيراً أن تكون للوفد أغلبية المفاوضين، وأن تكون له الرئاسة. كان الخلاف الرئيسي يدور حول الرئاسة، لأن سعد اعتبر أن الدولة فوّضته، ولكن السلطان فوّض عدلي. كان الصراع الحقيقي بين السلطان وممثلي الشعب.

عُرِض أمر الاشتراك في المفاوضات على هيئة الوفد. رأى أغلبية الأعضاء عدم الاشتراك في المفاوضات، مع عدم محاربة الوزارة.صمّم سَعد على رأيه وعلى عَدَم الثّقة بالوزارة.انشقَ من الوفد علي شعراوي، محمد محمود،علي علوبة،حمد الباسل، عبد اللطيف المكباتي، أحمد لطفي السيد. وانضم إليهم بعد ذلك حافظ عفيفـــــي، عبد الخالق مدكور ثم استقال جورج خياط. ونشر بعض المنشقين في الصحف كتاباً إلى سعد يعترضون فيه على عدم اكتراثه برأي الأغلبيــة [٢]. بقــي مــع سعــد

---

(١) الرافعي. في أعقاب الثورة المصرية. ثورة ١٩١٩. مرجع سابق. ص١٩.

(٢) المرجع السابق. ص ٢٣.

من أعضاء الوفد مصطفى النحّاس، واصف بطرس غالي، سينوت حنا، ويصا واصف، وعلي ماهر. (لاحِظ أن أغلب أو كل المنشقين كانوا مسلمين، ما عدا جورج خياط الذي استقال ثم عاد للوفد). من بقيَ من الوفد كانوا ثلاثة أقباط وثلاثة مسلمين.

هل كان هذا الانشقاق مجرد اختلاف في الرؤية- وهذا جائز، أم أنه كان هناك دورٌ للدين ؟ أو دورٌ لمدى تأثير الثروة التي كان يملكها المنشقون بالمقارنة مع الثروة التي يملكها المرتبطون بسعد؟ هذه أسئلةٌ تستحق البحث. الكثير من المنشقين فيما بعد كوَّنوا حزب الأحرار الدستوريين، وكان بعضهم من أصحاب الثروات الطائلة. كان سعد أكثر تشدداً مع الانجليز، فهل كان الأقباط أكثر تشدداً من المسلمين المنشقين؟ وإذا كانوا كذلك فلماذا ؟ هذه فترة غنية بخبرتها وتساؤلاتها.

استقطب عدلي بعض المنشقين واعتبرهم وفديين معتدلين، إلا أن الأغلبية العُظمى من المصريين ارتبطت بسعد زغلول. قامت المظاهرات العدائية ضد عدلي وضد المنشقين، مناديةً بسقوطِهم ورميهم بالخيانة. انتشرت المظاهرات في كل مصر، وسَقَط بعض القتلى وكثيرٌ من الجَرحى. مما زاد من شِقّة الخلاف أن الوزارة قدمت بعضَ كِبار موظفيها لمجالس تأديب لمحاكمتهم على إقامة حفل تكريم لسعد زغلول بعد أن هاجم الوزارة. كان الموظفون المقدمون لمجالس تأديب خمسة من الأقباط وأربعة من المسلمين، وكان من ضمنهم مكرم عبيد وفهمي النقراشي - والذي رأس الوزارة فيما بعد- أمّا مكرم عبيد فتألق كسكرتير للوفد لمدة طويلة [1].

مضت وزارة عدلي في تأليف الوفد الرسمي للمفاوضات برئاسته، وأسرف سعد من ناحيته في الهجوم المستمر على عدلي وما يجريه من مفاوضات في انجلترا. بل أرسل أيضاً مكرم عبيد إلى لَندن للوقوف على ما يحدث في سير المفاوضات

(١) الرافعي. في أعقاب الثورة المصرية. ثورة ١٩١٩. دار المعارف. ج١. الطبعة الرابعة. سنة ١٩٨٧. ص ٢٧.

وللدعاية بعدم تمثيل يكن للمصريين. ساهم مكرم عبيد أثناء وجوده بلندن في تكوين لجنة من النواب لتأييد القضية المصرية. وقد دعا سعد فريقاً مِنهُم لزيارة مصر[١].

يعتقد الرافعي أنه كَانَ من الأفضل لعدلي أن يستقيل عن أن يمثل مصر في مفاوضات مهمةٍ لا يؤيده الشعب المصري فيها، رغم أن الرافعي اعتقد أن عدلي لم يكن يسعى للسلطة، بل كان هناك اختلافٌ في الرؤية [٢]. ذهب عدلي إلى لندن في يوليو ١٩٢١. أصرّ الانجليز في المفاوضات على إبقاء القوات البريطانية في كل زمانٍ وفي أي مكان، وألاّ تعقد مصر اتفاقاً مع الدول الأجنبية إلا بعد استطلاع رأي انجلترا، إبقاء المستشارَيْن المالي والقضائي، حماية الأقليات وبنود أخرى كان يستحيل قبولها بصرف النظر عن شخصية المفاوضين. عاد عدلي إلى مِصر في ٥ ديسمبر دون أن ينُجز أي شيء، وقدم استقالته في ٨ ديسمبر.

استمر سعد في المحافظة على بقاء قضية الاستقلال حية، فكان يسافر ويخطب في كل بلاد مصر من أسوان وحتى الإسكندرية. صدر قرارٌ من المنتدب البريطاني بمنع سعد وباقي أعضاء الوفد من العمل بالسياسة. رد سعد كان " إني موكّل من قِبل الأمة للسعي في استقلالها، فليس لغيرها سلطة تمنعني من القيام بهذا الواجب المقدس. لهذا سأبقى في مركزي مخلصاً لواجبي". كان رد الآخرين من قيادات الوفد مشابهاً لرد سعد [٣]. اعتقد الانجليز أن سعد والوفد كانا وراء فشل مهمة عدلي. اعتقل سعد زغلول، وفتح الله بركات وعاطف بركات ومصطفى النحاس وسينوت حنا ومكرم عبيد في ٣٠ ديسمبر، وكان الهدف نفيهم إلى سيلان أسوةً بنفي عرابي لسيلان، ولكنهم انتهوا في جزيرة سيشيل. خيم الحزن على مصر نتيجة اعتقال قادة الوفد.

---

(١) مذكرات فخري عبد النور. ثورة ١٩١٩. تحقيق يونان لبيب رزق. دار الشروق. سنة ١٩٩٢. ص ١٧٥.

(٢) الرافعي. في أعقاب الثورة المصرية. ثورة ١٩١٩. مرجع سابق. ص ٢٩.

(٣) الرافعي. المرجع السابق. ص ٤٦.

عاد بعض المنشقين من الوفد إليه بعد نفي سَعد ورفاقه تضامناً مع الوَفد، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً. بقي من أعضاء الوفد القدامى علي ماهر، واصف بطرس غالي، ويصا واصف، وأضافوا إليهم علي الشمسي، علوي الجزار، مراد الشريعي، مرقس حنا، وعبد القادر الجمال. تركزت دعوة الوفد بعد ذلك على المقاومة السلبية والتي منها عَدم التعامل مع الانجليز بمصر اجتماعياً وسياسياً والأهم مقاطعة التجارة والبنوك والسفن والشركات الانجليزية، وتنظيم المقاومة السلبية، ونشر العوة إليها وتأليف اللجان لتنفيذها، وقد تأثرت تلك الحركة بحركة غاندي في الهند في العصيان المدني وإن كانت حركة غاندي في الهند أكثر إيجابية؛ لأن غاندي عايش فقراء الهند والتحم بهم وعاش مثلهم؛ أما في مصر فكان أغلب القادة السياسيين من ذوي الأملاك الكثيرة وكان أغلبهم يعيش حياةً مُنعّمَة بدرجةٍ أو بأخرى. بعد أن نَشَرت بعض الصحف قرارات الوفد بالمقاومة السلبية، اعتقلت السلطات العسكرية يوم ٢٥ يناير أعضاء الوفد. حدث كل ذلك بعد أقل من شهرٍ من اعتقال سعد ورفاقه، لأن الوفد كان جاهزاً بالصف الثاني. فور اعتقال الصف الثاني من الوفد كانت الهيئة الوفدية الثالثة جاهزة للقيادة وتكونت من المصري السعدي، السيد حسن القصبي، سلامة ميخائيل، فخري عبد النور، ومحمد نجيب الغرابلي. ولكن وجد الانجليز أن هذه معركة خاسرة، ففي ٢٧ يناير أُفرِج عن أعضاء الوفد المعتقلين فانضموا إلى زملائهم الجدد.

خلال كل تلك الأحداث ظلت مصر بدون وزارة لأكثر من شهرين.أُجريت محادثات مع عبد الخالق ثروت لتأليف الوزارة، ولكنه اشترط مبدئياً عَدم قبول الشروط البريطانية التي رفضها عدلي يكن، وتصريح الحكومة البريطانية بإلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر، إنشاء وزارة الخارجية المصرية والتي أوقفتها الحماية البريطانية على مصر، إنشاء مجلس النواب ومجلس الشيوخ وأن تكون لهما السلطة العامة على أعمال الحكومة. إضافة إلى شروط أخرى أهمها الدخول في مفاوضات أخرى مع الانجليز غير مقيدة بشروط. هاجَم الوفد تلك الشروط لأنه أغفل أهم مَطلبٍ وهو الجلاء، ونَشر أعضاء الوفد مذكرةً تفصيليةً وقعها حمد الباسل، ويصا

واصف، علي ماهر، جورج خياط، مرقس حنا، علوي الجزار، مراد الشريعي، وواصف غالي[1]. قبلت انجلترا شروط عبد الخالق ثروت وأعلنت إلغاء الحماية من جانب واحد مع تهيئة البلاد للحكم الدستوري في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢. حرص الانجليز على أن يعلقوا هذا الاعتراف بالتحفظات الأربعة المشهورة وهي: حماية المواصلات البريطانية، الدفاع عن مصر والسودان، حماية المصالح الأجنبية بمصر وحماية الأقليات [2]. رأى الانجليز أن الحماية ما هي إلا مظهرٌ للسلطة من الممكن التنازل عنه لإرضاء الجماهير، أما جوهر القوة فسيظل في يَدي الانجليز. أصبحت مصر بذلك القرار دولةً مُستقِلّة -وإن كان صورياً- إلا أن ذلك أزال العقبة الأولى التي كانت تعترض فعلاً إنشاء الدستور، وقد كان ذلك أهم أهداف وزارة عبد الخالق ثروت. أما العقبة الثانية فكانت الاستقلال التام والذي لم يتحقق تماماً إلا بعد خروج الانجليز من مصر عام ١٩٥٤ ومرة أخرى سنة ١٩٥٦.

بعد الحرب العالمية وتمزُّق الامبراطورية العثمانية وهزيمة النمسا والمجر وألمانيا، مثّلت الأقليات مشكلةً في بعض الدول. فمثلاً رُبع سكان بولندا أصبحوا ألمانَ و يهوداً و روسيين. تكونت يوغسلافيا من عدة قوميات بعضها مسيحي وبعضها مسلم. وتكونت تشيكوسلوفاكيا من التشيك والسلوفاك. أُثيرَ أيضاً موضوع الأقليات في الدول التي كانت تدور في فَلَك العثمانيين، والتي فَرَضت عليها الدول الأوروبية الحماية أو الانتداب مثل بلاد الشرق الأوسط. كان المفروض أن تخضع الأقليات لحماية عصبة الأمم، إلا إن الأخيرة كانت من صنع الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى، والتي وكلت بعضها لحماية الأقليات (أو عملياً لاستمرار السيطرة على تلك الدول). أصبح من النادر أن تجد دولةً لا تُوجد بها أقليّات جنسية أو دينية أو لُغويّة. وإن كان مبدأ حماية الأقليات مبدأ إنسانياً يتوجب احترامه، إلا إن الدول الاستعمارية استغلته وأحياناً أوجدته حُجّةً لبقائها. لم يكن ذلك قاصراً على بلادنا

---

(١) الرافعي.في أعقاب الثورة المصرية. ثورة ١٩١٩. مرجع سابق ص ٥٧.

(٢) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص ١٢٢.

فقط بل كان أيضاً في الهند بين الهندوس والمسلمين، وفي أمريكا بين الهنود الحمر والمستعمر الأبيض، وفي كلتا الحالتين استغل الانجليز ذلك الخلاف. حاول الانجليز استغلال ورقة الأقلية القبطية ولكنهم لم ينجحوا في ذلك إلا قليلاً. ومع تطور الصراع السياسي والمطالبة بالاستقلال التحم أقباط مصر ومسلموها التحاماً رائعاً وأصبحت ورقة الأقلية ورقةً غير رابحة. ولكن الانجليز أصرُّوا على مَبدَأ حماية الأقليات، وقال رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج: إن موقفنا الخاص الذي ندعيه لأنفسنا في مصر يجعل حماية مصالح الأجانب والأقليات في مصر من حقنا وحدنا[١].

مع بداية العمل في الدستور خلال وزارة عبد الخالق ثروت أثير حوار حول تمثيل الأقلية في البرلمان. كان حواراً أثرى التاريخ المصري في تلك الفترة. رفض أغلب المصريين مبدأ التدخل الأجنبي لحماية الأقليات، وقال واصف بطرس غالي سكرتير حزب الوفد (كان سعد وزملاؤه لايزالون في المنفى) إنهُ لا حقّ للانجليز في تولي حماية الأقليات، وهو من اختصاص عصبة الأمم (حسب ميثاقها) وأن المصريين يعتبرون ذلك بمنزلة تدخلٍ لا يُطاق من جانب انجلترا [٢]. تكوّنت لجنة الدستور من ٣٠ عضواً برئاسة حسين رشدي. اعترض الوفد والحزب الوطني لأنهم رأوا أن الدستور يجب أن يُعهَد به إلى جمعية وطنية تأسيسية تمثّل الأمة- أي يُنتخب أعضاؤها- لا إلى لجنة تؤلّفها الحكومة [٣].

اختير ٣٠ عضواً للجنة الدستور منهم أربعة أو خمسة من الأقباط ويهودي وعربي[٤]. لأهمية موضوع الأقليات في الدستور أثار حسين رشدي رئيس لجنة الدستور واللجنة الفرعية مسألة الأقليات، وكانت أولى كلماته هي لَفت نظر الأعضاء "إلى العناية بوضع نصوص في دستورنا لحماية الأقليات لأن انجلترا حفظت لنفسها

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط.مرجع سابق. ص ١٦٣.

(٢) طارق البشري. المرجع السابق. ص ١٦٤.

(٣) سميرة بحر. الاقباط في الحياة السياسية المصرية. الطبعة الثانية. سنة ١٩٨٤. ص ١١٦. وكذلك الرافعي. في أعقاب الثورة المصرية. ثورة ١٩١٩. ج ١. الطبعة الرابعة. ص ٨٥.

(٤) الرافعي. في أعقاب الثورة المصرية. ثورة ١٩١٩. ج ١. الطبعة الرابعة. ص ٨٥.

حق حمايتهم "...وذكر أن وضع هذه النصوص يسقط حجة بريطانيا. اقترح رشدي أن تُوضَع في الدستور نصوص تتعلق بالمساواة في الحريات وفي الحقوق السياسية والمدنية وفي ممارسة شعائر الدين والتعليم واستعمال اللغات وتمت الموافقة على ذلك بالإجماع[1]. كانت المشكلة التي تعرضت لها اللجنة هي: هل من الواجب وضع نظام للأقليات يضمن تمثيلها النيابي؟ وقد أثار ذلك توفيق دوس عضو اللجنة. كان لإثارة تلك النقطة مؤيدون ومعارضون بصَرف النظر عن الانتماء الديني، بل ولدى الرأي العام المصري بكافة إتجاهاته. تتلخص وجهة نظر توفيق دوس وآخرين في أن دفاعه عن تمثيل الأقليات يرجع لسبب سياسي وآخر قانوني، فالسبب السياسي يغلق الباب أمام التدخل الأجنبي، بالإضافة إلى ان عدم انتخاب بعض أعضاء الأقلية قد يؤدي إلى أن البعض يعتقد أن حقه مهضوم. أما السبب القانوني فهو أن المجلس النيابي يقرر التنظيمات والقوانين بحسن نية قد تراه الأقليات ماساً بها أو مضراً بحقوقها. عرض توفيق دوس أحد اقتراحين لإجراء التمثيل، الأول أن يجري الانتخاب العام، فإن ظفرت الأقلية بما ينقص من نسبتها، جرى انتخاب عام يشترك فيه المسلمون والأقباط لانتخاب عدد من الأقلية يكمل النسبة. اما الاقتراح الثاني فهو أن ينتخب مجلس النواب من يكمل النسبة من الأقلية من بين من كانوا مرشحين في الانتخابات منهم. وتتلخص وجهة نظر عبد الحميد بدوي المعارضة لاقتراح توفيق دوس أن الناس تحيا بالتفاهم والتسامح وكان الخلاف دائماً موقفاً استثنائياً.

إذا كانت الأقلية تذكر أحداث الماضي البعيد، فقد عانت الأكثرية من حكومة الاستبداد فيه بقدر ما عانت الأقلية، والفارق الديني يضعف في مصر الآن ولن يطول الزمن "حتى يمحى في علاقاتنا الاجتماعية وتزول تماماً جميع آثاره. بل وجود التمثيل الخاص بالأقليات قد يزيد الفوارق ويؤكدها".

من الناحية الأخرى مَثّل الحوار غير الرسمي محمود عزمي وعزيز ميرهم على صفحات الجرائد والمجلات. دافع محمود عزمي عن تمثيل الأقليات وقال إنه ليس

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص ١٦٦.

بدعة، بل هو تماشٍ مع كمال التمثيل القومي. إن المجلس النيابي سياسي ولكن ليس بالمعنى الضيق الجاف لهذه الكلمة، إنما بالمعنى الذي يستوعب العنايات القومية والعناصر المتشابكة في المجتمع والاقتصاد والإدارة، ويتولى المجلس بحث شئون اجتماعية وتعليمية خاصة بالأسرة مما له ارتباطٌ بالدين. إن مِصر نالت ما نالت بفضل تماسك كتلتها القومية وتضامن عناصرها. واستمرار هذه الروح يوجب تمثيل الأقلية. وهذا يؤيد رأي توفيق دوس. أما عزيز ميرهم فاتهم محمود عزمي بالنظرة الجامدة. ومن العجب من أن عزمي المعروف بميوله الفكرية العصرية يخلط بين الدين ومسائل الاجتماع والسياسة رغم أنه يود من صميم قلبه أن يَتَطور المجتمع بسرعة إلى الأنظمة المدنية البحتة، فتؤسس قوانينها العامة والخاصة على الاعتبار المدني لا الديني، وإنه ممّن كان لهم اليد الطولي في تأسيس الحزب الديمقراطي الذي لا يعرف بأكثرية دينية وأقليات. بعد هذا الحوار عقدت جمعية أهالي حصة مليج التي تجمع عضوية ٥٠٠٠ قبطي ويُشرِف عليها عزيز ميرهم اجتماعاً قرَّرت فيه اعتبار القومية المصرية وحدها أساساً لتقرير حقوق المصريين. لقد تعرّض طارق البشري وسميرة بحر لتلك الحقبة (١).

وقف الوفد كتلةً واحدةً ضِد تمثيل الأقليات، كان يمثل قسماً هاماً ممن رفضوا مبدأ التمثيل الطائفي سواء كان على أسس وطنية أو علمانية، وكان يصدر عن ثقة في مستقبل مصر ما بعد ١٩١٩، وهو مستقبل يستحيل على العامة أن تتخيله وقتها بغير الوفد. وكان لسعد زغلول رأيٌ قديم في عدم تمثيل الأقليات عند مناقشة قانون الجمعية التشريعية. أما أعضاء الوفد البارزون من الأقباط من أمثال ويصا واصف، راغب اسكندر، وسلامة ميخائيل وغيرهم، فقد عارضوا مبدأ تمثيل الأقليات وبعضهم هاجم دوس لرأيه في وجوب تمثيل الأقليات (٢). وقد رد سلامة موسي–لم يكن عضواً في اللجنة– على رأي توفيق دوس ينبهه إلى "أن تمثيل الأقليات لا يفيد الأقباط؛لأن النظام البرلماني هو نظام الحكم بالأكثرية،ولا تجُدي الأقلية في البرلمان

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص ١٦١وحتى ١٨٣ وكذلك سميرة بحر. الاقباط في الحياة السياسية المصرية. مرجع سابق. ص ١١٦. وحتى ١٢٩.

(٢) سميرة بحر. الاقباط في الحياة السياسية المصرية. مرجع سابق. ص ١٢٥.

إلا أن يكون لديها الأمل في أن تصبح أكثريةً، ولا يتوفر ذلك إلا للأقليات الحزبية السياسية، ولن يفيد القبط ما يُحفَظ لهم من مقاعد ما دامت الأكثرية لا تسلم بمطالبهم في مشروع ما [1].

أما موقِف الكنيسة فمثّله في اللجنة الأنبا يؤنس، وكان من رأيه تمثيل الأقليات وإن كان موقف الإكليروس (رجال الدين) والبطريرك أنْ قال البعض إنهم أيدوه وقال آخرون إنهم عارضوه. أما صحيفة الأخبار[2]. فقد نقلت عن البطريرك كيرلس الخامس قوله " إذا كانت المصلحة في عدم تمثيل الأقليات فذلك ما يجب أن يُلاحَظ في تكوين البرلمان، وإذا كانت في التمثيل فذلك ما يجب أن يُلاحَظ أيضاً" أي أن البطريرك لم يكن له رأيٍ أو لم يرغب في التدخل. كان أغلب الأقباط من المعارضين لمبدأ التمثيل، لأن الوفد كان أيضاً ضِد التمثيل.

انتهت مشكلة تمثيل الأقباط برفضها الجماهيري الواسع على نِطاق المصريين عامةً والأقباط خاصة. وجاءت اللجنة العامة للدستور فرفضتها بالأغلبية. كان ذلك الدستور من خير الدساتير، وقد وُضِع على أحدث المبادئ العصرية، كان يكفل الحقوق في المساواة للمصريين جميعاً، وكان خالياً من أي حكم يتعلق بتمثيل الأقليات. رفعت اللجنة مشروع الدستور إلى رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت في أكتوبر ١٩٢٢ ليصدر به مرسومٌ ملكي. لم يُصدّق الملك على الدستور، كان له اعتراضات عليه. استقالت الوزارة وجاءت وزارة نسيم باشا- وكان رئيس الديوان الملكي- جاء بهدف تغيير الدستور ليناسب طلبات الملك، والتي منها:

١-حذف النص القائل بأن "الأمة مصدر السلطات"، ٢- للملك حق إصـــدار مراسيم تكون لها قوة القانون ولو أثناء دورة انعقــاد البرلمــان، ٣- جعــل تعيين رئيس مجلس الشيوخ من حــق الملك وحــده، ٤- إخـــراج بعض المعاهدات التجاريـــة من رقابة البرلمان، ٥- ألاّ يخل الدستور بما للملك بصفته ولي أمر البلاد فيمــا يتعلق بمعاهد التعليم الديني الإسلامـــي، ٦- إعطاء الرتب

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص ١٧٨.

(٢) طارق البشري.المرجع السابق.عن عزيز فهمي المصري. ص ١٧٦.

الرتب والنياشين من حق الملك وحده. بالإضافة لبعض الاعتراضات من الانجليز فيما يختص بالسودان [1].

في نفس العام كثرت الاغتيالات وتفجير القنابل وقُتِلَ بعضُ معارِضي الوفد وبعض الانجليز، وكثرت الاعتقالات السياسية. تأسس حزب الأحرار الدستوريين، واختير عدلي يكن رئيساً، لم يكُن للحزب قاعدة شعبية وكان حزباً معادياً للوفد ومتساهلاً مع الانجليز. لم تستطع وزارة نسيم الاستمرار في الحكم إلا لقرابة شهرين وخلفتها وزارة يحيى إبراهيم. في أبريل ١٩٢٣ صدر الأمر الملكي بالدستور بعد حذف بعض النصوص الخاصة بالسودان فقط، وظلت بقية بنود الدستور كما أقرّتها اللجنة.

أُلغيَ قانون الأحكام العرفية وأُعفي عن المعتقلين السياسيين وعاد أعضاء الوفد المنفيون في سبتمبر من نفس العام، وحُدّدت الانتخابات العامة في نفس الشهر. حصل الوفد على ٩٠٪ من ٢١٤ مقعداً في البرلمان وفشل في الانتخابات أشهر خصوم سعد زغلول. سقط رئيس الوزراء يحيى باشا، وفاز عليه مُرشّح الوفد وكان سقوطه شهادة حية على نزاهته ومحافظته على حرية الانتخابات. لم ينجح سوى أربعة مرشحين من الحزب الوطني وستة مرشحين من حزب الأحرار الدستوريين، ألّف سعد زغلول الوزارة الدستورية الأولى في تاريخ مصر [2].

كانت أول وزارة وفدية وزارةَ تصالح، كان فيها محمد توفيق نسيم، محمد سعيد، وكلاهُما رأس وزارة قبل ذلك وميولهما مع الملك، وكان أحمد مظلوم من رجال الملك أيضاً واشتَمَلَت الوزارة على وزيرين من الأقباط هما واصف بطرس غالي للخارجية، ومرقس حنا للأشغال العمومية. اعترض الملك على وجود وزيرين

---

(١) عبد الرحمن الرافعي. في أعقاب الثورة المصرية. ثورة ١٩١٩. دار المعارف. ١٩٨٧. الطبعة الرابعة. ص ١١٧.

(٢) عبد الرحمن الرافعي. المرجع السابق. ص ١١٧. ص ١٧٢.

من الأقباط من ضمن عشرة وزراء، إلا إن سعد قال إن هذه وزارة غير عادية، وإنه لا يُفرّق بين مسلم وقبطي[1]. لم تستطِع وزارة الوفد أن تستمر في الحكم إلا عشرة أشهر. كان أول خلاف للوزارة مع القصر هو نص الدُستور أن يُعيّن خمُس أعضاء مجلس الشيوخ بمرسوم ملكي. حاول الملك أن يستأثِر بذلك الحق، إلا أن الوزارة رأت أن التعيين من حقها اعتماداً على أن الوزارة هي التي تهُيمن على شئون الدولة، والملك يباشر سلطانه عن طريق الوزارة. تمسّك كل طرف برأيه وقبِل القصر تحكيم النائب العام أمام القضاء المختلط فان دون بوش الذي جَانَب رأي الوزارة. لأول مرة في تاريخ مصر اكتسب الحكم في مصر المظهر البرلماني[2].

فشلت محادثات سعد زغلول مع ماكدونالد بخصوص الجلاء، وكانت هناك مشاكل بين انجلترا ومصر بخصوص السودان، بالإضافة لدسائس القصر، بالإضافة لذخيرة الخونة والمتطلعين للحكم. قُتِل حاكم عام السودان الانجليزي، ووجهت انجلترا إنذاراً للوزارة مصحوباً بمظاهرةٍ عَسكرية لسحب بعض قراراتها فيما يختص ببقاء المستشار المالي والقضائي. واحتل الجيش البريطاني الجمارك وأصبح واضحاً أن هناك إجراءات أخرى في الطريق. استقالت حكومة سعد وتنفس أعداؤها الصُعَدَاء، سواء في القصر أو في معسكر الانجليز، وكذلك في أحزاب المعارضة والتي لم يكن لديها قاعدة شعبية. وفي نفس الوقت لم يُدرك الوفد حدود الديمقراطية المتاحة وتوزيع موازين القوى الحقيقية. جاءت بعد ذلك وزارات بقرارت ملكية موالية للقصر ومتعاونة مع الانجليز.

كان نتيجة انضمام أغلب الأقباط للوفد- وكان لهم وجودٌ واضح- أن استغَلّ حزب الأحرار الدستوريين ذلك لينالوا من الوفد، فأشاعوا سيطرة الأقباط على الوفد وأنهم يقومون من خلاله بصبغ مصر بالصبغة القبطية. قالت جريدة (السياسة)

---

(١) يونان لبيب رزق. تاريخ الوزارات المصرية. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام. ١٩٧٥.ص ٢٦٥.

(٢) عبد العزيز جمال الدين. مرجع سابق. ج٤. المجلد الثاني. ص ١٤٨١.

الناطقة بلسان الحزب إن آلاف الأقباط يتحكمون في أمور ملايين المسلمين. وتقول ان وليم مكرم عبيد!! ومن نحوه من القِبط هم الوفد؛ والنحّاس ومن إليه من المسلمين هم التابعين. وتسخر من فخري عبد النور قائِلةً إنه يُحيي ليالي رمضان بتلاوة القرآن في بيته، حتى إذا انصرف القُرّاء دعا القسيس فطهّر البيت من آثار التلاوة[1]. عندما بدأت المعركة الانتخابية وأعلَن الوَفد عن مرشحيه ثارَ الأحرار الدستوريون وأخذوا يعلنون أن القبط هم من استأثر بالترشيح واستبد به رغم أن نسبة القبط لم يكن تزيد عن ١٠٪ من عدد مقاعد مجلس النواب، وأثاروا النعرة الطائفية في كل دائرة كان فيها مرشح قبطي[2]. ويذكر عباس العقاد أنه زار مع رجال الوفد دائرة طهطا وكانت إحدى الدوائر التي دسّ فيها الأحرار الدستوريون سمومهم وفتنتهم الخبيثة، إلا إنه كان من أكبر أنصار المرشح الوفدي القبطي الشيخ محمود عنبر شيخ المعهد الإسلامي بطهطا [3]. ومع كل ذلك اكتسح الوفد الانتخابات، ولكن تفكير الأحرار الدستوريين استمرّ على هذا النحو. كان هذا حال الحزب الذي ساهم في إصدار الدستور واشترك فيه العديد من أقطابه ومفكريه. بعد أن تُوفيَ سَعد طرح أن يقام ضريحٌ له ليكون عنواناً لثورة ١٩١٩، واقترح له طرازاً فرعونياً يرمُز إلى الوطنية المصرية، فتش الأحرار الدستوريين عن عنصر للتفرقة الدينية لتكون مناسبةً للإثارة الدينية ضد الأقباط والوفد، قائلين إن التشبث بالطراز الفرعوني غير مَفهوم وإن مكرم عبيد هو من يتشبث به لأنه "يتخذ حتى الفنون وسيلةً لغايات خاصة لا يجهلها أحد، ولمآرب سياسية ".

استمرّت سياسة الأحرار الدستوريين على هذا النمط فتجاوزوا النعرة الدينية والعاطفية إلى المطالبة بصياغة مؤسسات الدولة وأجهزتها على أساس وجود أقلية وأكثرية دينيتين لا بالنسبة للتمثيل النسبي في البرلمان فقط، ولكن بالنسبة لأجهزة

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق. عن صحيفة السياسة. ص٢٠٢.

(٢) طارق البشري. المرجع السابق ص ٢٠٤.

(٣) طارق البشري. المرجع السابق. عن صحيفة مصر. ص ٢٠٤.

الدولة المختلفة [1]. تباين موقف الأحرار الدستوريين تبعاً للوقت والظروف، فتجدهم مثلاً أيّدوا كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبد الرازق، والذي لم يؤيد مذهب الخلافة، ولكنهم بعد ذلك أيدوا أن تستقرّ الخلافةُ في مصر بعد أن أنهاها كمال أتاتورك في تركيا. وقالوا إن مصرَ أقوى الأمم وأقدرُها على حفظ الخلافة. كانت المصلحة السياسية للأحرار هي الغالبة على كُل عناصر التوتر في فكر وكتابة مثقفيهم. كانت جريدة (السياسة) هي منبر الأحرار الدستوريين، وكان رئيس تحريرها في ذلك الوقت هو محمد حسين هيكل. كانت كتابات بعض مفكري الحزب تهدد الوحدة الوطنية وقد حذروا من ذلك. استقال أبادير حكيم من الحزب بعد أن حاول إثارة ذلك الموضوع داخل الحزب، ولكن لم يستمع إليه أحد، نشر أبادير استقالته في الصحف واصفاً سياسة الأحرار الدستوريين بأنها "انتحار سياسي". حاول عبد المجيد إبراهيم صالح أن يخفف من وقع هذة الحملة، فقال بمنطق كبار مُلاّك الارض "إن تَسَامُح الأحرار الدستوريين مشهور، لأن نصف مديري أعمالهم الخاصة والمؤتمنين على أدق أسرارهم وأموالهم من الأقلية المحترمة، وإن الأحرار الدستوريين أبرياء من وصمة التعصب الديني[2]. ذلك المنطق في التبرئة من التعصب الديني منطقٌ قديم في تاريخنا، وهو حقيقةً لا يؤيد ولا ينفي وجود التعصب. لقد كتب العقاد يقول إن من نجحوا من الأقباط في الانتخابات تقل نسبتهم عن ١٠٪ من النواب الناجحين جميعا. ولم تكن تلك النسبة لتزيد عن ١٠٪ لو نجح جميع المرشحين الأقباط. وقال إنه لا ينبغي الحديث عن النسب. إن السجون والمنافي والقتل في غمار الحركة الوطنية لم يعرف نسباً بين قبط ومسلمين. إن من القبط من هم أقرب إلى الإسلام من الطغاة المنافقين من الأحرار الدستوريين.

لقد سَجّل نجيب محفوظ ما دار في وجدان المثقفين المصريين في تلك الفترة في رواية (السكرية) [3]. يدور الحوار بين الصديقين: كمال المدرس المسلم والمهتم

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق.ص ٢٠٦.

(٢) طارق البشري. المرجع السابق. ص ٢٠٧.

(٣) نجيب محفوظ. السكرية. الطبعة الحادية عشرة. سنة ١٩٨٤. مكتبة مصر. ص ١٤٨.

بالفلسفة، ورياض قلدس القبطي الفنان والكاتب الروائي. حوارٌ يعكس مشكلة المثقف المسلم والقبطي تجاه الآخر. حوار مفتوح خالٍ من التعصب، يدور بعض منه كما يلي، يقول رياض :

إن الأقباط جميعاً وفديون، ذلك أن الوفد حزبُ القومية الخالصة، ليس حزباً تُركيًّا كالحزب الوطني. ولكنه حزب القومية التي تجعل مصر وطناً حراً للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم، أعداء الشعب يعلمون ذلك، ولذلك كان الأقباط هدفاً للاضطهاد السافر طوال عهد صدقي، وسيعانون ذلك منذ اليوم..

ورحّب كمال بهذه الصراحة التي تشهد لصداقتهما بالكمال، غير أنه راقَ له أن يتساءل في دعابة:

هل أنت تتحدث عن الأقباط!. أنت الذي لا يؤمن إلا بالعلم والفن !..فلاذ رياض بالصمت (ثم ذهبا لتناول قطعةً من البسبوسة في شارع الأزهر) *يستأنف رياض الحديث فيقول: إني حُر وقبطي في آن، بل إني لاديني وقبطي معاً، أشعر في أحايين كثيرة أن المسيحية وطني لا ديني، وربما إذا عرضت هذا الشعور على عقلي اضطربت. ولكن مهلاً! أليس من الجُبن أن أنسى قومي؟ شيءٌ واحدٌ خليقٌ بأن ينسيني هذا التنازع، ألا وهو الفَنَاء في القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول. إن النَّحّاس مسلم ديناً، ولكنه قومي بكل معنى الكلمة أيضاً، فلا تشعر حياله إلا بأننا مصريون، لا مسلم ولا قبطي. بوسعي أن أعيش سعيداً دون أن أكدّر صفوي بهذه الأفكار، ولكن الحياة الحق مسئولية في الوقت نفسه.*

كما كان كَمال يتمنطق ويفكّر وصدره يجيش بالعواطف، كانت سحنة فؤاد المصرية الصميمة تُذكّره بالصور الفرعونية، تثير تأمُّلات شتى في نفسه. "إن مَوقف رياض له وجاهته التي لا تُجحد، وأنا نَفسي- بين عقلي وقلبي- شخصٌ يعاني انقسام الشخصية؛ فكذلك هو، كيف يتأتى لأقليةٍ تعيش وسط أغلبية تضطهدها ؟ وجدارة الرسالات السامية تقاس عادةً بما تحققهُ من سعادة للبشر تمثل أوّل ما تُمثّل في الأخذ بيد المضطهدين". قال : لا تؤاخذني، فقد عشت حتى الآن دون أن أصطدم

بمشكلة العنصرية، فمنذ البدء لقنتني أمي أن أحب الجميع، ثم شببت في جو الثورة المطهّر شوائب التعصب، فلم أعرف هذه المشكلة.

قال رياض وهما يستأنفان المسير:

– المرجو ألا تكون مشكلةً على الإطلاق، يؤسفني أن أصارحك أننا (يقصد الأقباط) نشأنا في بيوت لا تخلو من ذكريات سود محزنة. لست متعصباً، ولكن من يستهين بحق الإنسان في أقصى الأرض–لا في بيته– فقد استهان بحقوق الناس جميعا..

– جميلٌ هذا القول، لا عجب أن رسالات الإنسانية الحقة كثيراً ما تنبعث من أوساط الأقلية أو من رجال مشغولي الضمائر بالأقليات البشرية، ولكنّ ثمة متعصبين دائماً..

– دائماً وفي كل مكان. الإنسان حديثٌ والحيوان قديم، هم عندكم يعتبروننا كفاراً مَلاعين، وهم عندنا يعتبرونكم كفاراً مغتصبيين، ويقولون عن أنفسهم إنهم سلالةٌ من مُلوك مصر استطاعوا أن يحافظوا على دينهم بدفع الجزية..

فضحك كمال ضحكةً عالية، وقال:

– هذا قولنا وذاك قولهم، ترى الأصل في هذا الخلاف الدين أم الطبيعة البشرية المتطلعة أبداً إلى الخصام؟! لا المسلمين على وفاق ولا المسيحيين على وفاق، وستجد نزاعاً مستمراً بين الشيعي والسُني، وبين الحجازي والعراقي، كذلك بين الوفدي والدستوري، وطالب الآداب وطالب العلوم والنادي الأهلي والترسانة، ولكن رغم ذلك كله فلشد ما نحزن إذا ما طالعنا في الصحف خبر زلزال باليابان ! اسمع.. لماذا لا تعالج ذلك في قصصك ؟! مشكلة الأقباط والمسلمين..

فصمت رياض قلدس ملياً ثم قال: أخاف سوء الفهم..

ثم مستطرداً بعد فترة صمت أخرى :

ثم لا تنسَ أننا رغم كل شيء في عصرنا الذهبي. كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح في الماضي أن يصنع المسلمون من جلودنا أحذيتهم..

كيف نستأصل هذة المشكلة من جذورها ؟

– من حسن الحظ أنها ذابت في مشكلة الشعب كله، مشكلة الأقباط اليوم هي مشكلة الشعب،إذا اضطُهِد اضطُهِدنا واذا تحرر تحررنا..

سَجّل لَنا طارق البشري تاريخ الانتخابات المصرية لمجلس النواب ما بين ١٩٢٤ و ١٩٥٠. الجدول التالي مستخلصٌ مما سجله طارق البشري [١]

السنة	الوفد	الاحرار	الوطني	المستقلون	نسبة الاقباط
١٩٢٤	٩٠٪	٣٪	٢٪		٨٪
١٩٢٥	٥٨٪	المعادون للوفد ٤٠٪			٩٪
١٩٢٩	٩٠٪	١٪	٢٪	٦٪	٩٪
١٩٣١*					٢٪
١٩٣٦**					٨٪
١٩٣٨***	٥٪	٧٣٪	٢٪	٢١٪	٣٪
١٩٤٢****					١٠٪
١٩٤٥*****		٢٨٪	١٠٪	٤٧٪	٤٪
١٩٥٠	٧١٪	٨٪	٢٪	١٨٪	٣٪

* طبقاً لدستور إسماعيل صدقي وتكوين ائتِلاف بين حزب الشعب (وهو حزب أنشأه اسماعيل صدقي) وحزب الاتحاد (حزب السراي) والحزب الوطني (حزب مصطفى كامل) وقاطعها الوفد.

** تكوّن الحزب السعدي المنشق من الوفد (بزعامة أحمد مَاهر والنقراشي) وائتلف مع الأحرار الدستوريين وقاطعة الوفد.

*** انتخابات ١٩٣٨سبقتها فتنةٌ طائفيةٌ سيأتي ذِكرها. قاطع الوفد تلك الانتخابات كحزب ولكنه سَمَح لمن يرغب من أعضائه بالترشح.

**** قاطعها حزب الأحرار الدستوريين والسعديين، وفاز الوفد بأغلبية ساحقة.

***** انشق مكرم عبيد عن الوفد وكوّن حزب الكتلة السعدية وتحالف مع الأحرار الدستوريين والسعديين وقاطعها الوفد.

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق.ص ٢١٤.

من الجدول السابق تلاحظ متى زُوِّرَت الانتخابات ومتى كانَت نزيهة، كانت النية المبيتة لتزييف بعض الانتخابات أحد أسباب مقاطعة الوفد لبعضها، بالإضافة للفتنة الطائفية التي سبقت انتخابات ١٩٣٨. تلاحظ أيضاً أن الانتخابات التي حصل فيها الوفد على أغلبية المقاعد البرلمانية كانت نسبة الأقباط فيها ما بين ٨ و١٠٪، ولكن عندما ضعف الوفد في أواخر أيامه من الفَسَاد وانشقاق مكرم عبيد عنه قلّت نسبة الأقباط في البرلمان. كان مكرم عبيد يتُهم بأنه قمة النفوذ القبطي في الوفد، وأنّهُ يسيطر على الوفد، ولكن خروج مكرم عبيد من الوفد لم يؤدِ إلى خُروج الأقباط معه، وسيأتي ذِكر ذلك. لم تكُن هناك دائرة انتخابية مغلقة في تمثيلها على الأقباط. عندما فاز الأقباط فازوا لأن المسلمين أرادوا ذلك.كان ويصا واصف من المنيا، وكان يُرشح نفسه في دائرة المطرية وكان يفتخر بقوله: إنني أُمثّل دائرة لا قبطياً فيها غير نائبها [1]. كان مكرم عبيد يرشح نفسه في حي السيدة زينب ويفوز.

كان مجلس الشيوخ يتكون من مُنتَخَبين ومُعيّنين. كان المعينون يمثلون كِبار الموظفين السابقين وكِبار المُلاّك ورجال المال. كان أعضاء مجلس النواب حوالي ٢٢٠ وكان تعداد مجلس الشيوخ حوالي النصف. كانت نسبة المنتخبين من الأقباط في مجلس الشيوخ تتقارب مع نسبتهم في مجلس النواب، ولكن كانت نسبتهم تزيد ضمن المعينين. في سنة ١٩٢٤ كانت نسبة الأقباط ١٣٪ وفي سنة ١٩٢٩كانت ١٨٪، في سنة ١٩٣١ كانت ١٣٪ وتراوحت نسبتهم بين هذه الحدود.

كانت القوى التي تلعب دورها على المسرح السياسي المصري هي: الشعب ممثلاً أساساً في حِزب الوفد. السراي، وتمثل القوة الشرعية وهي أساساً ضد الشعب، وكانت تعطي نفسها الحق في تغيير الوزارات وتعطيل الدستور. أما ثالث القوى فيُمَثّلها الاحتلال العسكري، والتي تتلاعب بأحزاب الأقلية والقصر ضد الشعب. كانت الأُمّة تسعى لأن تكون طرفاً أو شريكاً ثالثاً. نلاحظ أن التطور السياسي والصراعات السياسية طوال الثلاثين عاماً التي عاشها دستور ١٩٢٣ لم تمَكّن القوى

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص ٢٠٩.

الوطنية بقيادة الوفد إلى الحد الذي يمكّنها من دعم نفوذها بأجهزة الدولة وإعادة صياغتها وفق نظرتها وأهدافها. طيلة تلك المدة حكم الوفد منفرداً حوالي ثماني سنوات على خمس فترات، واشترك في ائتلافات وزارية في أقل من ثلاث سنوات. كان الوفد يثق في الشعب، وكان الوفد له أخطاؤه. ولكن حتى لو أخطأ الشعب اختياره فسيكون في إمكانه إصلاح أخطائه لو سُمِح له بذلك. كان من الممكن للشعب والوفد أن يتعلّموا وأن يُحَسّنوا من أدائهم ولكن لم يسمح لهم بذلك. أما أحزاب الأقلية فلم تكن تثق في الشعب ولم يكن لها قاعدة شعبية، حتى حزب الأحرار الدستوريين، والذين كان لهم باعٌ في دستور ٢٣ لم يثقوا في الشعب رغم أنه كان بينهم نخبة من أحسن مثقفي مصر أمثال أحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل وطه حسين (وإن كان الأخير قد عاد للوفد وأصبح وزيراً للمعارف ما بين سنة ٥٢ –١٩٥٠ في آخر وزارة وفدية قبل الثورة). عدم قدرة أو أحقية الشعب في الحياة الديمقراطية هي حجةٌ تَلجأ إليها الحكومات المستبدة أو التي تفتقر إلى الشعبية.

أمّا عن تقلد وزراء قبط الوزارة، فقد تقلّدها مدة العمل بدستور ١٩٢٣ وزيران قبطيان في نحو ١٢وزارة من مجموع يصل إلى ٣٤ تشكيلاً وزارياً متعاقباً. وإذ تعتبر وزارات الداخلية والخارجية والمالية والحربية وزارات سيادية أو الوزارات السياسية؛ فقد تولى الوزراء الأقباط كثيراً كلاً من الخارجية والمالية، وتولوا الحربية مرةً واحدةً في عهد عبد الفتاح يحيى. ويلاحظ طارق البشري بشكل عام أن عدد الوزراء القبط منسوباً إلى مجموع الوزراء قد قلّ منذ نهاية الثلاثينات، وغلب لون الوزارات الفنية على ما يشغلون دون وزارات السيادة. أما الوزارات الملكية أو وزارات أحزاب الأقلية فقد غلبَ على كُل تشكيلٍ منها أن يشمل قبطياً واحداً مع زيادة عدد الوزراء (بلغ أحياناً ١٥ وزيراً بينما كان في الوزارات الأخرى ٩ إلى ١٠ فقط) وإن كانت وزارة نسيم، أحمد ماهر والنقراشي، ووزارة الهلالي قبطيان [(١)].

---

(١) طارق البشري. المسلمين والاقباط. مرجع سابق. ص ٢٣٨.

نظام التعليم والدين

حتى نتفهّم جذور بعض المشاكل بين الأقباط والمسلمين يجب أن ننظر باختصار لنظم التعليم عندنا. كانت مؤسسة الأزهر فريدةً وعريقةً في نِظامِها، والأزهر بحكم طبيعته رسالته دينية. كاد يكون قاصراً على المسلمين. ولكن عموماً قلةٌ هم من تعلموا في الأزهر. كان يتخرج من الأزهر حوالي ستة فقط من العلماء بالعام من الحاصلين علي الشهادة العالمية [1]. وكان هناك رواقٌ للأقباط ليتعلموا في الأزهر، وسبقت الإشارة لذلك. بالإضافة لذلك كانت هناك (الكتاتيب) والتي كانت أساساً تُحفّظ القرآن، وقابل ذلك كتاتيبٌ قبطية ملحقة بالكنائس وقد علّمَت بعض مبادئ الحساب. بدأ التعليم الحديث بنظام محمد علي فأُنشئت المدارس التي أصبحت معاهد وكليات فيما بعد. في منتصف القرن التاسع عشر بدأت نهضةٌ تعليمية في الكنيسة القبطية لمواجهة العدوان الغربي عليها قام بها الأنبا كيرلس الرابع المسمى أبو الإصلاح. أنشأ هذا العاهل مدارس اهتمت بتعليم رجال الدين، ولكنها أيضاً اهتمت بالتعليم العام، فدرّست اللغات والعلوم من تاريخ وجغرافيا، وبعض مبادئ الهندسة والكيمياء، بالإضافة لبعض الفنون مثل الرسم والألحان الكَنسَية. أُنشِئت خمس مدارس أغلبها في القاهرة، وواحدة في المنصورة، ومدرستان للبنات، وكانت مفتوحة للمسلمين والأقباط. وليس أدل على اهتمام هذا العاهل بالتعليم أكثر من أنه اشترى مطبعةً من أوروبا وكلّف بعض أبنائه الكَهَنة باستقبالها استقبالاً رسمياً. تخرّج في تلك المدارس بعضٌ ممن أصبحوا وكلاء وزارات ومستشارين وأربعة من رؤساء الوزارات هم بطرس غالي وحسين رشدي وعبد الخالق ثروت ويوسف وهبة. تدل الأسماء المذكورة أن نسبة المسلمين في المدارس المذكورة كانت قرابة النصف [2].

بدأ نِظام التعليم العام في مصر في القرن التاسع عشر، ولكن نَشر التعليم

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. المرجع السابق. ص ٣٢٠.

(٢) زخارياس الأنطوني.كيرلس الرابع. أبو الإصلاح. سنة ١٩٩٤. ص ٦٢.

الأولي على نِطاق واسع لم يتم إلاّ في أوائل القرن العشرين. كانت المدارس التي تشرف عليها المديريات لا تدرس الديانة المسيحية للتلاميذ الأقباط. رفض دانلوب المشرف الانجليزي على التعليم طلب الأقباط بتدريس المسيحية أسوةً بتدريس الإسلام للتلاميذ المسلمين. عندما تولى سَعد زغلول وزارة المعارف سنة ١٩٠٧ وافق على ذلك، وكان يقوم به المدرّسون العاملون بالمدرسة. كانت مادة الدين تُدرس ولكن بدون امتحان. بدأ التفكير في نشر التعليم العام الابتدائي والثانوي سنة ١٩١٧ في عهد وزارة حسين رشدي الثالثة وكان وزير المعارف عدلي يكن، ولكن نُفّذ ذلك سنة ١٩٢٥ في عَهد وزارة زيوار، وأعد المشروع علي ماهر. بعض هذه المدارس اقتصر فيها على تعليم الدين الإسلامي دون المسيحي. سنة ١٩٣٠ خلال وزارة إسماعيل صدقي- إحدى وزارات الأقلية- جعل التعليم الأولي إلزامياً ولكن خصّ تعليم القرآن والدراسة الإسلامية وحدها، وأنشا فروعاً لتحفيظ وتجويد القرآن في غير أوقات الدراسة. كان المسيحيون معفيين من حضور كل ذلك. اتّسع ذلك النظام وأصبح عددُ التلاميذ في المدارس الأولية قرابة المليون طالب. كان نظام التعليم الديني بتلك المدارس يخلق مشاكل التفريق الديني(١). هكذا اتّسعت التفرقة الدينية، وتعلّم الأطفال منذ الصغر "الأنا والآخر" في فترة من أهم الفترات التربوية.

كان من ضمن أسباب صياغة التعليم الأولي على هذا النحو، أن الملك والأزهر والإخوان المسلمين- فيما بعد- كان لهم دورٌ في تعميم تدريس الدين الإسلامي والقرآن دون الدين المسيحي، بل وربطت بعض وسائل التعليم بالأزهر خلال وزارة اسماعيل صدقي ومشيخة الظواهري. كان لذلك سببان، قد يكون أولهما الصِراع بين الملك والقوى الديمقراطية بجذب الأزهر بالقرب من الملك لتأييده في صراعه أساساً مع حزب الوفد الذي تؤيدة أغلبية الأقباط. أما السبب الآخر فقد يكون أن الملك ذا الجذور غير المصرية، قد يعطيه التحامه بالأزهر بعض الشرعية، وهو بالضرورة ما فعله المماليك والعثمانيون من قبله، بل كان سعي الملك للخلافة للسبب نفسه.

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص ٢٥٨.

كان نتيجة تلك السياسة أن شعَر الأقباط أنهم مستبعدون من هذه المرحلة من التعليم، رغم أنهم يدفعون الضرائب شأنهم شأن المسلمين. كان قانون التعليم الإلزامي يمتد بعقوبةٍ إلى الآباء إذا تخلف أبناؤهم عن التعليم، فكان يبدو كما لو كانت الحكومة تعمل على إجبار التلاميذ على الالتحاق بمدارس لا تُدرّس أصول دينهم. كان من نتيجة ذلك أن بدأت تنتشر مدارس الأقباط الخاصة للتعليم الإلزامي. كانت تلك المدارس تخضع للإشراف الحكومي، وكانت تتَلَقى بعض الإعانات من الدولة ولكن مستواها تذبذب تبعاً لظروف عديدة، وإن كان البعض منها على مستوى أفضل من مستوى مدارس الحكومة. درس الأقباط في برنامجهم التعليمي تاريخ الكنيسة واللغة القبطية، وطالبت جمعياتهم الخيرية والمجمع المقدس بإدخال مادة الديانة المسيحية للتلاميذ المسيحيين في برنامج التعليم الإلزامي. أدى سوء سياسة الدولة إلى انعزال جميع التلاميذ الأقباط عن بقية أبناء الشعب وترسّب الشعور بالانعزال والغربة وعدم المساواة وإشاعة الإحساس بتعميق الشعور الطائفي(١).

كان الوفد معترضاً على عدم تدريس الأقباط لمبادئ دينهم، وعندما تولوا الوزارة عام ١٩٣٦ حاولوا تغيير ذلك، ولكن حاربهم الملك وبعض أحزاب الأقلية، وخصوصاً الأحرار الدستوريين فيما اعتبروه إجازةً لتعليم الكفر في الوسط الإسلامي! واعتبروا ذلك سياسةً قبطيةً. وأثار أعداء الوفد أيضاً الإعانة التي مُنِحَت لكلية الأقباط بالخرطوم رغم أنها قُرّرت في عهد حكومة عبد الفتاح يحيى سنة ١٩٣٤ ولم تكن حكومة وفدية (٢)**.

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص ٢٦١.

(٢) طارق البشري. المرجع السابق. ص ٢٦١.

** الحقيقة أن من يقرأ كتاب طارق البشري لا يملك إلا أن يُقدّر المجهود الكبير والأمين الذي بذله في كتاب قلّ مثيله. كاتب هذه السطور على دراية بأن طارق البشري قد تحول من مبادئ الحكم المدني إلى مبادئ الجامعة الإسلامية كما فعل مفكرون آخرون تلوّنوا مع لون السلطة والظروف المحيطة. إلا إن طارق البشري قد اعتبر تغيره ليس ارتداداً، بل استكمالاً، وهذا حقه وهو مفكر كبير، وإن كان موقفه قد تغير إلا أنه لم يتلوّن مع السلطة والظروف. إن كتابه عن المسلمين والأقباط يحتوي ما بين دفتيه على معلومات في غاية الأهمية، فقد أرّخها طارق البشري بأمانة وموضوعية المؤرخ.

كان الأقباط طرفاً في مشكلة أكبر بكثير من مجرد تدريس الديانة المسيحية للأقباط. كانت مشكلةً تخُص النظام الديمقراطي الوليد حتى لو لم يكن في مصر أقباط. كانت المشكلة تختص بالخلافة وسلطة الملك الذي سانده الانجليز حتى تكون مصر- التي يسيطر عليها الانجليز- مركزاً للخِلافة الإسلامية. اعترض بعض مشايخ الإسلام أن تكون الخلافة بمصر، لأن مصر بلدٌ مُستعمَر في ذلك الوقت. سأحاول في الفقرات التالية عرض ملخص قصير للأحداث، وإن كان طارق البشري قد تعرّض لها بتفصيل دقيق في كتابه "والمسلمون والاقباط " في فصل الملك والخلافة الإسلامية[1].

لقد زاد شعور بتوتر وارتباك كبير بين المسلمين حين أُلغِيت الخلافة من تركيا، ولأول مرةٍ بعد أكثر من اثني عشر قرناً من الزمان وجد المسلمون أنفسهم بدون خليفة. لقد كانت الخلافة لدى أغلب المسلمين رمزاً دينياً أكثر منه سلطةً زمنيةً، وإن كانت في أحيان كثيرة سُلطةً زمنيةً ومُستبدة. لقد تعاطف غاندي مثلاً مع مسلمي الهند في ذلك الوقت، وإن كانت نظرته إلى فقدان الخلافة كفقدان رمز ديني. أُلغيت الخلافة وقت وزارة سعد زغلول، والذي كان يعلم جيداً أن مصدر قوته الوحيد هو جماهيريته التي صعدت به للحكم في وقت تنازع القوى الفعلية الانجليز والسراي. ساهم كثيرٌ من كُتّاب الوفد في النغمة السائدة في استنكار إلغاء الخلافة، وإن كان الوفد قد تبنىّ في سياسته مبدأ الجامعة المصرية الوطنية وليس الجامعة الإسلامية. كان هناك اقتراحٌ بعقد مؤتمر لبحث مسألة الخلافة وكان ذلك بتحريض أو تأييد من القصر، ولكن الملك فؤاد أنكر ذلك لسعد زغلول، ولكنه كان كاذباً فنظرته للخلافة كانت لتقوية ملكه ومُلك عائلته في زمن بدأ نظام الحكم يبدو ديمقراطياً والملك أصبح مهمشاً. بدأ ما سُمي بلجان الخِلافة بتأييد من الأزهر والقصر تلعب دوراً ما في الكثير من المدن والأقاليم المصرية. شعر سعد بالخطر السياسي لتلك الحركة. شعر الوفد أن هناك يداً

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص٢٧٥.

تحاول أن تنازعه السُلطة، وأدى ذلك إلى نزاع دستوري، فعمل سعد على تصعيد الخلاف فقدم استقالته مصرحاً بأن هناك دسائس وأيديَ خفية تريد العبث بالدستور. انطلقت الجماهير تهتف مهددةً الملك "سعد أو الثورة" فتراجع الملك. سقطت وزارة الوفد نتيجة تدخل الانجليز عندما قُتِل حاكم السودان. جاءت وزارة أحمد زيوار الملكية وهو رجل مهادنٌ للانجليز، وأيد وزارته الأحرار الدستوريين وحملت كراهيةً للوفد، واشترك فيها منهم عبد العزيز فهمي رئيس الحزب ومحمد علي علوة وتوفيق دوس. ولكن نجح سعد في أن يكون رئيس مجلس النواب ضد مرشح الحكومة عبد الخالق ثروت، فصدر مرسومٌ ملكي بحل المجلس يوم انعقاده، وعُطِّلت الحياة النيابية.

اتضح لبعض الأحرار الدستوريين على الأقل أن الملك تلاعب بهم وبالدستور (الدستور الذي وضعه الاحرار الدستوريين!!). في ذلك الوقت ظهر كتاب الشيخ علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم" وهو من الأحرار الدستوريين، والكتاب مُعاد للخلافة، وينفي أن الحاكم نائبٌ عن الرسول، يقوم مقامه، وهو بالضَرُورة ما تدعيه الخلافة، والكتاب أيضاً يعادي الحكم الفردي المطلق. غضب الملك غضباً شديداً وظهر وجهه الحقيقي ورغبته في الخلافة. قامت هيئة كبار العلماء بالأزهر باستدعاء المؤلف بإيعاز من الديوان الملكي وحكمت بإجماع ٢٥ عضواً بإخراج علي عبد الرازق من زُمرة العلماء، ومن ثم فصله من وظيفة القضاء [1]. أقيل عبد العزيز فهمي وزير الحقانية ورئيس الأحرار الدستوريين من الوزارة عندما "تَلكأ" في تنفيذ قرار المحكمة الصادر ضد علي عبد الرازق. عُيّن علي ماهر وزيراً للحقانية وأصدر قرار الفصل. خرَج الأحرار الدستوريين من الوزارة. اعترف عبد العزيز فهمي بخطئه في الاشتراك في وزارة زيوار. اقترب الأحرار الدستوريين من حزب الوفد، وقرروا بطلان حل البرلمان. وعُقد البرلمان في فندق الكونتننتال معلناً عدم الثقة بالحكومة فسقطت الوزارة، وكانت لطمةً شديدةً للملك. تكوّنت وزارة جديدة ائتلافية من الوفد والأحرار والوطني برئاسة عدلي يكن، ورأس سعد زغلول مجلس النواب. حوصرت دعوة الخلافة سياسياً ودينياً، بذلك انتهت محاولة الملك فؤاد للخلافة. لقد ضعُفَت سيطرة الملك على الأزهر ولو إلى حين، وانتقل الأزهر من يد الملك إلى البرلمان والوزارة،

---

(١) جابر عصفور. هوامش على دفتر التنوير. دار سعاد الصباح. سنة ١٩٩٤. ص ٣١٧.

وبدأت حَركة إصلاح إدارة مدارس ومعاهد الأزهر. ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، تأرجَح موقِف الأزهر تبعاً لنوع الحكومة، إذا كانت الحكومة ديمقراطيةً سيطرت على الأزهر شأنه شأن أجهزة الدولة الأخرى، أما إذا كانت الحكومة ضعيفةً أو من وحي الملك عاد الأزهر إلى نُفوذ الملك وأصبَح سنداً له. كان صِراعاً بين سيطرة الحكومة وسيطرة الملك على الازهر، الملك يريد السيطرة على الأزهر والمعاهد الدينية لمساعدته سياسياً خصوصاً ضِد الوفد، بينما الوفد والنظام الديمقراطي ينظر للأزهر شأنه شأن مؤسسات الدولة الأخرى. أخَذ الملك فؤاد يروّج لمبررات مختلفة، ظاهرها مصلحةُ الأزهر وباطنها رغبته الواضِحة في أن يكون الأزهر ملعباً ينفرد هو في اللعب على أرضه. ومن خلال عُلماء الدين يمكنه من أن ينفذ إلى عقول الجماهير. وقد أيّد بعض العلماء موقف الملك طمعاً في رضاه وكسباً لودّه، وكان الأزهر غالباً تحت تأثير الملك ونفوذه حتى قامت ثورة ١٩٥٢ [1]. انتصر موقف الملك وبقيت سلطته لا تُنَازَع.

توفي الملك فؤاد في ١٩٣٦، وكان فاروق قاصراً، كان النحّاس رئيس الوزارة. عندما بلغ فاروق سن الرشد ثارت مشكلةً اتُّهِم فيها الوفد بالقِبطية وركّز الهجوم علي مكرم عبيد بصفته سكرتير الوفد ومن أعضائه البارزين. عُيّن علي ماهر رئيساً للديوان دون الحصول علي موافقة الوزارة، كما يشترط الدستور، وكان علي ماهر كارهاً للوفد والدستور. في ذلك الوقت ظهرت دعوة (الإخوان المسلمين) بزعامة حسن البنا، ودعوة (مصر الفتاة) بقيادة أحمد حسين وكلاهما كان يحظى بعطف السراي، وكلاهما كان يؤثر في الجماهير بالأهداف البرّاقة والاعتماد على التنظيمات الفاشية شبه العسكرية، اعتدى البعضُ من هؤلاء على مصطفى النحّاس. كانت أهداف مصر الفتاة وكذلك الإخوان المسلمين ترفض رفضاً قاطعاً النظام الديمقراطي. وإن كان موقف الإخوان من ذلك مستمداً من مبادئِهم المعتمدة على الجامعة الدينية، وإنكار الحزبية، فضلاً عن الدعوة لتطبيق الشريعة. أهداف رنانةٌ تجد صدى لدى الجماهير، ولكنها غامضةً من أمثال مجد الإسلام والعروبة، وأن تصبح مصر بلداً يتزعم العالم العربي والإسلامي وما إلى ذلك. كانت هذه التنظيمات بما لديها من قوة، كانت ترهب بعض

---

(١) سعيد اسماعيل علي. دور الأزهر في السياسة المصرية. كتاب الهلال. سنة ١٩٨٦. ص ٢٧٦.

خصومها والاعتداء عليهم ومقاومة السلطات إذا تعرّضت لهم [١]. كانت تلك النُظُم تهُدد النظام الديمقراطي والدستور الذي أجمَع عليه الشعب.

خطّط علي ماهر للخلاص من الوفد. استغل شباب الملك فاروق وربطه بمظهر الدين وبالأزهر، وأضفى شخصيةً مُقدّسة على الملِك تدين لها الجماهير، وكان الملك بهيَ الطلعة. كثرت صور الملك الشاب مع الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر داخلاً أو خارجاً من أحد الجوامع. وكثرت صوره وهو يصلي..بل ويؤم المصلين. ظهرت دعوات صريحة تنادي بـــ "فاروق حامياً للإسلام"، "الأزهر فوق الأحزاب"، "الملك فوق الجميع"، و"يحيا الملك أمير المؤمنين". كانت هذه دعوة إسلامية دينية سياسية مقابل دعوة الوفد المدنية الديمقراطية. حاول القصر أن يُتم تتويج الملك في احتفال ديني في القلعة يقلد فيه شيخ الأزهر الملك الجديد سيف جده الكبير محمد علي. كان هذا يعني إقحام الدين فيما ليس من شئونه، وإيجاد سُلطة دينية بجانب السلطة المدنية. لم يرضَ مُصطفى النحّاس عن اقتراح القصر، ورأى ضرورة تنفيذ نص الدستور، وهو أن الملك يتولى سلطانه ويباشر مسئولياته، يقسم اليمين الدستورية أمام الهيئة المشتركة من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب، ساد موقف النحاس[٢].

اتهم الوفد بالقبطية وبمعاداة الإسلام، وانزلَق في ذلك الكثيرون من أعداء الوفد دون أن يُراعوا أن إقحام الأقباط في هذا التنازع على السُلطَة جِناية من أكبر جناياتهم على السياسية الوطنية. أصبح في نظر البعض أن المسيحية القبطية شعارٌ يتخفى به الأقباط ويثيرونه ضِد المسلمين. انزلق في ذلك التيار كثيرون، إما عن حسن نية أو سوئِها. عباس العقاد الذي كان واحداً من قلاع الاستنارة الفكرية على عهد انتمائه للوفد وكان قد ساهم في إرساء أركان الجامعة الوطنية المصرية، أمسى في مُعسكرَ الملك يساهم في نقضِ ما صنعت يداه. نشرت الصحف المعادية للوفد الكثير من الكذب من ترقية الأقباط وعدم ترقية المسلمين رغم كفاءتهم لإظهار ما

(١) عبد العزيز جمال الدّين. تاريخ مصر. الجزء الرابع، المجلد الثاني. ص ١٥١٤-١٥٠٨.

(٢) سعيد اسماعيل علي. دور الأزهر في السياسة المصرية. كتاب الهلال. سنة ١٩٨٦. ص ٣٢٦. وكذلك علاء الحديدي. مصطفى النحّاس. دراسة في الزعامة السياسية المصرية. دار الهلال. سنة ١٩٩٢. ص١٨١.

أسموه بـــ "قبطية الوفد" وروّجوا لذلك [1]. كانت حملةً شعواء استُهدِف فيها مكرم عبيد لا لشخصه أو سياسته بل لديانته **.

ساعد كلٌ من (مصر الفتاة) و(الإخوان) في النَيل من الوفد. بالإضافة إلى أن الوَفد ارتكب بعض الاخطاء في الحكم، منها المحسوبية، بالإضافة لبعض النقد الموضوعي لمعاهدة ١٩٣٦رغم أنها كانت بموافقة واشتراك باقي الأحزاب. كانت رؤية الوفد لتلك المعاهدة أنها تحقق استقلال البلاد وتصون المصالح البريطانية التي لا تتعارض مع ذلك الاستقلال، ولم يكن ذلك تمثيلاً صادقاً للمعاهدة ***.

رد الوفد علي هذا الهجوم وفقا لمبادئه، وكان جَسُـوراً واتّخـذَ مَوقِفـــاً عملياً ينحصِرُ في نَفي الصفة الدينية عن عرش الملك. اعتبر النحاس محاولة الإخوان وشيخ الأزهر صبغ التشريعات بالصبغة الإسلامية ما هي إلا مؤامـــرة ضد الوفد بصفتة حامياً للديمقراطية. نجحت مخططات علي ماهر والســـراي للنيَل من الوفد، وأقيل سنة ١٩٣٨. قاطع الوفد كحزب الانتخابات التاليـــة، وإن كان قد سُمح لأعضائه بالاشتراك فيها. ولكن أعضـــاء الوفـد المستقلـين فـازوا بـــ ٥٪ فقط. بعد ذلك تولى مكرم عبيد الرد عما قيل مـــن سيطرتـــه القبطيـــة على الوفد، وطلب من النيابة العامة التحقيق فيما اعتبره قذفـــاً وجهـــه إليـــه العقّاد وآخرون، وتحدى أن يُقيم أحد دليلاً واحداً على أنـــه كان لـــه أي شـــيءٍ يُذكَر برفض حفلة التتويج الدينية للملك. وصف تلك الحملة لإزاحـــة الوفـــد

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط.مرجع سابق. ص ٥٣١.

** كان مكرم عبيد قد أسقط اسم "وليم" من اسمه خلال ثورة ١٩١٩؛ ولكن البعض خلال تلك الأزمة أو عندما يحلو لهم كانوا يعيدون اسم وليم إليه ليؤكدوا مسيحيته أو عدم ولائه أو على أحسن الأحوال ليشككوا فيما يقول. انزلق في ذلك البعض ومن ضمنهم عباس العقاد بعد ان ترك الوفد.

*** تكونت لجنة لمفاوضة الانجليز من مصطفى النحّاس رئيساً وعُضويّة محمد محمود، إسماعيل صدقي، عبد الفتاح يحيى، واصف بطرس غالي، أحمد ماهر، علي الشمسي، عُثمان محرم، حلمي عيسى، مكرم عبيد، حافظ عفيفي، محمود النقراشي، وأحمد حمدي سيف النصر. ووُقّعت معاهدة ١٩٣٦للصداقة والتحالف، ولم تلقَ المعاهدة إلا معارضةً ضعيفةً من الحزب الوطني. عبد العزيز جمال الدين.تاريخ مصر. مرجع سابق. ج٤. المجلد الثاني. ص ١٥٠٧.

أنها لم تكن مجرد أزمة دستورية، ولكنها أزمة توغَّل فيها مثيروها إلى ما يمس الوجود المصري القومي نفسه. إنها نكبة مصرية ترجع نضال المصريين السياسي إلى الألِف والباء في كتاب قوميتهم [١]. كتَبَ سلامة موسى (إن المتعصبين يستعملون هذا التعصب وسيلةً لإسقاط الوفد بإيهام الجماهير أن الأقباط يسيطرون عليه وأن تعصبهم ليس غايةً بل وسيلة) [٢]. كانت نتيجة الحملة ضد الوفد– وخصوصاً المظاهرات المعادية لمكرم عبيد شخصياً، واستخدام علاقة الوفد بالأقباط في ذلك الخلاف السياسي– أن انزلق بعض الأقباط أيضاً في هذا المسار المنحدر، فبدأ بعضُ الأقباط يُذكِّرون بما قدمه الأقباط لوطنهم في ثورته " لا نكون مغالين إذا قلنا إن كسب قضية البلاد يعود الفضل الأكبر فية إلى جُهود الأقباط وتضحياتهم، فمن العقوق بعد كل هذا أن يكون نصيب الأقباط ونصيب زعمائهم ما رأيناه من الهتافات العدائية، فليس الأقباط عنصراً أجنبياً، فهُم ليسوا من أهل البلاد فحسب ولكنهم ساهموا بالنصيب الأوفى في الجهاد، ورَفَضوا أن يُعتبروا أقليةً يحميها الانجليز". صورّ سلامة موسى الأقباط على أنهم جماعةٌ متميزةٌ مخالفاً ما يُوجبه التصور الوطني. ويعتقد طارق البشري أن سلامة موسى كان طائفياً واضحاً في هذه الفترة. حاول سلامة موسى تهدئة الأمور بعد ذلك، فطالب أن يثبت الأقباط حبهم للمسلمين بإنشاء مؤسسات خيرية ينتفع منها كل المصريين، مع المناداة بالكف عن دعوة الشر بصرف النظر عن مصدرها. طالب أيضاً برد الفعل الانعزالي الذي يحاول أن يبلور فكرة الجماعة القبطية كجماعة سياسية منفصلة عن جسم الأمة، لأنها بذلك تضع نفسها موضع الشك [٣]. جميع الأحزاب والقوى السياسية المعادية للوفد استخدمت سلاح الدين بدرجة أو بأخرى، ومن وَقَف ضد استخدامه كان حزب الوفد وكان وحيداً. كان بعض أحزاب الأقلية، السراي ومن ورائها الأزهر، وكذلك الانجليز.. يتلاعبون بورقة الأقباط. أن يتلاعب الانجليز أو السراي بورقة الأقباط أمرٌ مفهوم، أما أن

---

(١) طارق البشري.المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص ٥٤٦.

(٢) طارق البشري. المرجع السابق. ص ٥٥٠.

(٣) طارق البشري.المرجع السابق. ٥٥٠.

تتلاعب بها أحزابٌ مصرية أو الأزهر، فهذه خيانة للوطن، وفي أحسن الظروف انعدامٌ للرؤية.

حاول البطريرك يؤنس خلال تلك الأزمة أن يتدخّل ليخفف من حدة هذه الهجمة والخوف من أن يُستقطَب الأقباط في الصراع السياسي، وأن يتوحّدوا كَجَماعةٍ دينيةٍ بالوَفد بحيث تقترن المعاداة للوفد بالمعاداة للأقباط. أرسل البطريرك خطاباً للملك يعلن باسمه وباسم الأقباط إخلاصهم المتناهي للعرش واعترافهم الدائم بجميع أفضاله. استدعى الملك المجلس الملي ورئيسه البطريرك، وكان إبراهيم فرج عضواً بالمجلس، وحذر البطريرك من أن الملك يريد استغلال الاجتماع سياسيا. قال الملك للبطريرك في ذلك الاجتماع "إن فيكم أناساً سيئين". بعد الاستفسار من أحد رجال السراي عن معنى تلك العبارة قيل "إن الملك يقصد القبط عامةً" (١).

بعد فوز السراي وحلفائها على الوفد في الانتخابات بدأت شقوق التصدع في الحلف الملكي. ظهر أحمد حسنين في السراي ونافس نفوذ علي ماهر رئيس الوزراء وسلطته على الملك. "مصر الفتاة" بدأت تهاجم حكومة علي ماهر بعد أن أيّدتها في بادئ الأمر. ظل الإخوان على موقِفهم وإن كانوا أساساً مؤيدين للسراي. جاءت الحرب العالمية الثانية، وكانت هناك بوادر توحي بميل السراي لألمانيا والمحور، ولم يكن من الممكن أن تسمح انجلترا بذلك. عاد الوفد للحكم إثر إنذار قدمه السفير البريطاني مايلز لامبسون في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ تسانده الدبابات. لقد أراد الانجليز وزارةً شعبيةً تحقق بعض الاستقرار الداخلي خلال الحرب. حاولت أحزاب الأقلية أن تكوّن حكومة ائتلافية مع الوفد، إلا إن الوَفد رفض ذلك لعدم فاعلية الوزارات الائتلافية. جاءت وزارة النحاس الخامسة بناءً على طلب الانجليز، ولكنها أجرَت انتخابات في مايو قاطعها أغلب الأحزاب ففاز الوفد بأغلبية ساحقة. نالت تلك الأحداث من السراي، وكذلك من الوفد لقبوله تأليف الوزارة تحت تهديد الانجليز. بدأ الوفد يتصدع على أثر خلاف بين قطبيه النحّاس ومكرم.

---

(١) طارق البشري. المسلمون والاقباط.مرجع سابق. ص ٥٥٢.

مصطفى النحاس ومكرم عبيد

كان كلٌ من مصطفى النحاس ومكرم عبيد من أسرتين ريفيتين من الطبقة المتوسطة. كانا معاً في المنفى مع سعد زغلول في سيشيل، وقد أظهر كلاهُما ولاءً شديداً لسعد زغلول، وقد لعب مكرم عبيد دوراً مهماً في اختيار مصطفى النحّاس رئيساً للوفد بعد وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧. كان النحّاس طيب القلب، وقد ساهم مكرم عبيد في وضع هالةٍ على صورة النحاس وأعطاه ألقاباً كثيرةً مثل "الزعيم المقدس" و "صاحب اليد النظيفة"، وقد أضفَت صحافة الوفد بعضاً من ذلك على مَكرَم عبيد نفسه، مثل "المجاهد الكبير" و "ابن سعد". أصبح مكرم عبيد سكرتير الوفد والناطق باسمه. لم يكن النحّاس مُفاوضاً ماهراً، ولم يكن متمرساً في التعامل مع العقلية الأوروبية، وقد أكمل مكرم عبيد-الذي أكمَل تعليمه في أوروبا- هذا النقص في النحاس [١]. كان النحاس صلباً في بعض مواقفه، فكان يُؤمن بالدستور والحياة النيابية الصحيحة والرجوع إلى الأمة واستقلال البلاد استقلالاً صحيحاً [٢]. كان مصطفى النحّاس ومكرم عبيد على وِفاق تام لأكثر من عقدين من الزمان. ربطت بينهما وحدةُ الرؤية وصداقةٌ قوية وإخلاصٌ للقضية الوطنية، وارتباطٌ بالطبقة المتوسطة والفقيرة. كان لمكرم تأثيرٌ قويٌ على النحّاس وعلى الحِزب، وقد زاد ذلك التأثير بعد خروج أحمد ماهر والنقراشي من الحزب لتكوين حزب السعديين سنة ١٩٣٧. وقد ساعدت شخصية النحاس البسيطة وشفافيته على ذلك. فقد كان النحاس- رغم صلابته- أقل ذكاءً ومهابةً من سعد زغلول. كل ذلك ساعد عبيد كثيراً على أن يكون القوة المؤثرة إلى جَانِب زعيم الوفد [٣].

كان مَكرَم عبيد شخصية نادرة في السياسة المصرية؛ سواء بين الأقباط أو

(١) مصطفى الفقي. الأقباط في السياسة المصرية. مكرم عبيد ودوره في الحركة الوطنية. دار الشروق. سنة ١٩٨٥.ص ٧٦.

(٢) مذكرات مصطفى النحّاس. العصور الجديدةدراسة وتحقيق أحمد عز الدين. سنة ٢٠٠٠. الكتاب الأول. ص ٢٨٨.

(٣) مصطفى الفقي. المرجِع السابق. ص ٩٩.

المسلمين. لقد عبر حاجز الأقلية ليصبح شخصيةً عامةً، متمتعةً بشعبية واسعة بين المسلمين أكثر من الأقباط. كان مكرم خطيباً مفوّهاً وكان كلامه منمقاً. كان خفيف الظل وحاضر البديهة، وقد أعجب ذلك قطاعاً كبيراً من الجماهير. رغم طموح مكرم في أن يصبح رئيساً للوزارة، وإن كان ذلك لم يتحقق لأسباب عديدة فإن إسهاماته في السياسة المصرية داخلياً أو خارجياً أعظم بكثير من إسهامات كثيرين ممن تولوا ذلك المنصب [1]. لقد كان من سُخريات القدر أن مكرم عبيد كان السبب في زواج النحاس من زينب الوكيل، الأرستقراطية ذات الطموح القوي، والغيورة من تأثير مكرم عبيد القوي على النحاس. وكذلك كان مكرم عبيد هو من قدّم فؤاد سراج الدين لمصطفى النحّاس ورشحه للبرلمان، وكان من كبار الملاك الزراعيين. لقد كانت زينب الوكيل وفؤاد سراج الدين من أسباب الصراع الداخلي بين النحاس وعبيد، والذي أدي لخروج مكرم من الوفد. والحقيقة أن أسباب الصراع أكثر تعقيداً من ذلك، وقد يكون أهمها أن شخصية مكرم ونفوذه داخل وخارج الحكومة وبلاغته في الخطابة واستئثاره بالكثير من حب الجماهير واهتمام الصحافة بما يكتب أو يقول قد أثارت ضده الكثير من الغيرة. أما المؤثرات الخارجية فكانت كثيرةً بدايةً من القصر والانجليز ودسائسهم. لقد انزلق مكرم عبيد في تصعيد الخلافات وأخطأ في حساباته.

لقد قال أحمد بهاء الدين: إن مكرم عبيد كان الفارس الذهبي للحركة الوطنية المصرية في مرحلتها الليبرالية- أي ما بين ثورة ١٩١٩ و ثورة ١٩٥٢- ومن يدرس تاريخ تلك المرحلة سيَجِد أن "المعيار" الذي تقاس به المواقف الوطنية السليمة بالنسبة لكل جوانب الحركة الوطنية المصرية في تلك المرحلة، سواء الموقف من الاحتلال الانجليزي، أو الدستور، أو نزاهة الحكم، أو الديمقراطية، أو دَرَجة الجهاد والفداء.. يقاس الحق والباطل إلى مِقياس مواقفه وسياساته، فهذا الرجل ابن الأقلية الدينية في بلد من بلاد العالم الثالث استطاع أن يكون سكرتير عام أكبر حزب سياسي في تاريخ مصر السياسي كله..وأن يكون عقله المفكر، ونجمه اللامع ورأس

---

(١) مصطفى الفقي.الاقباط في السياسة المصرية. مرجع سابق. ص ١٥٩.

حربته القاطعة، ومحور حركته النشيطة. كان المفكر والخطيب والكاتب لأوسع الجماهير على الإطلاق، ونقطة الجذب الأساسية وجوهره هذا الحزب الثمين وأقوى مدافعيه في شتي المعارك.

في أحد خطاباته لمجلس النواب قال "ما الذي يكسبه الفلاح المصري من الاستقلال إذا ما ظل في كل عهد من العهود كبش الفداء ومحل الاستغلال ؟ فلنقلها إذن قولةً صريحةً يا حضرات النواب: فقد عملنا لتخليص المصري من الاستعمار الأجنبي وقد بقيَ علينا ان نخلصه من الاستعمار المصري" **..

هذا الكلام - وتذكّر أيها القارئ!- ليس مكتوباً في منشور سري يحض على الثورة، ولا هو من معارض متطرف، ولكنه من وزير مالية أكبر حزب، يلقيه تحت قبة البرلمان، في بلد مقاديره العُليا في يد القصر والاحتلال الانجليزي! ولا أعرف كلاماً عن الفلاح المصري والعامل وكما سمّاها مصر الكاملة والـ ٩٠٪ من سكانها أكثر صراحةً وأعمق من هذا الكلام، ومنذ خمسين عاماً [١].

لم يكن مكرم عبيد بلا أخطاء- شأنه شأن أغلب الشخصيات البارزة. بينما كان اسماعيل صدقي يقدم النموذج الأمثل للساسة البراجماتيين في تاريخ الحركة الوطنية، فإن مكرم عبيد يمثل النموذج المقابل للساسة الرومانسيين. يقول يونان لبيب رزق "إن الأهداف الوطنية الكبرى باستكمال أسباب الاستقلال وإعمال مبادئ الدستور والتضحية من أجل هذة الأهداف بالمصالح الشخصية لو حتى بالوصول إلى الحكم على جسدها كانت سمات مميزة للرومانسيين من أمثال مكرم عبيد، الأمر الذي تؤكده مجموعة التصرفات التي حكمت المسيرة السياسية لمكرم. وقد أعطى يونان لبيب رزق بعض الأمثلة لتلك التصرفات" [٢].

---

(١) منى مكرم عبيد. مكرم عبيد كلمات ومواقف. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٠. ص ١٧.

(٢) منى مكرم عبيد. المرجع السابق. ص ٤٢.

** يشابه ما قاله مكرم عبيد فيما يختص بتخليص الفلاح المصري من احتلال الأرستقراطية المصرية مع ما قالة المهاتما غاندي مخاطباً مؤتمر الكونجرس الهندي إبان الاحتلال البريطاني للهند من تخليص الهنود من سيطرة الارستقراطية الهندية.

وإن كانت الرومانسية السياسية سلاحاً ذا حدين، فقد كان خروج مكرم وأصحابه من الوفد ومحاربته لحزب الأغلبية وصدور الكتاب الأسود واستخدامه كأداة لتفتيت الوفد كانت بداية مرحلة أفول نجم مكرم عبيد سياسياً. كان انشقاق الوفد هو رابع انشقاق في صفوف الوفد، وغالباً ما قد يكون أسوأها. لم يستطع الوفد أن يعوّض سريعاً ما فقده بخروج مكرم عبيد. وكذلك لم يستطع حزب الكتلة الوفدية الذي أنشأه مكرم أن يحقق الكثير؛ فقد أجمَع أغلَب الكُتّاب على أن خُروج مكرم عبيد من الوفد ومحاولة النَيل مِن الوفد، حزب الأغلبية، كان خَطأً لا يُغتَفر.

كان تأليب السراي والأزهر على الوفد قد نشط بعد خروج مكرم عبيد من الوفد بما يظهر من مظاهرات الأزهريين ضد الوفد كما كانت نشِطةً قبل خروجه. فلم يكن سبب ذلك- كما ادعى البعض- سيطرة مكرم عبيد أو الأقباط على الوفد. كان الخصم الأساسي للسراي هو الوفد [١]. لم يكن مكرم عبيد ممثلاً للأقباط. فقد كان زعيماً مصرياً، سواء في الوَفد أو بعد الخروج منه. كان مكرم عبيد مشهوراً بثقافته الإسلامية، وكان يقول "إني مسيحيٌ ديناً ومسلمٌ وطناً. اللهم اجعلنا نحن المسلمينَ لكَ وللوطن أنصاراً، واللهم اجعلنا نحن النصارى لك وللوطن مسلمين". لقد عارضت الكنيسة إلى النهاية الموقف الذي كان يمثله مكرَم عبيد، كما أن الكنيسة عارضت موقف سلامة موسى، رغم أن كليهما لم يخفِ رؤيته للدين في أي يوم[٢]. كان مكرم عبيد في الوفد كالسمكة في الماء. عندما طُرِد أو خَرج مكرم عبيد من الوفد طُرِد معة ثمانية عشر من أنصاره، منِهُم عشرة أقباط وثمانية من المسلمين. وكثيرٌ من الأقباط الذين طردوا كانوا من أقارب مكرم وعائلته والقريبين منه. ولم يكُن الدين عاملاً؛ سواء من ناحية مكرم أو من ناحية الوفد، بل إن النحّاس لم يغير سياسته تجاه الأقباط على الإطلاق فلم يكن يفرق بين أقباط ومسلمين، وكذلك لم يغير أغلب الأقباط تأييدهم للوفد [٣].

---

(١) طارق البشري.المسلمون.والاقباط. مرجع سابق. ص ٥٥٧.

(٢) غالي شكري. أقنعة الإرهاب. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ٢٤٦.

(٣) طارق البشري.المرجع السابق. ص ٥٥٦.

خرج مكرم من الوفد في يوليو ١٩٤٢ بعد قرابة خمسة أشهر من حادث ٤ فبراير السابق الإشارة إليه. وأصدر (الكتاب الأسود) [١] في مارس ١٩٤٣من ٥٠٠ صفحة شارحاً أسباب خلافاته مع النحّاس وأنه قدّم استقالته ثلاث مرات،ولكن النحّاس كان يرفضها كل مرة، واعداً باتخاذ إجراءات فِعلية ضد المحسوبية. ذكر مكرم أسماءكثيرة لنماذج المحسوبية والمحاباة، وكان الكثيرُ من الأسماء للأقباط حتى يتفادى اتهامه بأنه مُنحازّ دينياً. كتب مكرم في كتابه فصلاً عن المسئولية والسلطة، وآخر عن الحقوق الدستورية والسياسية [٢]. بعد خروج مكرم من الوفد خسر الانتخابات في دائرته المفضلة في قِنا أمام مرشح الوفد. وخسر ترشيح نفسه لنقابة المحامين أمام مرشح الوفد بفارق ضئيل من الأصوات (٤١٥ صوتاً ضد ٤٠٩ أصوات).وليس غريباً أن موقف مكرم عبيد من المسألة الوطنية بعد خروجه من الوفد كان موقفاً وفدياً لم يحِد عنه[٣].

لم ينظر الأقباط لمكرم عبيد كممثل لهم، بل كانوا حريصين على إبعاد هذة المظنة. في سنة ١٩٤٩ كان إبراهيم المنياوي وكيلاً للمجلس الملي، ورشّح نفسه لمجلس النواب عن حِزب الكتلة الوفدية- حزب مكرم وأنصاره- فاعترض الأقباط على أن يكون وكيل المجلس الملي بهذا الترشّح مصبوغاً بلون حزبي معين، بما يثير مظنة ارتباط الاقباط بهذا الحزب. وخُيّر المنياوي بين الترشّح مستقلاً أو عدم الترشّح أصلاً وبين وكالة المجلس الملي، فعدل عن الترشّح [٤].

الاخوان المسلمون

في الفترة التالية وحتى ثورة ١٩٥٢ قد تكون أهم الحوادث التي تتعلق بالأقباط والمسلمين هي ازدياد قوة الإخوان المسلمين والضعف النسبي لباقي الأحزاب، وإن

---

(١) يونان لبيب رزق. الوفد والكتاب الاسود. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية. مؤسسة الاهرام، سنة ١٩٧٨.

(٢) مصطفى الفقي. الاقباط في السياسة المصرية. مرجع سابق. ص ١٢٢.

(٣) طارق البشري. المسلمون والاقباط. ص ٥٦٠.

(٤) طارق البشري. المرجع السابق. ص ٥٥٩.

بقيَ الوفد أقوى الأحزاب شعبياً. كانت حركة الإخوان المسلمين حركةً شعبيةً غير طبقيةٍ، فلم يكُن هُناك ما يمنع في أول الأمر أن تَكُون من الإخوان وأن يكون انتماؤك الحزبي للوفد أو الأحرار الدستوريين أو السعديين. كان حسن البنا ذكياً عندما رفض وضع برنامج سياسي للإخوان حرصاً على وِحدة أعضاء حركته وخوفاً من نَقل خلافات الفرق الإسلامية إلى صفوف الجماعة، حتى تَكتَسِب الجماعة القوة اللازمة للحركة السياسية. وإن كان عدم وجود برنامج سياسي في أول الأمر من بين مبررات ضعف الإخوان سياسياً، إلا إن ذلك ساهم في تكوين القاعدة الشعبية [١]. كان حسن البنا داعيةً اعتمد على أن الدعوة الإسلامية دعوةً شامِلةً للعقيدة والشريعة والسلوك. لم تكُن الدَعوةَ عرضاً لفِكرة والدفاع عنها، ولكنها كانت تنظيماً يجمع الناس وينشر بينهم التربية الدينية، ويتطلب منهم أن يقوموا بهذا العمل مع الآخرين. لقي ذلك قبولاً لدى الكثيرين لاعتماده على المشاعر الدينية الفطرية، فكان ذلك تنظيماً حركياً يقوم بدعوةٍ. إن البنا قد صنع حركة إسلامية أكثر من كونه قدّم فِكراً مجرداً مثل ذلك الذي قدمة ابن تيمية أو سيد قطب [٢].

أُنشِئَت شِعبٌ للإخوان في كل قرية أو حي سكني، وكان انتشاراً علنياً وديمقراطياً لدرجةٍ ما. بعد أن اكتسب الإخوان القوة الشعبية، بدأت في تكوين كوادر أكثر انتظاماً وانضباطاً واعتمدت على السِّريّة والتدريب العسكري. كان ذلك تنظيماً عسكرياً للصِدام والمواجهة، واعتمد على الولاء التام وتنفيذ الأوامر. بذلك انقسم الاخوان لتنظيمين، لكل منهما فكرٌ يلائم وظيفته. أصبحت الحركة تعتمد على الانتشار ثم المواجهة. بذلك بدأت مشاكل الإخوان، واتضحت حقيقة نواياهم في الوصول للحكم. هذه الازدواجية وعدم الوضوح جعلا الإخوان يتعرضون للتصفية الدورية فيما بعد. كان الإخوان ضد كل الأحزاب، ولكنهم مدوا أياديهم للتعاون مع كل الأحزاب، حتى حزب الوفد، حين أقنعوا النحّاس بأن حركة الإخوان تمثل نشاطاً دينياً ليس له دوافع سياسية. لقد سمح السعديون للإخوان بتكوين فِرَق الجوالة،

---

(١) صلاح عيسى. الكوارث التي تهددنا. مكتبة مدبولي. سنة ١٩٨٧. ص ٢٤٢.

(٢) طارق البشري. في المسألة الإسلامية المعاصرة. دار الشروق. ١٩٦٨. ص ٢٣.

وكانت تشكيلاً شبه عسكرياً- وهو ما يمنعه الدستور- وصل تعداده إلى عشرين ألفاً[1].

أصبح الإخوان قوة سياسية أكبر من بعض ممن كانوا يحمونهم من أحزاب الأقلية، وبدأوا يعدون أنفسَهُم لخوض الانتخابات القادمة؛ وكان لهم أملٌ كبيرٌ أن يكتسحوا الانتخابات، أو على الأقل أن يخرُجوا منها كحزب سياسي له وجود. في عام ١٩٤٤ كانت الدعوة قد وَصَلت إلى أوج الانتشار، فلم يعد هناك مكان في مصر يخلو من شُعبةٍ، وأصبحت الجامعة والأزهر قلعتين من قِلاع الدعوة وبدأت حركة الإخوان تنتقل وتنتشر في البلاد العربية. كان حديث الثلاثاء للبنّا تحضره أعدادٌ كبيرةٌ من الناس[2].كان ذلك خلال الوزارة الائتلافية التي رأسها محمود فهمي النقراشي، وكان السعديون قد سَمحوا للإخوان بكثير من الحركة وأصبح لهم نشاطٌ مؤيدٌ للفلسطينيين، إلا أن الحكومة بدأت تعاني من أهداف الإخوان السياسية فضغطوا عليهم. بدأ الإخوان يستخدمون قوة التنظيم السري في سلسلة من حوادث الإرهاب، والتي كان منها نسف بعض المحلات التجارية واغتيال أحد القضاة ومحاولة نسف محكمة الاستئناف. لم يكن ممكناً للحكومة أن تنظُر لما يحدث دون أن تفعل شيئاً، فقرّر النُقراشي حل جماعة الإخوان، وأيّده القصر في ذلك عندما استفحل خطر الجماعة. إلا إن النقراشي دفع حياته ثمناً لذلك حين اغتالة أحد أعضاء التنظيم السري في ديسمبر سنة ١٩٤٨ [3]. كان رد الحكومة هو اغتيال حسن البنّا من قِبل البوليس السياسي أو الحرس الحديدي. دخل الإخوان بعد ذلك في مرحلة إعادة ترتيب الأوراق، ولَقيت الحركة تعاطفاً من بعض ضباط الجيش الصغار، والذين أصبح بعضهم من قادة الثورة. كان قادة الإخوان على درايةٍ بالثّورة قبل قيامها، وقد سَاعدوها في أول الأمر. أُلغيَت جميعُ الأحزاب، وسُمِح للإخوان بمزاولة نشاطهم. بعد نجاح الثورة حاول

---

(١) صلاح عيسى. الكوارث التي تهددنا. مرجع سابق. ص ٢٤٧.

(٢) محمود عبد الحليم. الإخوان المسلمين. دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع. بدون تاريخ إصدار. ج١. ص ٣٤٥.

(٣) صلاح عيسى. الكوارث التي تهددنا.مرجع سابق. ص ٢٤٩.

الإخوان فرض الوصاية عليها، فطلب الهضيبي من جمال عبد الناصر تشكيل لجنة من هيئة الإخوان تُعرَض عليها القوانين قبل صدورها، ولكن عبد الناصر لم يكن ليقبل الوصاية من أحد [١]. وقع الصراع مع الثورة والذي انتهى بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر بالمنشية عام ١٩٥٤، ثم مُحاكَمَة وإعدام وسجن وتعذيب أعداد كبيرة من الإخوان، وكثيرٌ منهم لم يكن له علاقة بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر. ثم أُعدِم سَيِّد قُطب فيما سُمِّي بـ (محاولة قلب نظام الحكم) وكان مفكرٌ إسلاميٌّ مُتطَرِّف كتب كتاب (معالم على الطريق) اعتبرته الحكومة محاولةً لقلب نظام الحكم. لم يكن من الممكن القضاء على الإخوان بالقوة. اختبأت الجماعة تحت الأرض، ولكنها لم تختفِ وأصبحت أكثر تطرُّفاً. تكرر حدوث موجات اعتقال جديدة من الإخوان سنة ١٩٥٩، و١٩٦٥. ازداد عَداء الإخوان لجمال عبد الناصر لما سببه لهم من تدمير وتعذيب. جاء السادات وأطلق سراح الإخوان وساعدهم كثيراً كسندٍ له ضدِ الناصريين، وضدِ اليسار. ولكن عندما قويت شوكتُهم- خصوصاً بعد معاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل- وصل الخلاف للذروة فقتلوا السادات في "حادث المنصة" وهو يحضر استعراض "جيشه". خرجت من تحت عباءة الإخوان تنظيمات أكثر راديكالية من أمثال "تنظيم الجهاد"، و"التكفير والهجرة" وغيرهما، فأصبحت هناك تيارات إسلامية مختلفة بين المثقفين المعتدلين إلى المتطرفين والإرهابيين من أمثال أيمن الظواهري من تنظيم الجهاد(المصري) والذي انضم لاحقا لحركات وهابية اشد تطرفا وهو تنظيم القاعدة الوهابي. وأصبحت هذه التيارات باختلاف ألوانها منتشرةً في العالم العربي والإسلامي أجمعه. يعتقد البعض ان الاخوان هي الدجاجة التي رقدت علي بيض الارهاب [٢].

---

(١) صلاح عيسى. الكوارث التي تهددنا. مرجع سابق. ص ٢٥٣.

(٢) علي محمود، الاخوان دعاة الارهاب. مجلة المصور. ١١ نوفمبر سنة ٢٠٠٩. ص ٣٢.

ثـــــــورة ١٩٥٢

ثورة الجيش، إنجازات الثورة وقُصُورها، حركة مدارس الأحد وتطور الكنيسة ومحاولات التحديث، دور الأزهر في السياسة ومحاولة تطويره، الاحتقان الطائفي، الشَّريعة الإسلامية والإسلام السياسي، الأقبــاط والشريعة.

تضخمت الأزمات السياسية في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات، ثم كانت الحرب العربية لتحرير فلسطين (حرب ١٩٤٨)، والتي تعاطف معها المصريون وخسرها العرب. وضح ضعف النظام الحاكم، وكانت هزيمة الجيش المصري في فلسطين أحد أسباب قيام ثورة يوليو. كانت حركة الضباط الأحرار حركة سرية في الجيش، ولم يكُن ضمن هذا التنظيم سوى قِبطي واحد في الصف الثاني بالحركة. فالجيش كان خاضعاً للنفوذ التقليدي للملك، شأنه شأن الأزهر. ولم يلحظ أن للوفد نفوذاً مؤثراً على هذه المؤسسة العسكرية، بالإضافة إلى أن الوفد حكم سبع أو ثماني مراتٍ متباعدة. بذلك بقي الجيش يحمل في تكوينه العضوي أثراً للتفرقة بين الأقباط والمسلمين، خاصة في الرتب العالية، فجاء نظام الضباط الأحرار يعكس ذلك. بالإضافة لأن التنظيم العسكري كان يشمل بعض المتعاطفين أو الأعضاء في الإخوان المسلمين أو مصر الفتاة، وإن كان قد شمِل أيضاً اتجاهاً يسارياً. كان كثيرٌ من الضباط بدون انتماء سياسي واضح سوى الإخلاص لمصر.

ثورة الضباط قضت على الأحزاب السياسية القديمة، حتى ما كـــان ينـــادي بما أنجزت الثورة فيما بعد. اعترضت أغلب القوى الوطنية على إلغـــاء الديمقراطية، إلا أن الثورة انطلقت في تحقيق الانتصارات الوطنية، ما بلـــغ ذروته في تأميم القناة وفشل عدوان ١٩٥٦. عندما شَرَع النظـــام العسكـــري فـــي تكوين صورة برلمانية وأُجرِيت انتخابات تشريعية سنـــة ١٩٥٧ لـــم ينجـــح ســـوى قبطـــي واحـــد فـــي تلك الانتخابـــات. شعـــر الأقبـــاط

بأنهم أقليةٌ غير ممثلة [١]. ولكن لم يكن النظام يحمل عداءً للأقباط، بل أصبح هناك نوعٌ من المساواة الطبقية بين المواطنين، خصوصاً في الالتحاق بالجامعات وتعيين الموظفين وترقيتهم بالأقدمية حتى الدرجة الثالثة، وكان ذلك من أسباب رضا الكثيرين عن هذا النظام، سواءٌ كانوا أقباطاً أو مسلمين، خصوصاً لأن النظام تحت رئاسة جمال عبد الناصر حقق الكثير من الإنجازات السياسية والاقتصادية للطبقتين المتوسطة والفقيرة. كان نتيجة تأميمات ١٩٦٢ أن أُضيرَ الكثيرُ من أقباط الرأسمالية المحلية من جراء ذلك، وكذلك قوانين الإصلاح الزراعي ألحقت أضراراً بأغنياء الأقباط أكثر من نسبتهم في التعداد، وكان بعض هؤلاء له نشاط سياسي في أحزاب ما قبل الثورة [٢].

رغم إنجازات ثورة يوليو الهائلة، إلا أن هذه الإنجازات كانت مصحوبةً بقَتلِ ما كان موجوداً من نظام ديمقراطي أياً كان وصفه، فنجد أن حُكومة الضباط قد اخترقت الجامعة، والقضاء وحتي الان. فكان فصل أستاذ واحِد من الجامعة وهو طه حسين فيما قبل الثورة قابله فصل حوالي خمسين أستاذاً جامعياً في عَهد عبد الناصر، وامتدّ ذلك خلال حكم السادات، ففصل حوالي خمسين آخرين. بالإضافة لفصل الكثير من المثقفين والكتاب، أو نقلهم لأماكن تفقدهم أي تأثير. أما الآن فقد استكان وتعلم الكثيرون من أساتذة الجامعات أن يبتعدوا عما قد يتسبب في "قطع عيشهم" وأصبحت الرقابة على الفِكر تمُثّل سحابة سوداء تحلق فوق الجامعات، بالإضافةِ للضعف الشديد في أداء الجامعات ومستوى الخريجين. وإن كان فصل طه حسين من الجامعة في نظامٍ تمتّع ببعض الحرية قد فتح له أبواباً أخرى؛ فبعد أن كان عميداً لكلية الآداب أصبَحَ عميداً للأدب العربي[٣]. أما في العصر الحديث فما حدث لنصر حامد أبو زيد واتهامه بالكُفر وهو مُفكّر إسلامي من طراز فريد، يمثل صعوبة- إن لم يكن استحالة أن يستطيع أستاذٌ جامعيٌّ أن يزاول حرية البحث العلمي، خصوصا في مجال التنوير

(١) سميرة بحر. الأقباط في الحياة السياسية المصرية. مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة الثانية. سنة١٩٨٤.ص ١٥١.

(٢) المرجع السابق. ص ١٥٠.

(٣) جابر عصفور. هوامش على دفتر التنوير. دار سعاد الصباح. سنة ١٩٩٤. ص ٣٢٨.

إذا اقترب من الأديان. لم يُفصَل نصر أبو زيد من الجامعة ولكن أصبح بقاؤه في الجامعة شبه مستحيل، فاضطر للبحث عن عمل خارج مصر وتلقفته إحدى أفضل جامعات أوروبا. لم تُصادر كتبه من الأسواق، ولكن جامعة القاهرة- مِنبر الفكر- أزالت كتبه من مكتباتها!!

الكنيسة المعاصرة ودورها في الوطن ومحاولة التجديد

كيف بَدَأت حركة الإصلاح الكَنَسي الحديثة والتي بدأتها مَدارِس الأحد في أربعينات القرن العشرين؟ قد يعتقد البعض أن هذه الحركة هي ردُ فعلٍ للمَد الإسلامي المتطرف، إلا أن هذا غير صحيح. الحقيقة أن حركة الإصلاح بدأت لمقاومة غزو المبشرين الغربيين التي هددت الكنيسة المصرية. بدأت حَرَكة إصلاح وتحديث الكنيسة في القرن التاسع عشر حين كانت الأرستقراطية القبطية غير راضية عن فساد وجهل الكثير من قيادات الكنيسة. في عام ١٨٧٤ تمكَنت الأرستقراطية القبطية من إقناع الخديوي توفيق بإنشاء المجلس الملي (وهو مجلس من غير رجال الدين لإدارة شئون الكنيسة غير الدينية ويرأسه البطريرك). هذا المجلس يُختَار من صفوة الأقباط، ووظيفته الإشراف على الشئون المالية للكنيسة والاهتمام بإنشاء المدارس وتعليم الكهنة والرهبان والاهتمام بالفقراء وإنشاء الملاجئ. في عام ١٨٩٠ أنشأت الأرستقراطية القبطية أيضاً جمعية التوفيق، وهي جمعية مستقلة عن الكنيسة القبطية لبناء المستشفيات والمدارس والملاجئ [١]. كانت هذه محاولة الأرستقراطية القبطية للتحديث، وكان ذلك التحديث على نَمط الكنائس الغربية. رفض البطريرك كيرلس الخامس وقيادات الكنيسة ممثلةً في المجمع المقدس (يشمل البطريرك والمطارنة والأساقفة وهو أعلى مجَمع كنسي مصري) أن يتعاونوا مع المجلس الملي. استطاعت الأرستقراطية القبطية استصدار قرارٍ آخر من الخديوي بعزل البطريرك وتعيين مطران صنبو (مدينة شمال غرب أسيوط) بدلا عنه. رفضت قيادات الكنيسة ومعها أغلب الشعب هذا التدخل من الدولة.كانت أغلبية

---

(١) ثناء حسن. اقباط ضد مسلمين. كاتبة مصرية. الناشر جامعة هارفارد.

S.. S. Hassan Christian Versus Muslims in Modern Egypt, Harvard, 2003 page 59 University Press.

الأقباط من متوسطي أو قليلي العلم والدخل شأنهم شان أغلب المسلمين، بينما كانت الأرستقراطية القبطية من الأثرياء أو من الذين تعلموا تعليماً أجنبياً أو تأثروا بالجاليات الأجنبية ومدارس المبشرين. فشلت محاولة الأرستقراطية للإصلاح من أعلى، واضطرت الدولة لإعادة البطريرك لتولي مهام منصبه واستمرت الكنيسة تدار كما كانت. كان كيرلس الخامس- البطريرك في ذلك الوقت- قد عاصَر الثورة العرابية وثورة سعد زغلول وأيد كليهما وقد ساهم في صياغة الموقف الوطني الذي اتخذته الكنيسة المصرية خلال هاتين الثورتين ضد الاستعمار، وهو موقف كانت له أهمية خاصة. كتب صلاح عيسى قصة ذلك البطريرك، ويعتقد صلاح عيسى أن هذا البطريرك قد عارض المجلس الملي وسانده عامّة الأقباط رغم تأييد الخديوي لإنشاء المجلس؛ لاعتقاد البطريرك أن الأرستقراطية القبطية التي طالبت بالمجلس الملي كانت قريبة من السفارات الأجنبية التي حاربت الكنبسة القبطية، وقد سبَق وأشرت لبعض من ذلك [1]. كانت هناك مقاومةٌ لإصلاح الكنيسة، مثلما كانت هناك مُقاوَمةٌ لإصلاح الأزهر. إلا أن النشاط التبشيري لم يمثل تهديداً يُذكَر للإسلام، ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للكنيسة القبطية.

كان الفسادُ وجهلُ الكثير من قيادات الكنيسة من ناحية، ونشاط البعثات التبشيرية من جهة أخرى يهدد كيان الكنيسة. سبَق أن أشرت إلى أن الكنائس الغربية امتصت ما بين ٥-١٠٪ من أقباط مصر. في عام ١٩٥٢ كان عدد الأقباط المتحولين للبروتستنتية يقارب ١٠٠٠٠٠ (مائة ألف) وبلغ عدد المسلمين المتحولين ما يقارب المائة. ففي عام ١٨٧٨ كان في مصر ٣٥ مدرسة بروتستنتية أمريكية بخلاف النشاط الكاثوليكي والذي أصبح له بطريرك كاثوليكي سنة ١٨٩٠ كما سبقت الإشارة [2]. ولا شك أن مدارس المبشرين كانت تعطي نوعاً من التعليم يناسب وجود الاحتلال من إتقان اللغات الأجنبية والانضباط، مع إهمال التاريخ المصري واللغة العربية.

كان من فضل بعثات التبشير على الكنيسة القبطية أولاً إيقاظ غيرتها على

---

(١) صلاح عيسى. حكايات من دفتر الوطن.كتاب الأهالي. رقم ٣٩. سنة ١٩٩٢. ص١٨٠- ٢١٥.

(٢) ثناء حسن. مرجع سابق بالانجليزية. ص ٧١.

وطنيتها وعلى كيانها، وثانياً أن الكنيسة القبطية اقتبست بعض أساليب الكنائس الغربية في أعمال الخدمة. كان لنشاط أعمال التبشير السبب المباشر في بداية مدارس الأحد والتي لم تنبثق من رجال الكهنوت. بدأ حبيب جرجس سنة ١٩٠٨ مدارس الأحد القبطية، والتي كانت تشابه ما كانت تنظمه كنائس المبشرين، فكان يجمع الصغار في كنيسة بالفجالة بالقاهرة ويحدثهم عن المسيحية ويوزّع عليهم صوراً مسيحية تشبه ما يوزع في كنائس المبشرين، وإن كانت أقل جودةً لعدم توافر الامكانيات المادية. بدأت مدارس الأحد المصرية في الانتشار في مصر، بعد فترة وجيزة اصبحت في كل مصر.

في عام ١٩٤٦ اختير الأنبا يوساب بطريركاً للأقباط وقد كان قبل ذلك مطران قنا. كان ليوساب مساعده الخاص واسمه مِلك (بكسر الميم) ولسبب غير معروف أصبح لملك هذا تأثير كبير على البطريرك. تحكّم ملك في اختيار رجال الكهنوت نظير إتاوات وإيصالات أمانة أو "كمبيالات". كان ذلك قمة الفساد الكنسي في العصر الحديث، وقد حقّق ملك ثروة تقدر بسبع عمارات، وكمبيالات تُساوي ٢١ ألف جنيه في ذلك الوقت. وكانت تلك المعلومات معروفةً لأغلب الأقباط، ولم يكن من الممكن السكوت عليها. ولم يكن عدم الرضا من المدنيين فقط، بل شمل بعض رجال الكهنوت وبعض الرهبان، ولكن لم يشمل القيادات الكنسية. فدير المحرق بأسيوط مثلاً يعد أغنى دِير في مصر حيث كان للدير أوقاف عديدة ولم يكن للدير ميزانية واضحة وكان الفرق بين دخل الدير ومصاريفه سنة ١٩٠٦ ٨٧٪ !! كان دخل الدير السنوي حوالي ١٠٠ ألف جنيه، وقد زاد عن ذلك في بعض السنوات، وكان عدد رهبان الدير حوالي ٣٥ راهباً فقط. ثار رهبان الدير ضد الرئاسة لاستئثارها بالدخل دون إصلاح الدير وأحوال رهبانه. حدث ذلك في سنوات ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٧ وسنة ١٩٥٩ (١). وكانت نتيجة تلك الثورات أو التذمرات عادةً طرد قيادة الرهبان المتذمرين. هذا وقد اتهمت رئاسة الدير بالفساد في البرلمان المصري، أثارها سوريال جرجس (٢).

---

(١) ثناء حسن. اقباط ضد مسلمين.مرجع سابق بالانجليزية. ص ٦٧.

(٢) ثناء حسن. المرجع السابق. ص ٦٧.

في أواخر ثلاثينات وأوائل أربعينات القرن الماضي بدأت جامعة القاهرة (جامعة فؤاد) تُخرّج أفواجاً من الطبقة المتوسطة لديهم طموح في تحسين أحوالهم وأحوال مصر في مجالات عديدة. كانت تلك الفترة أيضا بداية نشاط حركة الضباط الأحرار، وحركة الإخوان المسلمين بقيادة حسن البنا وإن كانت الأخيرة قد بدأت نشاطها في منتصف الثلاثينات. وقد اجتذبت الكنيسة القبطية بعض هؤلاء الشباب، وكان تركيزهم الأول على مدارس الأحد والتي أصبح تعدادها ٢٤ ألف تلميذ، وانتشرت مدارس الأحد في أغلب مدن مصر والكثير من القرى. أصبح لمدارس الأحد مجلة رأس تحريرها نظير جيد (الأنبا شنودة) حتى تاريخ ذهابه للدير سنة ١٩٥٤. كانت كتابات المجلة تنصب على تاريخ الكنيسة وكيفية إصلاحها وتطويرها. أغلب نشاط مدارس الأحد كان في أعمال الخدمة والتعليم. إلا أنه كان هناك مجموعة متطرفة ليس لها علاقة بمدارس الأحد استعملت العنف في محاولة إصلاح الكنيسة. مجموعة "الأمة القبطية" والتي كان رأسها إبراهيم هلال المحامي، وكان شعارها (الله ملك الأقباط)، (مصر بلدنا، الإنجيل قانوننا). وهذه الشعارات المتطرفة تشابه بعض الشعارات الإسلامية المتطرفة. في عام ١٩٥٤ اقتحم بعض أفراد تلك المجموعة دار البطريركية مسلحين بالمسدسات، واختطفوا البطريرك الأنبا يوساب، وأجبروه على توقيع وثيقة تنازل عن منصبه، ثم نقلوه لأحد أديرة وادي النطرون. وكان من الطبيعي أن تفشل تلك المحاولة، فقد تدخّلت الدولة فأعادت البطريرك إلى منصبه. إلا أن المجمع المقدس قرر نفي البطريرك إلى دير المحرق بأسيوط سنة ١٩٥٥.

ما قرره رواد مدارس الأحد هو عدم إمكانية إصلاح الكنيسة من الخارج. قرر بعضهم أن يخدموا ككهنة وأصبحوا بارزين في مجال الخدمة، وإن ذاق بعضهم الأمرّين من رؤسائهم في الكهنوت وهم المطارنة القدامى. أما البعض الآخر فقد تحول إلى الرهبنة، وهؤلاء هم الأهم، حيث إن من بينهم يُختار البطريرك والأساقفة والمطارنة. ولم تقبل أغلب الأديرة أن ترهبن هؤلاء الشباب المتحمسين للإصلاح؛ حيث أن بعضهم اتهم بالبروتستنتية وبعضهم اتهم بالشيوعية من قبل السلفيين. كان اول هؤلاء الرهبان الاب متي المسكين. كان الدير الذي قبل رهبنة بعض هؤلاء الشباب هو دير السريان بوادي النطرون. لم يستمِر الوفاق بين رئيس الدير وبين هؤلاء الرهبان الجدد طويلاً ولكنّ

بعضهم صَمَد في رهبنته بطريقة أو بأخرى، بينما آخرون خرجوا إلى الصحراء وعاشوا حياة التوحد كما فعل أجدادهم الرهبان الأوائل.

ظل منصب البطريرك شاغراً منذ سنة ١٩٥٥حتى وفاة الأنبا يوساب سنة ١٩٥٩، فلم يكُن من الممكن تعيين بطريرك جديد إذا كان البطريرك القديم ما زال على قيد الحياة. هذه هي قوانين الكنيسة أو هَكَذا فُسّرَت. من يكون المرشح الذي يرأس الكنيسة بعد يوساب؟ حاول شباب مدارس الأحد ترشيح بعض شباب الرهبان لمنصب البطريرك. كان هناك ثلاثة رهبان مهمين، الأنبا شنودة، الأنبا صموئيل، والأب متى المسكين. لكن المجمع المقدس- وهم الحراس القدامى- لم يرضوا عن أيٍّ من هؤلاء الشباب الثوري وكانوا يخشون التغير السريع الذي يرجوه هؤلاء الشباب. غيّر المجمع المقدس لائحة انتخاب البطريرك بحيث لا تسمح بترشيح من هم أصغر من ٤٠ سنة مع قضاء عشر سنين على الأقل في الرهبنة، في مخالفة لبعض تقاليد الكنيسة القديمة. وقد وافقت الدولة على اللائحة الجديدة. بذلك خرج الرهبان الشباب من دائرة الاختيار. اختير راهبٌ قديمٌ وهو كيرلس السادس للبطريركية (١٩٥٩- ١٩٧١) وقد ساهم شباب مدارس الأحد في انتخابه وكان ذلك يعد انتصاراً لهم. كان كيرلس السادس أباً روحياً للعديد من شباب مدارس الأحد، وكان أقرب للشباب من حيث ضرورة الإصلاح، ولكنه اضطر إلى أن يكون في منتصف الطريق بين الحراس القدامى- وكانوا الأكثرية في قيادة الكنيسة- وشباب مدارس الأحد. ولم يكن ذلك بالأمر الهين. كان هذا البطريرك إنساناً روحانياً متقشفاً يهتم بالصلاة، فكان يبدأ الصلاة مع طلوع الفجر، وكان بابه دائماً مفتوحاً للزيارة، وقد قال عنه أحد الزوار الأجانب إن الأقباط ليسوا فقط يختارون البطريرك من بين الرهبان، بل إن البطريرك يظل راهباً. لم يكن ذلك محل رضا بعض شباب مدارس الأحد المتحمسين. بدأ الأنبا كيرلس يعين بعض شباب مدارس الأحد أساقفةً عموميين (الأسقف عادةً يُعيّن على أبرشيّة، وهي تمثل محافظةً أو أكثر أو جزءاً من مُحافظة) فعُيّن الأنبا شنودة أسقفاً للتعليم، الأنبا صموئيل أسقفاً للخدمات العامة، والأنبا غريغوريوس أسقفاً للبحث العلمي. وكان الأب متى المسكين قــد عين قبل ذلك قائمقام البطريرك بالإسكندرية منذ عهد البطريرك السابق الانبا يوساب. كان رسم(تعيين)أسقف عام حدث جديد في تاريخ الكنيسة. لم يدُم الوِفاق طويلاً بين بعض

هؤلاء الأساقفة الجدد وبين البطريرك. كان أهم الخلافات تلك التي كانت مع الأنبا شنودة. ترى ثناء حسن[1] أن الأنبا شنودة كان يميل لتحدي السلطة ولتركيز القوة بين يديه. كان الأنبا شنودة يعقد اجتماعات مفتوحة للشعب كل يوم جمعة، وكان الشباب شديد الإقبال على تلك الاجتماعات، ويُقال إن الحكومة حذّرت البطريرك من تلك الاجتماعات. طلب البطريرك إلغاء تلك الاجتماعات وعودة الأنبا شنودة للدير. لكن الشباب المتحمس للأنبا شنودة أثار من الضجيج ما جعل البطريرك يعيد الأنبا شنودة لمزاولة نشاطه. امتد نفوذ الأنبا شنودة إلى المؤسسة القبطية (معهد الدراسات القبطية) وكان مدير المعهد سامي جبرة عالم المصريات. كانت تلك المؤسسة وليدة مدارس الأحد، وكانت علمانية غير لاهوتية، وأقرب للأكاديمية تعتمد على أساتذة الجامعة (الكنيسة المصرية تقسم الأقباط إلى رِجال الدين والعلمانيين، ولا تعني الكنيسة بالعلمانيين المعنى السياسي الدارج). استقال سامي جبرة وخلفه عالم التاريخ عزيز سوريال عطية، وهو أيضاً لم يستمر، فاستقال وذهب إلى الولايات المتحدة وأصبح أستاذاً في جامعة يوتا (Utah State University) وأصدر الموسوعة القبطية بالانجليزية من ثمانية أجزاء والتي حرّرها خبراء متخصصون غالبيتهم العظمي أجانب أكاديمين[2]. وقد ساد الفتور وأحياناً القطيعة بين البطريرك والأسقف. اهتم الأنبا شنودة بنشر العديد من الكتب، وإن كانت كلها كتباً في الوعظ أو الشرح، وكانت تسجيلات محاضراته شائعةً بين الشباب وكانت تباع بأعداد كبيرة.

أما عن الأب متي المسكين فكان مندوب البطريرك بالإسكندرية، وكان يميل أيضاً لتركيز السلطة في يديه، إلا أنه رسَّمَ كهنةً مُتعلِّمين وحسَّن مُستوَاهم المادي وكان ذلك بدايةً نشاطٍ كنسيٍّ بالإسكندرية. كان الأب متى المسكين قارئاً وباحثاً في التاريخ المسيحي والقبطي. وقع خِلافٌ بينَ الأب متي ورئيس المجلس الملي بالإسكندرية فؤاد (باشا) جرجس يسانده الكهنة القدامى. عاد الأب متي إلى الدير ثم انتقل إلى صحراء وادي الريان مع مجموعة قليلة من الشباب ليعيشوا حياة التوحد. كانت المعيشة صعبةً، وساءت حالتهم الصحية فأعادهم البطريرك إلى دير أبو مقار، وكان

---

(١) ثناء حسن. اقباط ضد مسلمين. مرجع سابق. ص ٨٧.

(2) The Coptic Encyclopedia , Aziz. S. Atiya, Editor in chief. 1991. Macmillan Publishing house.

الدير بحالة سيئة للغاية، وبه عددٌ قليلٌ من الرهبان المسنين. ظهرت موهبة الأب متي في الإدارة وفي إحياء الدير متبعاً أساليبَ علمية. حصل الدير على هِبات مادية من محبي الأب متي وكانوا كثيرين، وقد تمكّن من الحصول على منح مادية وفنية من ألمانيا. بعدما كان الدير شبه مهجور، أصبح واحةً خضراءَ جيدةً وحازمة الإدارة. أصبح للدير مكتبة تكاد تكون الثانية بعد مكتبة البطريركية بالقاهرة. شَجّع الرهبان للدراسة والبحث وقد أرسل الدير أحد رهبانه لإنجلترا لتصوير بعض المخطوطات القبطية القديمة والتي وجدت طريقها للخارج. أصبح للدير مطبعة وقام بنشر العديد من الكتب القيمة والموثقة. حافظ الأب متي على مستوى مُرتَفِع، ولم يتنازل عن ذلك في كُل ما أنجزه الدير، ولم يستعمل كلمة "معلش". ساعد الأب متي مجموعة ممتازة من الرهبان المتعلمين تعليماً عالياً وأصبح الدير مثالاً لما يمكن عمله للإصلاح والتعمير(١).

أما الأنبا صموئيل أسقف الخدمات فقد اهتم كثيراً بفقراء الأرياف، وأرسل العديد من خُدّام مدارس الأحد بالجيزة للخدمة في المناطق النائية، وقد شمل ذلك بعض الخدمات الطبية والنظافة العامة والتعليم وكيفية الاهتمام بالأطفال. بدأ الأنبا صموئيل بعض أساليب الخدمة التي اتبعها المبشرون البروتستنت، بل واستعان بالبعض منهم في إنجاز بعض الخدمات. ومن أعماله أيضاً اتصاله بالكنائِس الأوروبية وحصوله منِها على العديد من المنح المادية والفنية، وقد ساعده على ذلك إجادته للانجليزية وفَهمه للنظام الغربي، حيث أنه تخرج من الجامعة الأمريكية ثم درس اللاهوت بجامعة برينستون الأمريكية (٢)، وتخصَّص في أعمال الخدمة الكنسية، وكان ذلك الفرع من التخصص الأكاديمي غير موجود في مصر. إلا أن نشاط الأنبا صموئيل مع الكنائس الغربية أثار حفيظة البعض. امتد نشاط الأنبا صموئيل لتقديم الخدمات في مناطق القاهرة الفقيرة مثل منطقة (الزبالين) في المقطم، والتي كانت الخدمة فيها تكاد تكون قاصرةً على البروتستنت. ثم امتدت خدماته لقلب القاهرة مثل شبرا والفجالة حيث أنشأ فصولاً لتدريس اللغات والكومبيوتر وخصص منازل لعلاج الإدمان وأخرى للبنات

---

(١) ثناء حسن.أقباط ضد مسلمين م مرجع سابق. ص ٨٩.

(٢) ثناء حسن. اقباط ضد مسلمين. ص ٨٧.

الحوامل، وسمى تلك المنازل بيوت الرحمة. كَتَب الأنبا صموئيل كتابين فقط الأول عن "تخطيط العائلة في المسيحية" (تحديد النسل) والثاني "مع الشباب". تعتقد ثناء حسن أن الأنبا صموئيل كان أكثر شعبيةً من باقي الأساقفة الجدد لانفتاح أفقه وسياسته الهادئة ومساعدته للفقراء[1].

لم يهتم الأنبا صموئيل بالتراث القديم، بل اهتم بالخدمات وتحسين الأحوال. ورغم أن الأنبا شنودة والأب متي المسكين اعتمدا على إحياء التراث القبطي القديم، إلا أنه كان هناك خلاف بينهما في كيفية استخدام ذلك التراث. الأنبا شنودة اهتم بإعادة التراث بأساطيره لتأكيد الشخصية القبطية، بينما الأب متي المسكين اعتمد على إعادة مضمون المعنى للتراث القديم. قد يكون ذلك الاختلاف لأن الأنبا شنودة تخصصه كان في الأدب، أما الأب متى المسكين فتخصصه كان علمياً.

كان الأنبا كيرلس راهباً بسيطاً ولم يكن البعض راضياً عن ركونه للصلاة ليل نهار وسفره لكل بلاد مصر لإجراء العديد من الصلوات، وكان أغلب الشعب سعيداً ومتشوقاً لتلك الزيارات. لم يكن المجلس الملي (الجهاز الإداري والمالي لشئون الكنيسة) راضياً عن الأنبا كيرلس لما بدا لهم أنه إهمال لشئون البطريركية، وسبّبوا له بعض المضايقات، وكانت البطريركية تكاد تكون مفلسةً لفقدها لهبات الأرستقراطية القديمة، وكان هناك عجزٌ في دفع رواتب الكهنة. لجأ البطريرك لجمال عبد الناصر لحل المجلس الملي فوافق الرئيس على ذلك، وظل المجلس منحلاً حتى جاء الأنبا شنودة سنة ١٩٧١.

في عصر جمال عبد الناصر ضعفت الأرستقراطية القبطية بحركات التأميم، شأنها شأن الأرستقراطية المسلمة، إلا أن التأثير على الجالية القبطية كان أكبر. صودرت أوقاف الكنيسة، وكذلك الأوقاف الإسلامية وأعيد تنظيمها من قبل الحكومة. إلا أن الكنيسة زادت قوتها المركزية، فقد أنشأت الدولة هيئة الأوقـاف القبطـية، علـى

---

(١) ثناء حسن. اقباط ضد مسلمين. مرجع سابق. ص ٩٠.

أن يختار البابا أعضاء هذه الهيئة. فأعطى ذلك الكنيسة قوةً كبيرةً ولم يعد للمجلس الملي وظيفة مهمة. وهكذا فان جمال عبد الناصر أعطى قوةً أخرى للكنيسة.

كان نتيجة عدم نجاح الأقباط في الانتخابات النيابية في أعوام ١٩٦٤، ١٩٦٨، ١٩٧١، ١٩٧٦ أن أحرجت الدولة. وبدلاً من أن يعالج هذا الأمر بالجهد السياسي الشعبي على طريقة الوفد عولج بإقرار مبدأ دستوري جديد، هو منح رئيس الجمهورية سلطة تعين عشرة أعضاء في المجلس النيابي. كان أغلب المعينين من الأقباط، الأمر الذي يوحي بأن الوجود السياسي للأقباط منحةٌ في يد الحاكم، وأن أمنهم ومساواتهم بمواطنيهم منوطٌ بمشيئة الحاكم وحده [1]. وقد عُيّن العشرة من بين الأقباط بالاتفاقِ مع الكنيسة. بذلك أعطت الدولة الحق للكنيسة في أن تختار ممثّلي الأقباط. ولم تكن للمجالس النيابية قوة حقيقية، إلا أن الدولة كانت تبحث عن طريقة لتمثيل الأقباط إكمالاً للصورة ليس أكثر. وقد كان التمثيل الحقيقي للأقليات عموماً أمراً عسيراً وقد سبق أن ذكرت أن الأقباط مُثّلوا تمثيلاً جيداً في ظل النظم الديمقراطية فيما قبل الثورة. في فترة حكم عبد الناصر كانت حركة اعتقال الأخوان المسلمين قد أراحت الأقباط من بعض أعمال العنف، ولو أن ذلك كان نفسياً غالباً. وقد ساهمت الدولة في بناء الكاتدرائية لاستقبال جزء من رفات القديس مرقص والتي كان الفينيسيون (مدينة البندقية) قد سرقوها من مصر في القرن الحادي عشر. حضر جمال عبد الناصر حفل افتتاح الكاتدرائية الجديدة، وكان على علاقة طيبة بالأنبا كيرلس. كان الإصلاح الذي حدث خلال فترة الأنبا كيرلس هو الاهتمام بالنواحي الروحية للكنيسة مع تعيين بعض الأساقفة والكهنة من الشباب المتعلم ليؤدوا دورهم.

توفي عبد الناصر سنة ١٩٧٠، والبابا كيرلس سنة ١٩٧١، وجاء أنور السادات والأنبا شنودة. غيّر السادات اتجاه الحكم في مصر، وجاء الوقت لتولي شباب مدارس الأحد رئاسة الكنيسة وليحققوا ما حلموا به طويلاً من تطوير الكنيسة. أراد السادات إضعاف الناصريين واليسار، أخرج الإخوان من السجن، وأعطى للجماعات الإسلامية حريةً كبيرةً للحركة، وكان بعض الأقباط وممتلكاتهم من ضحايا تلك الجماعات. أصبح

(١) طارق البشري.المسلمون والاقباط. مرجع سابق. ص ٦٤٤.

البعض يردد بسذاجة مقولة "إننا فشلنا في مواجهة إسرائيل لبعدنا عن الدين". لقي ذلك ترحيباً من بعض المسلمين، وقد استخدم السادات تلك الموجة، وأطلق عليه بعض المنافقين لقب "الرئيس المؤمن" وأضافوا اسم محمد إلى اسمه بعد أن كان شائعاً أن اسمه كان أنوَر السادات. بدأ السادات يعطي الجماعات الإسلامية تسهيلاتٍ من الدولة، وأصبح بعضها في الجامعات كثير التطرف. كانت الدعوة لدولة إسلامية ولتطبيق الشريعة مركز قلق وخوف الكثير من الأقباط خصوصاً في مناخ العنف ضد بعض الاقباط في ذلك الوقت. لم يكن هناك وضوحٌ فيما يعنيه تطبيق الشريعة، واعتقد بعض الأقباط والمسلمين أن الشريعة الإسلامية ستأتي سريعاً وسوف تُطبّق على المسلمين والأقباط. وقد روّج البعض مقولة إن الأقباط عقبة قي طريق الدولة الإسلامية. لم يكن العنف موجهاً للأقباط فقط، بل كان موجهاً لبعض مؤسسات الدولة. استولى "شباب محمد" على الكلِّيّة الحربية وكثرت أعمال العنف، وكان بعضها موجهاً ضد الأقباط. حاول السادات تهدئة التطرف الإسلامي لكن بدون نجاح. أصدر المجمع المقدس بعض البيانات تحتج فيها الكنيسة على بعض ما يحدث في مصر، خصوصاً فيما يتعلق بتطبيق الشريعة الإسلامية على غير المسلمين، وما حدث من هجوم على بعض الكنائس، بالإضافة لصعوبة بناء الكنائس. أصبحت علاقات الكنيسة مع الدولة متوترةً.

ذهب السادات لواشنطن وكانت معاهدة كامب ديفيد. كان هناك ضغطٌ على السادات للتطبيع مع إسرائيل، الأمر الذي رفضه أغلب المصريين. حاول البعض من مؤيدي التطبيع من بطانة السادات تشجيع الأقباط للذهاب لإسرائيل لزيارة القدس، إلا أن البابا شنودة أصدر قراراً بحِرمان من يذهب لإسرائيل، الأمر الذي أغضب السادات وحاشيته، ولكن المصريين والعرب استقبلوا ذلك القرار بارتياح كبير. ولكن السادات- ومن ورائه مؤيدو التطبيع- اعتبروا ذلك تحدياً للسلطة، وقد كان ذلك فعلاً تحدياً لسلطة السادات، زاد من الفجوة بين الكنيسة ورئاسة الدولة. من الممكن أن يوجَّه النقد للأنبا شنودة في بعض النواحي، ولكن لا أعتقد أن أحداً يستطيعُ أن يُشكّك في وطنيته وحسه بالتاريخ، فهو الذي قال (إن مصر ليست بلداً نعيش فيه، بل هي بلد يعيش فينا). وكان مؤيداً لحقوق الشعب الفلسطيني وعلى علاقة طيبة بزعمائه

الفلسطينين، وأعطاه بعض العرب لقب بابا العرب[1]. الحقيقة أن الانبا شنودة له موقف واضح من القضية الفلسطينية منذ عهد جمال عبد الناصر. لقد كتب الأنبا شنودة كتيباً وألقى العديدَ من الخُطب عن رأي المسيحية في إسرائيل، وهو لم يغير رأيه مع تغيير سياسة الدولة وكان هذا تأيدا لارادة شعبية [2].

ولكن موقف الأنبا شنودة حديثاً اتَّخَذَ طريقاً آخَر تِجاه قَضيّة توريث الحكم. فقد أعلنها صراحةً أن الوحيد الذي يصلح لحكم مصر هو جمال مبارك لا غيره**. لا يختلف موقف البابا شنودة في ذلك عن بعض كبار رجال الحكومة وأعضاء الحزب الوطني الحاكم. هل أصبح البابا أحد كبار موظفي الدولة التابعين للحكومة؟ هذا موقفٌ سياسيٌ يختلِفُ عن موقفه السابق. إن الدعوة للدستور والحياة النيابية مطلبٌ شعبيٌ ومُنذ الثورة العرابية. إن التوريث يتنافى مع أبسط مبادئ الديمقراطية. لقد انتَقَد موقف الأنبا شنودة تجاه التوريث الكثيرون ممن سبق لهم تأييده. حقيقةً إن موقف الكنيسة الرسمي يمثله موقف المجمع المقدس والذي لم يتدخل في الأمر. ولكن الأنبا شنودة إنسانٌ لهُ وزنهُ وتأثيرُه وأعتقِد أن مَوقِفَهُ هَذَا سيُحسَب عليه. هناك أقباطٌ كثيرون يعارضون الأنبا شنودة وتدخُّله في السياسة على هذا النحو، خصوصاً إذا تعارضت مع الإرادة الشعبية. إن بعض الأقباط يؤيدون النظام الحالي خوفًا من الإسلام السياسي، وهذا حقهم، ولكن هناك آخرين لا يؤيدون النظام الحالي وهذا حقهم أيضاً [3] إن الأنبا شنودة لا يتحدث باسم الأقباط وهو يمثل فقط الكنيسة القبطية، ومع ذلك هناك أيضاً سلطةٌ أعلى وهي المجمع المقدس. وهي لم تتدخل في هذا الموضوع. من الافضل ان تبتعد الكنيسة عن التدخل في السياسة لان سياسة الدولة تتغير مع تغير دفة نظام الحكم.

---

(١) سناء السعيد. الأنبا شنودة الثالث دنيا ودين. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ٢٠٠٠ ص ٢٢٤.

(٢) غالي شكري. الأقباط في وطن متغير. كتاب الأهالي رقم ٢٩. ص ٦٨.

(٣) فرانسوا باسيلي. دور الاقباط في توريث مصر. جريدة القدس العربية، ١٨ اكتوبر سنة ٢٠٠٩.

** لقد ذكر الأنبا شنودة في (أهرام الجمعة ١٣ نوفمبر سنة ٢٠٠٩) أن ما يعنيه هو أنهُ مِن حَق جَمال مبارك أن يُرشّح نفسه وأن يكون من حق الآخرين أيضاً أن يُرشّحُوا أنفُسَهم. ولكِن، أن يُرشّح جمال مبارك نفسه في هذه الظروف فستكون أجهزة الدولة وراءه ويتنافى هذا مع أي نظامٍ ديمقراطي. (فكري اندراوس)

كانت هناك عقبتان بين الكنيسة والدولة؛ الأولى تتعلّق ببناء الكنائس. والثانية الخوف من تطبيق الشريعة الإسلامية على الأقباط. هذا بالإضافة لبعض حوادث الارهاب التي ازدادت في أواخر سبعينات القرن الماضي. كيف تعاملت الكنيسة مع الدولة في تلك الظروف الصعبة ؟

كان هناك رأيان. الأول هو أن يتوسط بعض رجـال الأرستقراطيـة القبطيـة القديمة لدى الدولة كما في العهود القديمة، وتزعّم هذا الاتجاه الأنبا صموئيل، وكان على صلة طيبة ببعضهم. أما الاتجاه الثاني فقال إن الكنيسة أصبحت ممثل الأقباط، ومن حقها أن تقول رأيها فيما يحدث، خصوصاً أن الأرستقراطية القبطية لم تُحقق الكثير للكنيسة في الماضي، فلماذا الآن؟ لقد أصبحت الكنيسة بقيادتها المتعلمة قادرة على أن تُمثل الأقباط والكنيسة. تزعّم الرأي الأخير البابا شنودة، وهذا ما حدث. في آخر زيارة للسادات لأمريكا قوبل بمظاهرات عدائية من بعض الأقباط، مما أغضب السادات وأحرجة أمام الرئيس ريجان. كان السادات متحاملاً على الأنبا شنودة، أولاً لحرمان الأقباط من الذهاب للقدس، وإعاقَة التطبيع مع إسرائيل، وثانياً لأن الأنبا شنودة كان له شخصيةٌ ونفوذٌ قويٌّ ولم يتحمل السادات ذلك. اعتقد السادات أن الانبا شنودة كان وراء بعض المظاهرات المعادية له أمام البيت الأبيض في واشنطن وأمام متحف المتروبوليتان في نيويورك، بالإضافةِ إلى إعلانات معادية للسادات في جريدتي الواشنطن بوست والنيويورك تايمز (مصاريف الإعلانات في تلك الجرائد باهظة ومصدر تمويل هذه الإعلانات غير معروف). لم يكن الأنبا شنودة يسعى لصراع مع رئاسة الدولة، بل أرسل وفداً يرأسه الأنبا صموئيل لاستقبال السادات في أمريكا، ولتهدئة خواطر أقباط المهجر. ولكن أقباط المهجر لم يكونوا خاضعين للأنبا شنودة، ولم يكن في استطاعته التحكم فيهم. إن المظاهرات المعادية لرؤساء الدول الزائرة ليست بالشيء الغريب في أمريكا، والحقيقة أن السادات كان مهتماً أكثر من اللازم بصورته في أمريكا. حمّل السادات البابا شنودة مسئولية تدهور العلاقات بين الكنيسة والدولة، وعدّه مسئولاً عن حوادث العنف والتفرقة العنصرية التي أدت إلى ما حدث في منطقة (الزاوية الحمراء) بين المسلمين والأقباط، بالإضافة إلى مسؤولية مظاهرات بعض الأقباط بأمريكا. انقطع تماماً أي اتصال بين الكنيسة والدولة، واعتكف الأنبا شنودة

بدير الأنبا بشوي. بدأ السادات يتخبّط، فاعتقل ١٥٣٦ مصرياً من أقطاب المفكرين المصريين ومن ضمنهم بعض المتطرفين، و ١٧١ من رجال الدين من الطرفين.

لم تستطع الدولة أن تجد بديلاً للتعامل مع الكنيسة من خارج الكنيسة مثل الأرستقراطية القديمة، ولكنها وجدت البديل من داخل الكنيسة ذاتها. وكان الشخص الذي أنار الطريق للسادات هو الأب متي المسكين. كان السادات معجباً بما حققه الأب متي في تعمير الصحراء المجاورة لدير أبو مقار بوادي النطرون. كان الأب متي ومعه آخرون غير راضين عن كيفية تعامل الأنبا شنودة مع الدولة والتي وصلت إلى طريق مسدود. لم يكن في استطاعة السادات فصل الأنبا شنودة، ولم يكن الأقباط ليرضوا عن ذلك. ولكنه قرّر سحب اعتراف الدولة بتعيينه. أصبح البابا محدّد الإقامة بدير الأنبا بشوي بصحراء وادي النطرون. وعيّن السادات لجنة خماسية لتقوم بأعمال البابا رشحها له الأب متي المسكين. كان الأنبا صموئيل أحد أعضاء اللجنة، بالإضافة إلى الأنبا غريفوريوس أسقف البحث العلمي، والأنبا أثناسيوس مطران بني سويف، والأنبا مكسيموس مطران بنها، والأنبا يوحنا مطران طنطا. وتقول ثناء حسن إن أعضاء اللجنة الخماسية كانوا من المدرسة التي تفصل ما بين الكنيسة والدولة. ولكن كانت أغلبية الأقباط متعاطفةً مع وتؤيد البابا شنودة كرمز وليس بالضرورة لبعض تصرفاته. الحقيقة أن تسلسل الحوادث وشخصية كل من السادات والأنبا شنودة أدت إلى حتمية تصاعد الصدام.

كيف تدهورت العلاقات بين الكنيسة والسادات إلى هذا الحد ؟

كانت العلاقات طيبة قبل ذهاب السادات لإسرائيل عام ١٩٧٧. ذهب الأنبا شنودة للجبهة قبل وبعد حرب ١٩٧٣، وكان يفتخر بأنه كان ضابط احتياط، وقد أُعجِب السادات بذلك. عندما ساءت الأحوال فيما يختص ببناء الكنائس والاعتداء عليها، اجتَمَع السادات بالمجمع المقدس، وكذلك بهيئة كبار العلماء بالأزهر في ٢٢ سبتمبر ١٩٧٧ وكان لقاءً ودياً للغاية حضرة ممدوح سالم رئيس الوزراء، وشرح بعض الأساقفة أحوال ما يتعرضون له فقال السادات إنه لم يكن يدري شيئاً عن هذه

المعاناة "..أنا ما كُنتِش عارف إن حالتكم بالشكل ده!..انا لا ارضي لكم بهذا الوضع " وكرّر ما شابه ذلك على الهواء في بعض خطبه وأنه سوف يغير الأوضاع فوراً. ولكن شيئاً لم يتغير. في ذلك الاجتماع سأل السادات الأنبا شنودة: كم كنيسة تحتاج؟ فأجاب: حوالي أربعين.. بواقع كنيستين بكل محافظة. قال السادات في وجود رئيس الوزراء (*لك مني خمسين* !!) ووجّه حديثه لرئيس الوزراء قائلاً "لننتهِ من هذا الموضوع في أسرع وقت". ولكن لم تحصل الكنيسة خلال أربع سنوات بعد ذلك التاريخ إلا على نصف ما هو مقرر لسنة واحدة [١]. ولكن اللغز المحير ان الرئيس السادات لم يحول اقواله لافعال، ولم يكتفي بذلك بل فعل العكس تماما. ما الذي قلب السادات الذي تابع بسرور زيارات البابا شنودة الي الجبهة قبل وبعد حرب اكتوبر ؟ وهو الذي رتب اجتماع الانبا شنودة مع الرئيس كارتر واثني عليه كثيرا. هل كان ذلك نتيجة رفض الكنيسة السماح للاقباط بالذهاب للقدس بعد معاهدة كامب ديفيد ؟ يعتقد البعض ذلك. كان ذلك معارضة لسياسة السادات والتي بني عليها الكثير من الاحلام. لم يكن موقف الانبا شنودة من اسرائيل هو موقفه الشخصي بل كان موقف الكنيسة وقد كتب الكثير من رجال الدين القبطي تأييدا لهذا الموقف. يجد القارئ بعضاً من ذلك في العديد من الكتب والتي من ضمنها كتب محمد حسنين هيكل[٢] سناء السعيد[٣] وميلاد حنا [٤].

مشكلة بناء الكنائس مُزمِنة في تاريخنا. ويتضح من العرض السابق أن الدولة تتفضل على الأقباط بالسماح لهم ببناء بعض الكنائس، وهو أمرٌ فيه بعضٌ من الإذلال ويتنافى مع الدستور الذي يدعو إلى المساواة وحرية العقيدة. ولكن في هذا المناخ الذي نعيش فيه الآن وحالة التوتر- بل والتربص- بالآخر فمن الأفضل أن يؤجل النظر لهذه المشكلة الآن، ولعلّنا نحلها في المستقبل حلاً نهائياً. الحقيقة أن كثيرين ممن كانوا بالقرب من السادات لم يعتقدوا أن السادات كان شخصاً متعصباً، ولكن سياسته وبعض مستشاريه أخطأوا ودفعوه في طريق أدى إلى أزمات كثيرة،

---

(١) غالي شكري. الأقباط في وطن متغير. كتاب الأهالي رقم٩ ٢. سنة ١٩٩٠. ص ٨٩ و ١٠٢.

(٢) محمد حسنين هيكل. خريف الغضب.الطبعة السادسة. سنة ١٩٨٣. ص ٣٥٩.

(٣) سناء السعيد.الأنبا شنودة الثالث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ٢٠٠٠. ص ٣٠.

(٤) ميلاد حنا.ساسة ورهبان وراء القضبان. كتاب الأهالي رقم ٥٨. سنة ١٩٩٧. ص ٤٥.

ومن ضمنها الأزمة الطائفية، والتي ما زلنا نعاني منها، وقد ساهم في ذلك ظروف عالمية وإقليمية. لم يكن السادات متعصبا ولكنه استخدم الدين في السياسة. لقد كان السادات في بداية حكمة يقول (كنيستي) من قبيل (شعبي وجيشي)...وهكذا. وإن كان السادات لم يتصرف بحكمه خلال ما سميَ بالفتنة الطائفية، إلا أن المد الإسلامي السياسي في العالم الإسلامي له عوامل كثيرة ليس هذا مكانها.

كان البديل عن الكنيسة لتمثيل الأقباط في تلك الظروف كبار موظفي الدولة الأقباط أو بقايا الأرستقراطية القديمة. لكن هؤلاء كانوا قليلي الفعالية. أجرت ثناء حسن حواراً مع بعض الأقباط المهمين بخصوص بعض مشاكل الأقباط، وكان من ضمنهم بطرس غالي وزير الدولة السابق للشئون الخارجية والسكرتير السابق للأمم المتحدة، وميلاد حنا، ومجدي وهبي، ووليم قلادة وأمين فخري عبد النور. سألت الكاتبة بطرس غالي عن سر صعوبة دخول الأقباط وزارة الخارجية. أجاب بقوله إنه كان عضواً في لجنة اختبار المتقدمين لمدة ١١ سنة ولم يكن هناك إلا القليل جداً من الأقباط ممن لديهم الكفاءة المطلوبة!! واستطرد قائلاً: إن عدد السفراء الأقباط ازداد إلى أربعة سفراء في فترة السادات، وعندما ذكّرته بأن تلك لم تكن سفارات مهمة حاول إقناعها بأن سفارة الحبشة أهم من السفارة الأمريكية. ثم ذكر بطرس غالي أن السادات عيّن ثلاثة وزراء أقباط، وعندما ذكّرته بأن تلك كانت "وزارات شرف" أجاب: إذا لم يكلفوا بوزارات مهمة فذلك لأنهم تنقصهم الشخصية! ولم تشأ ثناء حسن أن تُذكّرة بأنه كان وزير دولة. لقد أنهى الحديث بقولة إن شكاوى الأقباط مبالغٌ فيها، وإن الأقباط تنقصهم الشجاعة Let us face it, Copts don't have balls.
أما الدكتور مجدي وهبة فبعد أن استمع إلى ما ذكرته ثناء حسن عن شكاوى الأقباط قال لها "يا بنتي في الزمن دا إمشي جنب الحيط" (١).

اغتيل السادات في حادث المنصة على أيدي المتطرفين، وقُتِل في نفس الحادث الأنبا صموئيل. أصبح مبارك رئيس الجمهورية سنة ١٩٨١، ولم يعد البابا الي منصبه

---

(١) ثناء حسن. اقباط ضد مسلمين. مرجع سابق بالانجليزية. ص ١١١.

إلا في يناير سنة ١٩٨٥. وعندما عاد الأنبا شنودة لم يعد كما كان من قبل. طلَب من أتباعه أن يحبوا المسلمين، وأصبحت علاقته طيبةً مع الحكومة، وأصبح يتجنب مواجهتها. ومن أسباب تحسن علاقة البابا الحقيقية مع الحكومة تعود إلى أن العدو أصبح مشتركاً وهو التطرف الإسلامي. هذا وقد اختلف أسلوب الحكومة في معاملة البابا كثيراً عن أسلوب السادات التهجمي[1]. أنشأ البابا لجنة للوحدة الوطنية من الأساقفة المقربين إليه واتبع المطارنة في الأقاليم نفس الأسلوب، وأصبحت تسمع في الكنائس محاضرات عن النقط البيضاء في التاريخ الإسلامي. أصبح الاتصال بين الكنيسة والحكومة مباشراً عن طريق البابا نفسه أو عن طريق بعض الأساقفة المقربين. وقد اتبع المطارنة في المحافظات أسلوباً مباشراً في الاتصال بالمحافظ أو مساعديه. ماذا حدث لأعضاء اللجنة الخماسية التي شكّلها السادات؟ بعضهم توفي. أما الباقون فقد أصبح التعاون بينهم وبين البطريرك محدوداً وأصبحوا شبه معزولين في أبرشياتهم. أما الأب متي المسكين فقد حُرّمت كتبه من الكنائس بل وحرق البعض كتبه داخل الكنائس وكانت كلها كتباً موثقةً توثيقاً جيداً. حاول البابا إنهاك دير أبو مقار والذي تركه بعض الرهبان وكوفئوا بأن رَسّم (عيّن) البابا ثلاثة منهم اساقفة [2].

ماذا حققت حركة مدارس الأحد؟ سنة١٩٣٣كان في مصر ثلاث عشرة أبرشية فقط، يرأس كل أبرشية مطرانٌ أو أسقف. لقد عيَّن البابا أكثر من مائة أسقف ومطران، ولا أعتقد أن أياً من البطاركة السابقين في تاريخ الكنيسة الطويل قد عيَّن هذا العدد الهائل من الأساقفة. كيف زاد هذا العدد ولماذا؟ كان الأساقفة في الماضي لهم مطلق الحرية في إدارة أبرشياتهم ويكادوا يكونون مستقلين عن البطريرك. بعد وفاة بعض الأساقفة قسّمت أبرشياتهم إلى اثنتين أو ثلاث أبرشيات، أو اقتُطعت بلاد من بعض الأبرشيات المتجاورة لإنشاء أبرشية أخرى جديدة. بذلك ازدادت الخدمات المتاحة كثيراً. كان أغلب الأساقفة الجدد من تلاميذ البابا أو من زملائه السابقين، وكان على ثقة جيدة بهم. بذلك ارتبطت الأبرشيات بالكنيسة الأم. كانت سياسة الكنيسة تدرس

---

(١) ثناء حسن. اقباط ضد مسلمين. مرجع السابق بالانجليزية. ص ١١٤.

(٢) ثناء حسن. المرجع السابق. ص ١١٥.

وتقرر بلجان من الأساقفة وتحت إشراف البابا وكان التنفيذ يترك للأساقفة. كان من نتيجة ذلك ربط الجالية بالكنيسة وأصبحت الكنيسة متماسكةً ومركزيةً. أصبح أغلب الأقباط يذهبون للكنائس التي ضاقت بهم واحتاجوا لتوسيع الكنائس أو لبناء كنائس جديدة، وكان ذلك أمراً صعباً لما يوضع أمامه من عقبات. ماذا يعمل هؤلاء الأساقفة الجدد؟ ١- شق كنسي: وهذا يشمل الخدمات الكَنَسية من الاهتمام بالرعية وتفقُّدها وربطها بالكنيسة ٢- شق اقتصادي تعليمي: وهذا هو الجديد. كان الأنبا صموئيل- أسقف الخدمات الذي قتل في حادث المنصة- يهتم بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية. وكان يطلب إعانات مادية وفنية من جهات غير حكومية من داخل وخارج مصر لتنفيذ مشروعات تنمية مدروسة جيداً. كان ذلك يتطلب أجهزةً قادرةً على صياغة المشروع بما فيه من دراسة جدوى ومتابعة وتعديل إذا لزم الأمر. بذلك بدأت الكنيسة تعمل، ليس في خدمة الأقباط فقط، وإن كان هذا هو الهدف الأول.

أعطت ثناء حسن الكثير من الأمثلة لتقييم بعض أعمال الأساقفة. وسنذكر عينةً ممثلةً لما يحدث. أسقف المنيا الأنبا أرسينيوس لاحظ أن أحد أسباب حالة التوتر الموجودة تعود لضعف الاقتصاد وعدم وجود فرص عمل. كانت مشروعات أرسينيوس ليست فَقَط لتحسين العمالة، بل أنشأ أيضاً المدارس التي يتعلم فيها المسيحيون مع المسلمين بتكلفة حوالي نصف مليون جنيه. وكما تُعلّم المدرسة بحكم الجوار المعرفة والتسامح فإن فرص العمل المشترك تحقق نفس الشيء. أنشأ أرسينيوس مصنعاً للجلود بتكلفة أولية حوالي ٨٠٠٠٠٠ جنيه. اختار عمال المصنع من أفقر ٦٠٠ عائلة في المنيا من الأقباط والمسلمين. كل عائلة تأخذ سهماً من هذا المصنع كدين يدفع على مائة شهر. أنشأ الأسقف مشروعاً آخَر لتربية الماشية تكلف نصف مليون جنيه. وكانت هناك مشاريع أخرى. كيف يجمع المال لهذه المشاريع؟ على الأسقف وجهازه الإداري أن يجيد طرق التمويل المادي. وهذا تخصص في حد ذاته. كان بعض التمويل منحةً من مؤسسات ألمانية، إلا إنها منحةٌ خاضعة للرقابة. أنشأ الأنبا أرسينيوس مكتبةً بها ٢٥٠٠٠ كتاب، منها كتب في العلم والتاريخ والاجتماع. بالإضافة للكتب الدينية[١]. كان الأنبا أرسينيوس متأثراً بطرق الأنبا صموئيل أسقف الخدمات قبل قتله في

---

(١) ثناء حسن. اقباط ضد مسلمين. مرجع السابق بالانجليزية. ص ١٣٨.

حادث المنصة، وقد سبقت الإشارة لبعض من ذلك. الأنبا باخوم مطران سوهاج شخصية محبوبة، وبإمكانه جمع المصادر المادية وكثير من المتطوعين. هناك تجد مشروع حضانة للأطفال ومشروعاً للتدريب المهني. إلا أن خِبرة الأنبا باخوم في الإدارة ضعيفة، فقد كان أخصائي معمل واختير مطراناً وعمره ٣٣ سنة! أما في أخميم والتي يفصلها عن سوهاج كوبري فكل ما عمله بها هو عربة لبيع الخضار، وأخرى لعمل سندوتشات الفلافل! دشنا- وهي بلد صغيرة وفقيرة- فأنشأت الكنيسة مصنعاً لصناعة أكياس البلاستك بتكلفة قدرها ٧٠٠٠ جنيه ومصنعاً آخَر لتعبئة الآيس كريم بتكلفة قدرها ٣٠٠٠ جنيه. أما عن أسقف الأقصر الأنبا أمونيوس فبالرغم من المصادر الفنية والمادية المتاحة فهو لم يفعل الكثير؛ فهو يعيش كما لو كان بالدير.. فقد أبعد نفسه عن الشئون المادية. ومن طرائف ما ذكرته ثناء حسن عن ذلك الأسقف أن أحد المهاجرين أرسل له تحويلاً بمبلغ ٢٠٠٠ دولار وطلب من المطران أن يفيده في أي مشروع سوف تستخدم؟ فما كان من المطران إلا أنه أعاد التحويل لمرسله واعتبر أن طلب المهاجر غير لائق!! وكان المطران يفاخر بتلك القصة [١].

مدى نجاح تلك المشاريع يتوقف على إمكانيات الجالية الذاتية فنياً ومادياً وعلى قدرتها على اجتذاب رأس المال، وإن لم يتوفر ذلك مع الإدارة الجيدة فلن يتحقق النجاح. وحيث أن بناء الكنيسة الإداري هرمي البنية فوجود الأسقف القادر يتوقف عليه نجاح أي مشروع أو فشله، والأمثلة السابقة تبين مدى تباين التوفيق.

بدأ بعض الاساقفة -وان كانوا قلة قليلة- يقودون سيارات فاخرة من طراز مرسيدس و BMW ناسين ان الرهبنة في اصلها فقر اختياري. إن مظهر هذه السيارات يدل علي ثراء في بلد فقير للغاية، وانهم يقودون طائفة بها الكثير من الفقر علي عكس ما يدعي البعض. أن هؤلاء الأساقفة إما ان اختيارهم للأسقفية اختيار خاطئ، او انهم إنحرفوا ويجب علي الجالية والكنيسة تقويم ذلك. إن وجود البابا شنودة بشخصيته القوية يحجب ويحل العديد من المشاكل قبل ان تستفحل، خصوصا وانه عين اكثر من مائة اسقف، فاغلبهم يدين له بالولاء.

---

(١) ثناء حسن. اقباط ضد. مرجع السابق بالانجليزية. ص ١٥٦.

عندما يأتي الراهب من الدير ليصبح مطراناً أو أسقفَ قد يكون مؤهلاً واختبر الحياة قبل أن يصبح راهباً أو قد لا يكون. كونه لاهوتياً جيداً أو راهباً حسن السير والسلوك أصبح لا يكفي. هل هناك برنامج لتعليم هؤلاء الجدد كي ينجحوا في مهام منصبهم الجديد؟ ليس فقط في اللاهوت والإدارة بل أيضا في كيفية التعامل مع الجهاز الحكومي لحل وامتصاص المشاكل قبل أن تستفحل كان البابا يدافع دائماً عن حق الشعب في اختيار الراعي سواء كان كاهناً أو أسقفَ ولكن المرجع الأخير لاختيار الأسقف هو البابا. يرشح الراهب ليكون أسقفَ عن طريق بعض من عرفوه عن قرب من مطارنة ورؤساء الأديرة. ويتوخى في الاختيار أن يكون من أديرة مختلفة حتى لا يستاء البعض، فهذا منصب مهم والرهبان مهما قالوا أو قيل عنهم هم بشر، بهم بعض نواحي الضعف البشري، ترى ذلك بوضوح في الخلافات بين الأنبا شنودة، الأنبا صموئيل والأب متى المسكين. أما إذا فشل الراهب بعد أن يعين مطراناً أو أسقفَ فسيكون من الصعب التخلص منه. ومن أسباب نجاح الأنبا أرسينيوس في المنيا أنه قبل أن يذهب للدير كان لديه خبرة ميدانية لمدة عشرين عاما. فهو كان مهندساً ميكانيكياً تنقّل بين القاهرة، الإسكندرية، طنطا، المحلة الكبرى، الفيوم، الغردقة، بورسعيد وأخيراً في المنيا حين أصبح مدير عام الخدمات. اختيار أساقفة صغار السن مغامرة غير مضمونة العواقب.

هذه المشرعات الاستثمارية خطت بها الكنيسة من الإصلاح الكنسي إلى التحديث. لقد قال محمد حسنين هيكل إن ما حدث في الكنيسة باختيار الأنبا شنودة كان انقلاباً، إلا أن ثناء حسن تعتقد أنه كان ثورة بدأت بالإصلاح ثم استمرت إلى التحديث. نظريات التحديث الحديثة تأخذ في الاعتبار التقاليد والثقافة وحتى الأساطير كي ينجح التحديث. لقد بدأت الكنيسة بإحياء التراث فجمعت الطائفة ثم انتقلت إلى التحديث، وثناء حسن تعني هنا بالتحديث ما تحاول الكنيسة أن تنجزه في عمليات النشاط الاجتماعي وبعض المشاريع الاستثمارية وليس تحديثاً في مفهـوم الدين

حيث أن هذا لم يأتِ بعد. تحديث المؤسسات وخصوصا العريقة مثل الكنيسة القبطية أو مؤسسة الأزهر أمرٌ أكثر تعقيداً مما كان يعتقد العلماء المتخصصين في علوم الاجتماع يعتقدون [١].

الكهنة هم العمود الفقري للكنيسة واختيارهم يتم عن طريق ترشيح الشعب وبموافقة الأسقف. كان أغلب الكهنة في الماضي يختارون من أبناء الكهنة كما في أغلب الحِرف القديمة، وكانت أجورهم علي شكل هبات عينية وكانوا قليلي العلم ومستواهم المعيشي منخفضاً. أغلب الكهنة الجدد وخصوصاً في المدن متعلمون تعليماً عالياً، بالإضافة إلى الدراسات اللاهوتية، وأصبح لهم مرتبات حسنة ومعاشات وتأمينات صحية. مما لا شك فيه أن أغلبية الأقباط ورجال الكهنوت يؤيدون وجهة نظر البابا. ولكن هل هذا يعود لصواب كل قرارات البابا أو لقوة شخصية البابا وسابق إنجازاته؟ الأنبا شنودة الثالث بلا شك أنجز الكثير؛ وقلائل من كانوا مثله في تاريخ الكنيسة الطويل؛ ولكن هذا لا يعني أنه معصومٌ من الخطأ. الشئون المادية للكنيسة تَخضع للتفتيش من الدولة. مجلس الكنائس العالمي يعطي الكنيسة ثلاثة ملايين دولار، وهذه أيضاً خاضعة للتفتيش. إلا أن عطاءات الأقباط من داخل وخارج مصر لا تدخل تحت طائلة التفتيش. أين تذهب هذه الأموال؟ ولماذا لا تكون هناك شفافية في إدارتها؟ يرفض البابا إخضاع تلك الأموال للتفتيش، ويقول إن الكنيسة ستستمر كما كانت مبنيةً على الحب والثقة. ولكن تاريخ الكنيسة لا يؤيد أن ذلك دائماً صحيح وهناك أمثلة على ذلك. الغريب أن البابا في شبابه وعندما كان يطالب بالإصلاح والشفافية لم يقل وقتها إن الكنيسة تدار بالحب والثقة، ولم يكن البطريرك يؤنس وسكرتيره ملك الذي سبق وأشرت إليه مثالاً لذلك. إن أغلب الأقباط يثقون في البابا ولكن لماذا لا تكون هناك شفافية مع هذه الثقة؟ هناك أيضا بعض اعتراضات على رئيس حسابات الكنيسة وهو عادل روفائيل جيد ابن شقيق البابا، وهذا موضوع أثارته الصحافة المصرية ولا داعٍ للإطالة فيه، لقد عزلته اللجنة الخماسية التي شكَّلها السادات لإدارة الكنيسة، ولكن البابا أعاده إليها بعد عودته. هناك مشكلة أخرى تتعلق بالديمقراطية، فالبعض يتهم

---

(١) ثناء حسن. المرجع السابق. ص ٢٥٩.

البابا بالديكتاتورية وهذا أيضاً تناولته الصحافة المصرية وخصوصاً فيما يتعلق ببعض الكهنة المعزولين. عندما انتقدت مجلة مدارس الأحد قرار البابا ضد الكاهن اغاثون والذي كان يخدم في كنيسة أبو سيفين مُنِع رئيس تحرير المجلة من الخدمة في الكنائس حتى اعتذر للبابا. قال محرر المجلة "نحن نريد ديمقراطية أكثر وشفافية في الإدارة وتحديداً للمسؤولية. يقول البعض إن البابا يرفض حتى مقابلة من يختلفون معه ولو حتى لمعرفة وجهة نظرهم. قال أحد الكهنة المعزولين: إننا نعرف صعوبة التحديث، ولا نتوقع أن يغير البابا طريقته في الإدارة ولكن سنستمر في إبداء رأينا وننتظر البابا القادم.

إن الكنيسة أمامها طريقٌ طويلٌ للإصلاح، ولتستطيع أن تُعايِش العصر دون أن تفقد أعداداً كبيرةً من الأقباط. قوانين الأحوال الشخصية وتقنين الطلاق وتصاريح الزواجِ تحتاج لإعادة صياغتها ووضوحها. طرق انتخاب البطريرك الحالية هي طرقٌ عتيقةٌ لا تناسب العصر. بعض قوانين الكنيسة تحتّم إشراك الشعب القبطي في انتخاب البطريرك، إلا أن هذا لم يحدث في تاريخ الكنيسة قط. انتخاب الأنبا شنودة للبطريركية اشترك فيه ١١٨٦ مسيحياً فقط[1]. مواصفات المرشح للبطريركية انتابها الكثير من التغيير على مدى التاريخ، فكانوا يختارون من أساتذة مدرسة اللاهوت القديمة، من العلمانيين، من الكهنة المتزوجين أو غير المتزوجين، من الشمامسة، من الأساقفة ومن الرهبان[2]. وأخيراً إعادة كتابة تاريخ الكنيسة وتنقيته من الكثير من الخيالات حتى لا نعيش في أوهام الماضي، بل نعيش في الحاضر والمستقبل.

تقول ثناء حسن مؤلفة الكتاب "أقباط ضد مسلمين" إن جيل مدارس الأحد بقيادة الأنبا شنودة بصرف النظر عما يظنه البعض في شخصية البابا والتي كان لها نتائج مهمة ليس فقط في تظاهره بالشجاعة- أو بشجاعته- في مواجهة السادات، بل لأنها أعادت بعضاً من احترام الذات للأقباط.ما لم يجربه ويحس به المسلمون المصريون هو: كيف عاش الأقباط كأقلية تحت الحكم الإسلامي لقرون طويلة. إن بعض المسلمين يرى الأقباط وكأن الشجاعة تنقصهم أو أنهم سلبيون تجاه المجتمع دون أن

---

(١) أسامة سلامة. مصير الأقباط في مصر. مطبوعات دار الخيال. سنة ١٩٩٨. ص ٥٦.

(٢) أسامة سلامة. المرجع السابق. ص ٧١.

يسألوا انفسهم لماذا، مع أن أصل الشعب المصري واحد ؟ لقد أعادت قيادة البابا بعض الاعتبار للأقباط ولو أنها لم تحقق المساواة**.

ما يميز الأقباط كأقلية عددية أنهم جزءٌ أصيلٌ من النسيج المصري، مثلهم مثل المسلمين، فهم لم يأتوا من الخارج ولم يعيشوا داخل جيتو أو مناطق خاصة بهم. وقد قال اللورد كرومر إن الفرق بين الأقباط والمسلمين أن أحدهم يذهب للجامع والآخر يذهب للكنيسة. ويبدو أن المغالاة في خصوصية الأقباط كأقلية هي التي دفعت البعض مثل محمد حسنين هيكل والبابا شنودة وعديد آخرين إلى الاعتراض على تمثيل الأقباط في مؤتمر الأقليات الذي عقده مركز ابن خلدون، بل ودفعوا المؤتمر بأكمله خارج حدود مصر. ولكن هذا لا يعني عدم وجود مشاكل للأقباط والتي يجب مناقشتها ودراستها. وبعض هذه المشاكل لا يمكن حله في الأمد القصير لأن بعضها عميقٌ عمق التاريخ. تمثيل الأقليات وحل مشاكلها أمرٌ صعبٌ حتى في البلاد المتقدمة، وما زالت تلك الدول تحاول أن تجد لها حلاً مُرضِياً. هذا بالإضافة إلى أن بعض مشاكل الأقباط تأتي من منطق أن الأقباط مسيحيون مثل الغرب الذي نعاني منه، ولا يمكن الوثوق بهم ولهذا لا تجدهم في الوظائف الحساسة[1] لهذا يجب أن يدرس التاريخ– وبأمانة وموضوعية– إذا كانت هناك نية صادقة لتخطي مشاكل الطائفية والمحافظة على الوحدة الوطنية.

دور الأزهر في الدين والسياسة، تحديث وإصلاح الأزهر

دخل الفاطميون مصر وانتقلت الخلافة الفاطمية من تونس إلى مصر، وحاولوا نشر مذهبهم الشيعي، والذي كان لدرجةٍ ما غريباً على المصريين. رأى المعز لدين الله أن يكون تحويل المصريين إلى المذهب الشيعي بالتدريج وباستخدام شتى الطرق. كان المذهب الشيعي نقطة ارتكاز للدولة الفاطمية في مصر، وأساساً للبناء السياسي

---

(1) S.S. Hasan Christianity Versus Muslims In Modern Egypt. Oxford University Press 2003. Page 320

** في عهد الانبا شنودة انشأ قرابة ٢٠٠ كنيسة قبطية خارج مصر.

Gawdat Gabra. The Hisrorical Dictionary of the Coptic Church. The Scarecrow Press Inc.2008. Page 11

الذي اعتزمت إقامته بها. أنشأ جوهر الصقلي جامعاً سماه (جامع القاهرة) نسبةً إلى المدينة الجديدة ليكون منبر دعوة للمذهب الشيعي، وكان المعز نفسه- بوصفه أمام الدعوة وزعيمها الروحي- أول من تولى الخطابة في المسجد الجديد. فتح الجامع أبوابه للدرس والبحث الفقهي والديني على المذهب الجديد، وكانت الدراسة لبعض رجال الدولة وكبار البلاد. تغير اسم جامع القاهرة بعد ذلك إلى الجامع الأزهر نسبةً إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول، حتى يُقرب اسم الجامع المذهب الشيعي إلى الناس. الحقيقة أن مصر كانت بتاريخها في العبادة الفرعونية ثم المسيحية تقدس رجال الدين، ثم جاء الإسلام فاستمرت تلك التقاليد، وأصبح المسلمون يقدسون أهل البيت. لذلك وصف الخميني زعيم الثورة الإيرانية أن مصر شيعية الهوى.

كيف تطور هذا الجامع من مجرد مكان للصلاة إلى أن يصبح أكبَر جامعة إسلامية؟ كان يعقوب بن كلس وزير المعز يعقد مجالس علمية أدبية في قصره، واعتاد بعض العامة أن يترددوا عليها. ثم نقلت تلك الاجتماعات إلى صحن الأزهر ليكون دارَ علمٍ وتثقيف يعرف الناس عن طريقها حقائق المذهب الشيعي ويتدرجون في معرفته، بل ليكون أيضاً جامعةً يأوي إليها طُلاب العلم والمعرفة والراغبون في الجاه، والطامعون في الحصول على المكانة في الدولة الجديدة[1]. جلس يعقوب بن كلس- وكان يهودياً تحوّل للإسلام- في صحن الجامع متصدراً حلقة العلم وقرأ على الناس كتابه المعروف باسم "الرسالة الوزيرية" متضمناً أسرار الدّعوة الشيعية. كان يعقوب بن كلس قوي الحجة، بليغ القول، جهير الصوت، وقادراً على الإقناع. فتح الأزهر أبوابه لطالبي العلم. أنشأ يعقوب بن كلس أروقةً متعددةً بالأزهر لشتى الطّلاب الوافدين عليه وخَصّص لكل فئة من أولئك الغرباء رواقاً يجتمِع فيه أهل القطر الواحد فلا يحسون اغتراباً ولا نقصاً، ويشعرون بأنهم في قطعة حية من بلادهم التي تركوها في سبيل طلب العلم. عين ابن كلس سبعة وثلاثين عالماً ليرأسوا حلقات الدراسة في الأزهر تحت إشراف عميدٍ لهم. وحدد لهم أماكن للسكن ورواتب جيدة وأحاطهم بالجاه والشرف ليكونوا ألسنته بين الناس. لقد أصبح الجامع الأزهر جامعة إسلامية خطيرة الشأن،

(١) سنية قراعة. تاريخ الأزهر في ألف عام. مكتب الصحافة الدولي للصحافة والنشر. سنة ١٩٦٨. ص ١٠١.

ومنارة هادية للعلم والعلماء[1].

جاء الحاكم بأمر الله بعد العزيز الذي خلف المعز، فأنشأ جامعة أخرى سمّاها دار الحكمة. تدرس إلى جانب علوم الدين علوماً وفنوناً أخرى ذات صلة بشئون الحياة الدنيا والنهضة الحديثة في البلاد، وتجري فيها الدراسة في اتجاه حر يتسم بطابع التوسع في البحث والاستقصاء في العلوم المختلفة بلا قيدٍ ولا شرط. عرفت دار الحكمة كمعهد للرياضيات والطب وعلم الفلك وسير الكواكب وحركات النجوم. لم تقتصر الدراسة في تلك الجامعة على الرجال وحدهم بل خصصت فيها أماكن لدراسة النساء، وأوقف الحاكم على دار الحكمة أحباسَ وأموالاً طائلةً حتى تقوم برسالتها على أكمل وجه. كان أحد أهداف دار الحكمة هو نشر المذهب الشيعي من خلال دراساته المختلفة [2]. كان من نتيجة الاهتمام بدار الحكمة أنَ قلّ الاهتمام بالأزهر ولكنه ظَلّ يؤدي الرسالة الدينية. كان إنشاء الأزهر وكذلك دار الحكمة أساساً لخدمة سياسة الدولة الفاطمية بتحويل المصريين للمذهب الشيعي مذهب الحكومة.

ضعفت الدولة الفاطمية، وجاء صلاح الدين، وكان سني المذهب، فأصدر أحد المشايخ فتوى بعدم جواز إقامة خطبتين يوم الجمعة في مسجدين يقعان في بلد واحد. فكانت الخطبة تتلى في جامع الحاكم حيث يصلي صلاح الدين. بذلك أصبح الأزهر مدرسةً دينيةً أكثر منه جامعاً، وجرّد من الصفة الرسمية. لم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن صلاح الدين في سبيل الإسراع بإعادة مصر للحظيرة السنية قضى على أمهات الكتب التي ألفها كبار فقهاء المذهب الشيعي الفاطمي، وخسرنا بذلك الكثير من المعلومات القيمة عن هذا المذهب الغامض. أنشأ صلاح الدين العديد من المدارس الدينية ليصرف الناس عن الأزهر، وحبست على تلك المدارس الأوقاف الكثيرة. نجح صلاح الدين في إضعاف الأزهر، ولكنه لم يستطع القضاء عليه. أصبَح الأزهر مجرد مسجد عادي بعد إنشاء المدارس الرسمية كالناصرية، والقمحية، والكاملية، والصلاحية، وقبة الشافعي وجوامع الحاكم، وطولون، وعمرو[3]. هذا حال الحكام..يطلبون من الرعية

---

(١) سنية قراعة. تاريخ الأزهر في ألف عام مرجع سابق. ص ١٠٣.

(٢) سنية قراعة. المرجع السابق. ص ١٢٤.

(٣) سنية قراعة. المرجع السابق. ص ١٥٣- ١٤٦.

أن تتبع عقيدتهم بشتي السبل، بالذكاء أحياناً وبالعنف أحياناً أخرى، وكان هذا نمطٌ تكرر منذ دخول المسيحية مصر، بل ومن قبلها ويعود إلى زمن إخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

جاء المماليك الأجانب، واحتاجوا لسلطةٍ دينيةٍ تعطيهم الشّرعية، فأعيد بعضٌ من الحياة للجامع الأزهر وأعيد الاهتمام بالشعائر الدينية من قبل الحكام تقرباً للشعب. صدرت فتوى جديدة تلغي الفتوى القديمة وتجيز صلاة الجمعة بالأزهر، وأعيد له الكثير من أوقافه القديمة، واهتُمّ بمبناه وتمت إعادة تعميره. وأصبح الأزهر جامعاً سنياً بعدما كاد يكون قاصراً على الشّيعة. وجاء إليه طالبو العُلوم الإسلامية من كل البلاد المسلمة. ورغم تدهور أحوال الجامع العلمية إلا أنه كانَ أفضل الموجود في البلاد الإسلامية وقد تخرّج منه ودرس فيه الكثيرُ من مشاهير ذلك الزمان من أمثال ابن خلدون. بعد زوال الخلافة فعلياً من بغداد والأندلس، انتقلت الحضارة الدينية الإسلامية لمصر.

عندما جاء الأتراك لمصر، وأصبح السلطان سليم رئيس الدولة الإسلامية المترامية الأطراف فحاول أن يكون شيخ الإسلام، إلا أنه وجد أن السُّلطة الإسلامية الحقيقية موجودة في مصر العربية، ومركزه في الجامع الأزهر فكرهه. حاول سليم إضعاف الأزهر، فأبطل نظام القضاة الأربعة، وسلب الرئاسة القضائية من القاضي الشافعي ومنحها لقاضٍ تُركي حنفي المذهب، وأبطل اجتماع العلماء والقضاة الأربعة. ثم أبطَل احتفالات المولد النبوي، وطلع إلى القلعة ورأى خيمة المولد النبوي فباعها للمغاربة بأربعمائة دينار فقطعوها وباعوها للناس ستائر، وكانت من جملة عجائب الدنيا. وقيل إن قايتباي كلفها ثلاثين ألف دينار. وفعل السلطان سليم أكثر من ذلك، فهدم بعض الجوامع للحصول علي أعمدتها الجميلة ونقلها لتركيا. وهو نفس ما فعله الخلفاء الأمويون والعباسيون حين دمّروا بعض الكنائس المصرية للحصول على أعمدتها وإرسالها لدار الخلافة. ولم يقف سليم عند ذلك، بل أخذ معه عشرون عالماً من عيون الأزهر ونهب الكتب والمخطوطات والزخارف والتحف. ومع كل ذلك لم يستطع أن يقضي على الأزهر[١].

(١) سنية قراعة. مرجع سابق. ص ١٧٤.

تذكر سنية قراعة قصةً طريفة عن "الخصي" داود باشا نائب السلطان التركي، وكان رجلاً قاسياً كرهه الشعب. وذات يوم بينما كان داود باشا يسير في موكبه الحافل بجنده تصدى له الشيخ شهاب الدين عبد الحق السنباطي وصاح في وجهه قائلاً: أنت رقيق لا تملك أمر نفسك !! وإن وجودك في مركز الوالي المتصرف في أقدار أحرار الناس غير جائز شرعاً، ولا يصح أن تتولى القضاء ولا أن تصدر الأحكام لانها باطلة ما دمت مملوكاً لسيدك! فنَل حريتك أولاً.. واحصل على عتقك من الرق، ثم مارس أعمال الأحرار بعد ذلك!! بهت الوالي وحاول قتل ذلك الشيخ الجريء ولكن جنده منعوه ولم يستطع حتى أن يقبض عليه، لأنه شخص كبير من علماء الأزهر ونعته الجند يومها للوالي بأنه شيخ الإسلام. لقد تحدى شيخٌ أعزَل من الأزهر جبروت الوالي واضطره أن يطلب من السلطان صكَ عتقه فوصله الصك مصحوباً بشكر للشيخ الجليل الذي نبهه إلى أمرٍ نسيه!

لقد سبق وأشرت إلى ما ذكره الجبرتي عن أحوال الأزهر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر من اضمحلال وضعف (ص٣-١٥٢). كان القرن التاسع عشر يمثل بداية صراع فكري بين القديم والحديث بالأزهر، فكان بناء على هذا الصراع يمالئ ولاة الأمور التيار الأقوى خشية الثورة عليهم، فكلما أحسوا بدعوةٍ للتطور تجوب أنحاء الأزهر أقالوا شيخ الجامع الأزهر وأتوا إلى الكرسي بشيخٍ يميل إلى الجمود دون التطور، لتمر العاصفة التي تجتاح الأزهر وليحقق رغبة الحاكم الدفينة[1]. كان أول من نادى بالتطور في القرن التاسع عشر هو الشيخ حسن العطار، وكان معاصراً للاحتلال الفرنسي ومطلعاً على بعض من علومهم وأصبح إمام المثقفين، وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٨٣٠. كان الشيخ العطار هو من احتضن رفاعة الطهطاوي وعلّمه. رفع راية التطوير بعد الشيخ العطار تلميذه الطهطاوي (١٨٧٣- ١٨٠٢)، والذي أصبحَ مُدَرّساً بالأزهر سنة ١٨٢٤ ثم واعظاً وإماماً بالجيش حتى سنة ١٨٢٦. اختير ليؤم ويعظ طلاب البعثة المصرية لفرنسا ما بين ١٨٢٦ و ١٨٣١، إلا أنه فعَل أكثر من ذلك بكثير.

---

(١) أحمد محمد عوف. الأزهر في ألف عام. مجمع البحوث الإسلامية. سنة ١٩٧٠. ص ٨٠.

مثلت تلك الفترة في حياة الطهطاوي أول إطلالة مصرية إسلامية على أوروبا، تعلَّم رفاعة الفرنسية وأجادها وسجل الكثير من ملاحظاته في العديد من الكتب والمقالات. ربما كان أبرز كتب الطهطاوي وأكثرها شيوعاً هو كتاب (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، وقد ترجم الدستور الفرنسي في ذلك الكتاب. وترجم أيضاً القانون المدني الفرنسي وتأثر به. وقد كتب أيضاً حوالي ٢٠ كتاباً آخر و٢٥ من المترجمات، بالإضافة لرئاسته تحرير جريدة الوقائع الرسمية [١]. قد يكون أحد الكتب المهمة التي ترجمها الطهطاوي هو كتاب روح الشرائع لمونتسكيو (Montesquieu)، وهو كتاب أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية. يعتقد جابر عصفور أن ترجمة هذا الكتاب تعني أن الطهطاوي يتقبل مبدأ الفصل بين السلطات، بل وحتمية الدولة المدنية في المستقبل، حفاظاً على حرية الأفراد من ناحية، وتأكيداً للنظام الذي يفرضه القانون من ناحية أخرى [٢].

حاول الطهطاوي بعد عودته من فرنسا تغيير برامج ومناهج الأزهر ولكنه صُدِم بمقاومة السلفيين وعدم رغبة محمد علي في تطويره. فمثلاً اعتقد بعض علماء الأزهر السلفيين أن اللغات الأعجمية لا نصيب لها من الفصاحة والبلاغة والبيان، فكتب الطهطاوي يصحح لقومه هذا الوهم الغريب الذي كرّسة استعلاء العزلة والتقوقع. لقد نادى رفاعة أول ما نادى بتجديد اللغة العربية، وأضاف أن لغتنا العربية مثقلة بالمحسنات البديعة اللفظية والتي لا تضيف للمعنى بل أحياناً تعيقه. لقد ذكر الطهطاوي أن العلماء في فرنسا هم المختصون بالعلوم العقلية، فهم ليسوا من رجال الدين، فعلماؤنا ليسوا من العلماء، ومجامعنا ومعاهدنا وقفت عند الآلات والأدوات وغفلت عن المقاصد والغايات[٣]. انشأ رفاعة مدرسة الالسن لتعليم اللغات ولترجمة الكتب المهمة.

لقد تفهَّم الطهطاوي مبادئ العلمانية العقلية، فقد امتدح علمانية الفرنسيين وتسامحهم الديني ولا ينكر بعضهم التحرر من الإيمان بالأديان جميعاً أو بالجوانب الغيبية من هذه الأديان، وخصوصاً من خالف منها السنن الطبيعية التي اكتشفتها

---

(١) لأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي. دراسة وتحقيق محمد عمارة. ج١. ص٧٨.

(٢) جابر عصفور. هوامش على دفتر التنوير. دار سعاد الصباح. سنة ١٩٩٤. ص ١٩٢.

(٣) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي. المرجع السابق. ص ١٠١.

العلوم الحديثة. ويعلن رفاعة ثقته في العقل وقدرته فيقول إن الله أكرم الانسان وزيّنه بالعقل الذي يميز بين الضار والنافع، والخطأ والصواب، بالإدراك والفهم يصلح الإنسان الأشياء ويشكلها على الوجه المطلوب. يمنح الطهطاوي ثقته دون تحفُّظ على الأسباب التي توجب عنده وجود المسببات وهو يسمي هذه الأسباب "النواميس الطبيعية" التي وجدت قبل الشرائع والأنبياء وهدت البشرية أزماناً بواسطة الحكماء، وقامت على أساسها حضارات القدماء من المصريين واليونانيين والعراق وفارس وغيرهم. كل ذلك كان خبرة انسانية أدّت إلى تَقَدُّم البشرية. بعد تلك الحضارات القديمة جاء الأنبياء والرسل والشرائع بما لا يخرج عن النواميس الطبيعية[1]. كان هناك تناقض في بعض أفكار الطهطاوي، وكان هذا أمراً طبيعياً، فقد تأرجح رأيه من الاعتماد على العقل فقط عندما يتحدث عن التمدن الأوروبي، إلا أنه عندما يقترب من مجال الفكر الديني فإنه يتجلّى مسلماً، ويظهر لنا عندئذٍ التناقض بينه وبين الموقف العلماني او المدني العقلاني في التفكير. فالطهطاوي لا يتنكر للعقل جملةً، كما أنه لا ينتصر له بشكل مطلق. فهو ينتصر له في مجال العلوم ويتحفظ على قدراته عندما يكون الحديث متعلقاً بالأديان. وقد علق محمد عمارة على ذلك بقوله إن علمانية الطهطاوي شابتها شوائب مصدرها فهمه المحافظ لبعض صفحات التراث العربي الإسلامي وساعد عليها قرب عهده بالعصر المظلم للفكر العربي والإسلامي، وأيضاً كون الطهطاوي في هذا الحقل يمثل مرحلة انتقال هي أمور وعوامل أثقلت من خطاه في هَذا الدَرب ولم تثقل من خطاه الذين جاءوا بعده من أمثال محمد عبده والأفغاني، فكانوا امتداداً متطوراً لكثير من الأفكار التي قدمها هذا الرائد للإنسان العربي[2]. هذه الازدواجية التي عانى منها رفاعة الطهطاوي أمرٌ مفهوم وما زلنا نعاني منها للآن. إن أي حركة تنويرية لا بد أن تعتمد على إحياء التراث وتجديده وألاّ تقف عند مجرد محاولة إحياء التراث[3]. ليس غريباً إذن أن الَكنيسة القبطية في حركة نهضتها الحديثة حاولت أولاً إحياء التراث كما سبق وأشرت، ولكنها لم تتخطَّ ذلك لتحديث بعض المفاهيم الخاطئة والتي تراكمت على مر الدهور في ظروف مظلمة وصعبة. من أمثال ذلك هذا الكم الهائل

---

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي. مرجع سابق. ص ١١٢.

(٢) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي. مرجع سابق. ص ١١٧.

(٣) جابر عصفور. هوامش على دفتر التنوير. دار سُعاد الصباح. سنة. ١٩٩٤. ص ٢١.

من المعجزات وعقدة الاضطهاد التي تسيطر على بعض أو كثير من الأقبـــاط. أما عن النساء في فرنسا- أو الغرب- فيقول الطهطاوي إن وقوع "اللخبطة" بالنسبة لعفة النساء لا تأتي من كشفهن أو سترهن، بل مَنشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم المقاسمة في المحبة، والالتئام بين الزوجين، وقد جرّب في فرنسا أن العفة تستولي على قلوب النساء المنسوبات إلى الطبقة الوسطى، دون نساء الأعيان أو الرعاع، فنساء هاتين الفئتين تقع عندهن الشبهة كثيراً، ويتهمن في الغالب[1].

لم تُجدِ كثيراً كتابات الطهطاوي في تحديث الأزهر فظلت محصورةً في نطاق ضيق وغالباً خارج الأزهر، وإن كان قد أنشأ مَدرسة "الألسن" لتعلم اللغات. وانشأ علي مبارك مدرسة دار العلوم سنة ١٨٧١ وكانت تلك المدارس محاولة لتطوير الازهر من خارجه. ثم جاءت الثورة العرابية وجاء الإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) بمحاولةٍ أخرى لتَحديث الأزهر، لم يكن محمد عبده بعيداً عن ثورة عرابي فسُجِن بعد الاحتلال ثلاثة أشهر ونفي بعدها ثلاث سنوات، ساهم في عودته تلميذه سعد زغلول خلال مساعية لدى الأميرة نازلي فاضل، والتي كان لها تأثيرٌ كبيرٌ على سعد زغلول. لم يكن الطريق معبداً لمحمد عبده بعد عودتة لمصر. رفض الخديوي توفيق أن يشتغل محمد عبده بالتعليم الذي كان رغبته الأولى لمنعه من تربية الأجيال الجديدة على أساس من آرائه وأفكاره، ولكنه سَمَح بتعيينه قاضياً خارج القاهرة. بعد وفاة توفيق أقنَع محمد عبده الخديوي عباس حلمي بأن يعاونه بالعمل على إصلاح المؤسسات التعليمية والتربوية والتعليمية، وهي الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية [2]. دخل الإمام مجلس إدارة الأزهر سنة ١٨٩٥، ثم درس تفسير القرآن واستمر في ذلك حتى وفاته فوقف تفسيره عند سورة النساء- وهي رابع سورة في المصحف- ونشر ذلك في تفسير المنار التي نشرها رشيد رضا، وإن كان الاخير قد عاد إلى السلفية بعد وفاة محمد عبده وكــرد فعــل لزوال الخلافة. من أبرز أعمال محمد عبده في تلك الفترة أيضاً تَحقيق وشــرح

---

(١) رفاعة الطهطاوي. الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي مرجع سابق. ج١. ص ١١٠.

(٢) محمد عمارة. تجديد الفكر الإسلامي. محمد عبده ومدرسته. كتاب الهلال. سنة ١٩٨٠. ص٣٣.

كتاب (أسرار البَلاغة) و (دلائل إعجاز القرآن) للجرجاني وكذلك (البصائر النصيرية) للطوسي بالإضافة لفتاواه ومقالاته وأحاديثه للصحف والمجلات. والتي منها (الاضطهاد في النصرانية والإسلام) وكذلك (الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) ومقالات أخرى رَصَدَها محمد عمارة (١). لقد اهتمّ الطهطاوي ومحمد عبده بتدريس وتطوير اللغة العربية لأنها أهم مدخل لفهم وتفسير القرآن.

ربما أفضل إسهامات محمد عبده هي محاولة إصلاح الأزهر، تلك المؤسسة العريقة والمهمة. لقد كتب محمد عبده ناقداً لأحوال الأزهر في عصره، فوصفه بأنه مدرسة دينية ليس لها نظام في دروسها ولا يسأل فيها التلميذ عن شيء من أعماله، ولا يبالي أستاذه أحضر عنده في الدرس أم غاب، فهِمَ أم لم يفهم، صلحت أخلاقه أم فَسَدت.. ويمر عليه الزمان الطويل، لا يسمع فيه نصيحةً... فأغلب الأوقات تمر على أهل الجد منهم في فهم مباحث بعض المتأخرين لا فائدة فيها.. ولا يتعلمون من الدين إلا بعض المسائل الفقهية وطرفاً من العقائد على نهج يبعده عن حقيقتة أكثر مما يقرب منها وجل معلوماتهم لا يرجى منِها فائدة (٢).

لم ينتقد محمد عبده طريقة التدريس بالأزهر فقط، بل انتقد مادته، خصوصاً فيما يختص بإضفاء قداسة الدين على فِكر العصور المظلمة، فمنعوا التفكير في الدين والاجتهاد في قضاياه ومن ثَمّ أصبح التقليد والانقياد حائليْن دون مجرد التفكير في التجديد. وكان في نفس الوقت ناقداً لأنصار التغريب عندما أبهرتهم مظاهر الحضارة الغربية فوقفوا منها موقف المقلد والمنقاد. لقد اتضح له أننا يجب أن نحرر الفكر من قيود التقليد، أياً كان مصدره، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف، والنظر إلى العقل باعتباره قوةً من أفضَل القوى الإنسانية (٣).

لم تكن مهمة الإصلاح سهلة. فالأزهر كان قد وصل الحال به إلى جمود جعله

---

(١) محمد عمارة. تجديد الفكر الإسلامي. محمد عبده ومدرسته. مرجع سابق. ص ٣٦.
(٢) سنية قراعة. تاريخ الأزهر في ألف عام. مكتب الصحافة الدولي للصحافة والنشر. سنة ١٩٦٨. ص ٣٠٩.
(٣) محمد عمارة. تجديد الفكر الإسلامي. محمد عبده ومدرسته. المرجع السابق. ص ٤١.

لا يرى من الإسلام إلا تصورات العصور المظلمة، فهو يعادي علوم العصر ويرفض إدخالها في مناهجه، فلا يدخل في نطاق اهتماماته علوم الإسلام على عهد ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ومنها الفلسفة وفكر التيارات العقلانية الإسلامية والفلك والبصريات والطب والموسيقا وعلم الحيوان (تشابه هذه العلوم ما كان يدرس في مدرسة اللاهوت المسيحية بالإسكندرية والتي لم تستمر طويلاً أيضاً كما سبق وأشرت إلى ذلك).

كان محمد عبده عضواً بمجلس إدارة الأزهر، وكان الإصلاح أمراً في غاية الصعوبة ويحتاج لكثيرٍ من الشجاعة والعلم. ويرصد محمد عمارة حواراً طريفاً كمثال لما كان يدور في تلك الاجتماعات. تحدث الشيخ البحيري عن تعليم الطلاب قائلاً:

" إننا نعلمهم كما تعلمنا !..

فأجابه الأستاذ الإمام:

- وهذا هو الذي أخاف منه !

فردّ البحيري :

- ألم تتعلم أنت في الأزهر، وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم، وصرت فية العلم الفرد؟!.

- إن كان لي من العلم الصحيح، الذي تذكر؛ فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من أوساخ الأزهر، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريده من النظافة.. " [(1)].

إنها إجابة قاسية، ولكنها تعكس مدي الغيظ والإحباط الذي يعانيه من يحاول إصلاح الأزهر ويرفع من شأنه خصوصاً في ذلك الزمان.

قد تكون أهم محاولات محمد عبده الأخرى في الإصلاح هي محاربة السلطة الدينية. تلك السلطة الدينية التي لم يجعلها الإسلام لغير الله. هذا السلطان الديني مع انتشار الجهل جرَّد المسلم من حقه في الاجتهاد والتجديد، "فأضفوا المقدسات على غير المقدسات" كما قال محمد عمارة. هذا اختلاف مهم بين المسيحية الأرثوذكسية

---

(١) محمد عمارة. تجديد الفكر الإسلامي. محمد عبده ومدرسته. كتاب الهلال. سنة ١٩٨٠. ص٤٤.

والكاثوليكية، حيث يوجد كهنوت وقدسية رجال الدين في كليهما، وقد أدى ذلك لكثير من المشاكل وإلى انفصال العديد من المذاهب عن الكنيسة الأم، وسبق وأشرت لذلك. لقد أفاض محمد عبده في نقد الرئاسات الدينية التي زعمت لنفسها ذلك السلطان فحاربوه ولم يمكّنوه من تحقيق غرضه في الإصلاح. لقد قال محمد عبده:

إن الإسلام هدم السلطة الدينية ومحى أثرها حتى لم يبقَ لها عند الجمهور من أهله اسمٌ ولا رَسم، فالإسلام لم يدع لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه وإن الرسول علية السلام كان مُبلّغاً ومُذكّراً لا مهيمناً ولا مسيطراً، ولم يجعل لأحدٍ من أهله سلطةً أن يحل أو يربط لا في الأرض ولا في السماء [1]. وهو ما أكده أيضاً الشيخ علي عبد الرازق في كتابة "الإسلام وأصول الحكم "، الذي سبقت الإشارة إليه.

لم يكن الأزهر في تاريخه الطويل مستقلاً، لا إدارياً ولا مادياً، فكان لا بد أن يقع تحت سيطرة الحكومة. ولأن مصر لم تستقل إلا حديثاً فاستمر النظام القديم لتبعية الأزهر للنظام الحاكم، فالحكومة هي التي تعين شيخ الأزهر- أو توافق على تعيينه- وكذلك مفتي الديار من ضمن هيئة كبار العلماء غالباً وإن لم يكن بالضرورة. لكل ذلك لم يستطع الأزهر أن يجدد نفسه وأن يُطوّر مفهوم الدين ليناسب الحياة التي يعيشها الناس. لقد أهمَل محمد علي تطوير الأزهر حتى لا ينافسه في الرئاسة بعض مشايخه، وتلاعب بقياداته وفرقها. أمّا عباس الأول فقد أرسل رفاعة الطهطاوي إلى السودان حتى يبعده عن مِصر كلها. رفض توفيق أن يعمل محمد عبده بعد عودته من المنفى في التعليم، بل ورفض بقاءه في القاهرة. في عام ١٩٠٥ استقال مجلس إدارة الأزهر بسبب الشغب الأزهري الذي دبّره الخديوي عباس حلمي للخلاص من محمد عبده، مما أدي إلى يأس محمد عبده من شهوة إصلاح ذلك المعهد العتيق. لقد سبق وأشرت إلى نفوذ الملك القوي على الازهر، ودور الأزهر في تأييد محاولة الملك فؤاد ثم فاروق للحصول على الخلافة. وصدرت الفتاوى بأن الملك من سلالة الرسول. وقف الوفد لتلك

---

(١) جابر عصفور. هوامش على دفتر التنوير. دار سعاد الصباح. سنة ١٩٩٤. ص ٢٠٣. وكذلك محمد عمارة. تجديد الفكر الإسلامي. محمد عبده ومدرسته. كتاب الهلال. سنة ١٩٨٠. ص٧٣.

الحركـــة بالمرصاد وتمكّن من إفشالها، فعادي رؤساء الأزهر بتحريض من الملك حزب الوفد، وهو حزب الشعب. إلا أن الوفد لم يحكم إلا ثماني سنوات وعلى فترات متقطعة.

إن الجامعات الأوروبية والأمريكية العريقة كانت في أصلها جامعات دينية تشبه الأزهر. حين بدأت العلوم الحديثة- أو الروح الحديثة- تنتشر في بداية العصور الحديثة دخلت تلك العلوم في الجامعات الدينية بالتدريج حتى سادت العلوم الحديثة تركيب تلك الجامعات مثل جامعة يل الأمريكية، وجامعة السوربون في فرنسا، وجامعات انجلترا العتيقة. أصبحت بعض الدراسات الدينية موزعةً بين أقسام التاريخ والاجتماع والآداب، أما الدراسات الدينية غير العلمية فقد اقتصرت على معاهد وكليات اللاهوت لتخريج رجال الدين والمهتمين بشئونه. حتى هذه المدارس اللاهوتية تدرِّس تاريخ الأديان ودراسة كافة الأديان، بالإضافة لفرع التخصص، وكذلك دراسة بعض العلوم السيكولوجية، حتى يستطيع خريج هذه الكليات مخاطبة ووعظ جموع المصلين. الجامعات المشهورة اشترطت على المتقدمين إليها للحصول على درجة في اللاهوت، أن يكونوا حاصلين على شهادة البكالوريوس أو الليسانس أولاً. أي إن هذه الكليات كليات دراسات عليا. فليس غريباً أن تَجِد وعاظ وقساوسة الكنائس والمعابد اليهودية من الحاصلين على شهادة الماجستير والدكتوراه وفي إمكانهم أن يحدثوك عن الكثير من المذاهب الدينية بموضوعية.

للأسف حُرِم الأزهر من التطور الطبيعي الـــذي حـــدث للجامعـــات الأوروبية المشابهة، وذلك لأسباب كثيرة، منها التخلف العام، ونظام الحكـــم الـــذي لم يسعَ لتَعليم الشَعب. منذ بدايـــة النهضـــة الحديثـــة كانت هـــناك محـــاولات عديدة ومخلصة لتطوير الأزهر أشرنا لبعضها، ولكنها عموماً لم تُنبت ما كـــان يؤمل مِنها. إن إصلاح الأزهر قضية كبيرة من غير شك، وأنا لا أريـــد التعمـــق فيها أو دخول متاهاتها. لقد أنشئت مدرســـة دار العلـــوم، (والتي اصبحت كليـــة دار العلوم واحد فروع جامعة القاهرة فيما بعد) ومدرسة للقضـــاء الشرعـــي، وكلية أصول الدين تتبع جميعها الأزهر كمحاولةٍ لتطويره. في نفس الوقـــت أنشـــأت جامعة القاهرة بتخصصاتها العديدة وتبعتها جامعات ومعاهد أخرى في كل

مصر. ولكن السؤال الواجب طرحه هو: لماذا يدخل التلاميذ إلى الأزهر؟ وهل يريدون أن يكونوا علماء دين أم لطلب مهنة؟ لقد قال طه حسين قديماً "خليقٌ بالذين يسعون إلى إصلاح الأزهر أن يعرِفوا لقانون توزيع الاعمال حرمةً فيتركوا القضاء للقضاة والتعليم للمعلمين ويكتفوا بالوعظ والإرشاد والدعوة الدينية". ولكن محمد الخضر حسين الذي تولى مشيخة الأزهر عارض رأي طه حسين، فكان يرى بجانب مدرسة القضاء ودار العلوم فإنه بالإضافة لذلك يقومون بجانب من إدارة شئون الأمّة [١]. ويعود الخلاف في الرأي إلى أن البعض يريد أن يفصل بين تدخل رجال الدين في السياسة وآخرين يرون أن الإسلام دينٌ ودنيا. ***ومما ذكره أحمد أمين تعليلاً لفشل المسلمين في هذه الفَترة يعود إلى أن العالم العربي والإسلامي ينقصه علماء عرفوا مقاصد الشريعة الكلية، ويواجهون المدنية الحديثة بغربلة ما ينفع وما يضر، ثانياً شعور المسلمين بمركّب النقص أمام المدنية الحديثة، وعلاج ذلك إيجاد الحلقة المفقودة من علماء جمعوا بين علوم الدين وعلوم الدنيا، ثم حقن نفسية للمسلمين تفهمهم أن المدنية الغربية ليست خيراً محضاً ولا ما هم عليه شرٌّ محض، بل في كل خير وشر!*** [٢].

في عصورنا الحديثة، كان لارتباط الأزهر بالحكومة أن تأثرت بعض قرارات الأزهر بما تراه الحكومة. نجد مثلاً أن شيخ الأزهر محمود شلتوت أفتى بأن الصُلح مع إسرائيل حَرام خلال حكم عبد الناصر. وعندما تغير موقف الدولة ووقع الصلح مع إسرائيل وقت السادات أفتى شيخ الأزهر عبد الحليم محمد محمود، وكذلك وزير الأوقاف الشيخ الشعراوي أن الصلح مع إسرائيل حلال! إذ بارك كلاهما اتفاقية كامب ديفيد. أين يقع الدين من هذا ؟! وهل وظيفة الازهر أن يكون (المُحَلّل) لما تراه أو لا تراه الحكومة؟ وهل هذا أمرٌ يتعلق بالدين أم بالسياسة؟ وحدث نفس الشيء من تأييد الاشتراكية ضد الرأسمالية ثم الرأسمالية ضد الاشتراكية. هل هذا أمرٌ يتعلق بالدين أم باقتصاد الدولة؟ أفتى شيخ الأزهر بأن فائدة البنوك هي الربا بعينه. أيّد كثيرون من داخل رجال الدين ظاهرة شركات توظيف الأموال، وهي ظاهرة أصابت المواطن باسم

---

(١) سعيد إسماعيل علي. دور الأزهر في السياسة المصرية. كتاب الهلال. سنة ١٩٨٦. ص٣١٨.

(٢) سعيد اسماعيل علي. المرجع السابق. ص ٣٥٩.

الدين خيل لكثيرين أن شركات توظيف الأموال تحقق الكثير من الربح، وهو *أيضاً* ربحٌ يحلله الدّين، فخسر الكثيرون مدخرات حياتهم. لم يكن ذلك أكثر من عملية نصب اشتَرك في الترويج لها بعض فقهاء البنوك الإسلامية. ألم يكن من الافضل ألا نقحم الدين في سياسة الدولة وفي أمور معيشة الناس حرصاً على الدين ذاته؟ (١).

إن الدول العربية المعاصرة تتدخل باسم الدين في شئون العقل البشري، وهو ما حاول بعض المصلحين تجنبه ولكن لم يجانبهم النجاح في كثيرٍ من الأحيان. قد يكون أسوأ ما يفعله بعض علماء الأزهر هو الوصاية على العقل فيما يُقرَأ وفيما لا يُقرَأ، فنجد أن بعض الكتب من أعمال طه حسين، علي عبد الرازق، ابن عربي- في الفتوحات المكية - محمد أحمد خلف الله، عبد الرحمن الشرقاوي، نجيب محفوظ، لويس عوض، ومحمد سعيد العشماوي وغيرهم قد حرَّمَهَا الأزهر، وإن كان أحياناً تحريماً مؤقتاً نتيجة بعض الضغوط. في تسعينات القرن الماضي كانت مشكلة نصر حامد أبو زيد وتكفيره- وهو أستاذ في علوم القرآن ومفكرٌ من طراز فريد- ثم صدر قرارُ محكمةٍ بطلاقه من زوجته وهي أستاذة اللغة الفرنسية بجامعة القاهرة، هل هذا يُعقَل؟! لقد قال الإمام محمد عبده منذ قرابة قرن من الزمان "إذا صدر قولٌ من قائل يحتمِل الكفر من مائة وجه، والإيمان من وجهٍ واحد، حُمِل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكُفر (٢). بل هناك أيضاً حديثٌ يقول "من كفَّر مؤمناً فهو كافر" (٣).. لقد كانت مشكلة نصر أبو زيد مرتبطةٌ بما كتبه عن استغلال الدين لصالح البعض، فتعرض لمشروع توظيف الأموال كمثال. أثار ذلك غضب الكثيرين من فقهاء البنوك الإسلامية، فعندما طالب نصر أبو زيد بترقيته من أستاذ مساعد إلى درجة أستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، حُورِبَ من بعض الفقهاء واتُّهِم اتهامات باطلة وكُفِّرَ. هل هذا يعني أنهُ مِن الجائز أن يكون مدرساً بدرجة (أستاذ مساعد كافر)، ولكن يجب ألا يكون هناك مدرسٌ بدرجة (أستاذ) كافر؟! لقد تغلغل الإسلام السياسي إلى حُريَّة الفكر في أفضل جامعة مصرية (٤).

---

(١) غالي شكري. أقنعة الإرهاب. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ٢٤.

(٢) جابر عصفور. هوامش على دفتر التنوير. دار سعاد الصباح. سنة ١٩٩٤. ص ٧.

(٣) محمد سعيد العشماوي. الإسلام السياسي. دار سينا. سنة ١٩٩٢. ص ٦١.

(٤) نصر حامد أبو زيد. التفكير في زمن التكفير. سينا للنشر. ١٩٩٥.

ان مصادرة الكتب موضوعٌ مُعقّد. وفقاً للقانون المصري مصادرة الكتب منوطةٌ بجهات ثلاث ١- رئيس الجمهورية. عملاً بأحكام القانون رقم ٦٢ لسنة ١٩٥٨ بشأن حالة الطوارئ. ونظراً لاستمرار العمل بقانون الطوارئ الذي صدر سنة ١٩٨١ ويستمر العمل به للآن! فما زال من حق رئيس الجمهورية مصادرة الكتب. ٢- مجلس الوزراء بأجمعه طبقاً للمادة العاشرة من القانون رقم ٢٠ لسنة ١٩٣٦ بشأن المطبوعات. ٣- محكمة جنايات مختصة، بعد إجراء محاكمة، وبعد صدور حكم نهائي بالإدانة (١).. أي أن الأزهر ليس جهة اختصاص لمصادرة الكتب، ولكنه يزاول ذلك بطريقة أو بأخرى؛ فرغم عدم صدور قرار رسمي بمنع نشر رواية (أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ إلا ان الرواية لم تنشر بمصر إلا بعد وفاة نجيب محفوظ، (رفض نجيب محفوظ خلال حياته نشر الرواية في كتاب إلا بعد موافقة الأزهر، رغم ان الرواية سبق نشرها في جريدة الاهرام).

يذكر محمد سعيد العشماوي أنهُ في معرض الكتاب سنة ١٩٩٢، اتجهت لجنةٌ من مجمع البحوث الإسلامية إلى مقر دار سينا للنشر بالمعرض وتحفّظت على خمسة من كتب العشماوي لمصادرتها، وبعض هذه الكتب كان مطروحاً بالأسواق لأكثر من عشر سنوات. لم تصدر لجنة البحوث الإسلامية أي قَرار بالمصادرة. اثار ذلك التحفظ الكثير من التساؤلات وتناولت محطات الإذاعة العالمية الخبر، الأمر الذي أحرج الحكومة واضطر رئيس الجمهورية إلى إصدار أمر بإلغاء قرار المصادرة الخاطئ (١). بعد عشرة أيام من تلك الواقعة أعلن شيخ الأزهر أنه ليس للأزهر حق مصادرة الفكر، وكل ما له من حق هو كتابة تقرير عن العمل الذي لا يوافق عليه ورفعة للجهات المختصة. هذا تخبطٌ إن دلَّ على شيء فهو يدل على ضعف الأزهر ومحاولة سيطرة بعض رجال الدين على الفِكر.

لسنا هنا بصدد رصد الكتب التي حرّمها مَجمع البحوث الإسلامية، ولكن هذه عينة لكُتّاب كانت لهم إسهامات جليلة في ثقافتنا وتفكيرنا. من حق مجمع البحوث

---

(١) محمد سعيد العشماوي. الإسلام السياسي. سينا للنشر. الطبعة الثالثة. سنة ١٩٩٢. ص ٩.

الإسلامية أن يَعترِض على ما يراه لا يتفق مع الدين بنشر الكتب أو المذكرات التفصيلية دون فرض الوصايةِ على العقول البشرية فيما يقرأ أو لا يقرأ. كان من بعض نتائج ذلك أن كُفِّر بعض الكتاب، مما أدى إلى اغتيال فرج فودة ومحاولة اغتيال نجيب محفوظ، بالإضافة لاستخدام العنف لوقف بعض الأعمال الفنية من قِبل العامة متأثرين بآراء بعض المشايخ المتزمتين[1]. في ظل هذا الإرهاب فرض بعض الكتاب الرقابة الذاتية على ما يكتبون، فنجيب محفوظ رفض نشر أولاد حارتنا حتى لا يغضب الأزهر.

وإذا كنا نتحدث عن تسلط بعض رجال الدين المسلمين في فرض الوصاية على ما يُقرأ وما يُكتَب، فيجب أن نذكُر أن هَذا كان حال المسيحية الأوروبية قبل حركة التنوير. أما في مصر فنجد أن الكنيسة القبطية لديها اعتراض على بعض الأعمال الفنية التي تعتقد أنها تُشوّه صورة الأقباط أو تاريخهم. فالكنيسة لا تريد أن ترى سوي الشخصية القبطية المثالية مع أن الأقباط يمثلون كل ألوان الطيف الأخلاقية والثقافية. فإذا نظرنا مثلاً إلى رد فعل بعض رجال الدين العنيف على قصة يوسف زيدان "عزازيل" اتضح ذلك بجلاء. مع أن القصة عملٌ أدبيٌّ ممتاز، والوقائع المهمة التي يذكرها يوسف زيدان فيما يختص ببعض الحوادث هي تاريخياً صادقة أو على الأقل تحتمل الصدق، خصوصاً أن بعض المصادر التاريخية مثل (الموسوعة القبطية) أو (الموسوعة البريطانية) تؤكد ذلك. إن الكنيسة لها تاريخها الذي يختلف عما ذكره يُوسف زيدان، ولكن ليس كل ما كتبه كُتّاب الكنيسة، وخصوصاً القُدامَى صحيح؛ فهناك الكثير من الأساطير. ونرى نفس الشيء عندما أذاع التلفزيون مسلسل (أوان الورد) الذي أخرجه وحيد حامد، حيث رفع بعض الكهنة دعوى قضائية ضد المسلسل على غِرار ما يقوم به شيوخ الحسبة ومشايخها. بل طالب البعض بعرض أي عمل فني يتعلق بالديانة المسيحية على الكنيسة لمراجعته وتعديله وإقراره أو الاعتراض عليه كيفما يتم مع الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية فيما يتعلق بالدين الإسلامي[2]. لقد استمرت محاولات اصلاح الازهر والتي قد يكون أهمها هو ما حدث في ثلاثينات القرن الماضي من إنشاء كليـــة

---

(١) غالي شكري. أقنعة الإرهاب. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ٢٦.

(٢) هاني لبيب.المواطنة والعولمة. الأقباط في مجتمع متغير. دار الشروق. سنة ٢٠٠٤ ص ١٩٢.

أصول الدين، كلية الشريعة، وكلية اللغة العربية. في ستينات القرن الماضي أنشئت جامعة الأزهر الحديثة تبعا لقانون عام ١٩٦١ والذي أعاد صِياغة إدارات الأزهر إلى : ١- المجلس الأعلى للأزهر ٢- مجمع البحوث الإسلامية ٣- إدارة الثقافة والبحوث الإسلامية ٤- جامعة الأزهر ٥- المعاهد الأزهرية(١). لقد أصبَحَت جامعة الأزهر منتشرةً بفروعها في الكثير من البلاد المصرية، وأصبح عدد كلياتها حوالي ٦٥ كلية، بذلك قد تكون أكبر جامعة في العالم من حيث عدد كلياتها. ولكن ذلك لا يشير لنا بشيء من مستوى تلك الكليات. إن مستوى التعليم عندنا الآن يستحق الأسى. لقد بدأ التعليم عندنا ينحدر منذ بداية النصف الثاني من القرن السابق. لقد قال الشاعر المتصوف أبو العتاهية :

كم من زمانٍ بكيتُ منهُ قديماً ثم لما مَضَى بكيتُ عليهِ

إن جامعة القاهرة العتيقة نالت في ترتيب الجامعات العالمية المركز الألف والثمانمائة! أما جامعة عين شمس فجاءت بعد الالفين. أما بقية الجامعات فهي في طي الكتمان(٢). إن المشرفين على التعليم في مصر يعيشون في وهم أن لدينا تعليماً وأنه مجانيّ.

رغم أي نقدٍ يُوجّه لبعض ما حدث ويحدث في الأزهر، فقد كان الأزهر دائماً يُفرّخ بعضاً من نوابغ المصريين من أمثال الجبرتي والشيخ العطار والطهطاوي ومحمد عبده وعرابي وسعد زغلول وطه حسين وغيرهم. ولكن الأزهر يحتاج لكثيرٍ من تجديد الخطاب الديني، وهي وظيفته الأساسية ليناسب العصر الذي يعيش فيه الناس وهو عصرٌ يتغير بسرعة فلكية. ولن يحدث تجديد الازهر إلا من داخلة.

ان الازهر مسالة مصرية اولا. سنة ١٩٢٩ اجري سلامة موسي القبطي وكان محررا بالهلال حديث مع شيخ الازهر مرتضي المراغي وكان الحديث حول اصلاح الازهر. ايد سلامه موسي محاولات تجديد الازهر، وطالب باقامة احتفال كبير للازهر بمناسبة عيده الالفي. وقال ان هذا المعهد المصري يجب ان يلقي العناية وينبه اوروبا الي ان مصر التي

---

(١) أحمد محمد عوف. الأزهر في ألف عام. مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٧٠. ص ٩٢.

(٢) حامد عمار. دراسة في التربية والثقافة. قيم تربوية في الميزان. الدار العربية للكتاب. سنة ٢٠٠٨. ص ٩٥.

عرف العام عنها معاهد العلم في عين شمس ثم في الاسكندرية قد اسست جامعة الازهر قبل ان تؤسس اكسفورد او السوربون[1]. ولكن سلامه موسي كان ضد تسلط رجال الدين اجمعين.

الشريعة. والإسلام السياسي

القرآن يحتوي علي حوالي ستة آلاف آية؛ منها ما يتضمن أحكاماً للشريعة في العبادات أو المعاملات، لا يصل إلى سبعمائة آية، منها حوالي مائتين فقط هي التي تقرر أحكاماً للأحوال الشخصية والمواريث أو للتعامل المدني أو الجنائي. فإذا عرفنا أن بعض هذه الآيات منسوخٌ (أي أن الحكم اللاحق يلغي حكماً سابقاً، وهو مبدأ تكرّر في أحكام المعاملات، ويدّل على وقتية بعض الأحكام)، فإن الآيات التي تعد تشريعات تساوي واحداً على خمسٍ وسبعين (١/٧٥) من القرآن. أي أن القرآن في أغلبه ليس كتاب تشريعات، بل هو كتاب هداية [٢]. بل أكثر من ذلك: وردت كلمة (الرحمة) بنصها في القرآن ٧٩ مرة، هذا بخلاف تصريفاتها، بينما ورد لفظ الشريعة وتصريفاته أربع مرات فقط [٣]. مع أن الشريعة في القرآن تعني المنهج ولا تعني الأحكام القانونية، فالمحور الأساسي في القرآن هو الرحمة. فلو كانت الشريعة هي الأهم في القرآن لتضمن القرآن أضعاف أضعاف ما ورد فيه من أحكام تشريعية. هذا بالإضافة إلى أن التفسير السليم لآيات القران مرتبطٌ بأسباب نزول الآية. فالقرآن كما هو معرف أُنزِلَ مُجزّءاً عبر قرابة اثنين وعشرين عاماً. وقد كتب الكثيرون من المؤرخين القدماء عن أسباب التنزيل واهتموا بها لأهميتها في التفسير. إلا أن بعض الفقهاء كانت وجهة نظرهم أن العِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحال في المذهب الوهابي. والحقيقة أن التفسير مهما كان مصدره فهو مجهودٌ بشري.

إذا نظرنا في المسائل الجزائية -الحدود- لم يرد في القرآن إلا أربع عقوبات وهي حد السرقة، وحد القذف، وحد قطع الطريق وحد الزِّنا. كما ورد في القرآن بيان

---

(١) محمود الشرقاوي. سلامة موسي المفكر والانسان. دار الهلال. سنة ١٩٦٨ ص ٨٦.

(٢) محمد سعيد العشماوي، الإسلام السياسي، سينا للنشر، سنة ١٩٨٧ ص ٤٣.

(٣) محمد سعيد العشماوي. المرجع السابق. ص ٤٤.

القَصَاص "عينٌ بعينٍ وسنٌ بِسِنٍ" وهي مشابهة للشريعة اليهودية. في المسائل المدنية توجد آيةٌ واحدةٌ "أحلّ الله البيعَ وحرَّمَ الرِّبَا".وفي مسائل الأحوال الشخصية وردت أحكام الزواج والطلاق، والميراث. هذه التشريعات تتناول أصول الرحمة وقواعد الأخلاق[1]. إذا كانت الشريعة بهذة البساطة فلماذا إذن كل هذا الضجيج؟ ولماذا إذن يخشاها الأقباط؟

لا يوجد في القرآن عِقابٌ إلا في حالة الحدود الأربعة المشار إليها؛ إلا أن بعض الفقهاء قد وضعوا لبعض الحدود شروطاً كثيرة تجعل التطبيق الصحيح أمراً صَعباً إن لم يكن مستحيلاً. فحد السرقة لا يجوز تنفيذه إذا كان للسارق حاجةٌ إليها، وقد أوقف عمر بن الخطاب العَمَل بهذا الحد في عام الرمادة. لا يجوز تنفيذ الحد في حالة السرقة من أموال الدولة لأن للسارق فيها شبه مِلكية ! أما فيما يتعلق بالزنا فقد اشترط الفقهاء شهادة أربعة شهود عدول يرون الفعل رأي العين من أوله إلى آخره بحيث لا يمر الخيط بين الرجل والمرأة، وهو أمرٌ لم يحدث أبداً على مَدى التارِيخ الإسلامي[2]. وقد اختلف الفقهاء كثيرا في تطيق الحدود[3]. هناك بعض المحرمات أو المعاصي التي ذُكِرَت في القرآن ولكن لم يُذكَر لها عِقابٌ لا في القرآن ولا في السُّنّة الفعلية (وهو ما فعله الرسول) مثل الارتداد عن الإسلام، اللواط، الربا، وشرب الخمر.. وإن كانت من المحرمات. وان كان بعض الفقهاء قد حددوا عقاب بعض المحرمات ومن ضمنها الارتداد عن الاسلام، إلا انه لا اصول له في القران ولا في السنة الفعلية [4].

إذا نظرنا إلى بعض الاصطلاحات التي أصبحت شائعةً من أمثال "الإسلام دينٌ ودولة" أو "الحكومة الإسلامية"، نجد أنها اصطلاحات تجد قبولاً لدى الكثيرين، فقد أصبحت نوستالجيا. إلا أنها لا تعني شيئاً محدداً. ربما كان أول من استخدم اصطلاح (الإسلام دينٌ ودولة) هو عبد الرازق السنهوري؛ وكان ذلك حين ألغيت الخلافة العثمانية وشعر الكثير من المسلمين بالقلق والخوف لأن للخليفة مكانةً

---

(١) يحي كامل احمد. مقدمة كتاب حقيقة الحكم بما انزل الله. دار نهر النيل للطباعة. سنة ١٩٨٢. ص ٥-١١ وما بعدها. ايضا محمد سعيد العشماوي، الإسلام السياسي، سينا للنشر، سنة ١٩٨٧. ص ٤٥.

(٢) محمد سعيد العشماوي. المرجع السابق١٩٩٢. ص ١٩١. وكذلك محمد محمود، علاء الدين زيدان، وعبد المنعم يحي كامل. حقيقة الحكم بما انزل الله. ج٢. دار نهر النيل للطباعة. سنة ١٩٨٢. ص ١١٤.

(٣) لقد كتب عبد القادر عوده ٩ مقالات في مجلة المسلمون لعام ١٩٥١ عن تطيق الحدود في حالة الزنا والواط.

(٤) محمد محمود زغلف واخرين. مرجع سابق.ص ١٢٦.

روحيةً، وأصبح رمزاً للإسلام عاش به المسلمون قرابة ١٤ قرناً. كان السنهوري ايضا معادياً للوفد، وكان الوفد معادياً لمبدأ الخلافة. لم يكن الاهتمام بالخلافة بالضرورة لأن أغلب الخلفاء طبقوا الشريعة وكانوا أناساً صالحين يقتدى بأفعالهم، حيث إن القلة القليلة جداً كانت كذلك، بل إن بعضهم كان أبعد ما يكون عن روح الإسلام، وقد سبق وأشرت لبعض من ذلك. ماذا يعني إذن اصطلاح "الإسلام دين ودولة" ؟ قد تعني أن نظام الحكم في البلاد الإسلامية هو من صميم الدين الإسلامي، أو أنه لا يوجد فارقٌ بين العَمَل السياسي والدين، وأن ضحية العمل السياسي شهيدٌ عند الله، أو أن تقوم الدولة الإسلامية على النظام الإسلامي التاريخي، أي تطبيق الشريعة الإسلامية، أو قد تعني ان الأساس في الدول الإسلامية هو المنهج الإسلامي والنظام الخلقي والعادات والتقاليد الإسلامية [1]. أما اصطلاح الحكومة الإسلامية فيحتمل معانيَ كثيرةً تختلفُ باختلاف التيارات الإسلامية وبها كل ألوان الطيف. قد يكون المثال الذي يتبادر للذهن هو نظام الحكم وقت عمر بن الخطاب. ولكن في تاريخ الإسلام الطويل كان هناك عمر بن الخطاب واحد لا غير. وحتى عمر نَحَّى بعض أحكام الشريعة حين اقتضى الأمر ذلك.

إذا كان الهدف من إنشاء حكومة إسلامية هو تطبيق الشريعة- يقول محمد سعيد العشماوي- إن الأمر لا ينبغي أن يكون مجرد شعارٍ أو ستار، وإنما لا بد من دراسات علمية جادة. وعندما يحدث ذلك فسيظهر واضحاً أن الشريعة الإسلامية ليست مختلفة اختلافاً جذرياً عن أي نظامٍ قانونيٍّ آخر، سواء كان مصرياً أم فرنسياً أم رومانياً. وقد نشر العشماوي- وهو رجل قانوني- كثيراً من الأبحاث تدل على أن نظام القانون المصري لا يختلف عن الشريعة الإسلامية إلا في بضع نقاط قليلة تحتاجُ إلى دراسةٍ وبحثٍ واجتهادٍ جديد، ولا تَبرّر أي ثورةٍ أو انقلابٍ ضد النظام القانوني ذاته. والاجتهاد الصحيح في هذا الصدد- هو الاجتهاد الذي يسمح لكل الآراء وينظر للقواعد في أثرها التطبيقي ويأخذ في الحسبان حاجات الناس وظروفهم المتغيرة [2]. إن أغلب المطالبين بحكومةٍ إسلامية هدفهم الوصول إلى الحُكم بشعارات تثير الخيال دون أن يقدموا دراساتٍ جادة أو إضافاتٍ مبتكرة أو برنامجاً شاملاً للإصلاح السياسي والاجتماعي

(١) محمد سعيد العشماوي. مرجع سابق. ص ١٦٦.

(٢) محمد سعيد العشماوي. مرجع سابق.ص ٩٢.

والديني، وإنما اقتصر جهدهم على التلاعب بالألفاظ، وانتهى الأمر إلى ما أسماه البعض أسلمة العلوم والأجهزة والمناهج. فصار كأن مجرد إطلاق لفظ الإسلام يحول الأجهزة إلى الإسلام! يعتقد العشماوي أن الإسلام السياسي لم يقدم أي دراسة جادة أو مقارنة صحيحة بين القانون المصري والفقة الإسلامي، والذي يطلق عليه خطأً تعبيرُ الشريعة الإسلامية [١]. إن الشريعة الإسلامية هي القرآن والسنة الصحيحة. السنة هي كل قول أو فعل أو تقرير وَرَد عن الرسول. والسُنّة منها ما هو ثابِت لا شَك فيه مثل شعائر الصلاة وعدد الركعات، ومِنها ما ثَبُت بالظن الراجح وهي أقل ثبوتاً من القرآن أو السُّنّة المتوارثة. أما الأحاديث المروية عن الرسول فيصل عددُها تبعاً لبعض الرواة إلى أكثر من خمسة آلاف حديث. الكثير منها مشكوكٌ فيه وبعضها متناقض [٢]. أمّا الفِقه الإسلامي فهو اجتهادات البشر في إدراك أحكام الشريعة وفي استخلاص المعاني المقصودة، ووصل تلك الأحكام في أحوال البشر في كل بيئة، اي هو اجتهاد علماء الدين في إدراك معاني النصوص والتفريع على الأصول العامة الواردة بالقرآن والسُنّة. هذه اجتهادات ذات وضع بشري تحتمل الخطأ وتحتمل التغيير والتنوع مع اختلاف البيئات والأحوال، وكلها تتعلق بتفاصيل الأحكام وبفروع المسائل[٣]. من الخطأ الخلط بين الشريعة الإسلامية والفقة الإسلامي، إلا أن كثيرين يفعلون ذلك.

كان الطُموح للاستقلال السياسي والاقتصادي والتنمية- ولا تزال- هي التي تفرِض عَلينا التحديث سيان كان تكنولوجياً أو ديمقراطياً، أو باختصار هو التوفيق بين الدين والمدنية. ليس أمامنا إلا أن نرى الفِكر في قلب التكنولوجيا وأن نتفاعل مع هذا الفعل بعقل مفتوح. إلا أن ذلك لم يحدُث إلا في حالات هامشية بل تكاد تكون فرديةً بدايةً من الطهطاوي ثم محمد عبده وآخرون. من هُنا كَان استهلاكنا للحضارة الحديثة يمضي في خطٍّ مُوازٍ لإعادة إنتاج الماضي والفكر السلفي القديم. لذلك كانت حركات النهضة تتكسر بسهولة. نحن نعيش في ازدواجيةٍ أو ما يسميه علماء النفس سكتسوفرينيك.

---

(١) محمد سعيد العشماوي. المرجع السابق. ص ١٥٦.

(٢) حسين أحمد أمين. دليل المسلم الحزين. دار العين للنشر. ٢٠٠٧. ص٧٤.

(٣) طارق البشري. الوضع القانوني المعاصر بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي. دار الشروق. سنة ١٩٩٦. ص١٠٠.

إذا كانت الدولة في صف التحديث يتقدم التحديث وإذا كانت الدولة ضد التحديث تنحسر حركة التحديث. ليس أدل على ذلك مما حدث لرفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وقد سبق واشرت الي ذلك.

الأقباط والشريعة الإسلامية

مما لا شك فيه أن الأقباط قلقون من محاولات تطبيق الشريعة لأسبابٍ عَديدة قد يكون أهمها ما صَحب الكلام عن الشريعة من عَنف ضد الأقباط منذ بداية عهد السادات. ما يقلق الأقباط ليس ما يكتبه بعض الكُتّاب المسلمين من أمثال خالد محمد خالد، طارق البشري، فَهمي هويدي، أو محمد سليم العوا وآخرين، فهؤلاء أكدوا مبدأ المساواة والمواطنة عملاً بمبدأ "لهم ما لنا وعليهم ما علينا". ما يقلق الأقباط ما كتبه البعض من أمثال مصطفى مشهور المرشد العام للإخوان المسلمين مُطالَبين الأقباط بدفع الجزية وعدم الخدمة في الجيش [١]. وهو ما لم يحدُث حتى في إيران الحالية. ففي إيران لا يوجَد تمييز شرعي يطول أوضاع أهل الذِمّة فَهُم يؤدون الخدمة العسكرية، ولا يدفعون الجِزية [٢].

ما يقلق الأقباط أيضاً بعض المشايخ المتعلمين الذين يدعون المسلمين بعدم التعامل مع الأقباط [٣]. أو من قبيل أن أحد القضاة الذي طبَّق الشريعَة الإسلامية على رَجُل مَسيحي بحقه في الزواج من أخرى مع احتفاظه بزوجته الأولى تطبيقاً للشرع الإسلامي على غير المسلمين. ضارباً بقوانين الكنيسة والفقه السليم عرض الحائط. قد أيّدت المحكمة الثانية هذا الحكم[٤]. فتاوى تكفير الأقباط مما لا شك فيه تسبب قلقاً للأقباط، خصوصاً أن مثل هذة الفتاوى لم تأتِ مِن فقهاء عصر المحطات الفضائية،

---

(١) أسامة سلامة. مصير الأقباط في مصر. دار الخيال. سنة ١٩٩٨. ص ٨. عن الأهرام ويكلي وروز اليوسف.

(٢) أوليفيه روا. تجربة الإسلام السياسي. ترجمة نصير مروة. دار الساقي. سنة ١٩٩٤. ص ١٦٩.

(٣) أسامة سلامة. المرجع السابق. ص ٩.

(٤) غالي شكري. أقنعة الإرهاب. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٢. ص ٢٩٨. وكذلك أسامة سلامة. مصير الأقباط في مصر. دار الخيال. سنة ١٩٩٨. ص ١٦٠.

بل يأتي بعضها من أشخاص لهم مكانتهُم في المجتمع الإسلامي مثل شيخ الجامع الأزهر السابق جاد الحق علي جاد الحق [١].

كل هذا بالإضافة لإستبعاد الأقباط من بعض المناصب الهامة والحساسة إذا ما قورن بالنصف الأول من القرن الماضي، الأمر الذي له معناه الواضح. وإن كان من العدل أيضاً أن يُذكر أن أي مسلم له شبه إنتماء لأي تيار إسلامي او سياسي متطرف او مخالف سوف يُستَبعَد أيضاً من الوظائف العليا. إن اختيار المواطن للوظائف العليا لا يتم على أساس الكفاءة والأمثلة على ذلك كثيرة [٢].

إذا كانت العلمانية تفصل الدين عن الدولة، فمصر لم تكن وغالباً لن تكون دولة علمانية، ولكنها كانت وستكون دولة مدنية. الدين هو أحد مكوّنات الدولة المصرية الأساسية. المسيحية المصرية تقسم الناس إلى رِجال الدين والعلمانيين. ما تقصده الكنيسة بذلك أن العلمانيين هم فِئةٌ غَير رجال الدين ليس أكثر. إن بعض من يرفع شعارات الإسلام السياسي يعلمُ تماماً أن المجتمع الراهِن ليس من العلمانية في شيء. لقد أدلى السيد رئيس الجمهورية في حديثٍ نُشِر في الجَرائد المِصريّة في ١٨ أكتوبر ١٩٨٤ "إذا كانت السودان قد أعلَنَت شكلاً دينياً لِنظامها، فإن هذا الشكل هو ما تسير عليه قوانيننا إذ ٩٨ ٪ من قوانينا نابعةٌ من الشريعة الإسلامية ... باقي القوانين بالنسبة لنا تعديلها يحتاج إلى الكثير من الإجراءات [٣].

---

(١) محمد سعيد العشماوي.جريدة الأهالي. ١٠ أبريل. سنة ١٩٩٦.

(٢) هاني لبيب. المواطنة والعولمة. الأقباط في مجتمع متغير. دار الشروق. سنة ٢٠٠٤. ص ١٥٩.

(٣) محمد سعيد العشماوي. الإسلام السياسي. دار سينا. ١٩٩٢. ص ٢٢١.

العلاقة مع الآخر وتغير العقل

العلم الحديث والأقليات، التغيرات السيكولوجية والفسيولوجية التي تطرأ على تصرفات الجماعات، استخدام العلوم الحديثة لتفهم ولحل وتفادي مشاكل الأقليات.

مما لا شك فيه الآن أن بعض الأقباط والمسلمين يكرهون بعضهم بعضاً بسبب اختلاف الدين، أو هكَذا يبدو. كيف لأصدقاء أو جيران في وطن واحد أن يكرهوا وينقلبوا على بعضهم حتى أنهم قد يقتلون بعضهم بعضاً ؟ أمثلة على ذلك أكبر من أن تُحصَى في تاريخ الإنسانية. مشاكل كان من الممكن غالباً أن تجد حلاً سلمياً للكثير منها لو لم يكن هناك خَلل في بَعض تصرّفات الإنسان، أدى بعضها إلى ضحايا تقدر بالملايين. إذا كانت الحرب الأهلية في رواندا هي حربٌ قَبَليّة في بَلدٍ مُتأخِّر، كيف إذن نفسر ما حدث في البلقان في قلب أوروبا المتحضرة أو ما حدث في الحروب العالمية بين الأوروبيين قبل ذلك؟ وإن كان لدى البَعض منا أسبابٌ شَخصيةٌ أو عامةٌ لكراهيةِ الآخر، إلا أن هناك نظريةً عامةً قد تُفسّر بعضاً من ذلك. إن فهمنا هذه النظرية سيساعدنا على تفهُّم جذور حالة الاحتقان الطائفي الموجودة عندنا والسبل إلى حلها. لذلك سأحاول تفسير تلك النظرية وقد سبق ونشر بعض منها بمجلة الهلال [١].

الكاتب وليم هولدنج كَتب قصةً سنة ١٩٥٤ بعنوان "سيد الذباب" – Lord of the Flies تحكي قصة مجموعة من أطفال مدارس انجليزية أعمارهم أقل من ١٥ عاماً كانوا على متن طائرةٍ في رحلةٍ خارج انجلترا لحمايتهم خلال الحرب العالمية. غير أن الرحلة لم تتم، حيث سقطت الطائرة على جزيرةٍ جميلةٍ، وإن كانت مهجورة. نجا أغلب الأطفال إلا أن الكبار لم ينجو. كان بالجزيرة بعض الأشجار المثمرة وسبلٌ للمعيشة.

---

(١) فكري أندراوس. مجلة الهلال. يناير سنة ٢٠٠٩. ص ١٣٠.

يحكي الكتاب قصة الصراع بين الأطفال والخوف من المجهول حتى إن لم يكن له وجود. ثم بدأ الخلاف: لمن تكون القيادة؟ ثم بدأ التعصب ضد من هو مختلف، حتى ولو كان اختلافاً طفيفاً، وأخيراً جاء الصراع بين نداء العقل ونداء الحرب. في فترة وجيزة انقسم الأطفال المتجانسون إلى مجموعتين متعاديتين، قُتِل اثنان من الأطفال وقبل أن يُقتَل الطفل الثالث جاءت حملة الإنقاذ.

كتب وليم جولدنج[1] هذه القصة متأثراً بالحرب العالمية، وبفشل الثقافة الإنسانية. القصة بها الكثير من الرموز، لذلك لم تسترعِ الانتباه في أول الأمر. إلا أنه فيما بعد حصل الكاتب على جائزة نوبل في الآداب وتحولت القصة إلى فيلم سينمائي مرتين، مرة سنة ١٩٦٣ومرة أخرى سنة ١٩٩٠. بعد أن تقرأ الكتاب أو تشاهد الفيلم لا تملك إلا أن تتساءل: ***هل تصرّف الصغار كما يتصرف الكبار؟ أم أن بعض الكبار يتصرفون وكأنهم صغار؟!***

هذا الفصل من الكتاب يتكون من شقين. الأول سيكولوجي عن كيف يتصرف الإنسان تجاه الآخر، أما الثاني فهو عما يحدث في المخ من تغيرات غير وراثية تؤكد اختلاف الآخر ووجوب معاملته على هذا الأساس.

جزيرة قبرص والتي كان تعدادها في السبعينات أقل من مليون نسمة، ونسبة الأمية فيها حوالي ١٠٪ فقط، تعرضت لحرب أهلية أدّت سنة ١٩٧٤ إلى تدخُّل عسكري ثم إلى انقسامها بين الأتراك واليونانيين. أحد أطفال الجزيرة في ذلك الوقت هو فاميك فولكان Vamik Volkan الذي أنهى دِراسَة الطب في تركيا ثم تخصص في الطب النفسي والتحليل النفسي في أمريكا. لقد نجح فولكان وأصبح مرموقاً في مجال الطب النفسي، ولكنه لم ينسَ ما حدث في قبرص.

بدأ فولكان يبحث عن أسباب هذا الخلل الإنساني الذي يحضره لنا الإعلام من كل أركان المعمورة. لقد كتب فولكان العديد من المقالات العلمية عن الأسباب السيكولوجية والنفسية التي أدت وما زالت تؤدي إلى خلل في بعض التصرفات

---

(1) 1954 .William Golden. Lord of the Flies.

الإنسانية والتي تؤدي أحياناً إلى عواقب وخيمة. ألَّفَ أيضاً كتاباً عن الحاجة إلى الاعداء والأصدقاء [1]. وأسس أيضاً دوريةً علميةً عن العقل والتفاعلات الإنسانية وأصبح أول رئيس تحرير لها [2]. الكتاب والمجلة يركزان على أسباب حاجة الإنسان للعدو والصديق، وعلى كيفية حل بعض المشاكل بين المجموعات والدول سلمياً أو تلافي تلك الصراعات قبل أن تتضخم.

اتسع نطاق تلك الأبحاث وتكوَّنت جمعية دولية للسيكولوجيا الدبلوماسية في محاولةٍ لفهم بعض المشاكل بين المجموعات والدول. بدأت تلك الدراسات بما حدث في قبرص بين المسيحيين اليونانيين والمسلمين الأتراك. ولكن المشكلة الفلسطينية سرَقت الأضواء بسرعة، خصوصاً عندما أعلن السادات سنة ١٩٧٧ في الكنيست الإسرائيلي أن ٧٠٪ من الخلاف العربي الإسرائيلي هو خلاف سيكولوجي. اتسع نطاق الجمعية ليشمل مشاكل أخرى كثيرة، وإن كان أهمها الصراع الأمريكي السوفييتي في ذلك الوقت. ثم بدأت الخارجية الأمريكية تهتم بتلك الدراسات وتموّل بعضها.

من الواضح أن الإنسان يحتاج لأصدقاء لأسباب عديدة وواضحة. بعض الناس لظروف كثيرة يحتاجوا لاعداء، ولكن هل حقا هناك أصول علمية لحاجة الإنسان للأعداء؟ هناك أبحاثٌ علميةٌ تشيرُ إلى ذلك وتؤكده. قد يكون تفسيرُ تلك الأبحاث أمراً في غاية الصعوبة، ولكنني سأحاول تبسيطها بقدر الإمكان.

تعود الجذور السيكولوجية لتلك النظرية للطفل في شهوره الأولى. هناك العديدُ من الدراسات العلمية عن كيفية تفكير الطفل في أيامه وشهوره الأولى بدايةً من سيجموند فرويد وحتى الآن، إنهُ الآن علمٌ مستقل (child analysis) يحتاج الطالب للحصول على شهادة في هذا التخصص لقرابة عشر سنوات من الدراسة والتمرين بعد الحصول على بكالوريوس الطب. تشيرُ تلك الأبحاث إلى أن الأطفال في سن مبكرة للغاية يفهمون ويتعاملون مع العالم الخارجي أكثر بكثير مما كنا نفهم في

---

(1) Vamik Volkan. The need to Have Enemies and allies, Published by Jason Aronson Inc. 1988.

(٢) دوريـــــــــــة Mind and Human Interaction. International University press. Inc

الماضي. إن تلك الفترة لها تأثيرٌ باقٍ ومستمرٌ في حياة الإنسان. الطفل في شهوره الأولى يعتبرنفسه امتداداً لما حوله، ويكاد يعتبر نفسه والأم أو المرضعة كياناً واحداً. بعد حوالي ثمانية أشهر يبدأ الطفل في التعرف على ما هو مختلف عنه، مثل الأم أو المرضعة. تنتابُ الطفل حالة من القلق عندما يواجه ما هو مختلفٌ عن المألوف وخصوصاً ما هو خلاف الأم. يختلف ذلك من أعضاء العائلة المقربين إلى الغرباء. حالة القلق هذه تعد بداية لمعرفة ما هو الطفل وما هو الآخر. هذا القلق أو البكاء أو الغَضَب يعتبرُ وسيلةً للدفاع لطفل غير قادر على الدفاع عن نفسه بصورة أخرى. يسمي علماء النفس تلك الفترة"Stranger Anxiety". هذه القدرة على التمييز بين المعروف وغير المعروف أو ما يسبب القَلَق واضحة في الأطفال لعدم قدرتهم على إخفاء مشاعرهم كما يستطيع الكبار. يستطيع عقل الطفل بعد الشهور الثمانية الأولى تقريباً أن يتمكن من القدرة على التمييز مثلاً بين الأم وما هو خلاف الأم. هذه الثنائية في التفكير هي أساس الأنا والآخر أو ما هو وما هو غير ذلك. تلك الثنائية dichotomy تُعَبِّر عن كيفية قيام المخ بمهامه.

من السهل على المخ أن يدرك التناقض بين النور والظلام، المرتفع والمنخفض وهكذا. تأخذ تلك الثنائية فيما بعد شكل الخلاف بين اليمين واليسار السياسي، الحاكم والمحكومين، العمال وأصحاب العمل، الأقباط والمسلمين.. وهكذا. عندما يكبر الطفل يتعلم كيف يربط ما بين تلك الثنائية وبعض القيم مثل الحب، الكراهية، الدين، اللغة، الجنس، الخير، الشر، والثقافة بوجهٍ عام.

نتعلم منذ الصغر أن هناك حدوداً وأننا نعيش في إطار مما هو مباح وما هو محرم. المباح لا اعتراض عليه، أما المحرم فنحاول أن نتعايش معه أو نتحايل عليه. زميلٌ أو جارٌ لا نتقبله نستطيع غالباً أن نتعايش مع ذلك. ولكن ماذا لو كره شابٌ والده مثلاً ؟ إنه من الصعب أن يعبِّر الشاب عن ذلك مباشرةً فيعكس الوضع ويقول إن والده هو الذي يكرهه. يسمي علماء الطب النفسي تلك الظاهرة "الإسقاط" externalization او projection والتي تعني إحالة أسباب القصور أو الفَشَل إلى عوامل أخرى خارج الذات من أجل إعفائِها من المسئولية.مثال آخرٌ يتطرق لذهني هو: لماذا

يفرض المجتمع الذكوري عندنا خِتان المرأة وتغطية جسمها وكأنه عورة، رغم أن الرجل من حقة أن يرتدي ما يشاء؟ يبدو لبعض الرجال أن المرأة إن لم تُختن وإن لم تكن في غاية الاحتشام فستكون في حالة دائمة من الشبق وقد تَغري الرجال لمزاولة المحظور، بل قد تغتصب الرجال إن استطاعت لذلك سبيلا!! هذا خلاف الواقع تماماً، حيث إن الرَجُل دائماً أكثر رغبة في الجنس من المرأة بحكم اختلاف مستوى الهرمونات. هرمون testosterone المسئول عن الرغبة الجنسية يوجد بتركيز أعلى في الرجال عن النساء. ماذا يفعل الرجل إزاء عجزه عن السيطرة على شعوره ولعدم قدرته على أن ينال الجنس مع من يشاء حين يشاء ؟ يلجأ الرجل لتوجيه اللوم للمرأة ويفرض عليها الكثير من القيود حتى لا تثيره. قد يكون أفضل وصف لكلمة externalization كما يعنيها العلم هو: "إننا ننشر غسيلنا القذر على حبال الآخرين وكأنه لا يخصنا. نراه ونلوم الجار على هذا الغسيل القذر". أمثلةٌ من هذا النوع كثيرة تجدها في الصراعات بين المجموعات للاختلاف الديني أو اختلاف اللون أو اللغة أو الثقافة والتاريخ أو الاختلاف العرقي بشكل عام.

كيف يتطور عقل الطفل القادر على التعبير المبكر عن الرضا أو القلق فقط إلى النضوج في التفكير؟ مرحلة الطفولة الأولى تسمى "اد" Id وهي مَرحلة التصرُف باندفاع وبدون تفكير impulse لتحقيق النزوات وهي مرحلة طفولة العقل. تأتي بعد ذلك مرحلةٌ يبدأ فيها الإنسان بالشعور بالاستقلالية ولو إلى درجة ما، والتي تسمى الأنا أو الذات وهي الإيجو (ego). المرحلة الأخيرة هي مرحلة الضمير والتي تسمي سوبر إيجو (super ego). عقل الإنسان او ضميره الآن قادر على أن يوازن بين التصرف بالاندفاع لتحقيق الشهوات والرغبات وبين الضمير أو أن الإيجو قادر على أن يوازن بين الإد والسوبر إيجو. عقل الإنسان لا يتم تكوينه إلا في أوائل العشرينات من العمر ويحتفظ دائما بالصفات الثلاث المتصارعة السابق الإشارة إليها. يتأثر التكوين العقلي للطفل بتأثير العائلة والمجتمع ومن الممكن للطفل أن ينتمي لأي ثقافة لو تغيرت الظروف البيئية. أما من الناحية الوراثية فالاختلاف بين الناس جميعا لا يزيد على ٠.٠٣٪ وهو اختلافٌ ضئيل للغاية.

عندما يكبُر الطفل ويتحول إلى إنسان ناضج، تعبر الاد (Id)عن رغبة الإنسان

في السيطرة والهيمنة والاستبداد وتحقيق النزوات. الإنسان الذي تسيطر عليه هذه الصفات لو تحققت له القيادة فسيمثل خَطَراً على المجموعة وعلى الآخرين. هذا الإنسان لن يتوانى عن أن يخيف المجموعة أو الدولة من الآخر أو الآخرين واستغلال ذلك الخوف لتحقيق أهدافه الشخصية.

لقد لمَّحت سابقاً إلى أصول الأنا والآخر، لعلنا نعود إلى المثال القبرصي. الثقافة القبرصية كانت متجانسةً والفروق بين القبارصة الأتراك واليونانيين كادت تكون قاصرةً على الخلاف الديني. في وقتٍ مُعيّن ولأسباب سياسية جسّدَت تلك الخلافات بصورة أكبر بكثير مما تستحق ليصبح الخلاف هو الأساس في التعامل. إذا وصل الخلاف لهذه الدرجة تصبح الحلول المقبولة لحل النزاع أمراً صعباً. أصبح الخلاف- الذي في أساسه بسيطٌ- يأخذ صوراً أخرى واضحة. في الملابس مثلاً، أصبح بنطال اليونانيين أسود بينما بنطال الأتراك أحمر. ثم امتد الخلاف حتى لنوع السجائر، ثم تصاعدت الأمور بعد ذلك لتنتهي بالتدخل العسكري ثم الانفصال. أمثلة من ذلك القبيل كثيرة. في إيرلندا الكاثوليك يدهنون أبواب بيوتهم باللون الأخضر بينما البروتستنت يدهنونها باللون الأحمر وإن كان الصراع بينهم بدأ يتراجع مؤخراً، إلا أن الخلاف موجود ومن الممكن أن ينشط من جديد. في مصر بعض نساء الاقباط يتحلين بالصليب بينما بعض المسلمات محجبات، بعض الرجال المسلمين يتحلون "بالزبيبة" واللُحى او الجلاليب. هذا بالاضافة الي اختيار اسماء لها مدلول ديني، بعض الاقباط يختاروا اسماء الشهداء القدامي لاطفالهم لتاكيد الهوية الدينية. في هذا القبيل يوجد خلافٌ بين بعض المسلمين، كما يوجد خلافٌ بين بعض المسيحيين. وطبعاً يوجد خلاف بين كل من المسلمين والمسيحيين. استغلال التدين الشكلي لتجسيم وتضخيم تلك الخلافات هو لتأكيد هوية دينية للفصل بين المجموعات المتجانسة لصالح قلة منتفعة سياسياً أو اقتصادياً أو لتحقيق الشهرة. هناك أمثلة كثيرة لمجموعات بشرية متعادية كانت في أوقات مختلفة متجانسة تماماً في المسكن والحياة الاجتماعية كما كان الأطفال في رواية "وليم هولدنج" السابق الإشارة اليها.

الهوية العرقية مثل الثقافة، اللغة، التاريخ، الدين، واللون من السهل أن تميز ومن الممكن أن تنشط دون أن يحدث صراع ولكن لا يحدث صراع دون أن تنشط الهوية. يتوقف ذلك على مدى وعي المجموعة وخصوصاً القيادة حتى لا تكون الهوية مهددةً للآخر. في الهند وبين الهندوس في مناطق معينة توجد مثل تلك الفروق، ولكنها لا تؤدي بالضرورة إلى خِلاف كما هو الحال في مناطق أخرى.

كل ذلك يختلف عن الصراع الآتي من الاحتلال المرتبط بالجشع وحب السيطرة. فهنا يكون العدو واضحاً والصراع لا بديل له. وإن كان العامل النفساني مهماً لتقريب وجهات النظر لحل الصراع ولكنه لن يكون مثلاً ٧٠٪ كما وصف السادات الخلاف العربي الإسرائيلي.

ستكون هناك دائماً خلافات بين المجموعات أو الدول. كيف تتحول تلك الخلافات خاصةً بين المجموعات إلى صراع؟ الصراع يبدأ في أساسه من نقص في حاجات الإنسان الأساسية سواء العضوية أو النفسية. في مثل هذا المناخ تظهر قيادات تثير الخوف من خطرٍ ليس بالضرورة حقيقياً أو مهماً. هدف هذه القيادات هو تعبئة الناس نحو هدفٍ مشترك يستقطبهم ضد الآخرين الذين يعتبرون مصدراً للتهديد بهدف التخلص منهم أو تهميشهم. يساعد على ذلك غياب الديمقراطية والوعي العام.

الإنسان في علاقاته الفردية يتحكم فيه ضميره وبعض المثل والأخلاقيات. في حالة تحول الخلاف إلى صراع مصحوب بالغوغائية كما حدث في رواندا والبلقان مثلاً ينخفض مستوى الأخلاق، حيث إن المسئولية توزع على الجماعة وليس على الفرد.

إن النقص في الحاجات الأساسية للإنسان، بالإضافة إلى الخوف يعدان من أهم العوامل التي تؤدي إلى الصراعات التي قد تنقلب دمويةً. الغرب- وخصوصاً الحكام الأمريكيين- أشاعوا الخوف من الشيوعية، وقبل ذلك كان الخوف يأتي في أمريكا من السود، وقبلهم الجنس الأصفر، وقبلهم السكان الأصليون والذين سموهم الهنود الحمر. ثم جاء الخوف من الحرب النووية. أما الآن فالخطر يأتي من العرب

أو المسلمين. يسمح ذلك الخوف للفئة المسيطرة لتحقيق اهدافها. هل هناك خوفٌ متبادلٌ بين بعض الأقباط والمسلمين؟ أعتقد ذلك، وقد أشرت لبعض ذلك في المقدمة، ويجب ان لا نغفل العامل الاقتصادي الذي تعاني منها مصر الان وان كان احد العوامل المهمة، إلا انه ليس العامل الوحيد.

كيف نتعامل مع تلك الخلافات أو الصراعات لتلافيها؟ أهم العوامل التي يجب الاهتمام بها هي: ***أولاً زوال الشعور بالخوف من الآخر.*** تشير أغلب الدراسات إلى أن أغلب ذلك الخوف في أساسه ليس حقيقياً. فلا الأقباط مثلا يمثلوا خطراً فعلياً على المسلمين ولا يمثل المسلمون خطراً فعلياً على الأقباط رغم بعض حوادث العنف، لأنها ما زالت حوادث فردية. ***وثانياً: تلبية حاجات الإنسان الأساسية.*** بالإضافة إلى ذلك الاهتمام بتعليم: من هو الآخر، تعليم التسامح، الاعتراف بأخطاء الماضي، تدريب قيادات في المجتمع المدني لتحويل صراعات العنف إلى خلافات سياسية، تكوين أحزاب غير عرقية أو دينية للتجميع بدلاً من التفريق، وأخيراً احترام القوانين الدولية لحقوق الإنسان وحماية الأقليات.

أما إذا انفجر الصراع وراح ضحية ذلك الكثيرون، فالاحتمال بالتقسيم وارد، ولكن في حالة الأقباط والمسلمين فهو مستحيلٌ وضربٌ من خيال ولا يفكر فية إلا إنسانٌ جَاهل أو مجنون أو لأطمَاع سياسية. ومع ذلك عندما قُسِّمَت شبة القارة الهندية إلى الهند وباكستان، راح ضحية ذلك ما بين نصف مليون إلى مليوني قتيل، خلاف التشتت والضياع لملايين أخرى. ما زال التوتر بين الهند وباكستان قائماً لليوم، والآن كلتا الدولتين لديها قنابل ذرية. التقسيم ليس بالضرورة حلاً مُرضياً، نري ذلك بوضوح أيضاً في الصراع العربي الإسرائيلي.

لقد قال أحد المفكرين " لقد قابلتُ الأعداء.. إنهم نحن ". أو كما قال الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيبٌ سوانـــا

صدر في العام الماضي كتابٌ قيم عن العقل السياسي[1]. كاتب هذا الكتاب

(1) George Lakoff. The Political Mind. Penguin Group. 2008.

أستاذ في علم اللغات بجامعة كاليفورنيا ببيركلي. الكتاب يبحث عن إمكان كيفية تغيير المخ ليؤثر في تفكير الناس لتحقيق مصالح سياسية او اجتماعية، ويعطي أمثلةً عديدةً لذلك تهم القارئ الامريكي. ولكن الكتاب لة أهمية خاصة في تفسير كيفية عمل المخ، فهو يفتح لنا مجالات كثيرة في فهم الأنا والآخر وكيفية تحسين مفهومنا تجاه الآخر[1].

مع حركة التنوير الأوروبي وحتى حديثاً جداً كان الاعتقاد السائد أن قرارات الإنسان تعتمد على الوعي والتفكير المنطقي، وأن العواطف تعيق اتخاذ القرارات السليمة. في ربع القرن الأخير، أثبت علماء الأعصاب بالتجارب العلمية أن كثيراً من قرارات الإنسان ليست بالضرورة مبنيةً على الأسباب المنطقية، بل أن الكثير منها مبني على العقل اللاواعي (the unconscious) والمبني على خلفية الإنسان الثقافية والدينية والعاطفية. بل إن العواطف ترشدنا في اتخاذ قراراتنا! كيف نفسر ذلك تفسيراً مبسطاً؟ في جسم الإنسان هناك أعداد هائلة من الخلايا العصبية يصعب حصرها (أكثر من ١٠٠ مليار) والتي تسمي نيرون (neuron) بها زوائد عصبية تسمي dendrite قد يصل طول بعضها إلى نصف متر أو أكثر. هناك أيضاً شبكات عصبية كثيرة عبارةً عن أعداد هائِلة من الخلايا العصبية المرتبطة ببعضها عن طريق نقط ارسال واستقبال تسمي synapses (يوجد منها حوالي ١٠٠ وحدة في كل خلية عصبية)، هذه الشبكات موجودة في كل جسم الإنسان ومتصلة بالمخ. تعمل هذه الخلايا والشبكات فيما يشبه الشَبكات الكهربائية وهي تعمل بسرعة فائقة. فمثلاً لو داست قدم الإنسان على سن مسمار لرفع قدمه فوراً. خلال أقل من الثانية تذهب إشارة من خلايا أعصاب القدم للمخ الذي يصدر الأمر برفع القدم فوراً. لم تكُن هناك فرصة للتفكير. أي أن المخ يعمل أحيانا بدون تفكير.

هذا من ناحية، من ناحية أخري يعمل المخ في إطارات أو شبكات منفصلة أحياناً

---

(١) نشر مضمون ذلك الكتاب في مجلة الهلال. فكري اندراوس. اوباما واقباط المهجر. مجلة الهلال. مارس سنة ٢٠٠٩. ص ٥٧.

ومتداخلة أحياناً أخرى. وأقصد بالإطار او الشبكات أنهُ مجموعة من الصور والأفكار موجودة عند نقط الاستقبال والإرسال العصبية (synapses) تُستدعَى بسرعة إذا اقتضى الأمر. فمثلاً كلمة "جمال" لا تعني الجمال المطلق، بل ترتبط ببعض الصفات الأخرى، واسترجاع بعض الذكريات والصور وبدون تفكير. بينما مثلاً تشويه صورة الرسول- كما حدث في أوروبا حديثاً- استدعت لدى البعض الكثير من الغضب والهياج والثورة، ولم يكن ذلك التصرف نتيجة تفكير منطقي، بل كان تلقائياً لدرجة كبيرة. هناك تصورات خاطِئَة عن الإسلام، غير أن التصرفات التلقائية للبعض – بل الغوغائية- أكدت تلك التصورات الخاطئة. كان من باب أولى أن نَذهَب للقضاء ونقول رأينا نقدياً وأن ندافع عن هذا الحق في دول تحترم حرية الرأي والتعبير. إن هذا التصرف التلقائي "العنيف" أكد صورة المسلمين السلبية لدى البعض في الغَرب. لماذا تصرّف بعض المسلمين بطريقة أضرت بهم وبصورتهم حتى في الغرب الذي يعيشون فيه؟

مثالٌ آخر من أمريكا، وهو ربط احتلال العراق بالحرب ضد الإرهاب رغم عدم وجود أي دليل لأي علاقة بين القاعدة وحكومة صدام حسين. لقد أصبحت حرب العراق (أو حقيقةً احتلال العراق) في عقول الكثير من الأمريكان مجازاً للحرب ضد الإرهاب. في السنين الأولى للحرب، اعتقد الكثير من الأمريكان أن صدام حسين مسئول عن حوادث ١١ سبتمبر. لقد دخل ذلك في مخ الكثير من الأمريكان على الأقل في فترة حكم بوش الأولى بفعل الحديث الدائم في وسائل الإعلام عن الارهاب وربط ذلك بالإسلام وبحكومة صدام حسين. ماذا نقصد بدخول تلك الأفكار في مخ الكثير من الأمريكان؟ يقول لنا علماء الأعصاب إن الفكرة تدخل في تركيب المخ عند نقط الارسال والاستقبال العصبي في المخ (synapses) فيما بين العصبات المخية (نيرون) عن طريق ما يمكن أن نسميه للتبسيط تفاعلاً كيمائياً أو سريان كهرباء بفعل الشبكات العصبية الكثيرة والمتصلة. لا تختلف طريقة عمل المخ في ذلك كثيراً عن عمل المخ حين نتعلم من المجتمع أو في المدرسة. أي أن المخ يتغير بالتعليم. حين نتعلم الحساب والكيمياء في المدارس نتعلمه عبر خلفية محايدة. كما نتعلم الحساب والكيمياء في المدرسة ايضا نتعلم أن نحب أو نكره. ولكن عندما يكون الموضوع مرتبطاً بالدين والإيمان فهناك خلفية قديمة وراسخة أوجدتها العائلة والمجتمع قبل الذهاب للمدارس. التكرار والخطاب الديني يرسخ

تلك المفاهيم حباً كانت أو كراهية، هذا التكرار يقوي من فعل الشبكات العصبية ويرسخها أكثر ليؤكد صورةً ما. مثال واضح لذلك هو ربط حوادث الإرهاب بالإسلام في الإعلام الغربي.

ليست كل الحوادث أو ما نرى- وهو كثير جداً- يثبت في المخ. ولكن تلك الحوادث أو المعلومات التي تستقر في المخ بالتكرار سيكون من الصعب التخلص منها أو من تأثيرها. لكن من الممكن للمخ إذا تغيرت الأوضاع أن يتخطاها ما لم تكن راسخة فيه.

كل تلك الشبكات العصبية متأثرة أيضاً باللغة بطريقة مباشرة، وقد أوضح ذلك مؤلف كتاب (العقل السياسي) وأعطى أمثلةً عديدة لذلك. فكما أصبح الإرهاب في عقول البعض مرتبطاً بالإسلام، أصبحت كلمة واحدة مثل قبطي أو مسلم، تستحضر لدى البعض إطاراً معيناً. قد يكون الخوف، الحب، التقدير، المساندة، أو الكراهية والتعصب.. وهكذا. ولكن بالنسبة لكثيرين قد لا تستحضر أكثر من مدلولٍ ديني. او المفروض انها لا تستحضر اكثر من مدلول ديني.

لقد تجمعت صورة ذلك الإطار لدى بعض-أو كثير- من الأقباط والمسلمين خلال سنين طويلة بداية من السبعينات، أو تحديداً بعد حرب ١٩٦٧، ومع المد الإسلامي السياسي، والذي ارتبط بعضه بالإرهاب. لم يدرك بعض الأقباط أن الإرهاب الديني هو إرهاب للجميع، وتكفير المسلم أيضاً هو أحد صوره، بل تكفير المجتمع بأكمله أحياناً. ما حدث في السبعينات من الاعتداء على أماكن العبادة، وإصدار بعض الفتاوى التي تجيز قتل النصارى والاستيلاء على أموالهم، كل ذلك وما شابهه-وكان كثيراً- سبَّب ذعراً شديداً بين الأقباط. قابل ذلك هجومٌ من بعض أقباط المهجر تخطى ما حدث وهاجم البعض الإسلام كدين يحض على العنف، ناسياً أو جاهلاً بالتاريخ أو منتقياً منه ما يؤيد وجهة نظره. كان رد فعل بعض المسلمين مساوياً، منها مثلاً النصوص التكفيرية في مواجهة المسيحيين، سيطرة الأقباط على أمور المال والطب ومحاولة إفقار المسلمين، بل وربط البعض بين الأقباط ومسيحيي الغرب، وذهب البعض أيضاً إلى التساؤل: ماذا يفعل الأقباط في مصر؟ فهذه ليست بلدهم! (محمد سلماوي في عموده بجريدة مصر

اليوم تعرض بسخريةٍ لذلك الاتهام، والمؤسف حقاً أن البعض من مسيحيين ومسلمين لم يدركوا أنه كان يسخر من ذلك الاتهام). بدأت تنتشر صورٌ نمطية مشوهة عن الذات والآخر في أوساط المسيحيين والمسلمين على السواء. لقد دخلنا في فترة وصفها البعض بأنها "تجريف للعقل". بدلاً من أن ننظر على أن الوطن يمر بفترة احتقان يجب علينا جميعا أن نساعده في تخطيها، وفي غياب حوار حقيقي في مناخ ديمقراطي، تراجعت مساحات الفهم المتبادل بين بعض أو كثير من المسيحيين والمسلمين. اتجه البعض للكراهية والسلبية والتي تستجمع وقودها من الخطاب الديني المتطرف من الناحيتين. استمرّ ذلك، وتكرر وقوع الحوادث غير المألوفة للمصريين لفترة غير قصيرة. كانت نتيجة ذلك أن "تغيَّر مخ البعض" وارتبطت صور نمطية غير واقعية لدى الطرفين وأصبح من الصعب تغييرها. لعلي هنا استرجع مقولة الشيخ أمين الخولي مرة أخرى" إن كان العقل خاوياً تستقرُّ فيه الأفكار". لقد أصبحت الكراهية وعدم الثقة من سِمات تصرفات البعض، وإن كانت غالباً تحت السطح، نرى فقط القليل منها.

كما ذكرت سابقاً أن تغيير المخ له تأثير طويل المدى، ولكنه بالطبع ليس وراثياً. خلاصة ما يقوله لنا العلم الحديث إن الإنسان الذي يكره أو يتعصّب ضد الآخر غالباً لن يتغير شعوره إذا ترسخت تلك الكراهية في التفكير. فإذا كان الأمر كذلك فما هو الحل ؟ الحل يكمن أولاً في دراسة: ما هي صورة المسلم الحقيقية لدى المسيحي، وما هي صورة المسيحي الحقيقية لدى المسلم؟ هذه الصورة أصبحت مشوهة كثيراً، بل وبها الكثير من الأوهام والأساطير والمغالطات، إما المقصودة أو التي تتم عن جهل شديد أحيانا. إذا صُحِّحَت تلك الصور منذ الصغر وفي الأسرة أولاً، فمن الممكن أن نُوجِد جيلاً جديداً أكثر واقعية، جيلاً يحترم الآخر وإن اختلف معه. للإعلام دورٌ في غاية الأهمية وخصوصاً التلفزيون حيث إن العالم الآن سيطرت عليه الكلمة المرئية أكثر بكثير من الكلمة المكتوبة. وجب علينا أن نهتم بالتعليم المدرسي وتدريس تاريخنا كله بموضوعية. إلمامنا بالتاريخ سواء القبطي أو الإسلامي في مراحل تعليمنا، وخصوصاً الأولية ضعيفٌ في أحسن الأحوال. تاريخ الوطن ليس تِركةً تخضع للحذف والتعديل، بل والتلفيق أحياناً. هناك قصورٌ شديدٌ وواضِح في تدريس تاريخ مصر القبطي في التعليم العام. أعتقد أن كل ذلك واضح وليس من السهل إصلاحه إلا إذا كانت الحكومة

جادةً في النظر إلى جذور الاحتقان الطائفي. هذا هو الطريق الوحيد. فيما عدا ذلك فما نفعله هو من قبل المسكّنات التي لن تشفي.

أعتقد أنه لم تكُن هناك توعية كافية أو تقدير لخطورة التلاعب بالدين على سلامة الوطن. لقد أثبتت تجارب المجتمعات والأمم أن مواجهة التطرف بالتطرف لا تحل المشاكل، وتنتهي بخسائر فادحة للطرفين. قد يؤيد البعض منا التطرف الديني، ولكني مازلت أعتقد أنهم قِلة ولكنها للأسف قلة عالية الصوت يتزايد تأثيرها. مصر مازال بها قدرٌ لا يستهان به من الرواسب الحضارية، ولكن إلى متى نستطيع أن نعتمد على ذلك ؟

الخاتمة

منذ عهد السادات اهتزت العلاقات بين المسلمين والأقباط. إن معظم المفكرين يلقون باللوم على الحقبة الساداتية، ولكن هذا جزءٌ من الحقيقة. هناك عوامل اقتصادية لا يبدو أنها ستنفرج في الأمَد القريب، هناك مدٌّ إسلامي ينتاب غالبية الدول الإسلامية، مدٌّ إسلامي يحجب القومية العربية تتزعمه السعودية بالتيار الوهابي المتخلف، ويلاقي صدىً في مِصر. هناك رواسب تاريخية يجب دراستها والاعتراف بها وعلاجها، طالما أن بعض المسلمين يعتقدون أن الاقباط امتدادٌ لمسيحية الغرب وأنهم طابورٌ خامس، وطالما أن بعض المسلمين يعتقدون أن الأقباط ليسوا جزءاً من نسيج الأمة، وطالما يظل الأقباط مهمشين فستظل حالة الاحتقان مهددة بالانفجار لأي سبب مهما كان صغيراً. لقد قال الكاتب الصحفي إبراهيم عيسي "لقد أصبحت جماعةً ضخمةً من المسلمين على قناعة أن المسيحيين كفَرَة. وهناك جماعةٌ أخرى من المسيحيين المصريين تعصبت وتطرفت وأخرى شعرت أنها فقدت مبرر وجودها بمصر ". ودلل ابراهيم عيسي على ذلك بكثيرٍ من الأدلة التي لن أتعرض لها، فهي واضحة لكل من يريد أن يرى. يلاحظ إبراهيم عيسي أن كثيراً من قطاعات وشرائح الشعب المصري قد تربت على نَفي الآخر وفكرة الحزب الواحد والتنظيم الواحد والرأي الواحد والدين الواحد. لقد أصبحت هناك مسافة بين الأقباط والمسلمين، مسافةٌ ليست هينة، هناك شعورٌ غامِض بين الأقباط يولّد الخوف من سيطرة جماعة على الأخرى[1].

إن ضمان حقوق وسلام الأقلية لن يكون بالقوانين أو الدستور كما سبق وذكر سلامة موسي. إن الضمان الحقيقي يكون أولاً بتحسين التعليم، إن الأقباط جزءٌ من نسيج هذه الأمّة، إنهم ليسوا أقلية نزحت من الخارج. يتحقق التساوي باندماج الأقلية

---

(١) أسامة سلامة عن ابراهيم عيسي. مصير الأقباط في مصر. دار الخيال. سنة ١٩٩٨. ص ٢٠.

في الأكثرية وليس بالانعزالية بل بتشجع الأقباط على أعمال الخدمة العامة. الخدمة العامة تبدأ في مجال العمل ومجال السكن قبل الترشيح للمجالس النيابية. بعض اقباط المهجر يجب ان يكونوا اكثر مسؤلية وان يفكروا في مصر ككل. وانا اقول "بعض" اقباط المهجر واعني ذلك، فان اغلب الاقباط شانهم شان اغلب المسلمين يمثلوا الاغلبية الصامتة حتي الان. ان من يقول "الشعب القبطي" يجب ان يعلم انة مصطلح طائفي للتفريق. هناك شعب واحد هو الشعب المصري.

لقد تخطى الأقباط والمسلمون ظروفاً أصعب بكثير مما نراه الآن. يجب أن نستعيد ثقتنا بأنفسنا وأن نعرف تاريخنا بموضوعية. إن مشاكل الأقليات عويصة، وستحتاج لزمن طويل لحلها، ولن يجدي استيراد حل من الخارج لأنه لا يوجد ما يماثل حالتنا.. هذه كلها حلول طويلة المدى ولكن لا أعتقد أنه يوجد بديل عنها.

رغم وجود منافسة بين المسيحية والإسلام، فمما لا شك فيه أن بقاء أقليات مسيحية لا يتسهان بها في الشرق الأوسط وخصوصاً في مصر هي شهادةٌ لصالح الإسلام المصري والمسيحية المصرية ولصالح شعوب المنطقة ذات الحضارات القديمة بصرف النظر عما نراه الآن. لأن ما نراه الآن له أسبابٌ وظروفٌ كثيرةٌ داخليةٌ وخارجيةٌ. لقد عاش أقباط مصر مع مسلميها في وئام في أغلب فترات التاريخ ما عدا فترات ضعف الدولة وضعف الحكام ووجود تهديد خارجي ليس بالضرورة عسكريا فقط بل ثقافيا ايضا. إن المسيحية الشرقية عموماً أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الحضارة العربية الإسلامية بالرغم من أسبقية المسيحية على الإسلام تاريخياً. الواقع يشهد أن المسيحية الشرقية عموماً عاشت في ظل الحضارة العربية الإسلامية وأنتجت في عصورنا الحديثة أشخاصاً من أمثال ميشيل عفلق، مكرم عبيد، جورجي زيدان، نظمي لوقا، لويس عوض، جورج حبش، سلامة موسي، يوسف شاهين، وكثيرين غيرهم. المطلوب الآن ترسيخ هذا المفهوم أكثر من أي وقت مضى حتى لا تظل الهوية القومية حكراً لأي جماعةٍ سياسية.

يخطئ من يعتقد أن هناك علاجاً سريعاً لما يحدُث في برّ مصر. إن الإنسان الذي يكره الآخر لاختلاف دينه، غالباً لن يتغير اعتقاده كما سبق وأشرت نتيجة التغيرات

التي تحدث في المخ. العِلاج الأساسي علاجٌ طويل المدى ويجب أن يكون مستمراً، علاج يعتمد على التعليم في المدارس. هل هذا ممكن وهل تريد أو تستطيع الدولة ذلك؟ لقد ذكر ابراهيم عيسي في المرجع السابق أن هناك شبه استيلاء كامل على مهنة التدريس، إن ١٦ من قادة ما عرفوا بالجماعات الإسلامية في الصعيد كانوا مدرسين في المرحلة الابتدائية. الإعلام الهادئ المستنير من الممكن أن يخفف من حدة الاحتقان الطائفي وخصوصاً الإعلام المرئي وخصوصا الفني منه من أمثال مسلسل "خالتي صفية والدير" لبهاء طاهر. لقد نشرت مكتبة الاسرة كتاباً لميلاد حنا[١] عن قبول الآخر، وهو كتابٌ لا بأس به، ولكن ثقافتنا أصبَحَت ثقافةٌ لا تَقرأ. هناك مجالان أساسيان للتأثير هما المدرسة والتلفزيون. إذا كانت الدولة جادة في تلافي اسباب الفتنة الطائفية فيجب ان يعاد النظر لنظام التعليم الديني عندنا. إن نظام التعليم الديني الحالي هو بذرة التطرف الذي نراه. يجب علينا جميعاً أن نُراعي أن مصر تمر بمحنة تحتاج لكل طاقاتنا دون أن تستنفدها خلافات طائفية ترضي غرور وطموح البعض منا..

(١) ميلاد حنّا، قبول الآخر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٩.

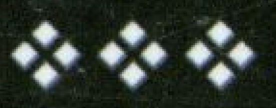
فهرس الاسماء والمراجع

الاسماء والمراجع الاجنبية

رقم الإيداع : ٧٣١٠ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي : ٤ - ١٣٩ ــ ٢٢١- ٩٧٧

لقد ترددتُ كثيراً قبل كتابة هذا الكتاب لما لموضوعه من حساسية واحتمال الانتقاء او التأويل الخاطئ وأتمنى ألاّ يحدُث ذلك. أعتقد أنه لا مفر من إعادة النظر إلى تاريخ علاقة الأقباط بالمسلمين حتى نستطيع أن نتخطى بعض المشاكل التي أصبحت جزءاً من حياتنا والتي أصبحت سهلة الاستفزاز. إنني أكتب هذا الكتاب بموضوعية قدر استطاعتي. قد يختلف معي البعض، وأتوقع ذلك، فالحقيقةُ ليست حكراً على أحد، ولكن لعلنا نكون موضوعيين في اختلافنا. في غياب الموضوعية تندفع الأكاذيب والأساطير والمفتريات لتملأ عقولنا. إن موضوع هذا الكتاب استحوذ على قدر كبير من تفكيري ولسنين عديدة، وها أنا أقدمه للقارئ كمصري أولاً وأخيراً ولعلني أكون وُفقت في أن أكون موضوعياً، ولكن الحكم الأخير هـو القارئ.



فكري اندراوس:

- حصل علي بكالوريوس في الزراعة من جامعة الاسكندرية.
- دكتوراه في الكيمياء من جامعة هيوستن.
- عمل في NASA وفي شركات الكيمائيات.
- نشرت له العديد من الابحاث.
- نشر بالعربية بعض المقالات في مجلتي الهلال والكتب





دار الثقافة الجديدة

